
ستيفان زفايغ
ماري انطوانيت
دار أسامة

ماري اونطوانيت

الطبعة الأولى
٢٠٠٣م

الجمهورية العربية السورية
دمشق ص.ب ٤٣٠٦ - هاتف: ٢٢٣٢٣٢٦ - فاكس: ٢٢٤٨١٨٠

ماري أنطوانيت

ترجمة الدار

دار أسامة

دمشق مجمع فكتوريا التجاري – تلفون : ٢٢٣٢٣٢٦ – ص.ب ٤٣٠٦

مقدّمة

ان كتابة قصة ماري انطوانيت تعني الرجوع الى محاكمة جرت وقائعها منذ قرن ونيف . وهي قصة تخاصم بشأنها المتهمون والمدافعون بعنف شديد . وانما كان المتهمون هم المسؤولين عن جو المناقشة المنفعل اذ عمدت الثورة لكي تطعن الملكية الى مهاجمة الملكة هادفة في شخص المرأة . ولكن نادرا ما تجتمع الحقيقة والسياسة تحت سقف واحد . وهكذا لم يُدّخر اي تخرص ضد ماري انطوانيت ، واستعملت كل الوسائل لسوقها الى المقصلة . فعمدت الكتب والجرائد والمنشورات دون تردد الى الصاق كل الرذائل ، وكل ضروب الانحطاط الخلقي ، والشذوذ الجنسي بـ « الذئبة النمسوية » . وحتى في حمى العدالة ذاتها ، دار المحكمة ، قارن المدعي العام بصورة مذهلة « الارملة كابيه » بأشهر فاسقات التاريخ مثل « مسالين » و « اغريبا » و « فريدبجوند » . ولكن انقلاب هذه الصورة كان على درجة مماثلة من العمق لتسنم سليل بوربون آخر العرش من جديد سنة ١٨١٥ . وللاشادة بالسلالة المالكة فقد اعيد رسم الصورة الشيطانية ، ولكن بالوان زاهية مغرية ، وليس هناك من لوحة لماري انطوانيت ترجع الى ذلك العهد الا وهي محاطة بهالة من التقديس ، ومبرزة كمثل اعلى . وتتابع ممتدحو فضائلها ، كما دوفع بصورة عنيفة عن عفتها التي هي فوق مرقى الظن ، فمجدت لديها روح التضحية شعرا ونثرا ، كما مجدت عظمتها الروحية وبطولتها الخالصة ، واحيط شخص الملكة الشهيدة بطرائف مغموسة بالدموع الغزيرة كانت تنسجها على الاغلب جماعة الارستقراطيين .

على ان الحقيقة النفسية ــ تقترب هنا كما هو الحال غالبا ــ من الوسط الصحيح . فماري انطوانيت لم تكن « قديسة » العهد الملكي ، ولا « عاهرة » الثورة ، بل كانت كائنا وسطا ، امرأة عادية في الواقع ، ليست بالمتوقدة الذكاء ، ولا بالغبية ، كائنا ليس من النار ولا من الجليد ، لا تنعطف نحو الخير ولا تجنح نحو الشر ، وانما هي المرأة العادية بالنسبة

للامس ، كما هي بالنسبة لليوم وللغد . لا تتجاذبها المنازع الشيطانية ، ولا تتعطش للبطولة ، وهي قليلة الشبه ببطلة قصة تراجيدية .

ولكن التاريخ ، هذا الخلاّق ، ليس مطلقا بحاجة الى شخصية اساسية بطولية لكي ينسج درامة مؤثرة ، فالمأساة لا تنتج فقط عن بعض السمات الخارجة عن القياس لدى شخص ما ، وانما عن انعدام التناسب ما بين هذا الشخص ومقدراته ، وذلك بالنسبة لاي عصر . فهي تظهر عندما يحدث النزاع ما بين شخص فذ او بطل عبقري مع العالم المحيط به ، الشديد البغض او الضيق جدا نسبة للمهمة التي ندبه لها القدر : كنابليون مثلا وهو يختنق في ذلك المربع الصغير (جزيرة سانت هيلين) او بتهوفن حبيس صممه ، وبصورة عامة فهي تظهر لدى كل شخصية عظيمة لا تجد حولها متنفسها او مقياسها ، ولكن المأساة تظهر ايضا عندما تكون شخصية عادية او حتى ضعيفة منوطة بقدر هائل او بمسؤوليات شخصية تسحقها وتطحنها . وان هذا النوع من المأساة يبدو لي اكثر حدة من الناحية الانسانية ، لان الرجل العظيم يفتش بصورة لا شعورية عن مصير عظيم ، عن حياة بطولية ، كما قال نيتشه ، « خطرة » ومنسجمة عفويا مع طبيعته غير القياسية ، فهو يتحدى العالم بجرأة متطلباته المرتبطة ارتباطا وثيقا بشخصيته . ان العبقري ليس بمسؤول عن تألمه مطلقا ، لان رسالته تتطلب بصورة روحانية التجربة النارية هذه لكي يصبح بمستطاعه ابراز طاقته القصوى ، وكما تذهب العاصفة بالهباء فان طاقة قدره تدفعه ابدا الى اقوى والى اسمى ، بعكس الرجل العادي الذي يطالب بسبب من طبيعته بوجود هادىء ، فهو لا ينشد المأساة التي لا حاجة له بها ، بل يفضل العيش هادئا في الظل وبمأمن من العواصف في جو معتدل . ولذا فانه يخشى ويقاوم ويهرب عندما تدفعه يد غير مرئية نحو التقلبات . انه لا يبغي مسؤوليات عالمية تاريخية ، بل هو بالعكس ، يتخوف منها ، ولا يبحث عن التألم ، بل يفرض عليه الالم ، وان ما يحمله على تخطي حدود نفسه هو العالم الخارجي ، وليست ذاته الداخلية . فتألم الشخص – غير البطل – الرجل العادي ، لا يبدو لي اقل عظمة من التألم المذهل لدى بطل حقيقي ، بل لعله اشد تأثيرا منه . ان على الكائن العادي ان يتحمل المه وحيدا دون ان يكون لديه كما لدى الفنان هذه الوسيلة المفرحة بتحويل المه الى انتاج واشكال دائمة . ولكن القدر يعرف احيانا كيفية قلب هذه الطبائع العادية واخراجها بقبضته الآمرة من تفاهتها ، وان حياة ماري انطوانيت لمن انصع شواهد التاريخ على ذلك ، فقد سلكت هذه المراة طوال

اعوامها الثلاثين الاولى ــ من جملة الثمانية والثلاثين عاما التي عاشتها ــ طريقا عادية ، وعلى الرغم من انتمائها الى وسط رفيع ، فهي لم تتعدّ مطلقا القياس المعتاد ، انْ في نهج الخير او الشر ، بروح فاترة وطبيعة عادية . ومن وجهة النظر التاريخية ، لم تكن هذه المراة في البداية الا ممثلة ثانوية ، وانه (لولا تدخل الثورة في عالم ماري انطوانيت المليء بالمسرات المجنونة) لكانت هذه الاميرة قد اكملت حياتها كملايين النساء في جميع الازمنة ، ولكانت رقصت وثرثرت وأحبت وضحكت وتزينت وقامت بالزيارات وادّت الصدقات وانجبت بعض الاطفال ، ولماتت آخر الامر حتف انفها دون ان تكون قد عاشت فعلا وفق روح عصرها ، ولكانوا قد وضعوها بفخامة في قبرها بسبب من مركزها كملكة ، ولكان الحداد قد اعلن في البلاط ، ولكانت قد اختفت من ذاكرة البشر حالا ككثير من الاميرات الاخريات مثل ماري آديليد ، وآديليد ماري ، وآنا كاترين ، وكاترين آنا اللواتي تنتصب شواهد قبورهن باردةً غير مقروءة . ولما كانت قد عنَّت لاحد الرغبَة في استحضار صورتها او روحها المنطفئة من عالم النسيان ، ولما كان احد قد عرف من كانت في الحقيقة ، ولما كانت ماري انطوانيت نفسها مطلقا ــ وهي ملكة فرنسا ــ قد علمت بذلك او عرفته دون تجربتها . لان من خصائص الكائن العادي لحسن الطالع او لسوئه ، ان لا يحس في ذات نفسه ضرورة لسبر غورها ، وان لا يكون لديه من الفضول ما يدفعه الى طرح اسئلة ما الا اذا دعاه القدر الى ذلك . انه يدع امكانياته تنام في نفسه غيرَ مستعملةٍ ، كما يترك ملكاته تذبل وقواه تموع كعضلات لا تمرّن ابدا حتى توتّرها الضرورة ابتغاء مقاومة حقيقية . ان على الطبيعة العادية ، كي تصبح كل ما يمكن ان تكونه ، او يُقذَف بها خارج ذاتها ، وربما وصلت الى اكثر مما كانت تحلم في الوصول اليه . وليس للقدر ايما سوط اخر يصطنعه في ذلك سوى التعاسة . وكما يبحث الفنان احيانا متعمّدا عن موضوع ذي مظهر تافه عوضا عن موضوع مؤثر وعالمي حتى يبرهن بصورة افضل عن طاقته الخلاقة ، فكذلك يختار القدر من حين الى اخر بطلا تافها كي يبرهن على انه يعرف كيف يجذب من مادة غضة ابدع الروائع ، ومن روح ضعيفة واهنة اسمى المآسي . وان ماري انطوانيت لمن اروع الامثلة عن هذه البطولة اللاارادية .

يا للفن ، ويا لعبقرية تسلسل المراحل ، ويا للمسرح الفسيح الذي بنى فيه التاريخ هذه الدراما حول هذه الشخصية العادية ، ويا للعلم والخبرة التي يولّد بها المتناقضات حول هذه الشخصية الرئيسية التي

كم كان استعدادها لذلك قليــلا في البدء ، فهو يغمر هذه المرأة « بنعمه » باحتيال شيطاني فيمنحها وهي طفلة قصرا امبراطوريا كمسكن ، ويهبها ابان مراهقتها تاجا ، ويبذل لها بسخاء ، كامرأة ، كل نعم الجمال والغنى ، فضلا عن انه يعطيها قلبا خالي البال من تقدير قيمة هذه الهبات ، ويتابع التاريخ خلال سنين طويلة تدليل ومداعبة هذا الكائن الطائش حتى يزداد عدم مبالاته اكثر فأكثر ، وحتى يضيع رشاده . ولكن ، اذا كان القدر قد رفع هذه المرأة الى اسمى قمم السعادة بسرعة وبسهولة فانــه لم يدعها تهبط بعد ذلك عنها الا ببطء وبقسوة منتقاة وبواقعية شبه ميلودرامية ، وهكذا فان هذه المأساة تضع اكثر المتناقضات عنفا وجها الى وجه ، فترمي بماري انطوانيت من القصر الامبراطوري ذي المئة صالة الى سجن رهيب ، ومن العربة المذهبة الى عربة الجلاد ، ومن العرش الى المقصلة ، ومن البذخ الى الفاقة ، وتجعل من هذه المرأة التي تتمتع بالاستحسان العام ، والتي يصفق لها في كل مكان هدفا للحقد تتناثر حوله الشائعات الجارحة . بالاختصار ، فانها تجرها ، وبشكل دائم ، وبدون رحمة ، اسفل فأسفل حتى الهوة القصوى . كل ذلك دون ان يفهم هــذا الكائن الصغير العادي الذي هوجم فجأة وهو سادر في كسله وتراخيه ، ودون أن يعي هذا القلب الطائش ماذا تريد منه تلك القوة الغريبة . فهو يحس فقط بقبضة صلبة تعجنه ، وبمخلب محرق ينشب في لحمه المعذب ، وهو لا يشك في شيء على الاطلاق ، لانه غير معتاد على هذا الالم ووجل منــه . فيتخبط ، ويجهش ، وينشد الفرار ، ولكن الشقاء اللامتسامح كالفنان الذي لا يدع مادته قبل ان ينتزع منها اخر اغراضه ومنتهى امكانياتها لا يتوقف عــن ضرب روح ماري انطوانيت الضعيفة المائعــة ، حتى ينتزع منهــا الحزم والانفة ، ويكشف عن كل العظمة المتوارثة المدفونة في اعماقها . فتلحظ اخيرا هذه المرأة المجربة التي لم تشعر يوما بالفضول تجــاه نفسها وخلال احزانها ، تشعر بهــذا التحول الذي حدث حين انتهــاء سلطتها الملكية ، فتحس بولادة شيء عظيم وجديد في نفسها ، شيء لم يكن بالامكان ادراكه لولا هذه المحنة .

« ان ماهية الشخص تعرف اكثر خلال التعاسة » ، تلك هي الكلمات الفخورة المتأثرة التي تتفجر فجأة من فمها وتثير الدهشة ، ويوحي اليها الشعور بالغيب بان حياتها ستبقى كمثل للاجيال القادمة بسبب هذا الالم بالذات .

وبفضل هذا الاحساس بواجب رفيــع يملأ شخصيتها التي تخطت

حدودها الذاتية ، فان النتاج الاكبر الخالد قد كمل قبل ان يتحطم الشكل الانساني له بقليل ، لان ماري انطوانيت الشخصية المتوسطة ، قد بلغت في اخر ساعات حياتها ، في الساعة الاخيرة ذاتها ، المأساة ، واصبحت مساوية لمصيرها .

١ ـ زواج طفلة

تنازع آل بوربون وآل هابسبورغ ، لقرون عديـدة ، وفي ساحات حرب لا حصر لها ، في المانيا وايطاليا وهولندا ، السيطرة على اوروبا حتى الفناء . واخيرا ، ادرك الفريمـان ان اطماعهما النهمـة لـم تعط ثمارها المرجوة ، وانما مهدت السبيل امام أسر حاكمة اخرى . ففي الجزيرة البريطانية شعب ذو بدعة دينية جديدة يمد يده للاستيلاء على امبراطورية عالمية . وغدت الحركة البروتستانتية في براندنبورغ مملكة وطيدة . واما روسيا الموزعة بين النصرانية والوثنية ، فكـانت تتحفز لتبسط سيطرتها الى ما لا نهاية .

ولقـد انتهى عاهلا البلدين المتنازعين وسياسيوهما الـى التساؤل (ولكن بعد فوات الاوان كما هي العادة) : أليس من الافضل نشدان السلام بدلا من تجديد لعبة الحرب المشؤومة دونما انقطاع ، والتي لا يربح منها سوى الوصوليين ، والذين لا يدينون باية عقيدة ؟ وعقد شوازول وزيـر لويس الخامس عشر وكونتز مستشار ماري تريز حلفا ، ولكي يصبح هذا الحلف دائما ، وليس لفترة استراحة ما بين حربين ، فقد اقترحا توحيد سلالتي آل بوربون ، وآل هابسبورغ بأواصر الدم المتينة ، ولم يحدث ان خلا بيت هابسبورغ يوما من اميرات للزواج ، وكان هنالك في ذلك الوقت بالذات عدد غفير منهن ومن جميع الاعمار . وارتأى الوزيران اول ما ارتأيا ضم لويس الخامس عشر بالرغم من كونه جداً ، الى اميرة هابسبورغية . ولكن الملك الشديد المسيحية كان قد تحول على نحو مفاجيء مـن سرير مدام بومبادور الى سرير محظية جديـدة هي مدام دوباري . ومن جهة اخرى ، فان الامبراطور جوزيف المترمل للمرة الثانية لم يكن يبـدي اية رغبة في الزواج من احدى بنات لويس الخامس عشر الثلاث اللاتي يتجاوزن قليلا طور الشباب . ولم يبق امـام الوزيرين ، والحالة هـذه ، الا حل ثالث ، وهو الاكثر ملاءمة : ان يقترن حفيـد لويس الخامس عشر البكر المراهق ، ووريث تاج فرنسا ، باحدى كريمات ماري تريز .

ولم تكن ماري انطوانيت عـام (١٧٦٦) الا في الحادية عشرة مـن

سنيها ، الا انها كانت مع ذلك تصلح موضوعا لمشروع جدّي . وفي الرابع والعشرين من ايار (مايو) من تلك السنة انبأ السفير النمساوي الامبراطورة بصورة جلية : « ان الملك قد شرح الموضوع بصورة تستطيع معها جلالتك ان تعتبر المشروع مقررا ومضمونا » . ولكن الديبلوماسيين لا يستحقون هذه التسمية ما لم يجعلوا من تعقيد الامور السهلة ، سمة شرف لهم ، ولا سيما تأخير كل شيء مهم « بدراسة علمية » ، وهكذا لعبت الدسائس دورها في البلاطين ، فتصرّم عام ، واعقبه ثان وثالث والامبراطورة المتشككة ـ تشككا في محله ـ تتخوف من ان يعرقل جارها المزعج فردريك ملك بروسيا « الوحش » ـ كما كانت تسميه في استيائها الصريح ـ هذا المشروع الضروري لتقوية النمسا ، باحدى حيله المكيافيلية ، ولذا فقد شرعت تتوسل بكل لباقتها وحيلها واندفاعها حتى لا تدع مجالا لبلاط فرنسا ينقض معه الوعد الذي لم يعطه الا بصورة نصف اكيدة . وباصرار لا يكل ، كاصرار « خطّابة » محترفة ، وبصبر عنيد لا ينثني ، ولا يمتلك سره سواها ، مضت تطلق عنان الالسنة باطراء خصال ابنتها ، وتغرق السفراء بالتودد والهدايا كي يحصلوا اخيرا من فرساي على طلب قطعي للزواج . وان عاطفة الامومة لتتضاءل امام اهوائها كامبراطورة ، اذ انها كانت تفكر في مضاعفة النفوذ النمساوي اكثر من تفكيرها بسعادة ابنتها . ولقد اعلمها سفيرها قائلا : « يبدو ان الطبيعة قد ضنت على سيّدي الامير ولي عهد فرنسا بكل المواهب ، وانه لا يعني ان بمظهره او احاديثه سوى فكر ضيق محدود . » ولكن لا شيء يقف دون مطامع الامبراطورة .. وهل تحتاج الارشيدوقة الى السعادة ؟ حسبها ان تغدو ملكة . وبقدر ما ضاعفت ماري تريز همتها للحصول على التعهد الصريح بقدر ما احتاط الملك لويس الخامس عشر للامر بفضل سيكولوجيته النافذة . وخلال السنوات الثلاث التي انقضت ، راح الملك لويس الخامس عشر يكلف رجاله بالحصول على رسوم الاميرة ، وجمع المعلومات عن مسلكها . وكان بدوره يصرح بانه موافق مبدئيا على مشروع الزواج . ولكنه لم يتقدم بالطلب الرسمي المرتقب ليرتبط نهائيا .

اما « طوانيت » الصغيرة (وهو اسم الدلع الذي كان يطلق عليها) وهي العربون البريء لهذه القضية الدولية الهامة ، فهي طفلة ، رقيقة ، لطيفة ، حسناء ، في ربيعها الثاني عشر آنذاك ، وكانت تلهو وتلعب مع اشقائها واصدقائها ، وتمرح بكل ما حبتها الطبيعة من حيوية وحرارة في ردهات وحدائق قصر شونبرون ، ولم تكن تفكر في الدروس والكتب

والعلم . وقد استطاعت بفضل نكاتها المستملحة وبديهتها المتوقدة ان تقنع القسس والمربيات المكلفين بتثقيفها للتملص من ساعات الدرس المخصصة لها . ولكن حدث في احد الايام ان وقفت الامبراطورة ماري تريز بنفسها على جهل ابنتها . ولم يسبق ان سمحت لها مشاغل الدولة الكثيرة بالاهتمام جديا باحد ابنائها العديدين . لقد ارتاعت عندما تبين لها ان ابنتها ، ملكة فرنسا المقبلة ، لا تكتب الفرنسية ولا الالمانية بصورة سليمة ، بعد ان بلغت الثالثة عشرة من عمرها ، وانها لا تلم حتى بمبادىء التاريخ السطحية ، وان ثقافتها العامة هي ناقصة جدا ، وكان المامها بالموسيقى اقل حظاً من المامها بالدروس الاخرى بالرغم من وجود « غلوك » استاذ البيان الشهير مدرسا لها . ولذا يجب الاستفادة من الوقت المهدور لخلق شخصية مثقفة من طوانيت (العفريتة) الكسلى . وخير ما يجب ان تتحلى به ملكة فرنسا المقبلة هو اجادتها الرقص والنطق بلغة فرنسية سليمة لا لكنة فيها ، ولهذا السبب ، وبسرعة ، عيّنت ماري تيريز لابنتها نوفير : استاذ الرقص الكبير ، وممثلين في فرقة فرنسية متجولة تقوم برحلة فنية الى فيينا ، احدهما للنطق بالفرنسية والآخر للغناء . ولكن ما ان انبأ سفير فرنسا بلاط آل بوربون بالامر ، حتى تسلمت الامبراطورة تحذيرا مستاء من قصر فرساي : « لا يمكن للملكة فرنسا المقبلة ان يكون مثقفوها من المهرجين » ، وتستأنف هنا المفاوضات الديبلوماسية على جناح السرعة ، لان قصر فرساي يعتبر مسألة تثقيف خطيبة ولي العهد المقبلة قضية تخصه . وبعد مفاوضات طويلة استقر الرأي علي ايفاد كاهن يدعى « فيرمون » الى فيينا ، وذلك بناء على اقتراح اسقف اورليان . وقد حصلنا من هذا الكاهن على اول التقارير الجدية التي تتناول الارشيدوقة الصغيرة البالغة من سنيها الثالثة عشرة : وكان ذلك الكاهن يجدها جذابة ظريفة ، فكتب يقول : « وجهها ساحر ، تجمعت فيها كل محاسن اللياقة ، وما ان تشبّ قليلاً حتى تملك كل المفاتن التي يرغبها المرء في اميرة ، وان شخصيتها وقلبها لممتازان . »

ان الاب الشجاع يعبر عن مدارك تلميذته وتصرفاتها بتحفظ بالغ : فماري انطوانيت عفريتة ، متهاونة ، حادة الطبع ، ذات حيوية ، لم يشأ ، رغم تفهمها السريع للامور، ان تبدي اية رغبة في الاهتمام بالاشياء الجدية.

ولكن في البلاط الفرنسي ، ومنذ عهد الحظايا ، كان يُقدر في المراة مظهرها اكثر من قيمتها الحقيقية . وماري انطوانيت جميلة ، ذات شخصية جذابة ، زخرفية المظهر ، وفي ذلك كفاية .

واخيرا وجه الملك لويس الخامس عشر سنة ١٧٦٩ الى ماري تريز الرسالة التي طالما ترقبتها بصبر محمـوم ، وفيها يطلب بصورة رسمية مهيبة يد ماري انطوانيت لحفيده ولي العهد الذي سيعرف فيما بعد باسم لويس السادس عشر ، ويقترح تحديد موعد الزفاف في اعياد الفصح مـن السنة المقبلة . فوافقت ماري تريز على ذلك بسرور لا يوصف ، ومن حق هذه المرأة الدرامائية ، القنوع ، ان تستمتع ببعض الاويقات الحلوة بعد سنين طويلة من المتاعب . ولقد بدا لها سلام الامبراطورية وسلام اوروبا محققين من الان فصاعدا . وللحال ضرب الرسل وسعاة البريـد في طول البلاد وعرضها حاملين الى بلاطات الملوك هذا النبأ السار : اعداء الامس البوربون والهابسبورغ قد اصبحوا متحالفين الى الابد ، وستربطهم روابط من الدم وثيقة .

وهكذا انتهت مهمة الممثلين الدبلوماسيين بنجاح . ولكن ما انجزوه من العمل حتى الان هو ايسره ... ان اقناع الاسرتين المالكتين البوربون والهابسبورغ بضرورة ايجاد تفاهم تام ، والتوفيق ما بين لويس الخامس عشر وماري تيريز في صلح دائـم ان هو الا عبث اطفـال اذا مـا قورن بالصعوبات الاخرى التي ستعترض سبيلهم للوصول الى حل ملائم للتوفيق بين مراسيم الاحتفـال في البلاطـين ، اي بـين سلالتي فرنسا والنمسا المالكتين . صحيح ان امام منظمي الاحتفالات من الطرفين وممثلي الشكليات الأخَر سنةً بكاملها ليحرروا مـواد البروتوكول البالغة الاهمية لحفلة الزفاف . ولكن هل يكفي اثنا عشر شهرا لرجال متضاربي الآراء ، متنافري الاهواء ، ولعقليات كهؤلاء القائمين على امر الاحتفـال ؟ ان وريث عرش فرنسا سيزف الى ارشيدوقة نمساوية ... فكم من اسئلة معقدة مربكة ستنجم عن مثل هذه القضية ؟ وكم تتطلب التفصيلات من عناية ودقة ؟ وكم هنالك من خطى عاثرة لا تقال يجب تجنبها بدراسة الوثائق القديمـة العهد ؟ ففي شونبرون وفرساي نجـد حرس الاعراف والتقاليد المقدسة يتأملون محمومين ليل نهار . والسفراء يتناقشون ليل نهار كذلك في كل دعوة يجب توجيهها . وينهب الارض رسلٌ خاصون من بلد الى بلد آخر حاملين الاقتراحات الجديدة او المعاكسة ، لانهم يدركون ايَّ كارثة رهيبة قد تنجم عـن مساس القواعد الموضوعة بـين البيتين المالكين ! وخـلال مؤتمرات عديدة عقدت في طرفي « الراين » المتقابلين ، اخذ المتناقشون يزنون ويجادلون في قضايا شائكة « وحكيمة » كهذه مثلا : اي اسم يجب ان يذكر في وثيقة العقد اولا ؟ اسم امبراطورة النمسا ام اسم ملك فرنسا ؟

ومن يضع توقيعه قبل الاخر ؟ وما هي الهدايا التي ستوزع ؟ وما هو الصداق الذي سيشترط ؟ ومن سيرافق الخطيبة ؟ ومن سيستقبلها ؟ وما هو عدد النبلاء وسيدات الشرف والمشاة والخيالة والوصيفات والكهنة المعرّفين والاطباء وامناء السر وحاملات بياضات العروس الذين سيرافقون موكب الاميرة النمسوية حتى الحدود ؟ ومن ثم وريثة عرش فرنسا من الحدود حتى قصر فرساي ؟ وبينما نجد ان ذوي اللمم المستعارة من سكان ضفتي « الراين » هم ابعد من ان يتوصلوا الى اتفاق حول الخطوط الكبيرة لهذه المسائل الاساسية ، فان سيدات ونبلاء البلاطين ، من جهتهم، كانوا يتنازعون شرف مرافقة واستقبال موكب العرس كأنه مفتاح الفردوس ، وكان كل منهم يدافع عن ادعائه متسلحا بمجموعة من التشريعات والمراسيم ، وهكذا لم ينته المكلفون بتهيئة الاحتفالات ، رغم عملهم الشاق طوال عام بكامله إلى حل هذه المسائل الرئيسية المتعلقة بالبروتوكول ، ولو لم يصدر الامر الملكي بتحديد الموعد « المضبوط » مقدما لما توصل المشرفون على الاحتفال من فرنسيين ونمساويين حتى يومنا هذا الى اتفاق على شكل الزواج « المضبوط » ، ولما كان هناك ماري انطوانيت ، ولربما لم تكن ايضا الثورة الفرنسية نفسها .

وكان الاقتصاد في النفقات ضروريا لكلا الطرفين ، ان في فرنسا او في النمسا ، الا ان الطرفين كانا يبذلان غاية جهدهما للظهور في اوج الجلال والابهة ، فالهابسبورغيون لا يريدون ان يفوقهم آل بوربون في هذا المضمار ، ولا يريد البوربون ان يضارعهم آل هابسبورغ في ذلك . ان قصر السفير الفرنسي لدى البلاط النمساوي قد اعتبر صغيرا لا يستوعب الفا وخمسمائة مدعو ، فشرع مئات العمال يشيدون بسرعة ملحقات له . وصدرت في الوقت نفسه اوامر الملك بتجهيز قاعة حفلات خاصة فسيحة في قصر فرساي كي تجري فيها مراسم الزفاف . وكان من جراء ذلك ان فتح هنا وهناك عهد مبارك مدرار على مجهزي البلاط من الخياطين وبائعي المجوهرات وصانعي المركبات . ولقد اوصى الملك لويس الخامس عشر « فرنسيان » مموّن القصر بصنع مركبتين فخمتين تفوق فخامتهما الروعة ، على ان تكونا من اندر واثمن الخشب ، وان يكون زجاجهما متلألئا براقا ، يكسوهما المخمل من الداخل ، وتزينهما النقوش البديعة من الخارج ، ويعلوهما التاجان ، ويجب ان تكونا رغم كل هذه الزينة خفيفتين رائعتي المرونة . اما ولي العهد فقد فصلت له ولرجال حاشيته البسة زاهية موشاة بالذهب ، ومحلاة بالاحجار الكريمة . وكانت ماري تيريز بدورها

تهيىء جهاز ابنتها بصورة لا تقل بذخا : مخرمات « دانتيل » حيكت لها خصيصا ، واقمشة دقيقة ، وحرائر فاخرة ، وحلى لم يراعَ فيها الاقتصاد قط . واخيرا وصل السفير « دورفورت » الى فيينا ليطلب باسم وريث عرش فرنسا يد ماري انطوانيت . كان المشهد رائعا ، بالنسبة لاهالي فيينا المغرمين بالمشاهد والاحتفالات : ثمانٍ واربعون مركبة ، وكل مركبة يقودها ستة جياد مطهمة من بينها العربتان الاعجوبتان المذكورتان سابقا تخترق شوارع فيينا المزدانة بالاعلام بطريقها نحو « هوف بورغ » . ومنذ هذه اللحظة اخذت الاعياد تترى : طلب الزواج العلني ، تنازل ماري انطوانيت ـ امام الانجيل ، والسيد المصلوب ، والشموع المضاءة ، وباحتفال مهيب ـ عن حقوقها النمسوية ، تهاني البلاط والجامعة ، قيام الجيش بعرض عسكري ، حفلة استقبال في « البلفادير » تليها حفلة راقصة يحضرها ثلاثة آلاف شخص ، حفلة استقبال جديدة ، واخيرا في ١٩ نيسان الزواج بالوكالة في كنيسة سان اوغستان حيث كان الارشيدوق فرديناند ممثلا لولي العهد ، ثم حفلة عشاء اخرى عائلية . وفي الواحد والعشرين من الشهر نفسه جرت مراسم الوداع الاحتفالي الذي انتهى بالعناق الاخير . وعندئذ فقط انطلقت ماري انطوانيت الارشيدوقة النمساوية السابقة في عربة ملك فرنسا بين صفين من الجمهور الذي يسوده الاحترام جارية لملاقاة قدرها .

اما ماري تيريز فقد سلمت ابنتها قبل سفرها كراسا يتضمن نصائح وارشادات مفصَّلة بعد ان انتزعت من الصبية الطائشة يمينا بتلاوة محتوى هذا الكراس بانتباه مرةً في الشهر على الاقل . وبعثت الى الملك العجوز لويس الخامس عشر فضلا عن الكتاب الرسمي رسالة خاصة ترجوه فيها ان يتساهل حيال تصرفات ماري انطوانيت الصبيانية ، ويتغافل عن خفة صبية في الرابعة عشرة من عمرها ، ولكن هذا كله لم يكن ليفرخ من روعها ، ويهدىء من نفسها القلقة . وما كادت ماري انطوانيت تصل قصر فرساي حتى كتبت اليها مذكّرة اياها بوعدها ، وراجية منها ان تعتمد التعليمات الضرورية التي اوصتها بها . وفي غمرة الاحتفالات التي احيوها ابتهاجا بالمجد الذي احرزته ماري انطوانيت كانت الام في طريقها الى الكنيسة لتضرع الى الله ، وتسأله ان يبعد شبح التعاسة الماثل امام ناظريها ، والتي هي الوحيدة ـ دون الجميع ـ تتطير منه .

وكان الموكب الفخم المؤلف من ثمانية واربعين جوادا يخترق ببطء اراضي النمسا وبافاريا ، فتبدل الجياد في كل موقف . وبعد احتفالات

جمة واستقبالات عديدة قام بها السكان اخذ الموكب يقترب من الحدود الفرنسية . وكان النجارون وصناع السجاجيد يشتغلون بهمة لا تعرف الكلل لاقامة وتجهيز بناء فريد من نوعه في احدى جزر الراين ما بين كيهل وستراسبورغ ، وهناك لعب كبار منظمي الحفلات في قصري فرساي وتشونبرن ورقتهم الرئيسية . وبعد مناقشات حادة لا تنتهي ، تعذّر على الفريقين الوصول الى اتفاق مرضٍ يعرفان بموجبه اذا كان تسليم العروس الرسمي سيجري على الارض النمسوية او الارض الفرنسية ؟ وتوصل اخيرا احد الخبثاء الى حلّ مناسب خليق بسليمان الحكيم ، وهو بناء جناح خاص من الخشب في احدى جزر الراين المهجورة ما بين فرنسا والمانيا ، واقامة حجرتين في ضفة الراين اليمنى حيث تدلف اليهما ماري انطوانيت بوصفها ارشيدوقة نمساوية ، وحجرتين اخريين في ضفته اليسرى تخرج منهما بعد الاحتفال الرسمي كوريثة لعرش فرنسا . وفي القاعة التي تتوسط البناء تتم مراسم التسليم ، وهكذا تغدو الارشيدوقة نهائيا وريثة العرش . وكانت سجاجيد قصر الاسقفية الفاخرة تغطي الحواجز والاروقة التي اقيمت على استعجال بهذه المناسبة . وساهمت جامعة ستراسبورغ ايضا في هذا الاحتفال ، فأعارت المسؤولين المظلات الواقية فنصبوها فوق السرادق هناك . وقدم اثرياء المدينة اجمل اثاثهم . واوصد هذا المحراب الذي لا يليق الا بالامراء في وجه الرعاع ، ولكن المال لعب دوره هنا ايضا ، كما في كل مكان ، في نفوس البشر ، فقطعة نقود فضية تدس في ايدي الحراس كفيلة باسترضائهم ليفسحوا المجال امام من جاء ليشاهد الاحتفال الرسمي . وقبل وصول ماري انطوانيت بايام قليلة توافد على المكان المعدّ للاحتفال ، والذي لم ينجز بناؤه بعد ، عدد من الطلاب الالمان اشباعا لفضولهم النهم . وكان بين الطلاب الوافدين ، هؤلاء ، شاب منتصب القامة ، حاد النظرات ، تتوج هامته هالة النبوغ المبكر . ولم يقدر هذا الشاب ان يتملى جمال « الفوبلان » (١) التي نسجتها الايدي الصناع المرهفة نقلا عن روائع رافائيل الخالدة . لقد ايقظت هذه الرسوم رغبة شديدة في نفس الشاب لكي يتذوق ويتفهم الفن الكلاسيكي تماما ، كما يتذوق ويتفهم الفن القوطي الذي يتجلى واضحا ومتمثلا في البناء الالماني ، وخاصة فيما تتحلى به كاتدرائية استراسبورغ من فن رفيع ، وبينما كان الشاب مندفعا يشرح بحماسةٍ متقدةٍ لرفاقه الذين يقلون عنه ذكاء في دنيا

---

(١) اشكال تمثل الجن بصورة مسلية   (المعربان)

الجمال ما اكتشفه اساطين الفن في ايطاليا ، توقف فجأة امام لوحة ، وشعر بانقباض وكدر ، وزوى ما بين حاجبيه الكثين الفامقين اللذين يظللان نظراته الملتهبة ، ثم غلبته حميا الغضب ... انها بالضبط تمثل اسطورة لا تلائم في قليل او كثير مناسبة افراح كهذه . وسرعان ما هتف اليافع النابغ بصوت جهوري دون ان يعير دهشة الحاضرين اي اهتمام صارخا : ان قصة جازون وميديي وكرويزيي هي المثال الجارح لزفاف مشؤوم !. ماذا ؟ هل يجوز وضع مثال لأشأم زواج عرفه التاريخ تحت ناظري الملكة الشابة في اول يوم لزواجها دون مراعاة ؟ الا يوجد بين البنائين والمزخرفين وصانعي السجاجيد الفرنسيين من يفهم بان للرسوم معنى يؤثر على الاحساس والعقل ويترك الانطباعات في النفوس وينبه الحدس ؟ الا يقال بانهم ارادوا ارسال اسمج طيف امام هذه الحسناء التي لا تخيب ظن القائلين بانها متعلقة بالحياة الى ابعد حد ؟

وبعد لأي ، افلح اصدقاء الشاب المتحمس بتهدئة ثائرته . ولم يكن ذلك الطالب الا غوتيه ذاته ـ خارج البناء الخشبي . وتواكب موجة الابهة العارمة حفلة العرس ، التي تقترب ، وتغمر الصالة بفيض من المباهج ودفق من الاحاديث الطلية المفرحة دون ان يحسب احد ان نظرة شاعر ثاقبة قد استطاعت منذ ساعات ان تلحظ خيط القدر الاسود المشؤوم في هذه الانسجة الملونة .

ان تسليم ماري انطوانيت يعني انفصالها التام عن كل ما يربطها بالبيت النمساوي اشخاصا واشياء ، وهنا ايضا ارتأى القيمون على الاحتفال ، حسب العرف المتبع ان يتخلى عنها مرافقوها النمساويون جميعا ، والا يصحبها منهم احد الى ما وراء خط الحدود الخفي . وعلى العروس ان تنضو عنها كل ثوب مصدره بلادها ، ولا يجوز لها ان تحتفظ بخفيها او جوربيها او غلالتها او شرائط شعرها . ومنذ اللحظة التي تغدو فيها زوجة ولي عهد فرنسا يتوجب عليها ارتداء المنسوجات الفرنسية فقط . وهكذا ارغمت بنت الاربعة عشر ربيعا على ان تنضو عنها كامل ثيابها ، وان تبدو عارية امام حاشيتها في الحجرة النمساوية . فاشاع جسد هذه المراهقة البض الذي لم يتفتح الا منذ امد قريب في مخدعها النمساوي المعتم سناء مشرقا . ثم ارتدت غلالة من الحرير الفرنسي ، وتنورة باريسية ، وجوربين من ليون ، وخفين من صنع حذائي القصر . وكانت ماري انطوانيت لا تستطيع الاحتفاظ باية ذكرى حتى بخاتم او صليب ، كأن عالم العرف والتقاليد سينهار لو احتفظت « ببكلة » شعر او

بشريطة ملونة احبتها ! وحرمت منذ هذه اللحظة من رؤية من اعتادت عليهم سنين طويلة . وهل من المستغرب بعد ذلك ان نجد هـذه الفتاة المراهقة تنشج بكاء كطفلة صغيرة ، وقد راعتها فخامة هذه الاحتفالات واذهلتها هذه المهازل ، وهي التي الفت نفسها فجأة في جو غريب لم تألفه ، ولكن ، وفي مناسبة كهذه ، يتطلب منها ان تتخذ لنفسها وضعا لائقا يغلبه الوقـار . فزيّ السفر العاطفي يختلف عن زي الزواج السياسي . فهناك في الحجرة المجاورة تنتظر الحاشية الفرنسية ، وانه لمن العار ان تبـدو وجلة دامعة العينين امام الحاشية .

ولم يبق امـام الارشيدوقة النمساوية الا دقيقتـان ثـم تصحبها حاشيتها للمرة الاخيرة الى القاعة التـي يتم فيهـا التسليم الرسمي الى البعثة البوربونية التي تنتظر قدومها ، وقد احاطت نفسها بكل مظـاهر الابهة . وهنا لفظ سفير لويس الخامس عشر خطابا احتفاليا ملائما ، ثـم تلا مواد العرف المتبع ، فكتم الجمهور انفاسه . ها هي مراسم الاحتفالات الفخم قائمة ... حيث حسبت كل خطوة حسابا دقيقا كأنها بعض رقصة حفظت اصولها ، وموروست فترة طويلة لاتقانها . ان المائدة التي تتوسط القاعة تمثل الحدود الرمزية ، وقد وقف النمسويون في احد طرفيها ، وشغل الفرنسيون الطرف الآخر . ويرخي مرافق الشرف النمسوي يد ماري انطوانيت ليمسكها مرافق الشرف الفرنسي ، ثم يدور بها حول المائدة بخطوات متزنة وئيدة وهي ترتعد فرقا وحياء . وفي دقائق معدودة تنسحب الحاشية النمسوية بخطوات بطيئة نحو الباب ، وبنفس المشية المحسوبة بدقة تتقدم الحاشية الفرنسية نحو الملكة المقبلة حيث تجد ماري انطوانيت نفسها مع البلاط الفرنسي في نفس اللحظة التي يكون فيها البلاط النمسوي قد غادر القاعة . وتجري كل هذه الشكليات البروتوكولية الفاسدة بصمت جليدي ، ودقة تامة ، وابهة مهيبة حتى لكأنها تجري في عالم من الاشباح . وفي اللحظة الاخيرة هذه ، تداعت ماري انطوانيت فلم تستطع ان تصمد إزاء تلك الاحتفالات الجامدة ، وبدلا من ان تتقبل بهدوء وببرودة انحناءة التكريم المتواضعة مـن وصيفتها الجديـدة الكونتيس دي نوايل ، القت بنفسها في احضانها منتحبة كمن تبحث عـن ملاذ امين . وكـانت حركة استرخاء ساحرة تبعث على الحنان ، وكان عظماء منظمي الاحتفالات من جهتي الراين قد نسوا حسابها . ولكن العاطفة لا وجـود لهـا في قواعد القصر ، ولا تشترك في اصوله المرعية ، فالمركبة تنتظر في الخارج . وبدأت الاجراس تقرع في كاتدرائية استراسبورغ ، ودوت طلقات المدفعية عاليا

احتفاء بهـذه المناسبة العزيـزة . وفي وسط غليـان الجماهير وهتافاتهم الحماسية الحارة غادرت ماري انطوانيت نهائيا ضفاف الطفولة اللاهبة . ويبدأ من هنا مصيرها كإمرأة .

ولقد سجل وصول ماري انطوانيت ساعة حبور لا تنسى في نفوس الفرنسيين الذين يفتقرون الى مثل هذه الاحتفالات ، لانهم حرموها زمنا طويلا ... ومنذ اعوام لم تشاهد استراسبورغ ولية للعهـد ، ولعلها لم تشهد مطلقا ولية عهد تضارعها جمالا . فهذه الصبية ذات الشعر الذهبي البلاتينـي ، والعينين الزرقاوين الشيطانيتين ، تضحك وتبتسم داخـل مركبتها الزجاجية الفخمة الى العديد من الالزاسيين والالزاسيات المتوافدين من الدساكر والمدن والمرتدين ازياءهم الوطنيـة القشيبة لتحيـة الموكب الفخم : مئات الاطفال في لباسهم الابيض يتقدمون المركبة وينثرون الزهور على طول الطريق ، اقيمت اقواس النصر ، ازدانت الابـواب والشرفات بالاعلام والسجاجيد ، تدفق الخمر مـن نافورة اقيمت خصيصا لهـذه المناسبة ، وفي المساء توهجت الدور والقصور بالانوار المشعـة ، وكانت السنة اللهب تتلوى حول الناقوس ، حتى بانت حوافي الكاتدرائية المقدسة شفافة . ولقد انساب فوق الراين غدد كبير مـن الزوارق والسفن التي اضيئت بالمشاعل المتضاربة الالوان ، والتي تحمل مصابيح كروية شبيهة ببرتقالات نارية ، وانبعث من الاشجار انـوار ساطعة عكستها كرات مـن الزجاج الملوّن ، وشعّ الحرفان المتشابكان من كلا اسمي ولي عهد فرنسا وعروسه في الجزيرة ، متوجين نارا اصطناعية هائلـة متوهجة تنبعث من الوسط كأنها نار المجوس ساعة العبادة . وراح الشعب يتنزه في الشوارع وعلى ضفاف النهر حتى ساعة متأخرة من الليـل ، وصدحت الموسيقى بانغامها المثيرة الآسرة ، فتشابكت ايدي الشبان والشابات في مئات الاماكن وراحوا يؤدون رقصاتهم الرائعة ببهجة وحبور . ويبدو ان رسولة النمسا قد بعثت بقدومها عهدا ذهبيا جديدا ، فاذا بالشعب الفرنسي ينسى مرة اخرى آلامه واوجاعه ويستجمع شجاعته ويسترد قواه الزائلة ليحيا في آمال باسمة جديدة .

ولكن هذه اللوحة الرائعـة كانت تخفـي بدورها خدشا خفيا مثل الرسوم المعلقة في قاعة الاستقبال ، ففي اليوم التالي وقبل الرحيل ، وحين توجهت ماري انطوانيت الى الكنيسة لحضـور القداس لم يكن الاسقف الجليل هو الذي يستقبلها امـام مدخل الكاتدرائية ، وانما كان ابن اخته ومعاونه . فلفظ هذا الكاهن الدنيوي الذي يغلب عليه مظهر مخنث وهو في

جلبابه البنفسجي الفضفاض ، لفظ خطبة مؤثرة رقيقة ــ اليس لقبوله كعضو في الاكاديمية الفرنسية من اسباب ! ــ ونقتطف هنا من تلك الخطبة هذه الكلمات : « سوف تكونين بين ظهرانينا الصورة الرائعة الحية لهذه الامبراطورة الغالية التي كانت محط اعجاب اوروبا باسرها كما ستكون محط اعجاب الاجيال القادمة ... وها هي ذي روح ماري تيريز تتحد مع روح آل بوربون . »

وبعد تبادل التحيات اصطف افراد الموكب بانتظام وجلال تحت قبة الكاتدرائية المعتمة . وقاد الوكيل الاميرة الى المذبح ورفع القربان المقدس بيده الناعمة المحلاة بالخواتم . وكان لويس امير روهان هو اول من رحب بمقدمها ، وهو نفسه الذي سيكون بطل المأساة المتعلقة بقضية « العقد » ومنافسها الخطر وعدوها المشؤوم . وان اليد التي تباركها الان هي نفس اليد التي ستقذف بشرفها وتاجها الى الوحل .

ولم تستطع ماري انطوانيت ان تمكث طويلا في استراسبورغ مع ان استراسبورغ الالزاسية تعتبر نصفا من الوطن ، لان ملك فرنسا كان بانتظارها ، وهو لا يقبل عذرا للتأخر . فسار الموكب الرسمي نحو غابة كومبيان ، هدفه الاول ، وسط موجة بشرية ترتفع اصواتها هدارة صاخبة بالتهليل والهتاف ، مارا تحت اقواس النصر ثم اخترق الابواب المزدانة ، واخيرا ها هي الاسرة المالكة تنتظر في موكب مهيب مؤلف من رجال الحاشية وسيدات البلاط والضباط ، ورجال الحرس الملكي ، والفرقة الموسيقية ، وقد ارتدى الجميع القشيب من ثيابهم المزركشة البراقة مشكلين بذلك جماعات ذات الوان متباينة . فهذه الالوان المتلألئة تضفي رونقا خاصا على الغابة السابحة برداء الربيع . وما ان اعلنت ابواق الطرفين المرافقين اقتراب موكب العرس حتى ترك لويس الخامس عشر مركبته وسار لاستقبال زوجة حفيده ليرحب بمقدمها . ولكن ماري انطوانيت اندفعت نحو جدّ زوجها بخطواتها الرشيقة التي كثيرا ما كانت تنتزع الاعجاب ، وجثت امامه في أرقّ والطف انحناءة ، فمال الملك بحنان على الصبية الشقراء الشهية ، يملأ الحبور عطفيه ، وتشدّه حساسيته المرهفة الى الفتنة والجمال ، وهو الخبير الحاذق بشؤون النساء ، والذوّاقة المفطور على استكناه ما تتمتع به اجسادهن من رواء وليونة . فساعد خطيبة حفيده على النهوض والاعتدال وضمها الى صدره وقبّل خديها ، وعندها فقط قدّم اليها زوجها المقبل ، فوجه هذا اليها نظرته التي جعلها عسر النظر تبدو كالنعاس ، ودون ان تبدر منه اية لهفة خاصة

نحو خطيبته ، رفع اليها بصره الكليل ، وقبّلها من خدها بصورة بروتوكولية جامدة ، كما يحتم الايتيكيت .

ثم جلست ماري انطوانيت في المركبة بين الجدّ والحفيد ، بين لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر ، ولكنه يبدو كما لو كان العجوز هو الخطيب ، لانه راح يتحدث بحرارة ، ويغازل الفتاة بعض الشيء ، وزوج الغد ضجر ساهٍ يستأثر بالصمت في زاويته ، وفي المساء حين دلف الخطيبان كلّ الى غرفته الخاصة ، على الرغم من كون زواجهما قد عقد سابقا بالنيابة لم يكن الحبيب الحزين قد همس بكلمة رقيقة في مسمع هذه الحسناء الساحرة الساذجة . ولقد كتب لويس السادس عشر في يومياته ملخصا لهذا اليوم المحتوم ، كتب بجفاء هذا السطر الوحيد : « مقابلة مع السيدة ولية العهد ! »

اما الاحتفال الثاني الحقيقي بعقد قران لويس السادس عشر على ماري انطوانيت فقد جرى في السادس عشر من ايار في قصر فرساي في كنيسة لويس الرابع عشر . ولقد كانت هذه القضية التي تتعلق بالبلاط والدولة قضية من السمو والجلال بمكان ، وفي الوقت ذاته شخصية وخاصة لدرجة لا تأذن للشعب بان يشهد مراسم الزفاف او يعبّر عن افراحه بالهتاف امام المصلى ، في هذه المناسبة الميمونة . فهناك دم واحد من انقى دماء النبل والاثالة يحق له دون غيره دخول الكنيسة حيث يعكس شعاع الشمس الربيعية على مقاطع الزجاج الملوّن بريقا متوهجا يحكي الف لون ولون كمصباح اخير يشع ايذانا بأفول احد العوالم . وانطلقت من ذلك الزجاج شرارات متلألئة استقرت على البروكار المنقوش والساتان اللماع وعلى بذخ الاسر المختارة اللامحدود . ويراس اسقف ريمس الاحتفال ويبارك خاتم الزواج والمهر البالغ ثلاث عشرة ليرة ذهبية ، ويضع ولي العهد الخاتم في خنصر ماري انطوانيت ثم يناولها الليرات ويجثو العريسان بعد ذلك ليتقبلا البركة . اما الصلاة فانها تبدأ على انغام الارغن ، ولدى : « أبانا الذي في السموات » تنتشر كلة فضية فوق الزوجين الشابين ، عندئذ فقط يوقّع الملك وثيقة الزواج ويأتي بعده الانسباء والاقربون حسب الدرجات والرتب ، وتعتبر هذه الوثيقة من اطول الوثائق ، ويمكننا ان نقرأ في يومنا هذا في رق مصفرٍّ اربع كلمات مرتعشة مضطربة « ماري انطوانيت جوزيف جان » ، خطتها بأناملها ابنةُ الخمسة عشر ربيعا بصعوبة ، ولكن بقعة كبيرة من الحبر سقطت بجانب توقيعها من ريشتها المتمردة دون بقية التواقيع مما يجعلنا نهمس مرّةً اخرى قائلين : « علامة شؤم ! »

وانتهت مراسم الزفاف ، وفسح للشعب ايضا ان يساهم بدوره في الافراح الملكية ، فهجر نصف سكان باريس عاصمتهم الجميلة ليوافوا قصر فرساي ويحتلوا امكنتهم في القاعات والحدائق والممرات ، وليبرهنوا على تعلقهم بالاسرة المالكة ، وان تلك الحدائق المنسّقة الجميلة ما زالت حتى يومنا هذا تكشف عن روعة مساقط المياه والنوافير والحقول وممراتها الظليلة . وكانت الاسهم النارية ذروة هذه الاحتفالات البهيجة التي كانت اروع ما شوهد في بلاط ملكي . ولكن السماء هيأت سهاما نارية على طريقتها هي فاكفهرت بالغيوم السوداء القاتمة بعد ظهر ذلك النهار منذرة بالشتاء ، ولم تمضِ دقائق معدودة حتى هبّت الاعاصير ، وقصفتْ الرعود ، وتدفّقت الامطار الغزيرة على الارض ، فارتدّت الجماهير عائدة الى باريس وقد حُرمت من مباهجها . وراح الالوف من ابناء الشعب الذين نالهم البرد وجلدتهم صفعات الزخات الشديدة يجرون في شوارع المدينة بحثا عن الملاذ الامين ، وارتفعت اصواتهم في ضوضاء صاخبة . وتثنّت الاشجار التي اجتاحتها العاصفة وترنحت تحت صفعات الريح المجنونة ... ولم يبق في فرساي الا النخبه المختاره التي جاءت لتشهد الاحتفال الرسمي ، والتي تبلغ ستة آلاف شخص استطاعوا الحصول على بطاقات الدخول بعد شق النفس ، ولا تخولهم تلك البطاقات سوى حق التفرج والوقوف في اعلى الاروقة ليشهدوا باحترام افواه اثنين وعشرين شخصا من اعضاء الاسرة المالكة وهم يتناولون طعامهم بملاعق وشوكات ذهبية .

وانتهت المراسم ، ولم يبق امام العريس الملكي ما يفعله سوى ما يتطلب من كل عريس نظيره في مناسبة مماثلة . ولقد قاد الملك العروسين الى مخدعهما : ولي العهد على يساره والعروس على يمينه ، ذلك ان العرف يسمح للملك فقط بان يدلف الى المخدع الزوجي كي يقدم الى العريس قميص النوم وتقدم السيدة الارفع نبلا والاحدث زواجا الى العروس غلالتها . وكانت تلك السيدة هي الدوقة دي شارتر ... ويحق لاسقف ريمز دون غيره ان يقترب من السرير ليباركه وينضحه بالماء المقدس . واخيرا خرجت الحاشية من الحجرة الخاصة . وظل العريس وعروسه ماري انطوانيت وحيدين للمرة الاولى . ثم انسدلت كلة من البروكار على السرير لتحجب عن العيون مأساة خفية غير منظورة .

٢ ـ اسرار المخدع

« لا شيء » . تلك هي الكلمة ذات المعنى المزدوج المكدّر التي خطها الزوج الشاب صباح الغد في يومياته . ولم تستطع احتفالات القصر ولا البركة الاسقفية ان تؤثر في « العيب العضوي » المحزن الذي كان ولي العهد مصابا به . وهكذا لم يكن « الزواج كاملا » ، ولن يكمل في الغد ولا خلال السنين الاولى . لقد وجدت ماري انطوانيت زوجها « متراخيا » وقد ظن بادىء ذي بدء ان الضعف التناسلي لدى هذا الشاب ذي الستة عشر عاما امام هذه الصبية الفاتنة ناجم عن الخجل او عدم الخبرة او تأخر طبيعي في النمو : « لنتجنب التسرع ، او اقلاق المراهق الذي قد اعاقه ولا بدّ عقبة معنوية » . هذا ما تظنه الام الخبيرة التي ترجو ماري انطوانيت ان لا تعتبر خيبتها الزوجية كمأساة ، وتكتب اليها في ايار (مايو) ١٧٧١ : « تحاشي مطلقا اثارة هذا الموضوع » . كما انها توصيها : « بمداعبات وملاطفات » ولكن دون المبالغة فيها لان « الكثير من التهالك قد يفسد كل شيء » .

ولكن هذه الحالة امتدت عاما او عامين ، وبدات الامبراطورة تقلق من هذا « المسلك الغريب » الذي يبدر من الزوج الشاب . ويستحيل عليها ان تشك في نيته الحسنة لان ولي العهد اخذ يبدي المزيد من الرقة نحو زوجته الفاتنة شهرا عن شهر ، ويجدد دون انقطاع زياراته الليلية ، ومحاولاته التي تبوء بالفشل « كأن سحرا ملعونا » ، او اضطرابا خفيا مقدرا كان يحول دون « المداعبة » القصوى الفعلية . وتظن انطوانيت بسذاجتها ان ذلك ليس ناجما الاّ عن بعض التعثر والصفر ، ولقد كانت الطفلة المسكينة تنفي خلال عدم خبرتها « الشائعات السيئة التي تتناثر في البلاد عن عجز زوجها الجنسي » . وتضطر الام آنذاك الى التدخل ، فتستدعي طبيب البلاط « فاسفيتن » ، وتستشيره في موضوع برودة ولي العهد غير العادية . ويهز الطبيب منكبيه : « اذا كانت الصبية الشهية اللذيذة لا تثير رغبات ولي العهد فغير ناجع فيه اي دواء » . وتبعث ماري تيريز بالرسائل تباعا الى باريس ، حتى قابل اخيرا الملك لويس الخامس عشر وهو ذو الخبرة الطويلة في هذا المجال ، حفيدة لكي تستجوبه جدّيا ، ثم بلّغ «لاسون» طبيب القصر هذا الشأن . فأجرى الطبيب فحصا دقيقا على بطل هذه المغامرة الغرامية المحزن ، وانتهى الى القول : « ان عجز ولي العهد الجنسي ناتج عن عيب عضوي تافه وليس عن اسباب معنوية . »

عندئذ توالت الاستشارات لمعرفة ما اذا كان مشرط الجراح يجب ان يتدخلَ لاعادة الامر الى نصابه الطبيعي ، كما تهامس البعض بخبث في ردهات القصر . وفي خلال ذلك كانت صديقات ماري انطوانيت الخبيرات قد أثرنَ تفكيرها ، فسعت جاهدة لاقناع زوجها بالموافقة على العملية الجراحية . وقد كتبت الى والدتها عام ١٧٧٥ قائلة : « اني احضّه على اجراء العملية البسيطة التي اخبرتك عنها والتي اجدها ضرورية . » وفي اثناء ذلك غدا ولي عهد فرنسا ملكا عليها باسم لويس السادس عشر . ولكنه ، وبعد خمسة اعوام من الزواج لم يغدُ زوجا كاملا ، وظل وفيا لشخصيته المترددة لا يستطيع تقرير عمل حاسم ، فهو يتريث ويتراجع ، ويحاول ثم يعيد المحاولة ، ولقد دامت هذه الحالة المؤلمة المخزية طوال عامين آخرين ، مدلّين ماري انطوانيت تجاه سخرية البلاط بأجمعه ، وغضب ماري تيريز ، وعار لويس السادس عشر .

سبع سنين رهيبة انقضت بلا امل ، حتى نفد صبر الامبراطور جوزيف ، فشد رحاله الى باريس ليقنع صهره الجبان بضرورة اجراء العملية ، وعندئذ فقط عزم الزوج الخائب على اتخاذ القرار السعيد ، ولكن المجال النفساني الذي غزاه اخيرا كانت قد اتلفته سبع سنوات من المعارك الذليلة ، وكل هذه الليالي الطويلة التي قاست فيها ماري انطوانيت كامرأة وكزوجة اقسى التعذيب الجنسي .

ولكن أما كان بالامكان تجنب مسّ هذا السرّ الدقيق والشخصي لدرجة القدسية ؟ (وهذا ما قد يتساءل عنه اكثر من شخص رقيق الحس) . أما كان بالمستطاع الاكتفاء بتورية العجز الملكي وإسدال الستر عليه ؟ .. أما كان من الافضل معالجة هذه المأساة بتكتم ، والتكلم عنها ان استدعى الامر ذلك باشارات التورية ، كسعادة الامومة التي لم تتم مثلا ؟ الا يمكن فعلا الاستغناء عن هذه التفاصيل الشخصية عند دراسة سيرة شخصية ما ؟ كلا بالتأكيد ، لا يمكن الاستغناء عن ذلك ، لان كل التوترات والارتباطات والسيطرات والمشاحنات التي تولدت شيئا فشيئا ما بين الملك والملكة من جهة ، والمرشحين الى العرش والبلاط من جهة اخرى ، والتي غدت ذات اثر بعيد في التاريخ العالمي ، كل ذلك لم يكن بالامكان فهمه لو لم نعمد بصراحة الى استكناه مصدره الحقيقي .

ان الاحداث التاريخية التي كان المخدع الملكي نقطة الانطلاق بالنسبة اليها ، هذه الاحداث التي بدات تحت كلة تغطي سريرين ملكيين ، لهي اكثر بكثير مما يراد التسليم به بصورة عامة عنها . هناك قليل من الحالات

التي كانت فيها العلاقة المنطقية بين السبب الشخصي ورد الفعل السياسي والتاريخي قطعية لدرجة تشابه حالة هذه المأساة ـ المهزلة ـ الشخصية . ان دراسة نفسية تدع الظلمة محيطة بحدث وصفته ماري انطوانيت ذاتها « بالعنصر الاساسي في همومها وآلامها » لهي دراسة تنقصها الامانة .

وهناك شيء اخر : فهل نحن نفشي سرا عندما نتكلم بصدق عن العجز الزوجي الطويل الامد لدى لويس السادس عشر ؟ كلا بالطبع ، والقرن التاسع عشر وحده بتقعره الخلقي وتحفظه المتكلف المريض هو الذي جعل من كل حديث حر عن الاشياء الجسمية رجسا لا يمسّ . . . ولكن في القرن الثامن عشر ، كما في القرون السالفة ، لم يكن عجز ملك ما او مقدرته الزوجية ، وعقم ملكة او قابليتها لانجاب الاطفال ، لم يكن ينظر اليهما كقضية شخصية بل كقضية سياسية تتعلق بالدولة ، لانهما يحددان وراثة العرش ، وبالتالي ، فهما يقرران مصير البلاد باجمعها . وكان السرير بصورة مكشوفة جزءا من الحياة الانسانية شأنه شأن جرن المعمودية او النعش . وفي مراسلات ماري تيريز وماري انطوانيت التي كانت بكل الحالات تمر بايدي موظفي حفظ وثائق الدولة وامين السر كانت تتحدث امبراطورة النمسا وملكة فرنسا بحرية تامة عن كل تفاصيل وآلام هذه الحياة الزوجية الفريدة في بابها . فتصف ماري تيريز لابنتها فوائد السرير الزوجي المشترك بلباقة وتسدي اليها بعض النصائح الانثوية الدقيقة عن كيفية الاستفادة بمهارة من كل فرصة تمهيدا للعمل الجنسي ، وتخبر الابنة بدورها امها عن حلول او تأخر عادتها الشهرية ومحاولات زوجها الفاشلة ، وال« افضل قليلا ! » . ففي القرن الثامن عشر كان ينظر للاشياء الطبيعية بصورة طبيعية .

ولكان الامر قد هان فيما لو كانت الام هي الوحيدة في اطلاعها على هذا الخذلان السري ! ولكن الوصيفات جميعا كن في الواقع يتحدثن عنه كما كان كل مرافقات الشرف والسادة والضباط والخدم والغسالات في بلاط فرساي يعرفون ذلك ، حتى الملك بالذات قد تعرّض على مائدته الشخصية الى اكثر من نكتة سمجة . وفضلا عن هذا ، فقد كانت البلاطات الملكية في اوروبا باسرها مهتمة بهذا الامر بصورة جدية ، بل اكثر من جدية ، لان ولادة سليل لبيت البوربون تشكل قضية سياسية عليا لتعلق وراثة العرش بها . ولذا فقد كان الملوك والامراء في كل بلاطات اوروبا يضحكون ويهزلون في مجالسهم ورسائلهم من لويس السادس عشر . وهكذا غدا « سرّ » عجز الملك الجنسي كاسرار المهرجين ، ليس في فرساي وحدها ،

وانما في باريس باجمعها ، حتى انتقل الى احاديث السابلة في الشوارع ، ونظمت فيه « الطقطوقات » الشعرية .

ولكن كـان يختبىء وراء هذا القنـاع الهزلي الظاهر حقيقة مرة مشؤومة ، اذ كان لهذه السنوات السبع من العجز الزوجي تأثير معنوي حاسم على شخصية الملك والملكة ، كما نجم عنه ذيول سياسية ما كان بالمستطاع فهمها لو لم تعرف هذه الوقائع : ان مقدرات زوجين هنا متصلة بمقدرات العالم . ولو كان هذا العيب الشخصي لدى لويس السادس عشر مجهول الامر لما كـان بالمستطاع فهم سلوكه المعنوي ، لان قيافته كـانت تعكس ، بصورة واضحة كأنها تحليل طبيّ ، كل السمات الشديدة الدلالة على مركب نقص فيه ، ناتج عن ضعف عضوي . وان القدرة على التصرف في الحياة معدومة لدى هذا « المنبوذ » لانعدامها لديه في حياته الشخصية. فهو لا يستطيع اثبـات شخصيته ، كما يعجز عن ابداء ايـة ارادة ، بله فرضها ، فهو اعسر خجول يحس في طويّته بالعار ، ويفرّ من مجتمع القصر ولا سيما من صحبة النسـاء ، لانه يعلم ، وهو الرجل الطيب ذو الطبيعة الصادقة ، ان الجميع يعرفون عيبه . ولشدّ ما كانت تربكه الابتسامات الخبيثة ذات المغزى ، فيحمل نفسه على ابـداء بعض السطوة والظهور بمظهر الرجولة ، ولكنه يتجاوز الهدف فيصبح آنذاك عنيفا فظا سمجا . انه لفرار فذّ في حركة ليس عنفها إلا ظاهريا لا يخدع احدا . وعلى ذلك لم يفلح مطلقا في الظهور بمظهر الواثق مـن نفسه ، متحررا وطبيعيا ، بله الظهور بمظهر الجلالة المهيبة . فلقد استحال عليه التصرف كملك في العلن اذ كانت تنقصه الرجولة في حياته الخاصة .

ولا يتناقض كون هواياته الشخصية هوايـات رجل شديد البأس ، كالصيد والعمـل العضلي (لقد اقـام مشغلا للحدادة لا يزال بالامكـان مشاهدته) مع هذه اللوحة الطبيعية التي رسمناها له ، لان مـن يشعر بضعفه الداخلي يحـاول ابداء قوته بمناسبة وغير مناسبة . وعندما كان لويس السادس عشر يطارد خنزيرا بريا على صهوة جواده المزبد ساعات طويلة عبر الغابة ، او عندما كان يرهق عضلاته منكبا على السندان ، فقد كان الشعور بالعنفوان الجسمي بصورة خالصة يعوضه بصورة مفرحة عن ضعفه الخبيء : فخادم إلهة الحب فينوس العاجز يغدو سعيدا بالظهور بمظهر إله النار والحديد فولكان . ولكن ما ان كان لويس السادس عشر يرتدي زي الحفلات ، ويبدو وسط الحاشية حتى كان يدرك ان هذه القوة العضلية ليست بالقوة الحقيقية وحدها ، فيبادره الشعور بالارتباك حالا ،

وكان من النادر ما يبدو آنذاك ضاحكا او مسرورا ، او سعيدا .

ويتجسم شعوره الخفي بالضعف هذا على اخطر ما يكون التجسم من وجهة النظر النفسانية في علاقاته المعنوية مع زوجته ، اذ كان ذوقه يمج تصرفات ماري انطوانيت في كثير من النواحي ، فهو يكره البطانة التي تعاشرها ، وتحنقه الدوامة المستمرة التي تثيرها تسلياتها الصاخبة ، كما يحنقه تبذيرها ومجونها البعيدان عن الاتسام بطابع ملكي ، ولو كان رجلا حقيقيا لاستطاع معالجة ذلك حالا ، ولكن هل بمستطاعه التظاهر بانه السيد المهيمن تجاه المرأة التي تشاهد كل ليلة حيرته وارتباكه وتشهد عجزه واخفاقه ؟ ان لويس السادس عشر ، وهو الزوج العاجز ، مفلول السلاح ضد زوجته ، وكلما طال امد هذا الوضع المؤلم زاد سقوطه تحت سيطرتها ، وازداد انحداره بصورة تثير الشفقة حتى اصبح عبدا لها . وكان باستطاعتها ان تفرض عليه كل مشيئة لها ، بينما كان هو ابدا مستعدا للتعويض بتخاذل لا حد له عن تلك الخطيئة التي كان يحس في قرارة ذاته بانه مسؤول عنها ... فهو لا يمتلك القوة الكافية للتدخل بصورة آمرة في حياة زوجته ، والحد من تصرفاتها المجنونة العلنية . إذ انّ هذه القوة ليست في الواقع سوى التعبير المعنوي عن قدرة جسدية . وعلى هذا تشهد الامبراطورة كما يشهد الوزراء والبلاط بأسى تجزؤ سلطة الدولة اربا اربا بصورة مجنونة بين يدي شابة طائشة بسبب هذا العجز الذي آل الى مأساة . ومن المسلّم به تجريبيا انه اذا ما تركز توزيع القوى في منزل زوجي ما ، ظل ذلك التوزيع ثابتا ، واحتفظ كل من الزوجين بالمركز الذي تقلده ، وهكذا ظل لويس السادس عشر حتى بعد ان اصبح زوجا حقيقيا ، وأباً لأسرة ، ظل ــ وكم كان من المفروض فيه ان يكون سيّد فرنسا ــ خادما مطيعا لماري انطوانيت لانه لم يستطع في الظرف المناسب ان يكون زوجها الحقيقي .

ولم يكن اخفاق لويس السادس عشر الداخلي هذا سوى التأثير الحاسم على ماري انطوانيت ايضا ، لانه ــ وحسب قوانين الجنس ــ قد ترك هذا الوضع المضطرب لدى المرأة أعراضا معاكسة تمام التعاكس للرجل ، لان النشاط الجنسي لدى الرجل ان خضع للاضطراب شوهد عليه الارتباك ، وضعف الثقة بالنفس ، والمرأة عندما تمنح ذاتها دون طائل يتولد لديها ــ لا محال ــ اضطراب عنيف ، وتهيج شديد ، وتوتر عصبي . وماري انطوانيت بجبلتها الاولى امرأة طبيعية تماما ، شديدة الانوثة ، رقيقة العاطفة ، قدّرتها الطبيعة لخصب الامومة ، ولم تكن في الواقع تطمع

الا بالخضوع لرجل حقيقي ، ولكن القدر قـد اراد لهذه المرأة الراغبة في الحب ، والجديرة به ، زواجا غير طبيعي وقيّض لها رجلا تنقصه الرجولة . صحيح أنها كانت في الخامسة عشرة من عمرها عندما تزوجت ، ولم يكن اختلال زوجها الجنسي آنذاك ليثقل عليها ، بيد ان الذي زلزل اعصابها واثار تهيجها الخطر في هذه الحالة الخاصة ، هو أن ذلك الزوج الذي فرضته عليهـا مصالح السياسة لـم يدعها تمضي تلك السنين السبع في تعفف تام . بل كان هذا العاجز والمترهل يعيد الكرة تلـو الكرة ، وفي كل ليلة دونما انقطاع ، ودون جدوى ، فوق جسدها البضّ . وهكذا كانت غرائزها الجنسية في حالة إثارة دائمة طوال كل تلك السنين ، وبطريقة مذلة لم تستطع إزالة بكارتها . وليس المرء بحاجة لان يكون طبيبا للامراض العصبية كي يدرك بان توترها العصبي التعيس ، وحركتها الدائمة ، وعدم اكتفائها المستمر ، وجريها المحموم وراء الملذات ، لم يكن كـل ذلك سوى النتائج التقليدية لتهيج جنسي ظامىء ابدا . وان هذه المرأة التي تمتلك بعد سبع سنين من زواجها لفي حاجة دائمة الى الحركة والى اثـارة الضجة حولها ، لانه لم يحدث قط ــ بعد ان اثيرت عواطفها ــ ان روت غلتها الارواء التام . وما كان في البدء عبث اطفال مرحٍ وحسب ، قد استحال شيئا فشيئا الى تعطش للملذات ، تعطش عصبي مرضي يثير استهجان البلاط ، تعطش حاولت ماري تيريز وجميع اصدقائها ، مكافحته دون نتيجة . وفيما كانت رجولة الملك المختلّة تجد تنفسا لها في عمل الحدادة الشاق ، وهواية الصيد ، والتعب العضلي ، كانت عاطفـة الملكة حبيسة متجهة في مسلك خاطىء ، لائذة بصداقات نسائية عاطفية ، جانحة الى المجون مـع بعض النبلاء الشباب ، والى هوى التزين وبعض الهوايات الاخرى التي لم تكن لتكفي طبيعتها المتدفقة ، فتهجر ليالي بكاملها سرير الزوجية ، مقر هوانها المؤلم ، وتدع زوجها الكئيب يستريح مـن عناء الصيد مستغرقا في نومه بينما هي تتسكع حتى الخامسة صباحا في حفلات الاوبرا ، وقاعات الميسر ، والولائم ، مع بطانة لا يركن لها ، تتمتع بالمثيرات الغريبة عليها . فهي ملكة غير كفءٍ لانها زوجة رجل عاجز . ولكن كثيرا ما كانت تبرهن بعض نوبات الحزن العنيفة بان هذا المجون كان في الواقع خلوا من السعادة ، ولم يكن سوى ثمار رد فعل خيبة املها الداخلية . ويكفي للتدليل على ذلك التفكير ، فيما كتبته لأمها ، بهذه الصرخة المنبعثة من اعماقها عندما وضعت قريبتها الدوقة دي شارتر طفلا ميتا :

« كم اتمنى على الرغم من هول ذلك ، لو بلغت هذه المرحلة ! »

انها تتمنى لو تلد طفلا ميتا للخروج من هذا الوضع المهين التعيس ، وبمعنى آخر ان تصبح امرأة كغيرها من النساء ، لا عذراء بعد سبع سنين من الزواج ! ومن لا يشهد يأس المرأة وراء هذه الشهوة المتعطشة الى اللذة ، لا يستطيع ان يدرك او يعلل التبدل العجيب الذي طرأ على ماري انطوانيت عندما غدت زوجا ثم اما . فهدأت اعصابها حالا ، وبصورة محسوسة ، وبدت ماري انطوانيت اخرى : تلك التي اصبحتها في الشطر الثاني من عمرها ، آمرة جريئة فسيِّدةً نفسها ، ولكن جاء هذا التغير متأخرا جدا . فالحوادث الاولى بالنسبة للزواج هي حاسمة ، كما هي بالنسبة للطفولة ، وليس بمقدور السنين ان ترتق فتق اقل تمزقٍ في النسيج الروحي الشديد النعومة ، المرهف الحساسية ، وما كانت الجراح العاطفية البعيدة الغور ، الخفيّة عن الانظار لتعرف الشفاء التام .

ومع ذلك ، لم يكن هذا كله سوى مأساة شخصية ، مخصبة لها نظائرها كل آن وراء الابواب الموصدة ، وخلف ستائر المخادع ، ولما كان له تلك الاهمية ، لو لم تجتز ــ في هذه الحالة بالذات ــ نتائج العجز الزوجي المشؤومة دائرة الحياة الشخصية وتتجاوزها بمراحل ، فالزوج والزوجة هنا ملك وملكة ليس بمقدورهما تجنب التعرض لمرآة الفضول العام المشوهة . والمفروض ان يكون سرا عن الاخرين غدا ــ في حالتهما هذه ــ يغذي الثرثرات والنقد ، ولم يكتف بلاط كبلاط فرساي سيىء الطوية بملاحظة سوء الطالع هذا ، وانما اخذ ينقب دون انقطاع طلبا لمعرفة ماهية التعويضات الجنسية التي قد تكون ماري انطوانيت أباحتها لنفسها . واصبح الشغل الشاغل ، منذ الان فصاعدا ، لهذه العصبة من الثرثارين ذوي البطالة المترفة امرا بعينه : ترى مع من تخون ماري انطوانيت زوجها ؟ ولمّا لم يكن هنالك من مستند يركن اليه ، فقد اضحى شرف الملكة ــ لهذا السبب ــ موضوع التعليقات الماجنة ، فتكفي نزهة على صهوات الجياد مع « لوزون » مثلا او مع « كواني » كي تجعل من هذا او ذاك عشيقا لها ، كما تكفي جولة صباحية في الحديقة مع بعض السيدات والسادة لتثير احاديث عن ليال حمراء لا يمكن وصفها . وهكذا اهتم البلاط باجمعه ، وبصورة دائمة ، بالحياة الغرامية للملكة العاثرة الحظ ، وانقلبت التخرصات الى اغنيات ، و « طقطوقات » وأشعار فاحشة ، وكانت السيدات في البدء هي اللواتي يتناقلن من وراء مراوحهن تلك « الطقطوقات » الجنسية ، ولا تلبث ان تأخذ سبيلها الى الخارج فتطبع وتوزع على الشعب بحيث لم يحتج الصحفيون اليعاقبة ــ يوم اخذت الدعاية الثورية بالامتداد ــ للتفتيش

كثيرا عن الحجج التي ستسمح لهم بتصوير الملكة كمثال حي للدعارة ، وكمجرمة يغمرها العار ، وليس على النائب العام الا ان يغرف التخرصات الجنسية من هذا المعين الذي لا ينضب لكي يدفع براسها الصغيرة تحت سكين المقصلة . وهكذا يتجاوز الغباء ، والمأساة الشخصية ، والنتائج الناجمة عن بؤس زوجي ، يتجاوز القدر ليدخل ميدان التاريخ العالمي : وفي الحقيقة لم يبدأ تحطيم الهيبة الملكية مع سقوط الباستيل وانما بدا في فرساي ، وليست الصدفة هي التي جعلت نبأ عجز الملك الجنسي ، وكذلك المفتريات الخبيثة عن تعطش الملكة للذة تتناهى الى آذان الامة باسرها بهذه السرعة ، وانما على العكس فان لذلك دواعي سرية وسياسية وعائلية . وفي الواقع فقد كان هناك في البلاط اربعة او خمسة من اشد الناس قربى للملك ، يرون في استمرار خيبة ماري انطوانيت تحقيقا لمصالحهم الشخصية ، وبين هؤلاء الاشخاص شقيقا الملك اللذان يسعدهما كثيرا ان يريا نقص لويس السادس عشر الجسماني ، وخوفه من مبضع الجراح ، لا يحطمان حياته الزوجية فحسب ، وانما ينحرفان بالتسلسل الطبيعي لوراثة العرش الفرنسي ، موجدين بذلك فرصة غير متوقعة لهما للوصول الى التاج . ولذا فقد كان الكونت دي بروفانس والكونت دارتوا — شقيقا الملك — يستمرئان بسعادة ما كان مأساة بالنسبة لماري انطوانيت ، وكلما استمر هذا الواقع المؤلم ازدادا تأكدا بان آمالهما السابقة لاوانها قد تتحقق يوما ما . ولذا فقد تفجر حقدهما على اشد ما يكون بعدما غدت العلاقات الزوجية بين الملك وزوجته طبيعية ، وعثر لويس السادس عشر اخيرا على رجولته بعد سبع سنوات من زواجه ، ولم يسامح الكونت دي بروفانس ماري انطوانيت قط عن هذه الضربة الشديدة التي انزلتها بكل آماله فقضت عليها ، وسيحاول بالطرق الخبيثة الحصول على ما لم يستطع الحصول عليه بالطرق الشرعية . وهكذا غدا اخوا لويس السادس عشر واقاربه اخطر خصومه منذ ان اصبح والدا ، وهكذا فقد كان للثورة مؤازرون في البلاط نفسه ، وقد فتحت لها ايدي الامراء الابواب ، وقدمت اليها اخيرا الاسلحة ، ولقد زعزعت هذه المرحلة من الحياة الزوجية هيبة الملك في الداخل اكثر مما فعلته جميع الاحداث الخارجية ، ولعله من الواقع الراهن ان المقدرات الشخصية الخفية هي التي تسبب — في الاغلب الاعم — الاشياء المدنية والعامة ، وتكاد الحوادث العالمية كلها ان تكون نتيجة لخلافات داخلية شخصية . وإن احد اسرار التاريخ الكبرى جعل الحوادث التافهة ذات نتائج لا حصر لها ، ذلك ان التاريخ يستخدم خيوطا واهية كخيوط

العنكبوت كي ينسج منها شبكة الاحداث المقدرة الصلبة . وتستطيع دفعة صغيرة في تراكيبه الميكانيكية المركبة بصورة عبقرية ، تستطيع ادنى دفعة إثارة أشد القوى هولا . وهكذا يتخذ مجون ماري انطوانيت اهمية رئيسية ، كما ان حوادث الليالي الاولى الظاهرة السخرية ، وحوادث السنين الزوجية الاولى لا تكيّف شخصيتها فحسب بل انها تعين التطور العام .

ولكن يا لها من بعيدة تلك السحب التي تتجمع مهددة منذرة ! وكم لبثت تلك النتائج والتعقيدات بعيدة عن الخاطر الصبياني للصبية ذات الخمسة عشر عاما التي كانت تمازح رفيقها المتعثر دونما ادراك ، والتي كانت تخال في قلبها الصغير المنطلق ـ وعيناها تبرقان فضوليتين مبتسمتين فرحتين ـ تخال نفسها صاعدة درجات العرش بينما كانت المقصلة بانتظارها في نهاية الطريق ! ولكن الآلهة لا يبدون اية إمارات ، ولا يخطرون اولئك الذين نذروهم الى مصير قاتم ، وانما يدعونهم يتابعون طريقهم دون تخوف او توجس ، الى ان ينقادوا الى مصيرهم انقيادا تاما .

٣ ـ البداية في فرساي

لا يزال قصر فرساي حتى اليوم يبرهن على انه اروع رمز للاوتوقراطية « الحكم المطلق » المستفزة ، فيشمخ قصرا منيفا دون مبرر ظاهر وسط الريف الطلق ، وعلى بعد خمسة فراسخ من العاصمة . ان المئات من نوافذ هذا القصر المطل على الاقنية المشيدة ببراعة ، والحدائق المنسقة المخططة بابداع وفن تتفتح على الفضاء الرحب . ولم يكن يجري هناك اي نهر نافع للملاحة ، ولا تلتقي الطرق والمسالك ، ومع ذلك فقد كان هذا القصر يرتفع مزهوا ببهائه امام الانظار المشدوهة ، وهو الذي اوجدته الصدفة الخالصة ونزوة امّارة لعاهل عظيم . اما العاهل فقد كان لويس الرابع عشر الذي كان يرغب في تحقيق ارادته القيصرية ، اي ارضاء ميله الى عبادة ذاته واشادة هيكل مذهل لها . وكان الطاغية الاوتوقراطي العنيد قد فرض بنجاح على البلاد المجزاة رغبته في تركيز السلطة كلها بيد واحدة كما فرض على الدولة الخضوع للنظام ، وعلى المجتمع الاخلاق ، وعلى البلاط الاعراف والاصول ، وعلى الدين الوحدة ، وعلى اللغة النقاء . وكانت ارادة التوحيد هذه تنبثق من شخصه . كما جعل من شخصه بالذات مرجع كل مجد : أنّى وجدتَ فهناك محور فرنسا ومظلة العالم .

ولكي يجسم ارادته المطلقة بصورة قاهرة فقد نقل « الملك الشمس » عمدا قصره بعيدا عن باريس ، مبرهنا بتوطيد اقامته في هذه البقعة المنعزلة على ان ملك فرنسا لا يحتاج الى المدينة او الى المواطنين ، ولا الى هـذه الكتل البشرية كدعائم او كإطار لسلطانه . فحسبه ان يمد ذراعه ويأمر ، لتتحول المستنقعات والرمال حالا الى رياض وغابات ومغاور ومساقط مياه ، وينتصب قصر من اجمل وابدع القصور . هنا في هذه البقعة التي اختارها الطاغية تشرق وتغيب شمس السلطان . لقد شيّد قصر فرساي ليبرهن لفرنسا على ان الملك هو كل شيء ، وأن الشعب مجرد نكرة .

ولكن القوة الخلاقـة لا تبقى متعلقة الا بمن تود ان تغمره بفيضها . والتاج وحده ، هو كل ما بالامكان وراثته ، واما الجلال والقوة فلا يورثان . فلويس الخامس عشر ولويس السادس عشر وريثا القصر الفخم والدولة الوطيدة الاركان على ارسخ الاسس هما كائنان محدودان ، عبدان للملذات ، وضعيفان ، وادنى بكثير من ان يكونا خلاّقين . ويبقى في الظاهر كل شيء تحت حكمهما سالما : الحدود واللغة والعـادات والدين والجيش لان يد لويس الرابع عشر الفعالة قد تركت فوق الاشكال آثارا بليغة لا تعفى حتى بعد مضيّ مئة عام . لكن هذه الاشكال ستكون قريبا بحاجة الى المضمون ، الى مادة الاندفاع الخلاق النارية . ان لوحة فرساي تبقى في عهد لويس الخامس عشر كما كانت عليه في عهد سلفه ، ولكن معناها لم يعد هو نفسه . ولا يزال ثلاثة او اربعة آلاف خادم في ازيائهم الرسمية الفاخـرة يذرعون ساحات القصر ودهاليزه . ولا تزال الاصطبلات تضم ما يناهز الفي جواد . كما أن مظاهر البروتوكول الاصطناعية ما زالت تسري فيه . ويعتبر هذا البلاط في ذلك الزمن من اشد بلاطات اوروبا ثقافة واناقة وشهرة . ففي قاعاته المزينـة والمجهزة ان لحفـلات الرقص والاستقبالات او لحفـلات التهريج ، نجـد السيدات والسادة يتظاهرون كما في الماضي بألبستهـم الفاخرة المصنوعة من الساتان والبروكار والمزدانة بالاحجار الكريمة في قاعة المرايا ، والحجرات البراقـة المغشاة بالذهب . ولكن الذي كـان ، قبل اليوم ، التعبير الحي للحكم لم يعد منذ زمن طويل سوى مجون وحركات خالية من الروح والمعنى . وعلى الرغم من ان اسم الملك هو ايضا لويس ، فهو لا يملك ميزات العاهل ، وهو عديم الفائدة ، عبد للنساء ، متهالك ، مع انه بدوره يجمع في بلاطه اساقفة ، ووزراء ، ومارشالية ، ومهندسين ، وشعراء وموسيقيين ، ولكن الفرق ما بينه وبين سلفه لويس الرابع عشر يماثل الفرق ما بين اتباعه اليوم وبين اتباع سلفه امثال بوسويه ، وتورين ،

وريشيليو ، ومانسار ، وكولبير ، وراسين ، وكورنيي . ان اتباعه ليسوا سوى عصبة من الدساسين المرنين الطامعين في المناصب ، ومن الذين لا ينشدون سوى المتعة ، لا الخلق ولا الابداع ، ويستفيدون كالمتطفلين بما يجدونه بدلا من نفخ الدم والحياة في الاشياء . ولم تعد المشاريع الجريئة والاصلاحات الحازمة والآثار الشعرية تتبرعم وتتفتح في قاعات النباتات الرخامية ، وانما اخذ يتفتح فيها بعجرفة حشائش الخديعة والتملق السامة . ولم تعد الاعمال السامية هي التي تغلب عليه ، بل التحزبات . ولم تعد الكفاءات هي ما يعوّل عليه ... ولكنها المحسوبية . فهذا الذي ينحني اكثر من سواه عند نهوض مدام بومبادور او الدوقة دي باري ينال الحظوة في عينيه ، فيرفعه الى اسمى المراتب . فيما كان ينحدر هو الى ادنى دركات الانحدار ، غير مبال كليا بشؤون دولته او اسرته او رعاياه ، او العالم ، بذيئا داعيا بذاءته بتكبر ، ومن « بعدي ليكن الطوفان » كما لم يعد يهتم باخلاق البلاط ، فسئم الحكم ، ولم يعد ينشد سوى عيشه سنواته الاخيرة لنفسه فقط ، وليتهدم كل شيء وراءه او حوله ، لذا كله كانت الكلمة تتصدر العمل ، والمظهر الخادع يغلب الحقيقة ! فهؤلاء الرجال المحاطون باطار ضيّق لم يعودوا يمثلون ادوار الملك والكاهن والمارشال الا فيما بينهم ، ومن اجل مصالحهم ، في كثير من الرشاقة انما دون اي هدف . لقد نسي جميعهم فرنسا . والحقيقة انهم لا يفكرون الا في انفسهم ومناصبهم وملذاتهم . وفرساي الذي شيّده لويس الرابع عشر ليكون ارفع منبر في اوروبا اصبح اليوم ، في عهد لويس الخامس عشر ، مسرحا بسيطا للهواة ، ولكنه اروع مسرح عرفه العالم واغلاه تكاليف ايضا .

فعلى هذا المسرح العظيم تظهر فتاة في الخامسة عشرة من عمرها ، تسير لأول مرة بخطوات المبتدئة المضطربة ، وتبدأ بلعب دور اختباري صغير ، دور ولية العهد . ولكن الجمهور المكوّن من أرفع النبلاء ، يعلم حق العلم بأن دور النجمة في فرساي ، دور الملكة ، محفوظ لهذه الأميرة النمساوية الشقراء . ولذا نجد جميع الانظار متجهة صوبها بفضول منذ قدومها . ان التأثير الأول رائع : لأنهم لم يشاهدوا منذ زمن بعيد فتاة بهذه الفتنة ، بقدها الأملد الرشيق ، الذي يضارع البورسلين المرسوم وبعينيها الزرقاوين المتيقظتين ، وفمها المليء بالحياة والحيوية الذي يجيد ضروب تقليب الشفتين باغراء محبب أو الضحك بطريقة طفلية : هيئة لا شائبة فيها ! ــ فليس من العبث أن تكون كريمة أمبراطورة ــ . فعندما ترقص ، تتحرك بخطوة مرحة مجنحة ممتلئة نعمة ، ولكنها في الوقت نفسه تسير

مستقيمة فخورة واثقة في قاعة المرايا ، وتحيي برشاقة ذات اليمين وذات اليسار . والسيدات اللائي يجدن من حقهن أن يلعبن الدور الرئيسي في غياب سيدة أولى يعرفن ببغض ظاهر في هذه الصبية ذات الكتفين الضيقتين اللتين لم تكتمل استدارتهما بعد ، يعرفن فيها منافسة الغد المنتصرة . ومع ذلك ، فلها خطأ مسلكي سجّلته عليها بالاجماع الحاشيةُ القاسية : فالصبية ذات الخمسة عشر ربيعا تتخيَّل بصورة مستغربة أن لها الحق في الذهاب او الاياب بحرية ، ودون أي تصنع في قاعات البلاط القدسية بدلا من اتباع الصرامة الواجبة . فالصغيرة ماري انطوانيت المطبوعة علـى الطيش تدور وتنورتها في الهواء ، لاعبة مع شقيقي زوجها الصغيرين . انها لم تستطع بعدُ الاعتياد على الوقار الحزين ، ولا على التحفظ المجمد المطلوب دون انقطاع من زوجة أميرٍ ملكي . انها تعرف كيف تتصرف تصرفا لائقا في المناسبات العظيمة ، لأنها ربيت حسب العرف الاسباني والهابسبورغي المماثلين في الفخفخة . ولكنهم في بلاط هوف بورغ وشوينبرون لا يتقيدون بالرسميات الا في المناسبات الهامة . فهم لا يرتدون البزات الرسمية ، بزات السهرة والرقص مثلا ، الا في حفـلات الاستقبال ، ولكنهم سرعـان ما يخلعونها ويتنفسون الصعداء ارتياحا عندما يغلق البوابـون الباب خلف الضيوف ، فيسترخون اذ ّاك ويصبحون بسطاء متآلفين . وكان باستطاعة الأطفـال اللعب في مرح وجنون . انهم كانوا يستخدمون البروتوكول في «شوينبرون» ولكنهم لا يخدمونه كالرقيـق ، وكأنه الهي ، بينما هنا لا يعيشون في هذا البلاط الثمين العريـق لمجرد العيش فقط ، وانما ليمثلوا ايضا . وكلما ارتفعت مرتبة شخص ما ، ازدادت المتطلبات التي عليه اتباعها . عليه ان يتحفظ من الصباح حتى المساء ، ومن المساء حتى الصباح ، وان يتحفظ ويتحفظ ايضا ، والا أخذ فاقدو الرحمة من جمهور الحاشية الذين كان سبب وجودهم الوحيد هو العيش في هـذا المسرح ومـن أجله ، أخذوا بالتهامس . ولم تنشأ ماري انطوانيت كزوجة ولي العهد او كملكة ان تفهم معنى هذه القسوة البغيضة ، ومعنى مراسم فرساي الاحتفالية المقدسة . فهي لا تعطي الأهمية الكبرى التـي يعطيها سائر الناس لايمـاءة رأس أو لقضية حق التصدر ، ولن تخضع لذلك ابدا . فطبيعتها العنيدة المتمردة والصادقة معا قبل اي شيء آخر تكره كـل ضروب التحفظ . فهي تريد كنمساوية حقيقية الانسياق لميولها ، والحياة حسب مشيئتها ، دون أن تتحمل ، باستمرار ، هذه المظاهر البراقة ، وهذا الافراط الذي لا يطاق . وهكذا كما تهربت مـن الدراسة في فيينا ، مضت تبحث الآن عـن جميع

الظروف المواتية لتتهرب من مدام « نوايل » وصيفتها القاسية التي تسميها بتهكم السيدة « اتيكيت » . وما أكثر ما كانت هذه الصبية المباعة مبكرا لغايات سياسية ، تتمنى لا شعوريا الشيء الوحيد الذي حرمت منه في غمرة الحياة الباذخة التي تحياها وهو بضع سنين حقيقية من حياة الطفولة . ولكن قرينة ولي العهد لا تستطيع ، ولا يجوز لها ان تبقى طفلة : فالجميع يتحالفون لتذكيرها بالتزاماتها حيث يفرض عليها أن تظل متجمدة مراعية لمركزها . ولقد كان القسم الهـام من ثقافتها مـن نصيب السيدات بنات لويس الخامس عشر : مدام أدلايد ، ومدام فكتوار ، ومدام صوفي ، وهن عوانس ثلاث سيئات الخلق مشاكسات لا يجروء أسلط لسان على الشك في عفتهن ، ففـي كنفهن تلقت ماري انطوانيت سائر فنـون حرب البـلاط الصغيرة ، فكان عليها أن تتعلم فن القدح والذم والدسيسة الخفيّة والوخز المحكم . وكان هذا الضرب مـن التعليم في البداية يسلي ماري انطوانيت الصغيرة التي تنقصها التجربة ، فرددت ببراءة النكات والطرائف الجارحة التي لقنَّها اياها . ولكن هـذا الخبث ينافي ضمنا صراحتها الفطريـة ، وطبيعتها العفوية المستقيمة . ولسوء الحظ لم تتعلم ماري انطوانيت قط التظاهر بكتم مشاعرها ، فتحررت بسهولة بفضل غريزتها الصحيحة من وصاية العمات ، والكونتيس دي نوايل التي لم تنل هي الأخرى كثيرا من النجاح مع تلميذتها .

لقـد كانت ماري انطوانيت ترغب في اللعب والضحك والمرح ، ولكن السيدة « اتيكيت » كانت ترفع اصبعا قاسيا ، بأنَّ هذا او ذاك ، اي بالاجمال ، كل ما تشتهيه ماري انطوانيت هو متناقض مع وضع ولية عهد . كما ان الأب « فيرموند » الأستاذ السابق ، ومعرّف الاميرة وقارئها الحالي كان أسوا حظا معها ايضا . وفي الحقيقة كانت ماري انطوانيت بحاجة مخيفة للتعلم ، لأن ثقافتها دون الوسط بكثير : ففي الخامسة عشرة من سنيّها كانت قد نسيت اللغة الألمانية تقريبا . وهي أبعد ما تكون عن الالمام التام باللغة الفرنسية . فكتابتها متعثرة خليقة بالاشفاق . وانشاؤها مليء بألفاظ السوقة والاخطاء الاملائية ، وهي بحاجـة لأن يحبّر لها الكاهن مسودة رسائلها ، وكان عليه فضلا عن ذلك ان يطالبها بالقراءة كل يوم ولمدة ساعة واحدة ، أو يدفعها لتقرأ بنفسها ، لأن ماري تيريز كانت تطرح عليها الاسئلة في كل رسالة تقريبا ، بخصوص هذا الموضوع وكانت لا تصدّق الا بمشقة بالغة أن صغيرتها « طوانيت » تقرأ وتكتب بعد ظهر كل يوم كما كانوا ينبئونها .

ولسوء الحظ فان تخوف ماري تيريز واحتراسها كان له ما يبرره ،

لأن « طوانيت » الصغيرة بسذاجتها ومهارتها معا عرفت جيدا كيفية الاستحواذ على الاب فيرموند ، ولم يكن من الجائز على كل حال ارغام ولية العهد أو مقاطعتها . وهكذا كانت تتحول ، دائما ، ساعة القراءة الى ساعة محادثة . فلم تكن تتعلم ، ان صح القول ، اي شيء ، وبالرغم من كل النصائح الملحة التي اسدتها اليها الأم فقد كان يتعذر ارغامها على العمل الجدي . ان زواجا اجباريا ، وقبل الأوان ، يعيق هنا تطورا مستقيما سالما . فهي امرأة اسماً كما يحتم عليها مركزها ، وطفلة بطبيعتها . فعليها من جهة أن تلتزم وضعا مطابقا لطبقتها ومركزها ، وعليها من جهة أخرى أن تتعلم كتلميذة مبادىء الثقافة الأولية . فهي تعامل حينا كسيدة عظيمة ، وتوبخ حينا آخر كطفلة صغيرة ، تطالبها مرافقتها بالتمسك بمسلكها ، وعماتها بالدسائس ، وأمها بالثقافة . وأما قلبها فلا يريد الا ّ ان يظل حيا فتيا . وتولّدَ هذه التناقضات بين السن والوضع ، بين رغبتها الخالصة واردات الآخرين ، تولّدَ عند هذه الطبيعة المستقيمةِ القلقَ الجموح ، والظمأَ الشديد الى الحرية . وهكذا سيكون لهما فيما بعد التأثير المشؤوم على مصيرها .

كانت ماري تيريز مطّلعة على حالة ابنتها الفظيعة الخطرة في بلاط ملك فرنسا ، وكانت تعرف ايضا ان هذه المخلوقة صغيرة جدا ، خفيفة ، طائشة ، وهي ابعد من ان تستطيع ـ بغريزتها ـ تجنب شباك الدسائس ومكائد سياسة القصر ، ولذا فقد عينت الكونت دي مرسي للاضطلاع بمهمة الخادم الامين لدى ماري انطوانيت ، وكتبت اليه بصراحة مدهشة تقول : « اخشى شباب ابنتي ، والتغرير الزائد ، وكسلها ، وعدم تخلقها باي ميل للجد . اوصيك بالسهر عليها ، موليةً اياك كامل ثقتي لئلا تقع في ايدٍ شريرة » .

وما كان في وسع الامبراطورة ان تختار خيرا منه ، وهو بلجيكي المولد ، الا انه مخلص بكليته لملكته ، لا يعرف التملق ، متحفظ دون تجهم ، صافي التفكير دون ادعاء . وكان هذا العازب الثريّ المتجرد من كل طمع والذي لا يطمح لشيء في الحياة سوى خدمة عاهلته بطريقة كاملة ، يؤدي المهمة المنوطة به بامانة مؤثرة ، وبكل ما يستطيع المرء ان يتصور من كياسة. انه سفير الامبراطورة لدى بلاط فرساي ، ولكنه بالحقيقة عين الام المنجدة ويدها ، وكانت ماري تيريز تستطيع بفضل تقاريره الصادقة ان تراقب ابنتها ، كما لو كانت تراقبها في مجهر . فهي تعرف كل كلمة تتلفظ بها ، وكل كتاب تطالعه ، او بالاحرى لا تطالعه ، وتعرف كل ثوب ترتديه ،

وكيف تتصرف او تبدّد يومها ، ومع من تتكلم ، وأية هفوة ترتكب ، لان مرسي ضيّق الخناق حول من بحمايته بمهارة لا توصف . ولقد كانت رسائل الامبراطورة المشجعة المطلعة على كل شيء بصورة خفية مستوحاة من مرسي ذاته ، لانه لم يكن من وسيلة اخرى سوى سلطة الام للتأثير على الصبية الجموح . اذ لا يحق له كسفير لبلاط اجنبي ، رغم كونه صديقا ، ان يوجه لولية العهد ملاحظات في قواعد السلوك الخلقي . كما لا يجوز له ان يحاول تهذيب او توجيه ملكة فرنسا المقبلة ، ونتيجة لذلك ، فانه في كل مرة يريد فيها الحصول على شيء ما ، يستكتب الام احدى هذه الرسائل العطوفة والشديدة اللهجة بآن واحد ، والتي تتسلمها ماري انطوانيت وتفضها وقلبها يخفق خشية . وكانت هذه الفتاة العابثة التي لا تخضع لاي انسان على الارض ، توجس خيفةً مقدسة عندما تكلمها امها ، حتى ولو كان ذلك كتابة ، فتطأطىء الرأس اذ ذاك بخضوع حتى تجاه اقسى التقريع .

حنون ، ودودة ، عدوة التفكير ، تلك هي الصبية ماري انطوانيت التي كانت لا تحمل اي نفور غريزي من اولئك الناس المحيطين بها . فهي تحب كثيرا جدها بالزواج لويس الخامس عشر الذي يدللها . وتتفاهم بطريقة مقبولة مع السيدات عماتها ومع السيدة « اتيكيت » ، ولها ثقة جمة في معرفها الطبيب « فيرموند » ، وحنانٌ مشوب بكثير من الاحترام الساذج لصديق امها الهادىء الوفي السفير مرسي . لكن هؤلاء جميعا أشخاصٌ مسنون رصينون وقورون متحفظون رسميون ، اما هي بسنيها الخمس عشرة فتحتاج الى من يماثلها بحيث تستطيع اللهو ببهجة وحبور وبساطة وهدوء تام . انها تريد رفاق لعب لا معلمين ومراقبين وأشخاصا يؤنبونها . ان شبابهالظامىء الى الشباب . ولكن من الذى تستطيع المرح معه ؟ ومع من بمستطاعها اللعب في هذا المنزل المرمري الجاف الفخم ؟ وفي الواقع ، فان رفيق اللعب الذي يناسبها اكثر من غيره ، نظرا لتعادل السن ، موجود قربها ، وهو زوجها بالذات الذي يكبرها بسنة واحدة ، ولكن هذا الصبي الكثير التذمر الوجل الذي غالبا ما ينقلب فظا لفرط خجله ، كان يتجنب ببلادة كل تآلف مع زوجته الفتية ، ولم يكن ليبدي اية رغبة بالزواج في سن مبكرة ، ولقد مرّ بعض الوقت قبل ان يقرر بان يكون « اديبا » بعض الشيء تجاه هذه الفتاة الغريبة . وهكذا لم يبق سوى شقيقي زرجها الصغيرين الكونت دي بروفانس والكونت دارتوا البالغين من العمر الاول ثلاثة عشر عاما ، والثاني أربعة عشر عاما .

فكانت تتسلى معهما بعض الأحيان كطفلة ، فيستعيرون الألبسة ، ويقومون بتأدية الادوار التمثيلية في الخفاء . ولكن ما ان يحسّوا بدنو خطوات السيدة « اتيكيت » حتى يخفوا كل شيء بسرعة مدهشة ، اذ لا يجوز مطلقا الامساك بولية العهد وهي تلهو . ومع ذلك فقد كانت هذه الفتاة المليئة بالحيوية تتوق الى الانشراح وتتعلق بشيء ما . فطلبت يوما من السفير ان يرسلوا اليها من « فيينا » كلبا من نوع « موبس » . كما ان المربية القاسية احست في اليوم التالي ، ويا للهول ! بان ملكة فرنسا المقبلة حملت الى حجرتها طفلي احدى الخادمات ، وراحت تزحف وتلهو معهما على الارض دون اهتمام بثيابها الجميلة . وهكذا فاننا نرى منذ الساعة الاولى حتى الساعة الاخيرة ان الكائن الحر الطبيعي المتجلي في ماري انطوانيت كان يحارب دائما كل ما هو اصطناعي مزيف في هذا الوسط الذي اصبح وسطها عن طريق الزواج ، وضد هذا التأنق المتكلف للتنورات المماثلة للسلال العريضة (زي انتشر لدى الطبقة الارستقراطية آنذاك) ، وضد الوضع المتجمد الذي يفرضه عليها لبسها المشد . وهكذا ايضا كانت فتاة « فيينا » الخفيفة المحبة للحياة تشعر دائما بانها غريبة في قصر فرساي ذي الابهة .

٤ ـ غـزو باريس

. على الرغم من انعزال القصر عن العاصمة ، فانه قريب منها بحيث انك تشاهد في الليالي الحالكة بتمييز من اعالي تلال فرساي هالة باريس المتلألئة مرتسمة في السماء . اما العربة فانها تجتاز الطريق بينهما في ساعتين . فهل هنالك ما هو طبيعي اكثر من ذهاب وريث العرش لزيارة عاصمة ملكه المقبل بعد يومين او ثلاثة من زواجه ؟ ولكن اليس المعنى الحقيقي او بالاحرى (عدم معنى) الشكليات الرسمية هو خنق الشيء الطبيعي او غشّه بكل وجوهه . فبين باريس وفرساي كانت تنتصب عثرة غير مرئية امام ماري انطوانيت : « الاتيكيت » . لان الوريث المنتظر لتاج فرنسا كان لا يستطيع دخول عاصمة ملكه مصحوبا بزوجته للمرة الاولى الا باذن مسبق من الملك واعلان مفخفخ فخم ، ومن ثم فان العائلة العزيزة على الرغم عن عداواتها الداخلية اللدودة كانت تحاول ان تؤخر قدر المستطاع هذا « الدخول السعيد » بالنسبة لماري انطوانيت . واذا بالعمّات العجائز المتنافرات ، والاخوان الطموحان : الكونت دي بروفانس

والكونت دارتوا ، ومدام دي باري(١) يتحدون جميعا ملهوفين لسدّ طريق باريس امام وريشة العرش . حتى لا تستمتع بسرعة بهذا النصر الذي سيثبت بصورة واضحة جدا مقامها في المستقبل . ففي كل اسبوع ، وكل شهر كانت عصبة الرفاق المذكورين تبتدع مانعا جديدا او تتقدم باعتراض جديد . وهكذا تمرّ ستة اشهر ، يعقبها اثنا عشر ثم اربعة وعشرون شهرا ثم ستة وثلاثون شهرا وماري انطوانيت لا تزال حبيسة وراء ابواب فرساي المذهبة . واخيرا ، وفي شهر ايار (مايو) ١٧٧٣ نفد صبرها ، وبدات بالهجوم علنا ، ومن ثم طلبت الاذن بالزيارة من لويس الخامس عشر الذي لم يجد اية غرابة في طلبها ، فوافق على منح اذنه ـ وهو الضعيف امام جميع النساء الجميلات ـ الى زوجة حفيده الفاتنة مسببا لعنات العصبة عليه . بل انه ذهب الى حد السماح لها بان تختار بنفسها يوم دخولها الى العاصمة .

اختارت ماري انطوانيت يوم ٨ حزيران ، ولكنها ـ الان ، وقد اعطى الملك موافقته نهائيا ـ ارادت التمتع بالانتقام من هذا النظام اللعين الذي امسك بها ثلاثة اعوام بعيدة عن باريس بالسخرية منه سرا . وكما يستبيح بعض المخطوبين ـ دون ان ترتاب عائلاتهم بذلك ـ نشوة اهراق احدى ليالي الحب حتى يضيفوا الى الشهوة فتنة الثمرة المحرمة ، هكذا اقترحت ماري انطوانيت على زوجها وسلفها قبيل « الدخول البهيج » الذهاب الى باريس سرا . فطلبوا اعداد المركبة في ساعة متأخرة من الليل ، ووصلوا الى المدينة المحرمة حيث ذهبوا الى مرقص الاوبرا مقنعين متنكرين . ولما كان ان حضروا في اليوم التالي القداس الاول بصورة صحيحة فقد بقيت مغامرتهم مجهولة ، ولم يكن هنالك اية فضيحة ، بينما انتقمت ماري انطوانيت بصورة موفقة ، وللمرة الاولى ، من « الاتيكيت » .

---

(١) مدام دي باري : عشيقة لويس الخامس عشر الاخيرة ، أي انها الملكة الفعلية غير المتوجة ، بادهتها ماري انطوانيت بتحريض من بنات الملك بالعداوة ، وامتنعت عن توجيه الكلام اليها ، مما اضطر الاخيرة لالتزام الصمت المطبق ـ حسب قواعد العرف ـ في حضرة ماري انطوانيت . وبعد محاولات كثيرة ، وتدخل الملك والامبراطورة ماري تيريز بصورة مباشرة ، ونقل القضية الى الصعيد السياسي ، واهتمام البلاطين النمساوي والفرنسي بالقضية زمنا طويلا ، وجهت اليها في أعظم احتفال أعد خصيصا لذلك تسع كلمات ليس اسخف منها وهي : ان هنالك كثيرا من الناس في فرساي هذا المساء .

شغلت هذه القضية البلاط الفرنسي ، وبلاطات اوروبا الاخرى ، وسياسييها ووزراءها أمدا طويلا ، بينما كانت روسيا وبروسيا والنمسا تعد خلاله مؤامرة حرب تقسيم بولونيا البريئة ، وتنفيذ تلك المؤامرة . (المعربان)

ولقد احدث بها الدخول الرسمي تأثيرا زاد من فاعليته كونها قد ذاقت بالسرّ قبلاً فتنة باريس . ومنح ملك السموات بذاته ــ بالاضافة الى ملك فرنسا ــ بركته للمناسبة المهيبة بصورة مشرقة ، اذ اقبل الثامن من حزيران يوما صيفيا رائعا لا تشوبه الغيوم مجتذبا جمهورا غفيرا من المشاهدين ، حتى اصبحت الطريق ما بين فرساي وباريس مجرد شقٍ بين سياجين متشابكين من البشر الضاجين بالهتاف والمزدهين بالاعلام واكاليل الورود المتعددة الالوان ، وكان المارشال دي بريساك حاكم العاصمة بانتظار المركبة الرسمية لكي يقدم الى الفازيين السلميين مفتاح المدينة على طبق من الفضة . واقبلت بعد ذلك نسوة الاسواق متبرجات بأبهى حليهن ، فقدمن اليها ثمار الموسم والزهر والفواكه وتمنين للسلالة المالكة حياة مديدة ، وفي نفس الوقت دوّت المدافع في الانفاليد وقصر البلدية والباستيل . ومضت عربة وريث العرش ووريثته تجتاز المدينة ببطء متّبعة رصيف التويلري حتى وصلت الى كنيسة نوتردام . وفي كل مكان : في الكاتدرائية ، في الجامعة وفي الاديرة كان مليك ومليكة المستقبل يستقبلان بالخطب ، ثم يمران تحت قوس نصر اقيم خصيصا لذلك ، ويجتازان غابة من الاعلام . ولكن اروع استقبال كان الذي لقيه من الشعب ، اذ هرع عشرات ، بل مئات الالوف من الاشخاص من كل شوارع المدينة الجبارة لكي يروا وريث العرش ووريثته . وكانت مشاهدتهم لهذه المراة المفتونة والفاتنة الى درجة تتعدى اقصى ما كانوا يأملونه ، فتبعث فيهم حماسا لا يمكن التعبير عنه . فكانوا يصفقون ويهتفون ويلوّحون بالقبعات والمناديل ، وتتدافع النساء والاطفال لكي يكونوا على مقربة . واوشكت ماري انطوانيت ان تخاف عندما شهدت من شرفة قصر التويلري كل هذه الامواج المجنونة في تلك البحيرة البشرية الهائلة وهتفت : « رباه كم من الناس ! » وانحنى المارشال دي بريساك الواقف بقربها يجيبها بالكياسة الفرنسية المعهودة : « انكِ ترين هنا يا سيدتي مائتي الف رجل مغرمين بكِ . »

كان الشعور الذي اثاره في نفسها هذا الاحتكاك الاول بالشعب قويا جدا ، فهي لا تفهم الحوادث الا بفضل احتكاك شخصي ومباشر ، فيجب ان ترى وتحس بنفسها ، ذلك انها ذات طبيعة يسيرة التفكير ، ولكنها اعطيت موهبة تقبل الاشياء . فهي لم تشعر ، وللمرة الاولى ، بعظمة وابهة المركز الذي رفعها اليه القدر الا في الدقيقة التيتوجّهت فيها الاعلام والصيحات والهتافات ، وصعدت باتجاهها امواج الجماهير المجهولة

صاخبة ملتهبة . لقد كانوا حتى الان يسمونها في فرساي « السيدة ولية العهد » ولم يكن هذا سوى لقب بين القاب اخرى كثيرة ، او احدى الدرجات الكثيرة في سلم الاشراف المتصلب الجاف الذي لا نهاية له . كلمة بلا معنى ومدلول بلا حياة . والان فقط ، ادركت ماري انطوانيت المعنى الحار والمجد اللذين تعِد بهما هذه الكلمة : وريثة عرش فرنسا . اما هذا الاحساس الجميل الناتج عن هذا الولاء الشعبي الذي لا تستحقه ، والذي اعطيت اياه متفجرا على الرغم من ذلك ، فقد ايقظ مشاعر كريمة من حفظ الجميل في نفس ماري انطوانيت . ولكنها اذا كانت تتأثر بسرعة تنسى بسرعة ايضا ، فتتقبل بعد عدة زيارات لباريس هذه الفرحة الكبرى كتكريم طبيعي واجب تجاه مقامها ومركزها ، وتسر منه بلا مبالاة الاطفال التي تجعلها تتقبل كل هدايا الحياة بتكاسل ، وانه لشيء رائع بالنسبة اليها ان تكون موضع هتاف هذا الجمهور المتحمس ، وحب هذا الشعب المجهول . واصبحت تتمتع منذئذ بحب هؤلاء العشرين مليونا من الاشخاص كما لو كان ذلك حقا من حقوقها ، دون ان يخطر في بالها بان الحق يحمل معه واجبات ، وان اطهر حب ينتهي بالملل اذا لم يكن متبادلا .

ولقد غزت ماري انطوانيت باريس منذ سفرتها الاولى ، ولكن باريس من جهتها ايضا غزت ماري انطوانيت في الوقت نفسه . لقد بهرتها باريس منذ ذلك اليوم ، فاصبحت تذهب غالبا الى العاصمة التي لا تنتهي مفاتنها وتسلياتها . فتؤمها احيانا في رابعة النهار بأبهة عظيمة مع كل سيدات الشرف ، واحيانا في الليل مع بعض الاتباع الاخصاء . وكانت تختلف هناك الى منتديات الرقص او المسرح ، او تبيح لنفسها حرية الانسياق وراء المتع الكثيرة التي كثيرا ما تكون بريئة . والان وقد انسحبت المراهقة المتمردة من حياة البلاط المتجمدة الرتيبة رتابة التقويم ، فقد غدت تدرك الملل المنفر الذي يبعثه هذا البناء الضخم من المرمر والحجر في فرساي ، بما يحتوي من تحزبات ، وانحناءات ، ورسميات وفخفخة تقليدية وما الى ذلك من التصرفات المتكلفة بصورة مزعجة ، والحركة الابدية الرتيبة التي تقوم بها وجوه متجمدة ذات تحركات مرسومة ، بالاضافة الى تلك العمات اللائي لا يمكن احتمالهن . وهكذا اصبحت المركبة بصورة منتظمة تحمل ليلتين او ثلاثا في الاسبوع ، نساء متزينات مبتهجات الى باريس التي لا يرجعن منها الا عند الفجر ...

ولكن ما الذي كانت تراه ماري انطوانيت في باريس ؟ كانت تزور في المرات الاولى على سبيل الفضول ، كل انواع الانصبة والابنية والمتاحف

والمخازن الكبيرة ، وتذهب الى احتفالات شعبية ، وحتى الى معرض لوحات في ذات مرة . وسرعان ما اكتفت بذلك اذ ان حاجتها الى التثقيف قد ارتوت بالنسبة للعشرين سنة المقبلة ، واصبح باستطاعتها تخصيص كل وقتها لاماكن اللهو فقط ، فراحت تتردد بانتظام على الاوبرا ، ومسرح الكوميدي فرانسيز ، والكوميديا الايطالية ، والمراقص واماكن الحفلات ، وقاعات اللعب ، اي على ما يرادف اليوم بالنسبة للاميركان الاثرياء « باريس آت نايت » (باريس في الليل) او (باريس مدينة الملاهي) . ولشد ما كانت الاحتفالات الراقصة في الاوبرا تجتذبها اكثر من غيرها لان الحرية التي يؤمنها القناع هي الحرية الوحيدة التي منحت لهذه المرأة حبيسة مركزها . فهي تستطيع ان تبيح لنفسها وقناعها النصفي من المخمل الاسود فوق عينيها دعابات تستحيل على « السيدة ولية العهد » ، اذ يصبح بامكانها ان تتجاذب اطراف حديث لعوب مع بعض السادة ، بينا يكون الزوج الكامد العاجز قابعا في فراشه ، وان تحتك بكونت سويدي شاب وسيم الطلعة يدعى فرسن(١) ، وتتحدث معه محتمية بالقناع حتى تقترب سيدات القصر تمهيدا للعودة . ويمكنها ان ترقص ، وتطلق الحرية لجسدها اللدن الناري حتى الانهاك ، ويمكنها ان تضحك بلا غم ، اجل ، كان بامكانها اغتراف اللذات في باريس كما يشاء لها الفؤاد ، ولكنها لم تجتز مطلقا خلال كل هذه السنوات عتبة منزل بورجوازي ، ولم تحضر جلسة للبرلمان او الاكاديمية . ولم تزر سوقا او مستشفى ، ولم تحاول ان تعلم شيئا عن حياة شعبها اليومية . وكانت ماري انطوانيت تبقى دائما خلال كل هذه الزيارات السرية الى باريس ضمن نطاق ملذات المجتمع الارستقراطي الضيق البراق ، معتقدة بانها تشبع تماما حاجة « الشعب الطيب » وهي ترد بتراخ باسم على هتافاته الصاخبة ، الا ان الجمهور كان يستمر ، رغم ذلك ، في تشكيل التجمهر المتشابك المتحمس عند مرورها ، وكان النبلاء والبورجوازيون الاغنياء يتابعون التصفيق عندما تظهر مساء في مقصورتها في المسرح . ولقد كانت المرأة الشابة تشعر دائما وفي كل مكان بأن الشعب يحبذ تبطلها المرح وحفلاتها البهيجة المشرقة ، فيصفق لها وهي تدخل المدينة مساء حين يكون الناس عائدين من اعمالهم، او عندما ترجع الى فرساي في الساعة السادسة صباحا ويكون الناس ماضين الى استئناف عملهم . ولقد كانت ماري

---

(١) نبيل سويدي اغرمت به ماري انطوانيت واغرم بها ، حتى اذا ما كثرت الاقاويل حول علاقتها به ، تنكب عن سبيلها متطوعا في الجيش الفرنسي الذي ساهم بتحرير امريكا . ثم عاد من جديد ليلعب اخطر الادوار في حياة ماري انطوانيت ايام محنتها كما سنرى . (المعربان)

انطوانيت تتخيل وهي منتشية بزهوة شبابها المجنون ان النـاس جميعا مسروررون وفارغون من الهموم ، لانها هي نفسها سعيدة ، خالية البال ، ولكنها ، بينما كانت تعتقد بسذاجتها ، انها تتحدى البلاط وتجعل نفسها شعبية في باريس بتصرفاتها المجنونة ، كانت تمر وهي داخل عربتها الفخمة امام الشعب الحقيقي وباريس الحقيقية مدى عشرين عاما دون ان تراهما مطلقا . ولقد بدّل التأثير العميق الذي تركه في ماري انطوانيت استقبال باريس شيئا ما فيها . فالاعجاب يدعم الثقة دائما ، وهذا ما حدث لهذه الفتاة المتخوفة التي كانت حتى الان تشعر بنفسها انها اجنبيـة ، لا نفع يرجى منها في فرساي . ولكن ها هي ، بكبرياء جديدة مدهشة تمحو في تصرفاتها كل تردد وخوف ، فالمراهقة ذات الخمسة عشر عاما والمراقبة من قبل عماتها ، ومن قبل سفير والدتها وقسّ معرّف ، والتي كانت تنزلق بخوف الى الصالونات وتنحني امام كل سيدات الشرف قد اختفت . فاذا بماري انطوانيت تشتد فجأة داخليا وتتبنى ذلك الوضع المهيب الذي طالما اوصيت به وطولبت باتخاذه ، فغدت تمر منتصبة متعجرفة ، وبخطى سريعة رشيقة امام كـل سيدات القصر ، كما لو تمر امـام تابعات لها ، ويتبدل فيها كـل شيء ، فتبـدأ شخصية المرأة بالبروز ، وتتغير حتى كتابتها التي كانت حتى هـذه اللحظة عسراء متعثرة مكوّنة مـن احرف صبيانية ضخمة ، فتراصت فجأة واصبحت انيقة ، عصبية ، انثوية .

ها هي الان تلك الفتاة الشديـدة الحيوية مستعدة لان تحب وتحيا حياة خاصة ، ولكن السياسة ربطتها بهـذا الزوج المتجرد من رجولته ، وليس لديها ، وهي في الثامنة عشرة اي شخص لتحبه ، اذ لـم يكتشفه قلبها بعد ، فتغرم بنفسها ، ويمور سم الاطراء والمتملقين محرقا في عروقها. وكانت كلما ازداد الاعجاب بها تطلب المزيـد منه ، وتريـد حتى قبل ان تصبح ملكة ، انْ تستعبد بفتنتها البلاط والمدينة والمملكة : ذلك ان كل قوة تصبح محسوسة تشعر بالرغبة في الاعلان عن نفسها .

وعندما حاولت المرأة الشابة ان تفرض ارادتها للمرة الاولى ، كـان المسبب لحسن الحظ ـ بصورة استثنائية ـ جيدا . فقد انهى « كلوك » (الموسيقار العظيم) اوبراه الرائعة « ايفيجيني » «Ephigénie» ، وهو يريد عرضها في باريس . وكأن ذلك قضية شرف بالنسبة الى بلاط فيينا المغرم جـدا بالموسيقى . فكـانت ماري تيريز وكونتيز وجوزيف الثاني ينتظرون من ولية العهد ان تشق له الطريق . ولكن موهبة ماري انطوانيت التقديرية في مجال الفن سواء في الموسيقى او في الرسم والادب لم تكـن

بالموهبة البارزة . ولم يكن الفن بالنسبة اليها سوى احدى زينات الحياة ، وتسلية بين تسليات كثيرة اخرى . ولم تكن تعرف الا المتعة السهلة في الفن ، المتعة الزائفة ، وقد اهملت الموسيقى كأي شيء اخر ، ولم تكن دروس الموسيقار « كلوك » في فيينا لتدفعها بعيدا ، فقد تعلمت العزف على « الكلافسان » (البيان القديم) كهاوية ، كما انها كانت تمثل وتغني في مجتمع . اما الادراك والاحساس بما تشتمل عليه اوبرا « ايفيجيني » من جديد وعظيم ، وهي التي لم تستطع تقدير مواطنها موزارت ذاته في باريس ، فقد كانت بالطبع عاجزة عنها ، ولكن ماري تيريز قد اوصتها « بكلوك » بصورة خاصة وهي تشعر بمودة حقيقية ازاء هذا الرجل البدين المرح .

ولقد حدد العرض الاول في الثالث عشر من نيسان (ابريل) عام ١٧٧٤ ، فأمر البلاط باعداد المركبات وحجز الأماكن . ولكن احد المغنين وقع مريضا واصبح من الواجب استبداله بسرعة ، الا ان «كلوك » اعترض على ذلك وامر بتأخير العرض . فشرعوايتوسلون اليه يائسين بالتساهل لأن البلاط اتخذ كل الترتيبات ، ولكنه وهو العنيد كفلاح راح يهدر صارخاً بأنه يهزأ بذلك ، وبأنه يفضل إلقاء أوبراه في النار على ان يراها تقدّم بصورة سيئة . ثم هرع غاضبا الى ماري انطوانيت ، فاذا بها تناصر حالا هذا « الوحش » الطيب . وهكذا الغى البلاط اعداد المركبات رغم ارادة الامراء . واجل العرض الى التاسع عشر من الشهر ، وعدا عن ذلك فقد اتخذت ماري انطوانيت بواسطة آمر الشرطة الاحتياطات لمنع اصحاب السمو من اظهار غضبهم بالتصفير للموسيقار قليل التهذيب ، جاعلة من قضية مواطنها ، بعلانية وحيوية ، قضيتها الخاصة .

وكان عرض « ايفيجيني » الاول انتصارا بالفعل ، لكنه انتصار لماري انطوانيت اكثر من كونه لـ « كلوك » ، لان الجمهور والصحافة لم يتحمسا له ، فهما يوافقان على ان هنالك اشياء جميلة في اوبرا « ايفيجيني » ، ومقطوعات شديدة الروعة ولكنهما يجدان « ان بعض هذه المقطوعات تافهة، واخرى شديدة السطحية » ، لانه كما هو الحال دائما بالنسبة الى الفن ، فالجراة الكبيرة لا تفهم في البداية الا نادرا من قبل المستمعين الجهلة . ولكن ماري انطوانيت جلبت البلاط باسره الى العرض ، وحتى زوجها بذاته الذي لم يكن ليضحي بحفلة صيد في سبيل الموسيقى الصاخبة ، والذي يهتم بوعل مقتول اكثر من اهتمامه بآلهات الشعر التسع ، فقد كان مجبرا هذه المرة ان ينضم الى المجتمع . وعلى الرغم من ان الجو المطلوب

لـم يسيطر بعـد ، فقـد راحت ماري انطوانيت تصفق بصورة بينـة في مقصورتها ، بعد كل مقطوعة . وقـد جاراها بالطبع مـن قبيل الكياسة سلفاها وعماتها وجميع افراد البلاط . وهكذا ، بالرغم من كل التحزبات ، فقد كانت تلك الامسية حدثا موسيقيا اذ جعلت ماري انطوانيت « كلوك » يغزو باريس ، فارضة ارادتها علنا على البلاط وعلى المدينـة . ولقد كان ذلك اول نصر لشخصيتها ، واول مظاهرة لهـذه المرأة الشابة امام كل فرنسا ، وبعد بضعة اسابيع سيثبت لقب الملكة سلطتها التي انتزعتها في هذا الظرف بقوتها الخاصة .

٥ ـ مات الملك ، عاش الملك !

في ٢٧ نيسان (ابريل) ١٧٧٤ اصيب لويس الخامس عشر بالتعب اثناء وجوده في الصيد . فأعيد الى « التريانون » قصره المفضل ، وقـد انتابه صداع عنيف . وتأكد الاطباء خلال الليل بان الملك مصاب بالحمّى ، فدعوا مدام دي باري الى فراش مرضه . وفي الصباح التالي امروا قلقين بنقله الى فرساي ، ولكن على الموت الذي لا ينحنـي ان يخضع هو ايضا لقوانين العرف التي تزيد عنه صلابة ، اذ لا تجوز لملك فرنسا ان يقع مريضا او ان يلقى حتفه الا في فراشه الرسمي : « ففي فرساي ، ايها العاهل ، عليك ان تكون وانت مريض ! » . وهنالك احاط بالسرير الملكي ستة اطباء وخمسة جراحين وثلاثة صيادلة ، وكان كل واحد منهم يجس نبض الملك ست مرات في الساعة . ولكن المصادفة وحدها هي التي سمحت باكتشاف المرض . ففي المساء ، عندما رفع احـد الخدم شمعة ، اكتشف احـد الحاضرين البقع الحمراء المعروفة على وجه المريض . وبعد مضي دقيقة واحدة على ذلك ، استقر في نفوس جميـع افراد البلاط والقصر ان الملك مصاب بالحصبة . فاجتاحت ريح من الخوف ارجاء المنزل الفخم ، الخوف اولا من العدوى التي اصابت فعلا العديد من الاشخاص خلال الايام الاولى ، ثم بعد ذلك خوف الحاشية ـ الذي ربما كان اشد مـن الاول ـ من فقد مناصبهم في حالة موت الملك . وابدت بنات لويس الخامس عشر شجاعة تقية ، فسهرن علـى راحته طوال النهـار ، واما في الليل فضحَّت مدام دي باري براحتها لتظل قرب سرير المريض . ولكن القانون كان يمنع ولي وولية العهد من دخول غرفة المريض خوفا من ان يصابا بالعدوى .

وها هو البلاط الان منشق بصورة واضحـة ، فقرب مهجع لويس الخامس عشر الجميـل القديـم ، تسهر وترتجف متسلطـات الامس ،

السيدات « بنات الملك » ومدام دي باري ، اللاتي يعرفن جيدا ان عظمتهن سوف تزول مع آخر تَفَس تلفظه هاتان الشفتان المحمومتان . وفي بهو آخر كان ينتظر الجيل الصاعد ، لويس السادس عشر المقبل والملكة المقبلة ماري انطوانيت ، والكونت دي بروفانس الذي يعتبر نفسه في سريرته الوريث المتوقع للعرش ما دام اخوه لويس لم يقرر بعد انجاب اطفال . وكان « القدر » يكمن بين هذين المعسكرين . ومن ثم لم يكن لاحد الحق بالدخول الى غرفة المريض حيث تغرب السلطة القديمة ، او الى الغرفة التي ترتفع فيها الشمس الجديدة . وبالانتظار ، فقد كان جمهور الحاشية القلق المتردد يتساءل وهو في القاعة الكبيرة ، عن الجهة التي يجدر الالتفات اليها : الى الملك الذي يموت ، ام الى الذي سيخلفه ؟.. الى مغرب الشمس ام الى مشرقها ؟..

وخلال ذلك كان المرض ينهك بعنف قاتل اعضاء جسد الملك الواهنة المنهكة ، وجسمه المنتفخ بصورة بشعة ، والمكسو بالحبوب المتقيحة ، والذي اخذ يتفسخ وهو حي . ومع ان ضمير السيدات ومدام دي باري لم يكن ليتخاذل لحظة واحدة ، فقد كن يحتجن الى شجاعتهن الكاملة لكي يقاومن الرائحة الطاعونية التي زحمت غرفة النوم على الرغم من كون النوافذ مفتوحة . وبعد قليل ، يئس الاطباء من شفائه ، وبدأ الكفاح الاخر : الكفاح من اجل الروح المذنبة . ولكن ، يا للهول : فقد رفض القسس الاقتراب من مهجع المريض لمنحه الاعتراف والبركة ، اذ كان عليه ، قبل كل شيء ، ان يبرهن عن توبته ، وان يبعد ، قبل كل شيء ، مسببة الفضيحة ، هذه العشيقة الساهرة بيأس قرب المخدع الذي طالما شاركته فيه على الرغم من كل المبادىء المسيحية . وانه لشيء مؤلم حقا بالنسبة الى الملك وهو في ساعة وحدته المهيبة الاخيرة بالذات ان يقرر طرد الكائن البشري الوحيد الذي تربطه به علاقة صميمة . ولكن الخوف من الجحيم اخذ يمسك بخناقه بشكل يزداد عنفا ، فاستأذن من مدام دي باري التي قادوها حالا وبصمت الى قصر « رويل » حيث مكثت ترتقب ساعة العودة في حالة شفاء الملك .

والان فقط ، وبعد هذا التصرف التائب العلني اصبح الاعتراف وتقبل البركة ، ممكنين . فأقبل معرّف صاحب الجلالة ، ذلك الرجل الذي كان لمدة ثمانية وثلاثين عاما اقل رجال البلاط عملا ، ودخل غرفة النوم الملكية مغلقا الباب وراءه ، ومثبطا امل كل رجال الحاشية الفضوليين الواقفين في الممر ، والذين لن يستطيعوا الاستماع الى تعداد خطايا الملك .

ولكنهم ، مدفوعين برغبتهم السيئة الى الفضائح ، راحوا يحصون الدقائق المتعاقبة والساعة في ايديهم ، لمعرفة كم من الوقت يلزم على الاقل لرجل كلويس الخامس عشر لكي يعترف بكل خطاياه . واخيرا ، بعد ست عشرة دقيقة بالضبط انفرج الباب وخرج المعرّف حاملا في وجهه العديد من الملاحظات : فهو لم يمنح بعد الغفران النهائي ، لان الكنيسة تتطلب خضوعا اكبر من الاعتراف السري من قبل هذا الملك الذي لم يتبصر خلال كل هذه الحقبة الطويلة من الزمن لتخفيف العبء عن قلبه المثقل بالخطايا ، والذي عاش على مرأى من اطفاله في عار الملذات الجنسية . ذلك لانه خال نفسه بلا اكتراث اعظم من في الكون ، وانه فوق قوانين الدين . فالكنيسة تتطلب منه ان ينحني أكثر من أي شخص آخر أمام الرب السامي ، فارضة عليه ان يعلن امام الجميع ندمه على الحياة المهينة التي عاشها ، وعندئذ فقط ، يتلقى البركة .

وكان مشهد عظيم ، في صبيحة اليوم التالي ! اذ كان اقوى حاكم بأمره في العالم المسيحي مرغما على اعلان ندمه امام جمهور رعاياه المحتشد . فكان الحرس يتخذون اماكنهم على طول درج القصر ، والجنود السويسريون محتشدون من الكنيسة حتى حجرة المحتضر، والطبول تقرع قرعا مختنقا ، بينما كان رجل الدين السامي يدخل بأبهة تحت قبة المذبح ومعه مبخرته ، وبعد صلوات خافتة قصيرة ، سمع صوت الكردينال يرتفع عاليا ويقول : « ايها السادة لقد كلفني الملك باعلامكم بانه يطلب الغفران من الله لاستهانته به ، وعن الفضيحة التي قدمها الى شعبه ، وانه ، اذا عوفي فسوف ينصرف الى ندامته ، ويؤيد الدين ، ويرفه عن رعاياه . »

ولكن لويس الخامس عشر لم يُعافَ ، فأطفئت بعد نزاع وهول شديدين الشمعة المضاءة في نافذة المحتضر في العاشر من شهر مايس ، علامة على موت الملك ، فسرى النبأ حالا من بهو الى اخر كريح تهب او كموجة تطغى ، وتناثرت هذه الصرخة : « لقد مات الملك ، عاش الملك ! »

وكانت ماري انطوانيت تنتظر مع زوجها في صالة صغيرة . وفجأة اخترق سمعيهما هذا الهمس الغامض : طوف من الكلمات المبهمة يتصاعد اشد فأشد ، واقرب فأقرب . وفجأة فتح الباب على مصراعيه كما لو حدث هذا تحت ضغط ريح عاصفة ، ودخلت مدام دي نوايل وانحنت انحناءة كبيرة ، تقدم احترامها الى الملكة في حين تزاحم خلفها افراد الحاشية وقد اخذ عددهم يزداد شيئا فشيئا ، لان كل واحد منهم كان يريد ان يعبر عن ولائه بأسرع ما يمكن مبرزا نفسه بذلك ، لكي يشاهد

بين المهنئين الاول .

وقرعت الطبول ، وشهر الضباط سيوفهم ، وعلى مئات الشفاه انفجرت تلك الصرخة : « لقد مات الملك ، عاش الملك ! » .

وخرجت ماري انطوانيت ملكة من الحجرة التي دخلتها ولية للعهد . وفيما كان رجال الحاشية يعدون في المسكن المهجور ، متنفسين الصعداء ، وبسرعة ، لوضع الجثمان المسوّد المتغير الملامح في التابوت المعد منذ زمن طويل لكي يدفنوه بسرية وصمت ، كانت مركبة تقل الملك والملكة الجديدين، مجتازة بوابة فرساي المذهّبة ، وكان الشعب يهتف لهما في الشوارع كما لو ان شعلة البؤس قد انطفأت بانطفاء حياة الملك السابق ، وان عالما جديدا سيبدأ مع العاهلين الجديدين .

وتحكي مدام كامبان ، هذه الثرثارة العجوز ، في مذكراتها المفشاة بالعسل حينا ، والمفسولة بالدمع حينا آخر ، قائلة : « لمّا حمل نبأ وفاة لويس الخامس عشر الى لويس السادس عشر وماري انطوانيت خرّا على ركبتيهما وهتفا وهما يجهشان في البكاء قائلين : « أهدنا يا رب ، وارحمنا ، فاننا نصل الى الحكم صغيرين جدا » . ان هذا ، ويا لله ، لقصة مؤثرة للغاية وجديرة بتسجيلها في كراسة دراسية ، ولكن يعيبها ، مع الاسف ، ككل القصص الاخرى التي تناولت حياة ماري انطوانيت ، كونها قد نسجت من كل طرف ، وبلادة كاملة ، وجهل شامل ، بعلم النفس . لان هذا التأثر التقي لا يتلاءم مطلقا وجمود حس لويس السادس عشر الذي لم يكن هنالك اي سبب لكي يغير مزاجه حدثٌ متوقع منذ مدة ثمانية ايام تماما من قبل البلاط باسره ، كما يتلاءم اقل من ذلك ايضا وطبيعة ماري انطوانيت التي تقبّلت بشرى تلك اللحظة كغيرها من البشائر والهدايا خالية البال . ليس لانها كانت طموحة ، نافذة الصبر لاستلام زمام السلطة سلفا ، بل لانها لم تحلم مطلقا بان تصبح مثل اليزابيت او كاترين او ماري تيريز ، ولان حيويتها المعنوية تتطلب كثيرا لكي تجاريهن . فأفق عقلها ضيق ، ومزاجها خامل جدا ، ورغباتها كرغبات اية طبيعة متوسطة لا تتعدى شخصها ، وليس لهذه الشابة اية افكار سياسية تريد فرضها على العالم ، او اي ميل لاستخدام واذلال الاخرين . الا ان فيها منذ نعومة اظفارها غريزة استقلالية قويّة عنيدة ، تضاهي غرائز الاطفال ، فهي لا تريد ان تسيطر ، كما لا تريد ان يسيطر عليها . فكونها ملكة يعني بكل بساطة كونها حرة ، لا شيء اكثر من ذلك . وها هي الان تحس ، بعد مضي ثلاث سنوات من الوصاية والمراقبة ، بالحرية ، فلا يقيدها ثمة

حاجز ، وليس من يقول لها : « توقفي عند هذا الحد او ذاك » . فأمها على بعد مئات من المراحل ، واما الاعتراضات المتخوفة التي يبديها زوجها المتواضع فانها تسمها بابتسامة ازدراء . انها الان فوق الجميع ، لا تخضع الا لمزاجها الطائش . لقد ارتقت آخر درجات السلطة ففدت ملكة بعد أن كانت ولية للعهد . ولقد انتهت تنغيصات العمات ، وانتهت العرائض الموجهة الى الملك لاستئذانه بالذهاب الى مرقص الاوبرا ، وانتهى تعجرف غريمتها البغيضة مدام دي باري ، « هذه المخلوقة » التي ستنفى اعتبارا من صباح الغد ، والى الابد ، فلن تسطع جواهرها بعد اليوم في حفلات العشاء ، ولن يزدحم الملوك والامراء ليقبلوا يدها في حالتها هذه ، وهكذا تمسكت ماري نطوانيت فخورة ودون خجل من فخارها بالتاج الذي هبط عليها ، فارتقت سدّة العرش مرفوعة الجبين ، خفيفة الخطى مسرورة .

ولم تكد تصعد الى العرش حتى تعالت نحوها الهتافات صادرة من اعماق الشعب . ومع ان الملكين الشابين لم يفعلا شيئا بعد ، ولم يعدا احدا بشيء ، ولم يفيا بعهد ، الا إن الحماسة الشعبية اخذت تحييهما ، تعبيرا صادقا عن الشعور بالولاء . فالشعب الذي يؤمن بالمعجزات يحلم دائما بعصر ذهبي : الن يبدأ هنالك عهد جديد ، بعد أن طردت العشيقة — الوطواط — ووري في مثواه الاخير لويس الخامس عشر المتحلل العجوز العديم الاحساس ، وهيمن على فرنسا ملك شاب بسيط مقتصد متواضع ورع ، وملكة شابة معبودة ؟.. وعرضت صورة العاهلين الجديدين في جميع واجهات المخازن . ومما زاد في ولاء الشعب لهما هو انهما لم يخيّبا رجاء بعد ، فكل تصرف من تصرفاتهما كان يلاقي الاعجاب ، وحتى البلاط قد عاد من جديد الى شعوره بالسعادة بعد ان كان الخوف يسمّره ، فأقيمت الحفلات الراقصة والاعياد من جديد ، وانبعثت البهجة والغبطة بالحياة وحكم االشباب والحرية ، وقد لقي موت الملك العجوز تنفس ارتياح ، قرعت معه الاجراس الكئيبة في كل مكان من كنائس فرنسا بمزيد من الوضوح والسعة حتى لكأنها تبدو بشير مسرّة .

ولكن شخصا واحدا في جميع ارجاء اوروبا كان متأثرا بالفعل ، ومتخوفا من موت لويس الخامس عشر ، لان شعورا مشؤوما بالمستقبل قد امسك بهذا الشخص : انه ماري تيريز التي كانت كأمبراطورة تمرست بالحكم ثلاثين عاما عسيرة ، تعرف ثقل التاج ، والتي كانت باعتبارها اما ، تعرف ضعف ونقائص ابنتها ، والتي كانت تغتبط حقا لو استطاعت تأخير وصولها الى العرش حتى تصبح طفلتها الفاقدة الرشد والاعتدال خليقة

بالدفاع عن نفسها ضد حمّى التبذير المصابة بها . ان قلب هذه المرأة العجوز مفعم بالالم . وكان يبدو ان ثمة تكهنات كئيبة تثقل كاهلها . وفيما كان العالم باسره يهتف لماري انطوانيت ويحسدها ، كانت ماري تيريز تطلق آهة الامومة في رسالتها الى سفيرها موضع ثقتها ، والتي تقول فيها : « انني احصي الايام التي تقضيها ابنتي بسعادة . »

٦ ـ لوحة لزوجين ملكيين

خلال الاسابيع الاولى التي تعقب اعتلاء عرش ، اي عرش كان ، ينهمك النقاشون والمثالون والرسامون وصانعو الاوسمة في العمل ، وذلك في كل مكان وزمان . وهكذا كانت الحال في فرنسا . فأزيح حالا رسم لويس الخامس عشر الذي لم يعد الملك المحبوب لاستبداله بلوحة الزوجين الملكيين الجديدين المتوجين .

ولم يكن صانع الأوسمة الحاذق بحاجة الى المغالاة في التملق ليعطي هذا البورجوازي الطيب ، لويس السادس عشر ، طابعا قيصريا ، لأن راس الملك الجديد لم يكن مجردا من أمارات العراقة : جبهة مستديرة ومتناسقة ، وانف ذو انحناءة مشدودة جريئة بعض الشيء ، وشفتان حساستان ذواقتان ، وذقن ممتلئة الا انها جيدة الاستدارة ، وكل ذلك يشكل مجموعة متناسقة (وبروفيلا) مهيبا وجذابا . ولكن ما يستدعي بعض الاصلاح هو النظرة ، لأن الملك مصاب بكلل غير اعتيادي في بصره ، فلا يستطيع ان يتبين أي شخص يبعد عنه ثلاث خطوات دون أن يستعمل نظارتيه . فكان على حفّار النقوش أن يستخدم آلاته بعناية لكي يضفي بعض الشخصية والجاذبية على هاتين العينين الزائغتين المظللتين بحاجبين كثين ، وشر من ذلك كانت طريقة انتصاب قامة لويس السادس عشر الثقيلة ، فكان رسامو القصر يجدون صعوبة كبرى لابرازه منتصبا جليلا في أرديته الرسمية الفخمة ، اذ انه على الرغم من كونه قوي البنية ، مديد القامة ، فانه مترهل قبل الأوان ، بسبب قصر نظره الذي يجعله اخرق لدرجة تثير الهزء . فهو يمشي فوق الأرض الخشبية المصقولة في فرساي بتثاقل ، هازا كتفيه (كفلاح وراء محراثه) ، ولا يعرف الرقص أو اللعب بالكرة ، وحين يريد الاسراع بخطوة أكبر من المعتاد يتعثّر بسيفه . وكان الرجل المسكين يدرك تماما عسره الجسدي ، ويوقعه ذلك في الارتباك ، مما يزيد في عسره أيضا ، فكان ينتاب الناس شعور من النظرة الأولى التي يلقونها على الملك ، بأنه أبله مسكين .

ولكن لويس السادس لم يكــن غبيا ولا محدود التفكير ، وانما هو مصاب معنويا بخجله كما هو مصـــاب جسديا بقصر النظر (وربما كــان السبب العميق لخجله هو ضعفه الجنسي) . فالقيام بمحادثة هو جهد معنوي بالنسبة اليه ، لأن تفكيره البطيء وعجزه عن الاجابة بسرعة يجعلانه وجلا من رجال البديهة الحاضرة الذين يجيدون فن التحدّث والنكتة ، ولو استطاع التغلب عــلى خجله لأصبح طبيعيا ، ولكنه كــان يفضل القراءة والكتابــة بصورة خاصة عــلى النطق ، لأن الكتب كتومـــة لا تحضّ على التسرع . والخلاصة فقد كان لويس السادس عشر نموذجا للرجل العادي الذكاء الذي لم يُخلق للاضطهاد بأعمال خاصة مستقلة ، وانما قد هيأته طبيعته الى وظيفة مستخدم في مكتب ما ، أو الى وظيفة مأمور جمرك أو عمل آليّ مرؤوس، بعيدا عن الحوادث: لقد هيأته لكل شيء ما عدا العرش.

ولقد بذل هذا الرجل الجهود المخلصة ، محمولا دون انقطاع عــلى محاولة التغلب على نــوع من المقاومة المادية لديه ، على نوع من النعاس . واذا ما أراد ان يفكر أو يعمل أويحس بأي شيء شعر بأن أعصابه لا تستطيع الاهتزاز أو التوتر كأنها بلا نوابض ، أو انها من المطاط المتراخي ، وكان هذا التراخي الراسخ ينتزع من لويس السادس عشر كل احساس قوي وحقيقي كالحب (بمعناه الجنسي كما بمعناه الروحي) ، والفرح والشهوة والخوف والألم والرهبة : فهذه العوامل كلها لم تكن تصل الى اختراق بلهه الذي يشبه جلد الفيلة الضخمة ولا تستطيع أكبر الأخطار بل خطر الموت المباشر أن تنتزعه من غيبوبته ، حتى أن نبضاته ، عندما هاجم الثوار قصر التويلري ، بقيت كما هي دون ان تزيد نبضة واحدة ، وحتى انه قبل ان يُساق الى المقصلة بليلة واحدة ظل متحفظا بركيزتي رفاهيته الرئيسيتين : النوم والشهية الطيبة . لم يكن هذا الرجل ليشحب مطلقا ولو كان تحت تهديد الغدارة ، ولم تكن أية بارقة غضب لتلتمع في نظرته الباهتة ، ولم يكن هناك شيء على الاطلاق يخيفه أو يثير حماسته ، ما عدا الصيد أو صنع الأقفال ، اللذين كانا يثيران حيويته ظاهريا على الأقل . ولكن كل ما هو رقيق جميل عذب ، كالفن والموسيقى والرقص ، لا يستطيع النفــاذ الى عالمه الفكري . فلا آلهة الشعر والأدب والحب بقادرة على اثارة حواسه الخاملة . ولم يشته لويس السادس عشر خلال عشرين عاما أية امرأة سوى تلك التـــي اختارها له جدّه كزوجة . فهو مكتف بكــل شيء لعدم رغبته في أي شيء مثير ، ويا لصفارة القدر ! كيف يتطلب مـــن شخصية مغلقة منطوية غبية كهذه اتخاذ أهم قرارات العصر التاريخية ، وكيف يضع رجلا

خاملا كهذا ازاء أشد الكوارث العالمية هولا ! ان رجلا كهذا الرجل الصلب بدنيا والذي يصبح ضعيفا بصورة يرثى لها عندما يبدأ العمل والمقاومة ، والذي يقع عند اتخاذ القرارات في ارتباك مخيف ، فيستجيب لطبيعته بالخضوع ويترك الآخرين يفعلون ما يريدون ، لأنه لا يرغب في شيء كرغبته في نشدان السلم ، والسلم فقط ، وعندما يضغطون عليه ويهمزونه ، يعدهم بكل ما يتمنونه ، ولكنه لا يلبث ان يعد بنقيض ذلك . فالاحتكاك به معناه الانتصار عليه سلفا . وهذا الضعف الذي لا اسم له يجعل منه مذنبا غير شريف ، رغم نواياه الحسنة . ولذا فقد كان ألعوبة بيد امراته ووزرائه . ولو سمحت له الثورة بقضاء بقية حياته في كوخ فلاح صغير ذي حديقة صغيرة حيث يستطيع أن يبذل طاقته في مهماته التافهة بدلا من ترك شفرة المقصلة تهبط على هذه الرقبة الثخينة القصيرة ، لجعلت من هذا الرجل المتجرد من الجاذبية أسعد مخلوق .

ولم يجسر حتى أشد شعراء البلاط تملقا أن يشيد بمحامد هذا الرجل الطيب المعدوم الرجولة ، كملك عظيم . وبالعكس ، لقد تسابق جميع الفنانين تشدهم حماسة بالغة لتمجيد الملكة بالأقوال والصور ، فتراهم يلجأون بمدحها الى المرمر والآجر المشوي ، او الألوان والريش والعاج او الى الشعر . لأن وجهها واخلاقها كانا يعكسان المثل الأعلى لذلك العصر الى حد الكمال ، فهي رشيقة ، رقيقة ، فاتنة ، لطيفة ، لعوب وغانية . وكانت هذه المرأة الشابة ابنة التسعة عشر عاما منذ اللحظة الأولى الربة لفن التزيين الصدفي (الروكوكو) ، ومثالا للأزياء والذوق ، حتى ان النساء كن يتشبهن بها ليظهرن جميلات جذابات ، بالرغم من ان ماري انطوانيت لم تكن تملك وجها باهرا او اخاذا بشكل خاص : فوجهها بيضوي ناعم البشرة مشرقها ، فيه شيء صغير من عدم التناسق البارز كالشفة الهابسبورغية ، والجبهة المنبسطة نوعا ما ، وهو لا يفتن بتعبيره الروحي ، او ببعض التقاطيع الشخصية . فوجه المراهقة هذا لم يكتمل بعد ، ولا يزال فيه بعض الفضول تجاه نفسه ، ولم يعطِه النضوج نوعا من الحيوية والجلال الا فيما بعد ، ويبرز هذا الوجه الى حد ما باردا فارغا بشكل يذكر بالعاج المصبوغ ، فالعينان الجميلتان اللتان تفرقان بالدموع بسرعة لكي تلتمعا حالا بالمسرات والفرح ، تنمان عن حياة تأثرية شديدة الحساسية ، ويضفي قصر النظر الى زرقتهما طابعا متموجا ومؤثرا . ولم يكن اثر الارادة يبدو في اي مكان من هذا الوجه البيضوي الشاحب ، فلا تشعر الا بطبيعة مائعة طيعة يقودها المزاج ، وبطبع نسوي لا يتبع الا مجاري العواطف الداخلية ، ولكن هذه الفتنة الناعمة كانت أشد ما يثير اعجاب الجميع في ماري

انطوانيت : فشعرها المصفف المتراوح بين الاشقر الرمادي والأحمر البراق ، ونقاوة بشرتها وبياضها البلوري ، وعذوبة تقاطيع جسدها الملفوفة ، واستقامة ذراعيها العاجيتين ، وجمال يديها اللتين توليهما العناية التامة ، واخيرا رطوبة وعذوبة أنوثتها نصف المتفتحة كانت تشكل بمجموعها جاذبية عابرة مجدّدت كثيرا حتى لم يعد بالاستطاعة التكهن فيما اذا كانت مطابقة للوحاتها . لأن تلك اللوحات ، وفيها لوحات كبار الرسامين أنفسهم تحرمنا من كنه طبيعتها . وهي على العموم لا تعطينا الا الوضع المهتز والمحدود لكائنة ما . لأن السحر الحقيقي الكامن في ماري أنطوانيت ـ ويتفق كل الشهود على ذلك ـ كان في عذوبة حركاتها التي لا تجارى ، ولم يكن تناسق جسدها الفطري ليبرز الا في قاعة المرايا المليئة بأفراد الحاشية ، وعندما ترتمي بدلال ورشاقة على مقعد لكي تتحدث ، وعندما ترتقي السلالم بخطواتها السريعة المنزلقة ، وتقدم ، بحركة طبيعية فاتنة ، هذه اليد الرخصة الناصعة للتقبيل ، وحين تحيط خصر صديقة لها بذراعها الرقيقة ، فان وضعها حينئذ لا يكون مدروسا بل نابعا عن تفجّر صاف من أعماق روحها .

ولقد كانت تمتطي الجياد كأنها امازونة ، وتلعب الكرة بمرونة تجعلها محط اعجاب الجميع ، وعندما كان جسمها المتثني الانيق يدخل الحلبة ، كانت تتفوق على اجمل نساء بلاطها ليس بالتصرف السليم فقط ، انما بالجاذبية الحسية ايضا . ولقد قيل مرة « لوالبول » المبهور بها انها لا ترقص حسب الايقاع ، فرد بحيوية ـ مدفوعا بغريزة مؤهلة ـ بهذه الكلمة الجميلة : « اذا فالايقاع هو المخطىء » .

كانت ماري انطوانيت تحب الحركة ، وعنصرها الحقيقي هو التحرك ، في حين ان الجلوس هادئة ، والاستماع ، والمطالعة ، والتفكير ، وحتى النوم ، كان كل ذلك يعتبر بالنسبة اليها امتحانات لصبرها لا تحتمل . اما الذهاب والاياب والاقدام على شيء ما ، ثم على شيء آخر بعده دون ان تنجز احدهما ، لانها منهمكة ابدا بهذا العمل او ذاك ، ودون ان تجهد نفسها جديا باي شيء مهما كان ، واحساسها بان الزمن لا يتوقف ، فتطارده محاولة تخطيه او مسابقته دون ان تتناول طعامها على مهل ، بل تقضم بسرعة بعض المقبلات ، ولا تنام طويلا ، او ترد بترو ، بل تنتقل دون انقطاع ، وتجري ضمن بطالة ذات اشكال مختلفة ، فهذا ما كانته ماري انطوانيت . وعلى هذا النسق امضت سني ملكيتها العشرين في دوامة مستمرة ، وحركة دائبة خالية من كل هدف خاص او خارجي ، او انساني .

ان هذا العقل المتقلب ، غير المركز ، وهذا التبذير لقوة جديرة بالاعتبار ، كان يثير حنق ماري تيريز ، هذه العالمة النفسية العجوز التي كانت تعلم ان طفلتها ذات مواهب منحتها اياها الطبيعة ، وتستطيع ان تجتذب من قرارة نفسها مئة مرة اكثر مما فعلت ، وانه يكفي ماري انطوانيت ان تبرز طبيعتها الحقيقية كي تتمتع بسلطة مسيطرة ، ولكن ويا للاسف ، فان ايثارها للسهولة جعل حياتها دائما دون مستواها الفكري . وكان لديها كنمساوية اصيلة دون شك كثير من المواهب التي تستطيع تسخيرها في شتى الاتجاهات ، ولكن لم يكن لديها اقل رغبة في استغلال او صقل هذه المواهب جديا ، فبددتها بطيش في اللهو . ولقد قال جوزيف الثاني : « ان اول حركة تقوم بها هي دائما الصحيحة ، ولو سمحت لنفسها بمتابعتها والتفكير اكثر بقليل لكانت امراة كاملة » .

ولكن مزاجها المائع ينفر من هذا الحد الادنى من التروي بالذات ، وكل فكرة لا تنبع حالا من عقلها تشكل بالنسبة اليها توترا ، وطبيعتها الكسلى الطائشة تكره اي نوع من العمل الفكري ، فهي لا تحب الا اللعب والتسلية ، في كل مكان وباي شيء ، وتكره بذل اي مجهود ، كما تكره العمل الجدي . فماري انطوانيت تتكلم دوما دون تفكير ، وعندما يوجه اليها الكلام تتمتع به متلهية وبصورة متقطعة ، وخلال المحادثات ، اذ تسحر بدماثتها المبهجة وطلاقتها اللامعة ، تتخلى عن اية فكرة تكاد تبرز وتلفظ . فهي لا تكمل اي شيء : لا محادثة ولا فكرة ولا قراءة ، ولا تتعلق باي شيء يقصد به ايصال تجربة ما الىنهايتها جديا . ولذا فهي لا تحب الكتب ولا امور الدولة ولا اي شيء جدي يتطلب المثابرة او الانتباه . ولا تكتب اهم الرسائل التي لا يمكن الاستغناء عنها الا مرغمة . ويبدو في ما تخطه نفاد صبرها ، حتى في الرسائل الى والدتها ، فتلحظ بوضوح رغبتها في التخلص منها بسرعة . فهي تهدف قبل كل شيء الى عدم تعقيد حياتها او الانصراف الى اشياء قد تبعث في نفسها السأم او الحزن او الكآبة . وتعتبر من يطري لديها كسل التفكير هذا من اذكى الرجال ، واما الذي يطلب منها بذل مجهود ما فهو سخيف مزعج ، وكانت وبوثبة واحدة تغادر المستشارين العقلاء ، لكي تنضم للذين او اللاتي على شاكلتها . وتتركز وجهة نظرها ، ونظر كل بيئتها ، على الاستمتاع ، الاستمتاع فقط دون ان تدع لاي ضرب من ضروب التروي او الحساب او الاقتصاد ان يسبب لها الاضطراب . فالعيش بواسطة الحواس فقط دون تفكير : كان ذلك خلق عصر كامل ، هذا القرن الثامن عشر الذي جعلها القدر ملكته ورمزا له

لكي تحيا وتموت معه .

ولا يستطيع اي شاعر ان يتخيل تناقضا اشد بروزا من تناقض هذين المخلوقين ، تناقض حتى في الاعصاب الاكثر داخلية ، وفي نبضات الدم ، بل في اقل تغيرات مزاجيهما : لقد كان لويس السادس عشر وماري انطوانيت في الحقيقة مثالا للتناقض في كل وجهات النظر ، فهو ثقيل وهي خفيفة ، هو اعسر وهي مرنة ، هو خامد وهي مشرقة ، هو بليد وهي مندفعة . وفي المجال المعنوي هو متردد بينما هي حاضرة الراي ، يزين اجوبته بتريث في حين تلقي هي بـ « نعم » او « لا » سريعين ، هو متدين متزمت بينما هي غارقة في بهرج الحياة الاجتماعية . هو متواضع بسيط ، وهي غانية متكبرة ، هو يتبع منهجا واحدا بعينه ، وهي متقلبة . هو مقتصد وهي مبذرة ، هو شديد الجدية ، وهي لعوب الى أقصى الحدود . هو هادىء عميق كتيار تحت البحر ، وهي الزبد والسطح البراق ، هو لا يبتهج الا بالوحدة ، بينما لا تعيش هي الا وسط مجتمع صاخب ، هو يحب ان يأكل كثيرا وببطء بسرور شبه حيواني ، ويحب احتساء الخمور الثقيلة ، وهي لا تقرب النبيذ مطلقا ، وتأكل قليلا وبسرعة . هو عنصره النوم ، وهي عنصرها الرقص . وبينا نجد ان عالمه النهار يظل عالمها هي الليل ، وهكذا فان عقربي ميقات حياتهما متعاكسان دائما : كالشمس والقمر . فعندما ينام لويس السادس عشر في الساعة الحادية عشرة ، يحين الوقت الذي تبدأ فيه ماري انطوانيت حياتها فعلا ، فتراها اليوم تسطع لاعبة ، وغدا تبهر راقصة ، وهي ابدا في اماكن مختلفة ، ولا تستيقظ في الصباح الا بعد ان يكون قد امضى ساعات في ركوب الخيل ، ولم يكن هناك من موضع او نقطة تلتقي فيها عاداتهما او ميولهما او توقيتهما اليومي . بالاقتضاب ، فكنا انهما منفصلان عن بعضهما في المضجع ـ رغم استياء ماري تيريز الشديد ـ بصورة عامة ، فقد كان لويس السادس عشر وماري انطوانيت مفترقين في المعيشة معظم الوقت .

هل هذا اذن زواج بائس يعصف بالاختلاف والخصام ، زواج ليس ثابتا الا بصعوبة ؟ كلا ، مطلقا ، وانما على العكس ، يسوده روح التفاهم ، ولو لم يكن هناك انعدام رجولته في البدء ، ونتائج هذا الانعدام المؤلم ، لكان زواجا جد سعيد . لانه لا يمكن حدوث اصطدام بينهما اذا امتلك الطرفان شخصيتين نشيطتين مستقلتين ، او ارادتين تصطدمان ، او قوتين تتعارضان ، ولكن لويس السادس عشر وماري انطوانيت كانا يتجنبان كل خلاف ، هو بسبب كسله الجسدي ، وهي بسبب كسلها الفكري .

وها هي تقول مثرثرة في احدى رسائلها : « ميوله غير ميولي ، فليس له الا القنص . والاعمال الميكانيكية ، واحسب انكم تتفقون معي بانني اصبح غريبة المنظر بالقرب من موقد حداد . » ولم يكن لويس السادس عشر من ناحيته يستسيغ كثيرا حياة الملذات الصاخبة التي تعيشها زوجته ، ولكنه كان شديد الضعف فلا يستطيع التدخل بعنف ، وكان يبتسم من انزلاقها بطيبة ، ويفخر في قرارة نفسه بامتلاكه زوجة فاتنة كهذه حصلت على اعجاب الجميع . لقد تعلق هذا الرجل الطيب بطريقته الخاصة ـ الثقيلة الخامدة العواطف ، ولكن المخلصة ، بزوجته الحسناء التي كانت تبهره وتفوقه نفاذ فكر ، ولشعوره بالنقص استأثر بالظلمة لئلا يحجب عنها النور ، وكانت بدورها تضحك من هذا الزوج المريح دون خبث لانها تحبه بعض التسامح ، كأنما هو كلب ضخم اليف تحلو مداعبته وملاطفته من حين الى آخر ، لانه لا يزمجر ولا يستاء مطلقا ، بل يطيع دائما بخضوع ، وينصاع لاقل اشارة ، يدعها تفعل ما تشاء ، وينسحب خلسة عندما يشعر بان وجوده غير ضروري ، ولا يدخل عندها ابدا دون ان يؤذن له بالدخول . انه زوج مثالي لا يتوقف ابدا عن تسديد ديونها رغم كلفه بالتوفير ، ويسمح لها بكل شيء ، وحتى بعشيق آخر الامر . وكلما طالت معيشة ماري انطوانيت مع لويس السادس عشر زاد تقديرها لشخصية زوجها الطيبة ـ هذا اذا ما ترك ضعفه جانبا ـ فالزواج السياسي يمهد شيئا فشيئا لصداقة حقيقية ، وتفاهم عطوف ودي ، كان اشد اخلاصا على كل حال من زيجات الطبقة الارستقراطية التي تمت في ذلك العصر .

وهل يمكن في الواقع التحامل على هذين المخلوقين ، والحكم عليهما ؟ كلا ابدا ، حتى لقد صعب حتى على متهميهما في المؤتمر الوطني ان يظهروا هذا الرجل المسكين بمظهر الطاغية المسيء ، وذلك لانه لم يكن فيهما اي شيء من الشر او من جليل الطبائع ، فلا قسوة ولا شدة ، حتى ولا طموح او تعجرف مزعج ، ولكن ويا للاسف ، لم تكن فضائلهما لتزيد عن المتوسط العادي : طيبة صادقة ، وتسامح كسول ، وعطف معتدل . ولو كان العصر الذي عاشاه تافها مثلهما لكانا قد ظهرا بصورة حسنة ، وعاشا معززين . ولكن لم يعرف لويس السادس عشر ولا ماري انطوانيت كيف يمتازان ضمنا او يرتفعان قلبيا حتى يصبحا بمستوى عصرهما الذي كان دراماتيا بشكل خاص . لقد عرفا كيف يموتان بكرامة خيرا من معرفتهما العيش بقوة وبطولة ، لقد اذهلهما القدر الذي تحكم بهما ، ولم يسيطرا عليه ، ولكم كان حكم « غوتيه » عليهما بليغا عندما قال :

« لماذا يدع ملك كهذا نفسه يطرد بضربة مكنسة ؟
لو كانا ملكين حقيقيين
لبقيا حتى الان على قيد الحياة ! »

٧ ـ « ملكة الروكوكو »*

استحوذ القلق على فردريك الكبير عدو النمسا التقليدي ، عندما صعدت الى عرش فرنسا ماري انطوانيت ابنة خصمه القديم : ماري تيريز ، فأرسل الكتاب تلو الاخر الى سفير بروسيا في باريس يأمره بان يراقب عن كثب ، خططها السياسية . لقد كان على حق في تنسّم الخطر ، فلم يكن لماري انطوانيت الا ان تصمم وان تبذل جهدا يسيرا ، فتصبح في قبضتها خيوط الديبلوماسية الفرنسية كلها ، وتصبح اوروبا تحت حكم نساء ثلاث : ماري تيريز وماري انطوانيت وكاترين روسيا .

ولكن لحسن حظ بروسيا ، ولسوء طالع ماري انطوانيت ، لم تكن هذه تشعر باي ميل نحو الامكانيات التاريخية الماثلة امامها . لم تفكر في ان تحاول تفهم العصر الذي تعيش فيه ، فقد كان اقصى ما تطمح اليه اللهو والعبث . فكان التاج في نظرها دمية جديدة . ولقد ارادت ان تتمتع بالسلطة لا ان تستخدمها .

وكان ثمة خطوءها الفادح منذ البدء ، انها ارادت الانتصار كامرأة بدلا من التغلب كملكة . وكانت انتصاراتها الانثوية الصغيرة اهم في نظرها من اي انتصار يحتمل ان تحرزه في نطاق التاريخ المذهل . اذ ان منصب الملك كان بالنسبة الى عقليتها المبتذلة شكلا خارجيا ليس الا خاليا من المضمون الروحي ، فآلت المهمة العظيمة بين يديها الى ملهاة مؤقتة ، وانقلب المنصب الرفيع تمثيلا مسرحيا .

لم تفهم ماري انطوانيت بالملكية ، طيلة خمس عشرة سنة ونيّف ، اكثر من ان تكون المرأة الاشد اثارة للاعجاب ، والاكثر غنجا ، والافضل تأنقا ، والاوفر حظا من التملق ، والاجزل انشراحا بين نساء البلاط ، والحكم في الاناقة ، والقدوة المثلى لمجتمع غني في رفعة الذوق المصطنعة ، يعتبر نفسه العالم باسره . ولقد تصرفت خلال هذه الحقبة من الزمن بظرف وسحر فريدين ، ممثلة دور ملكة « الروكوكو » الحقيقية ، على

* فن الزخرفة بالصدف والعاج الذي انتشر في القرن الثامن عشر .

مسرحها الخاص في فرساي .

ومع ذلك ، فما افقر ما كان فهرست هذه الكوميديا الاجتماعية !: مغازلة عابرة ، بعض دسائس تافهة ، قليل من الفطنة وكثير من الرقص . وفي هذا التمثيل المسرحي كله ، لم يكن لها ندّ كفوء ، ليمثل دور الملك ، او رجل يقوم ازاءها بدور البطل يضارع البطلة ، والحضور هم هم لا يتبدلون ، ضجرون ، متغطرسون ، رغم ان خارج قضبان المحبس المشبكة المذهبة ، عشرين مليونا من الفرنسيين كانوا ينظرون اليها كحاكمة حقيقية . ولكنها ابت التخلي – وقد اعماها غرورها الذاتي – عن تمثيل هذه الكوميديا السخيفة ، ولم تكلّ من تدنيس نفسها بمستحدثات لا طائل تحتها ، حتى انها لم تشأ التخلي عن ذلك حين قصف الرعد في باريس ، وسمع دويه فوق جنان فرساي ، فاضطرت الثورة الى جرفها من مسرح الروكوكو الحقير الى مسرح التاريخ الحقيقي العظيم المفعم مآسي ، قبل ان تتمكن من ادراك الخطأ الفادح الذي ارتكبته خلال تلك الحقبة الطويلة باختيارها دور الشابة الاولى ، في حين ان الاقدار كانت قد قيّضت لها الفرصة لتكرس كيانها لدور البطولة الحقيقية . لقد جاء ادراكها متأخرا ، ومع هذا ، فانه لم يكن متأخرا جدا . اذ انه عندما تعذر عليها ان تحيا كملكة من جراء تفاقم الاحداث الى ذلك الحد ، بقيت امامها فرصة سانحة لتموت كملكة ، فتسامت الى مستوى الاوضاع في خاتمة الكوميديا الشعرية الرعائية . اجل ، عندما اصبح اللهو جدا ، وانتزع منها التاج ، اضحت ملكة في اعمق اعماق نفسها .

ويكاد العقل لا يدرك عدم الاكتراث الذي برهنت عنه ماري انطوانيت، عدم الاكتراث الذي جعلها ، خلال ما يقارب العقدين ، تضحي بالجوهري للعرضي ، وبالواجب للذة ، وبالمهم للمبهج ، وفرنسا لفرساي ، وبالعالم الحقيقي لعالم اهوائها ونزواتها .

وافضل طريقة لتفهم سلوكها المنافي للعقل والمنطق هي ان نأخذ خريطة لفرنسا ، ونضع اشارة على المساحة الضيقة حيث قضت سني الملك كلها . حتى اذا ما فعلنا تملكنا العجب . فالمساحة محصورة الى درجة انها تتقلص الى نقطة على خريطة صغيرة المقياس . لقد ظلت تروح وتجيء باستمرار في سأم منهمك من فرساي ، الى التريانون ، الى مارلي ، ففونتنبلو ، فسان كلو ، فرامبواية ، هذه القصور الستة التي يبعد الواحد منها عن الآخر بما لا يزيد عن مسير بضع ساعات . ولم تشعر مرة واحدة برغبة في تجاوز حدود هذا المضلع ، الذي احتبسها فيه شيطان اللذة ،

أشد الشياطين غباوة ، ولم ترغب مرة واحدة خلال ما يقارب ربع القرن ، ان تتعرف الى مملكتها الخاصة ، وان تشاهد المقاطعات التي كان عليها ان تحكمها ، والبحار التـي تلثم شواطئها ، والجبال ، والقـلاع ، والمدن ، والكنائس في تلك البلاد المترامية الاطراف المتعددة المناظر . ولم تسترق مرة واحدة ساعة من ساعات لهوها لتزور احد رعاياها ، او حتى لتفكر فيهم ! ولم تطأ مرة واحدة عتبة بيت من بيوت الطبقة المتوسطة .

ان العالم الواقع ما وراء الدائرة الضيقة التي كانت تتحرك فيها طبقة الاشراف ، لم يكن في الواقع عالما موجودا بالنسبة اليها . ولم يخطر ببالها قط ان حوالي دار الاوبرا في باريس تمتد مدينة هائلة ، مفعمة فقرا وتذمرا ، وان فيما وراء غدران التريانون التي يزدحم فيها البط الصيني ، والاوز المسمَّن ، ووراء المروج الخضراء حيث تزهو الطواويس بريشها الموشى ، وخلف قرية الاستعراض ذات الواجهة النظيفة التي شادها مهندس القصر المعماري ، كانت بيوت القرويين المتهاوية والاهراء الخاوية . لم تدر قط ان ملايين وملايين من ابناء الشعب الفرنسي كانـوا يكدحون ويتضورون جوعا ، فيتناوبهم الامل واليأس .

ربما ، لا شيء سوى جهل كهذا ، لا شيء سوى انعدام اية رغبة في استطلاع متاعب الناس ، كان يستطيع ان يضفـي على الروكوكو جماله الفتان ، وسحره العذب اللامبالي . ما من احد سوى اولئك الذين لـم يتعرفوا الى حقائق الحياة ، يستطيع الانغماس الى هذه الدرجة في اللهو واللعب . ولكن الملكة التي تنسى شعبها انما تخاطر مخاطرة كبرى . سؤال واحد ، كان قادرا على ازاحة القناع عن هذا العالم ، لو القته على نفسها ، ولكنها لم تشأ ذلك . ونظرة واحدة كـانت تكفي لاطلاعها علـى ما يجري حواليها ، لكنها لم ترد القاء هذه النظرة ولم تود ان تعلم ، بل ارادت ان تظل في محرابها ، فتية ، مرحة ، بعيدة عن كـل ضوضاء ، تدور حول نفسها في دائرة ضيقـة ، دون ما كلل ، والفرص تفلت من يديهـا . وفي وسط حاشية انقيادية « كرهكوزية » ، اضاعت ماري انطوانيت الانقيادية ، هي نفسها ، اولى سنوات عمرها الى غير ما رجعة .

وكان هذا خطأها الراهن . لقد تجاهلت ، بطيش لم يسبق له مثيل ، مهمة من اعظم المهام التي فرضت في التاريخ ، متحاشية ، بعدم اكتراث ، اخطر نتائج العصر . خطأ راهن ولكنه عرضي يمكن ايضاحه بشدة التجربة التي لم يكن في استطاعة مخلوق اصلب منهـا عودا واقوى وامتن اعصابا ان يقاومها . ان هذه المراة الشابة ، المنتقلة فجأة مـن غرفة الاطفال الى

فراش الزوجية ، المدعوة الى تسلم زمام السلطة العليا قبل ان تستيقظ انوثتها تماما ، وتتهيأ لاستجابة دعوة من هذا النوع ، هذه المراة الاكبر من طفلة بقليـل ، الساذجة ، غير الذكية ذكاء خاصا ، ولا الموهوبة قابليـة خارقة ، ألفت نفسها بغتة ، موضوع عبادة لا حدّ لها ، وما أخطر وما أمهر حاشيتها ــ حاشية القرن الثامن عشر ــ في تضليل امرأة شابة مثلها ! لقد مهرت هذه الحاشية في استعمال سموم التملق الناعمة ، واستعدت ابدا لتسحر بترهات لا طائل تحتها ، واصبحت استاذة في جامعة الاناقة ، وفي فن اعتصار اقصى ما يمكن من ملذات الحياة . لقد عرف ، منـذ البدء ، افراد الحاشية الخبيرون ، والاكثر من خبيرين ، في فنون الاغواء ، العالمون علما وثيقا بكل ميل من ميول العقل ، كيف يسلبون قلب فتاة غير ناضجة ، وهي لما تزل فضولية بالنسبة الى ذاتها .

لقد أحيطت ماري انطوانيت منذ اول أيام ملكها بدخان يصعّده بخور عبادة مفرطة : فكل ما تقوله بديع ، وكل ما تفعله شريعة ، وكل ما تسأله مستجاب ، أن عبرّت عـن هوى أصبح في الغد زيًّا (موضة) او ارتكبت حماقة اندفعت الحاشية في النسج على منوالها . ففي نظر هذه الحاشية الطموح كـان وجودها شمسا ، والتفاتها هديـة ، وابتسامتها انعاما ، واطلالتها عيدا . واذا ما اقامت استقبالا ، بذلت السيدات جميعا ، اكبرهن واصغرهن سنا ، ارفعهن مقاما ، واولاء اللواتي يقبلن في البـلاط للمرة الاولى ، جهودا يائسة مضحكة لاسترعاء انتباهها ، واستجداء كلمة لطف منها ! او لتلحظهن ، على الاقـل ، في حـال تعذر ذلك ، فلا يبقين غـير مرئيـات . واذا مـا بدت في الشارع ازدحم الشعب الواثق لرؤيتهـا ، والهتاف لها . او دخلت دار المسرح وقف الحضـور جميعا لتحيتهـا . وحين تجتاز رواق المرايا ، ففي وسعها ان ترى ، وهي في تبرجها البديع ، وسورة انتصارها الذاتي ، امرأة في ميعة الصبا فتانة ، خلية ، سعيدة ، اجمل من اجمل سيدات البلاط ، ــ وبما انها لا تفرق بين البلاط والعالم ــ اجمل من اجمل نساء العالم .

كيف تستطيع مخلوقة حوت بين ضلوعها قلب طفلة ، ولم تبلغ من القوة متوسطها ، ان تحمي نفسها من نشوة سعادة كهذه مزجت بكل لاذع عذب من سلافات الشعور ، من اكبار الرجـال النهم ، واعجـاب النساء وحسدهن ، وتعبّد الجمهور ، والزهو الذاتـي ؟ كيف يمكنها الاّ تصبح ضحية الطيش ، وكل شيء يأتيها بهذه السهولة وبهذه الخفـة . ورقعة « خربش » فيها اسمها تؤتيها من المال ما شاءت ، وكلمة « ادفع » تخطها

على ورقة تنبع الدنانير ، والحجارة الكريمة ، والجنائن والقصور ؟ وكيف تقدر ان تكون غير ما هي عليه من عدم الاكتراث والمرح وقد هبط جناحان من السماء فالتصقا بكتفيها الفتيتين الباهرتين ؟

هذه النظرة الطائشة الى المستقبل لم تكن خطأ تفردت به ماري انطوانيت ، بل كانت من مميزات جيلها كله ، وكان تقبلها غير المتردد لروح عصرها هو الذي اهلّها لتمثيل القرن الثامن عشر . ذلك ان « الروكوكو » ، هذه الزهرة المفرطة الرقة من ازهار حضارة قديمة في عصر الايدي الناعمة العاطلة ، والعقول المتملقة الفاسدة ، لقد ارادت ان تتجسد قبل ان تلفظ انفاسها . ولم يكن في وسع اي ملك واي انسان ان يمثل عصر المراة هذا في كتاب التاريخ المصور ، سوى ماري انطوانيت ملكة « الروكوكو » التي أعطت ـ وهي بين المتهاونات اشدهن تهاونا ، وبين المسرفات اكثرهن تبذيرا ، وبين الانيقات والمتدلعات اوفرهن اناقة واشدهن دلعا ـ اوضح تعبير وابقاه عن اخلاق القرن الثامن عشر وحياته المصطنعة ، والتي لعبت بالحياة كما لو كانت تلعب بآلة موسيقية دقيقة ، سريعة العطب . وبدلا من ان تصبح شخصية عظيمة على مرّ الازمنة ، اضحت تجسيدا لعصرها الخاص . ومع انها بذّرت قواها على السفاسف ، فقد كان لوجودها معناه الخاص ، اذ انها عبَّرت عن عصرها تعبيرا لائقا ، واعطته خاتمة ملائمة .

ولكن ما هي اولى مشاغل ملكة الروكوكو عندما تستيقظ صباحا في قصر فرساي ؟ اقراءة التقارير الواردة من العاصمة والاقاليم ؟ ام تصفح رسائل سفرائها لتعلم ما اذا كانت جيوشها قد احرزت الانتصارات ، ولتستعلم ما اذا كانت الحرب قد اعلنت على الانكليز ؟ لا شيء من هذا القبيل ! لم تكن ماري انطوانيت لتأوي الى الفراش قبل الرابعة او الخامسة صباحا . ولم تكن لترقد اكثر من بضع ساعات ، اذ ان مزاجها المضطرب كاد ان يكون مستقلا من الراحة . ويبدأ النهار بحفلة مهيبة ، فتظهر وكيلة مستودع الملابس تحمل غلائل وثيابا اساسية في زينة الصباح . وتقف الى جانبها احدى الوصيفات تقدم للملكة سجلا نصفيا علقت فيه بالدبابيس نماذج من جميع الالبسة التي يحتويها مستودع الملابس الملكية وعلى الملكة ان تقرر اي ثوب ترتدي . وما كان اشق واعظم مسؤولية هذا الانتقاء بالنظر الى ان لكل فصل من فصول السنة اثني عشر ثوبا لحفلات الدولة الرسمية ، واثني عشر ثوبا اخر للدعوات الخاصة ، واثنتي عشرة حلة للحفلات ، بقطع النظر عن المئات من الفساتين التي يجب ان يجري ابتياعها في كل سنة . تصوّر العار الذي يمكن ان يلحق بملكة الازياء ان هي لبست

الثوب نفسه اكثر من مرة ! ثم هنالك البذلات ، والصداري ، ومناديل العنق المخرّمة ، والقبعات ، والمعاطف والاحزمة ، والقفافيز ، والجوارب ، والملابس التحتية المتعددة الانواع المكدسة في « ترسانة » يعمل فيها جيش من الخياطات والملبسات ، والخادمات . وكان الاختيار يستغرق عادة وقتا طويلا ، فيجري اخيرا تعيين الملابس التي ترغب ماري انطوانيت في ارتدائها ذلك اليوم بوضع اشارات بدبابيس خاصة تغرز في النماذج : فستان الدولة للاستقبال ، وثوب المنزل لما بعد الظهر ، وثوب السهرة للمساء . وهكذا تكون اولى المشاغل قد ازيحت جانبا ، فيبعد سجل النماذج ، وتحضر الثياب المختارة .

فهل من داع للدهشة ، بعد ان علمنا ما للملابس من اهمية عظمى ، من ان تتمتع الآنسة برتين الالهية ، بنفوذ على ماري انطوانيت اوسع من نفوذ الوزراء ؟ اذ ان هؤلاء يمكن استبدالهم بالعشرات ، في حين ان برتين وحيدة نوعها ، وفريدة زمانها . ولم تكن برتين في الاصل اكثر من خياطة عادية تنتمي الى طبقة السوقة من الشعب ، فظة ، ميالة الى الاعتداء ، عنيدة ، رديئة الاخلاق ، ولكنها ، وقد برزت في حرفتها اكتسبت سيطرة لا حد لها على الملكة . ومن اجلها حدثت ثورة ، في فرساي ، قبل بدء الثورة الحقيقية بما يقارب الثماني عشرة سنة ، اذ انتصرت الانسة برتين على نظام التشريفات الذي حرّم على اي بورجوازي او بورجوازية دخول مخادع الملكة ، فحققت فنانة المقص والابرة هذه ما عجز عن تحقيقه فولتير ، او اي اديب كبير ، ورسام شهير في ذلك العهد . لقد كانت الملكة تستقبلها في خلوات خاصة . وعندما كانت تظهر في القصر مرتين في الاسبوع وهي تحمل مشاريع الابتكارات الجديدة ، كانت ماري انطوانيت تدع سيدات البلاط وشأنهن ، وتختلي بسيدة الازياء الموقرة ، تباحثها في زي جديد اغرب من زي الامس . ولا حاجة للقول ، ان برتين ، وهي ربة اعمال فطنة ، كانت تستغل هذه الامتيازات استغلالا ماديا . فبعد ان تغري ماري انطوانيت بقبول ابتكار فادح التكليف ، تأخذ في سلب الحاشية وسائر افراد الطبقة النبيلة . لذلك فقد اعلنت باحرف ضخمة في اعلى محلاتها في شارع سان اونوره انها خياطة الملكة بتعيين خاص من صاحبة الجلالة ، ولم تتردد قط في اجبار زبائنها على الانتظار طويلا ، فاذا ما عادت بعد ابطاء ولاي ، بادرتهم في عنف بقولها : « كنت من توي اشتغل مع جلالتها . » وسرعان ما اصبح في خدمتها فيلق من الخياطات والمطرزات ، اذ انه بقدر ما كانت ماري انطوانيت تفرط في اناقة ملبسها ، كانت سيدات البلاط يندفعن

اندفاعا جنونيا متباريات في الاناقة لئلا يبقين في المؤخرة ، حتى ان كثيرات منهن كن يقدمن الرشوة الى برتين الخائنة لتفصّل لهن ثوبا لم يسبق للملكة نفسها ان لبست من زيّه .

ولقد كان البذخ في هذا المضمار يسري سريان الحمى . فالاضطرابات في طول البلاد وعرضها ، والنزاعات في مجلس الامة في باريس ، والحرب ضد الانكليز لم تكن لتحرك مجتمع البلاط السخيف بمثل العنف الذي يحركه به زيّ « الاسمر البرغوتي » الذي ابتكرته الآنسة برتين ، او تفصيلة جد جريئة لاذيال ثوب مستديرة ، او امتزاج الالوان في نسيج حريري انتجته مدينة ليون . كانت كل سيدة تحترم نفسها تشعر بالاضطرار الى تقليد هذا الافراط في الزي ، حتى ان احد الازواج ابدى الملاحظة التالية متأوها : « لم يسبق قط لنساء فرنسا ان انفقن اموالا بهذا المقدار ليجعلن انفسهن اضحوكة . » على ان ماري انطوانيت كانت تعتبر من اهم واجباتها، ولا ريب ، ان تكون ملكة في هذا المضمار . وبعد ان قضت ثلاثة اشهر على العرش رفعت الملكة الشابة الى منصب « عارضة ازياء » للعالم المتأنق ، و « انموذج » للتبرج وتزيين الشعر ، فكان فوزها حديث جميع الصالات والبلاطات في اوروبا ومنها بلاط آل هابسبورغ في النمسا حيث اثار رنة اسى . ان ماري تيريز التي كانت تحلم لابنتها بمهام ارفع قدرا ، قد اعادت في حنق شديد الى « مرسي » سفيرها في باريس ، صورة تمثل ابنتها متبرجة تبرجا مفرطا يطابق الزي التي ترتديه وهي تقول : « كلا ، ليست هذه صورة ملكة لفرنسا . هنالك سهو ، انها صورة لممثلة ... »

وكان ثاني مشاغل الملكة الصباحية تزيين شعرها ، وقد قيض لها لحسن حظها ، فنان عظيم في هذا المضمار ، السيد ليونارد مزين الروكوكو الذي لا ينضب له معين ولا يعلو عليه احد . كان كل صباح شأن كل سيد كبير ، يركب عربته ذات الجياد الستة ومعه امشاطه ودهونه وزيوته العطرية ، ويتوجه الى فرساي ليمارس على الملكة فنه النبيل . ومثلما كان المهندس المعماري الشهير مانسارت يقيم في اعالي البيوت التي يشيدها سقوفا علمية عرفت باسمه ، هكذا كان ليونارد يشيد فوق جبين كل سيدة نبيلة ابراجا ضخمة من الشعر يعطيها اشكالا رمزية . وكان ليونارد هذا يشرع بشد الشعر من الصدغين الى ما فوق ، ويجعله متماسكا باستعمال دبابيس ضخمة ، وكمية مفرطة من الدهون ، ثم يبدأ في هذا الفضاء وعلى ارتفاع نصف المتر فوق الحاجبين ابداعه الفني الكثير التنوع . ولم يكن يكتفي بتمثيل مشاهد الطبيعة ، والمناظر العامة ، والفواكه ، والجنائن ،

والمنازل ، والسفن ، والبحر العاصف ، والعالم المبرقش في هذه الخصل المرفوعة بتناسق ، وانما كان يعلن في زينة الشعر عن كل ما يجول في تلك الرؤوس الخاوية ، وعن كل ما يلذ لتلك الادمغة القليلة الفطنــة . فعندما كانت ، مثلا ، اوبرا « جلوك » مثار الاهتمام العام ، بادر ليونارد الى ابتكار تسريحة على نمط « ايفيجيني » بأوشحتها السوداء ، وهلال ديانا . وحين لقح الملك ضد الجدري ، عبَّر عن هذا الحدث الخطير بتسريحة «التلقيح» . وعندما اصبحت الثورة الاميركية زي اليــوم الرائج ، جعل مــن تسريحة « الحرية » ملكة الزيّ الحديث . ولقد كان هنالك حادث أعجب واغرب ، اذ عندما نهبت مخابز باريس اثناء المجاعة ، لم تجــد نساء البلاط شيئا افضل من ان يعلن عن ذلك في تسريحاتهن التــي دعونها يومئذ : « قبعات العصيات » .

ولم تزل الابنية المقامة علــى الرؤوس الفارغة في ارتفــاع وسخف مستمرين ، ولم تبرح ابــراج الشعر المشيدة تتدرج ارتفاعا على اسس امتن ، وبضفائر اصطناعية اكثر ، حتى بلغت علوا لم يعد في وسع السيدات معه ان يجلسن في عرباتهن ، بل اضطررن الى رفع اذيال اثوابهن والركوع . وزيد ارتفاع الابواب في القصر لتتفادى المركيزات والكونتسات الانحناء كلما انتقلن من غرفة الى اخرى ، وحولت سقوف الغرف الصغيرة في المسارح الى قناطر . وقد وصل الــى ايدينا عدد مــن الصور الكاريكاتورية يبين الاضرار التي كانت هذه الابنية الشعرية الماردة تلحقها بعشاق السيدات اللائي نحن في صددهن . ولكن ما من احد يجهل ان السيدات مستعدات دائما للتضحية بانفسهن على مذبح الازياء . وجلي ان الملكة لم تكن لتعتبر نفسها جديرة بمنصبها العظيم ان هي لم تستلم القيادة في سخافات كهذه .

أما ثالث مشاغل الملكة في تأنقها ، فكان يتعلق بسؤال ما اذا كان يجوز للمراة ان ترتدي كل يوم زيا جديدا مبتكرا من غير أن تكون لها حلي تنسجم وهذا الزي ؟ وطبعا لا ! ومــن الواضح ، فضلا عن ذلك ، ان الملكة تحتاج الى ماسات اكبــر ، والى أسماط لؤلؤ أثمن مما تملكه اية امراة أخرى . ويجب ان تحوز من الخواتم ، والمحابس ، والأساور ، والحجارة الكريمة ، والتيجان ، والجواهر ، وابازيم الأحذية ، وأطر المراوح المرصَّعة المرسومة بريشة فراغونار ، اكثر من اية من زوجات اشقاء الملك ، او اية سيدة اخرى من سيدات البلاط . انها قد احضرت معها مــن فيينا كمهر ، ولا ريب ، كمية كبيرة من الجواهر ، وقد اهداها لويس الخامس عشر بمناسبة الزفاف صندوقا مليئا بتحف الأسرة . ولكن ما الفائدة من كونها ملكة ان هي لــم

تستطع ان تشتري بلا انقطاع جواهر اكثر جدّة والطف واغلى ؟

لقد كانت ماري انطوانيت ، كما كان يعرف كل من في فرساي . تحب الحليّ الى درجة الجنون . وانها لم تكن بقادرة على المقاومة عندما كان يعرض عليها ، في علب خاصة مبطنة بالمخمل ، تاجرا الجواهر الحاذقان الداهيتان بوهمر وباسينج ـ وهما لاجئان يهوديان من المانيا ـ احدث انتاج الفن من الجواهر : من اقراط مدهشة ، وخواتم ودبابيس ماسية . وعدا عن ذلك ، فان هذين الآدميين الطيبين كانا يقدمان لها كل تسهيلات الشراء ، فيقرضانها لآجال طويلة المدى ، طبعا ، بعد ان يتقاضياها أثمانا مضاعفة ، قياما بواجب الاجلال لملكة فرنسا ، ويبتاعان منها جواهرها القديمة بنصف أثمانها . فتراكمت عليها الديون من كل صوب ، وهي لا تشعر بما في هذه الصفقات الربائية من عيب ، ثقة منها بأن زوجها المقتصد لا بد ان يهرع الى نجدتها في حال الحاجة . ولكن الحلى ومثلها الملابس الفاخرة كانت باهظة ، وعلى الرغم من ان لويس الطيف كان قد ضاعف جراية زوجته ، فلا غرو في ان صندوق نقودها كان قد ثقب ، اذ انه يكاد ان يكون خاليا دائما .

فكيف الحصول اذن على المال ؟ لقد وهبها ابليس ، لحسن حظها ، جنة لا يصعب ولوجها وهي مائدة الميسر . ولم يكن لعب الميسر في فرساي ، حين صعدت ماري انطوانيت الى العرش ، سوى وسيلة تسلية بريئة في السهرات كالبيليارد والرقص ، بمراهنات معتدلة . ولكن الملكة الجديدة اكتشفت لنفسها وللآخرين ضربا من لعب الميسر ذاعت شهرته ، ولم يكن افراد الحاشية ليخشوا قرارا أصدره لويس السادس عشر بمنع لعب الميسر تحت طائلة عقوبات صارمة . فالشرطة لم يكن في وسعها دخول صالات الملكة ، ولم يكن ليهمّ شركاء الملكة المستهترين تقطيب الملك وهو يشاهد موائدهم الخضراء مثقلة بالقطع الذهبية ، بل كانوا يقامرون بغير علم منه ، وقد اصدرت الاوامر الى الحجاب باعطاء اشارة الخطر عند قدوم الملك ، فتختفي الاوراق والأموال تحت الموائد كأن ذلك قد تم بتأثير سحري . فاذا دخل الملك وجدهم منصرفين الى الثرثرة في انشراح . ولا يكاد ذلك الانسان المسكين يغادر المكان للنوم المبكر ، حتى يستأنفوا اللعب ساخرين منه ، ملء أشداقهم ، ولا ضمير يؤنب . وتعلن الملكة ، انعاشا لحركة اللعب ، بأن من يحمل مالا يمكنه الجلوس الى مائدتها ، فيبادر السماسرة وصقور الليل الى اغتنام فرصتهم ، ولا يعتم ان يشيع الخبر في باريس ان الغش في لعب الميسر عادة دارجة في قاعات الملكة . الا ان انسانا واحدا لم يكن يعرف شيئا عن ذلك ، فقد أعمته اللذة ولم يرد معرفة

أي شيء ، وهذا الانسان انما هو ماري انطوانيت ، التي اذا ما اندفعت وراء شهوة اللعب كـان لا شيء يستطيع كبح جماحها ، حتى انها كانت تقامر ليلة بعد ليلة حتى ساعات الفجر الأولى ، وقد ظلت ، في ليلة عيد جميع القديسين، تقامر، ويا لفضيحة البلاط الكبرى، الى ما بعد الشروق.

الا ان الملابس وتزيين الشعر والميسر كـانت لا تشغل سوى نصف النهار ونصف الليل . وكان عقرب الساعة القصير الذي يـدور مرتين في اليوم ، لا يرحم . ومع ذلك فقد كان لا يزال هنالك فراغ يجب انيقتل ، فكيف كـانت ماري انطوانيت تتلهى في اوقات الفراغ ؟ ركـوب الخيل ، الصيد ؟ لقد كانا من وسائل اللهو الملكية قديما ، ولا بدّ للانسان من رفاق فيهما ، والا فان السأم قتال . ولقـد ندر ان يرافقها زوجهـا في هـذه المناسبات ، ولذا فرفيق اكثر حيوية منه مثل الكونت دارتوا شقيقه او احد النبلاء ذوي الذكاء الخارق ، افضل منه . ولقد كانت تركب احيانا حمارا على سبيل الدعابة ، بدلا من ركوب الخيل . ولا بأس في الا يكون مشهد ذلك من الرفعة بمكان ! ولكن عندما كانت الدابة الغبراء اللون تشب شبوبا طفيفا ، كان وقوعها الاختياري عـلى الارض شديد الاحتمـال ، فتتمتع الحاشية عندئذ بأشد اللمحات سحرا اذ تصوّب أنظارها الى ما تحت الفلالة ، والى ساقي الملكة الجميلتين .

وكانت تقـوم في الشتاء بالتزلج وهي متدثرة جيدا ، وتتلهى ، في الصيف ، بمشاهدة الاسهم النارية او بالرقص في العراء او بحفلات الموسيقى في الحديقة فتهبط بضع خطوات عـن الرصيف وتصبح في صحبة رفيق او رفيقين في حمى الظلام ، تلهو على هواها ــ بشرف ولا شك ــ ولكنها تلعب بالخطر كما تفعل بكل شيء آخر في الحياة . وماذا يهمها ، فيما لو نظم احد افراد الحاشية الخبثاء الحاقدين في الغد قصيدة بعنوان «طلوع الفجر » يصف فيها مغامرات الملكة الليلية ؟ ان الملك متبلـد الشعـور ، ومتسامح في آن واحد ، ولا يحسّ بهذه الوخزات . اما ماري انطوانيت فقد كان الأهم في نظرها الاّ تبقى وحدها ، والاّ تضطر قط الى قضاء ليلة واحدة طويلة في بيتها تقرأ كتابا وهي جالسة مع زوجها بالقرب من المدفأة ، وان تكون ابدا على اهبة الذهاب ، ومرحة من اول الأسبوع الى آخره .

وان أطلق زيّ جديد ، كانت ماري انطوانيت السباقة الى اتباعه . فلم يكد الكونت دارتوا يدخل سباق الخيل الى فرنسا حتى اصبحت الملكة تشاهد في المدرج الكبير ، محاطة بعدد من المتحـذلقين مقلـدي الانكليز ، يتراهنون ، وقد راقت لهم دغدغة الأعصاب الجديدة . ولم يكن لهيب

حماسها ليستمر في الغالب طويلا ، اذ انّ ما يفتنها اليوم يضجرها في الغد. ولم يقو شيء ، سوى التبدل الدائم في حلبة الملذات ، على تهدئة قلقها العصبي المتأتي ، ولا شك ، من سر كامن في المخدع الملكي . ولقد كان الرقص المقنع وحده ملذتها المفضلة بين مئات الملذات الدائمة التجدد ، اللذة الوحيدة التي ما زالت مولعة بها ، والتي الحقت بسمعتها ابلغ الضرر. وكان الرقص يمنحها متعة مزدوجة : بقاؤها كملكة ، وتمكنها ، بالنظر الى حؤول قناعها الحريري الأسود دون اكتشاف شخصيتها الملكية ، من المغامرة بنفسها على شفا هوة الغرام ، ومن تعريض ذاتها كامرأة لرمية زهر النرد ، بينا لم تعرّض الا بمالها على موائد الميسر . كان في وسعها ، وهي تتخطى في زيّ آرتميس او ترتدي ثوبا تنكريا ان تنفض عنها برودة المجاملة العامة وتهبط الى قلب الضوضاء الدافئة في حياة البشر الاعتيادية ، وتنعم بأريج الحب ، وقشعريرة دنو الغواية ، وتحس في اعمق اعماقها بنشوة الخطر الذي تماشيه ، وتتأبط ، ولو نصف ساعة من الزمن ، ذراع شاب من نبلاء الانكليز ، وتصارح الفارس السويدي الفتان آكسل دي فرسن ببضع كلمات جريئة انه يعجب كل الاعجاب المرأة التي تجد نفسها ، ويا للاسف ، مضطرة بوصفها ملكة ، الى المحافظة على الفضيلة .

ان ماري انطوانيت لتجهل ، او لا تريد ان تعرف ، ان نزواتها هذه ، التي تضخمها ثرثرات فرساي الى دعارة ، كانت موضوع الاحاديث في المجتمعات ، ولم تكن تعرف او كانت تتعمد ان تجهل ان انكسار دولاب عربتها الملكية مرة ، واضطرارها الى اكتراء عجلة أوصلتها الى دار الاوبرا ، وقد تسرّبت اخباره متحولة الى مغامرة غرامية .

ولم تعد تحذيرات ماري تيريز الصابرة العجوز لتؤثر في هذه المراة الفتية المجنونة التي بلغت درجة لم تعد تدرك معها لماذا لا يفهمها الناس . فهل من اعتراض على تمتع المرء بالحياة الى اقصى حدود التمتع ما دامت الحياة لا تعني شيئا سوى المتعة ؟ هذا ما باحت به بصراحة مخيفة الى « مرسي » ، وهي في صدد ذكر توبيخات أمها اذ قالت : « ماذا تريد مني ؟ ان الضجر يرعبني . »

« ان الضجر يرعبني » ، بهذه الكلمات لخصت ماري انطوانيت سلوك جيلها بكامله، وسلوك المجتمع الذي عاشت فيه. لقد دنا القرن الثامن عشر من نهايته ، انه قد حقق هدفه ، فالملكة قد اقيمت على أساس متين ، وشيدت فرساي، وتكاملت قواعد المجاملة العامة ، وتفرّغ البلاط ، ولم يعد الماريشالات وهم في حالة سلم ، سوى صور كرتونية (قره كوزات) في

بزة عسكرية ، والأساقفة ، ازاء جيل ملحد سوى اسياد متأنقين في طيلسانات بنفسجية ، واكتفت الملكة ، وليس الى جانبها ملك حقيقي ، او ولي عهد تربيه ، بأن تكون سيدة مجتمع مرحة . ولقد ظل هؤلاء القوم جميعا ، والسأم يطاردهم ، في غفلة عن تيارات العصر الهائلة التي تقترب بعنف ، واذا ما هم غمسوا فيها احيانا أيديهم الفضولية ، فما ذلك الا لينتشلوا بعض الحصى البراقة ، أو ليلهوا بالعنصر الرهيب ، ضاحكين ضحك الاطفال للرغوة الخفيفة التي تتطاير على أصابعهم ، ولم ير اي واحد منهم تصاعد الأمواج في سرعة متزايدة . حتى اذا ما احسوا بالخطر أخيرا ، كان قد تعذّر الهرب ، وانتهى اللعب واصبحت حياتهم مهددة .

٨ ـ قصر التريانون

تناولت ماري انطوانيت التاج بيدها الطائشة الرشيقة كما لو انها تتناول هدية مفاجئة ، فهي اصغر من ان تدرك ان الحياة لا تهب دون مقابل، وان كل ما تعطيه الاقدار انما قد خط عليه الثمن خفيا . ولم يدر في خلدها قط انها ستضطر يوما الى تسديد الثمن . فهي قد تسلمت حقوق الملك ولم تؤدّ ، مقابل ذلك ، اي واجب . ولقد ارادت أن تجمع ضدين لا يأتلفان على الصعيد الانساني : الحكم واللهو ، فودّت وقد اضحت ملكة لو نفذ الناس جميع رغائبها بينا هي ترخي العنان لاهوائها ، اي انها ابتغت سلطة الحاكم وحرية المرأة ، وارادت ، في الواقع ، التمتع مضاعفا بشبابها المحموم .

ولكن الحرية في فرساي متعذرة ، فليس من الميسور ان يخطو المرء خطوة واحدة بين هذه المرايا الباهرة ، دون أن يعلم الناس بها . كل حركة يؤدي عنها حساب ، وكل حديث تنقله نسمة خؤون . لا خلوة فيه ولا مسارة ، لا راحة ولا استرخاء . فالملك هو النابض الرئيسي لساعة منبهة ضخمة تسجل الوقت تسجيلا لا رحمة فيه ، وكل عمل ، من طلوع الشمس الى غروبها ، من الولادة الى الممات ، حتى سويعات الحب ، قد اصبح من اعمال الدولة . والعاهل يملك كل شيء هنا ، وهو بالحقيقة لا يملك نفسه.

لكن ماري انطوانيت تكره كل رقابة ، لذلك ، لم تكد تتوّج حتى سألت زوجها المتساهل ان يقدّم لها منعزلا تستطيع فيه ان تشعر انها ليست تحت الرقابة . فوهبها لويس السادس عشر ، يتناوبه عاملا الضعف والملاطفة ، قصر التريانون الصيفي الصغير مملكة صغيرة ، ولكنها مملكة تخصها هي وحدها في وسط مملكة فرنسا الشاسعة .

وكان التريانون ، هذه الهدية التي قدمها لويس السادس عشر الى ماري انطوانيت ، شيئا عادي الاهمية في حد ذاته ، ولكنه اصبح العوبة سوف تخلب لبها وتشغل فراغها خلال السنوات العشر المقبلة او تزيد . فلم يكن مبتنيه قد قام بتصميمه ليصبح مقرا دائمًا لإسرة مالكة ، بل « موضع لهو » ومسكنا مؤقتا ، وقد استعمله لويس الخامس عشر طويلا كعش غرام في منأى عن اعين الرقباء ، لمتعه مع السيدة دي باري وغيرها من سيدات الهوى العابر . وكان طعام العشاء يقدم فيه للملك لويس والسيدات اللواتي يخصهن بغرامه على منضدة ماهرة الصنع جعلت على نمط مصعد عصري ، ترفع بعد ان يمد عليها الطعام ، بصورة خفية ، من المطبخ في الطبقة السفلى الى غرفة الطعام فيظل « الملك المحبوب » والسهرة الحمراء بعيدين عن انظار الخدم . وقد انعم على صانعها « ليبوريلو » ، لانه زاد في رفاه العجوز ، بجائزة خاصة ، قدرها اثنا عشر الف ليرة جاءت مضافة الى ما كلفه بيت الملذات هذا خزينة الدولة ، وقدره سبعمائة وستة وثلاثون الف ليرة .

اما ماري انطوانيت فقد تسلمت القصر وهو ما زال نابضا بمشاهده الناعمة ، وهكذا اصبحت لديها لعبتها المفضلة . وقصر التريانون هذا من ابدع مبتكرات الذوق الفرنسي ، دقيق التخطيط ، كامل التشييد ، علبة جواهر حقيقية تلائم الملكة الشابة الانيقة . ولم يكن هذا القصر ذو الهندسة المتبسطة ، كنمط الاقدمين نوعا ، المطلة نوافذه على مروج ورياض بهية ، الواقع في منعزل تام عن الابصار ، والقريب من فرساي مع ذلك ، قريبا مناسبا ، مسكن المحظية هذا الذي اصبح مسكن الملكة ، لم يكن بأكبر او افخر اثاثا من قصر ريفي (فيلا) في ايامنا هذه . كان يحتوي سبع أو ثماني غرف : رواقا ، وغرفة طعام ، وردهة صغيرة ، وغرفة نوم ، وحماما ، ومكتبة متناهية الصغر (لم تفتح ماري انطوانيت حسب اجماع الشهادات كتابا طيلة حياتها) ، خلا بعض القصص الخفيفة التي كانت تتصفحها على عجل .

ولم تجر الملكة خلال مدة اقامتها في هذا القصر الصغير سوى تغييرات طفيفة . وقد تجنَّبت ، وهي ذات الذوق الممتاز في امور كهذه ان تدخل اي شيء باهظ التكليف او ذا فخامة وابهة مبالغا بهما الى هذه الغرف التي كانت الغاية منها ان تحدث انطباع خلوة ورفاهية ، بل اشاعت فيه ، على العكس ، صفاء ، ورقة ، وتحفظا امتاز به هذا النمط الذي سمي خطأ باسم لويس السادس عشر مثلما سميت القارة الاميركية خطأً باسم

امريكوس فسبوس . لقد كان من الواجب ان يحمل اسم تلك المرأة اللطيفة، الانيقة ، الرشيقة الحركة ، فيعرف بنمط ماري انطوانيت ، اذ لا شيء في طلاوته الهشة يذكر بلويس السادس عشر ، هذا الرجل الثقيل ذي الذوق العادي ، بل كل ما فيه يذكر بخيال المرأة الرشيقة الفاتنة التي ما زالت صورها حتى اليوم تزين الجدران ، ان هذا النمط الذي ما برح يبدو لنا مغريا في وحدته الكاملة من السرير الى علبة البودرة ، من البيان الى المروحة العاجية ، من الاريكة الى الطرفة الصغيرة ، والذي لم تستخدم فيه سوى مواد ممتازة في اشكال رصينة ، دقيقة المظهر ولكن ثابتة ، والذي يجمع ما بين النمط القديم والظرف الفرنسي ، يؤكد لنا اكثر من أيّ نمط سابق تسلط المرأة الظافرة ، وسيادة الذوق والكياسة النسائيين في فرنسا . ولقد حلت الالفة والنشوة فيه محل الابهة المسرحية في نمطي لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر ، واصبح البهو الصغير ، حيث تجري الاحاديث في استفاضة وعدم كلفة ، مركز المنزل عوضا عن ردهات الاستقبال الفسيحة التي يتردد فيها الصدى بعيدا ، وبدّل الرخام البارد بنقوش الخشب المذهب ، والمخمل الخانق المطرز بأسلاك ذهبية بحرائر ناعمة لماعة ، ودشنت الالوان الخفيفة الشاحبة المتمازجة من « كريم » كامد ، ووردي دراقي ، وازرق كاشف عهدها بتسلل انيق : انه لفن المرأة والربيع ، والحفلات الانيقة والمواعيد اللامبالية ، لا تتوخى فيه الابهة الجارحة ، والزخرف المسرحي ، بل على العكس من ذلك تنشد الرصانة واخفات كل لمعان . يجب ان يعكس كل ما يحيط بالملكة سحر المرأة الشابة عوضا عن ان يعبر بشدة عن سلطتها الملكية . ان تماثيل كلوديون الصغيرة اللطيفة ، ولوحات واطو وباتر ، وموسيقى بوتشريني الفضية الجرس ، وسائر مبتكرات القرن الثامن عشر الرقيقة ، لم تكتسب تناسبها الصحيح والحقيقي الا ضمن هذا الاطار العذب الالوف ، ولم تبلغ هذه البشاشة الفريدة ، وهذه اللامبالاة السعيدة ، قبيل الهيجان الهائل تلك الخفة وذلك العمق مثلما بلغتها في هذا المكان . ان التريانون سيظل الى ما شاء الله اظرف وانعم وابقى اناء ، لهذا الازدهار الناعم . اذ ان فيه قد اصبحت الكياسة المتناهية وعبادة اللذة فنا تجسّد كل التجسد في مسكن واحد وفي صورة واحدة .

ان قصر التريانون هذا لدنيا مصغرة : لا يرى الناظر من خلال نوافذه – وهذه واقعة رمزية – لا المدينة ، ولا باريس ، ولا الريف ، ولا اي شيء له علاقة بالحياة الحقيقية . ولم يكن اجتياز مساحته الضيقة ليستغرق سوى بضع دقائق ، ومع هذا ، فان لهذه الرقعة الصغيرة ، في نظر ماري

انطوانيت ، مدلولا اعظم ، واهميــة اشد مما لفرنسا بأسرها ، وللعشرين مليونا من ابنائها . فهي هنا ، لا تشعر بالخضــوع لاي شيء مــن قواعد الرسميات والمجاملة العامة ، وعلى وجه التقريب للاخلاق الحسنة . ولكي يعلم الجميع انها هي الحاكمة بامرها على هذه البقعة مــن الارض ، فقــد اصدرت الاوامر باسمها هي « من قبل الملكة » لا باسم زوجها ، على الرغم مما كان لهذا من الوقع الفاضح لدى البلاط الذي يطبق الشريعة الفرنسية تطبيقا صارما . ولقد لبس خدمها بزة خدمتها الخاصــة بلونيها الاحمر والفضي بدلا من بزة الخدم الملكية الرسمية . ولم ير زوجها في التريانون الا كضيف ، متساهلا متناخيا ، ولم يأته بــدون دعوة ، وفي وقت غــير مناسب ، بل احترم حقــوق زوجته في حياتها الخاصة احتراما شديدا . على ان هذا الرجل الساذج كان يجيء الى التريانون بملء اختياره ، لانــه كان يشعر بالراحة فيــه اكثر مما في قصر فرساي . ومن ثــم فقد ازيح « بامر الملكة » عن التريانون كل تصلب وكل عرف ، فلا شيء من رسميات البلاط ، اذ يمكن الاستلقاء على العشب بدون قبعــة وفي اي ثياب شاءها المرء ، لان حقوق التصدر التدرجية قد اختفت في الالفة البهجة ، واحتجب كل تصلب بل كل وقار . ولقد شعرت الملكة فيــه بالراحة واعتادت هذا الطراز من الحياة الخالية من التضييق الى درجة انها كانت تستثقل العودة مساء الى فرساي ، واصبح البلاط غريبا عنها اكثر من ذي قبل بعد ان تذوقت هذه الحرية الريفية ، واضحت واجبات الملك اشد ازعاجا لهــا ، فلاذت الى محضنتها البهيجة اياما بكاملها . وكم كانت تشتهي ان تسكن التريانون سكنى دائمة . وبما ان ماري انطوانيت لا تفعل في النهاية الا ما يحلو لها ، فقد استقرت فعلا في مقرها الصيفي ، فرتبت فيــه غرفة نوم بسرير واحد يكاد لا يتسع للملك ذي الجثة الضخمة ، ولــم تعد المعاشرة الزوجية الخاصة ــ وذلك كأي امر آخر ــ مرتبطة برغبة الملك ، ولم تعد ماري انطوانيت تزور زوجها الا مثلما كانت ملكة سبأ تزور سليمان ، اي اذا ما راق لها ذلك او اعترضت امها بشدة على « السرير المنعزل » . اما زوجها فلم يقاسمها هنا الفراش مرة واحــدة ، اذ ان التريانون ، ارضها السعيدة الموقوفة عليها ، كانت مكرسة للمغازلات والملاهي ليس الا ، فهي لا تقرن بها واجباتها ومن جملتها الواجب الزوجي وهو الاقل شأنا . انها تريد ان تحيا هنا وحدها بدون عوائق ، والا تكون الا المراة الفتية المتملقة ، المعبودة عبادة لا حد لها ، الناسية في الف من مشاغلها التافهة كل شيء : مملكتها ، وزوجها ، والزمن ، والكون ، والبالغة احيانا ــ وربما كان ذلك

أسعد لحظات عمرها ـ درجة نسيان ذاتها .

ان التريانون قد اعطى اخيرا هذه النفس المتعطلة مشغلة ، ملهاة ، مستمرة التجدد . وكما كانت ماري انطوانيت توصي على الثوب تلو الثوب لدى بائعة الازياء ، وعلى الحلي فوق الحلي عند تاجر مجوهرات البلاط ، هكذا وجدت دائما شيئا جديدا تأمر باجرائه لتجميل مملكتها هذه ، فظهر الى جانب الخياطة ، والجواهري ، واستاذي الموسيقى والرقص ، مصمم البناء ، ومخطط الجنائن ، والرسام ، والمزخرف هؤلاء الوزراء في مملكتها الصغيرة الدين كانوا يشغلون اوقات فراغها المديدة بل الهائلة الطول ، مستنزفين ، بدون كلفة ، ما في خزينة الدولة . ان ما يهمها في الدرجة الاولى هو حديقتها التي يجب ، طبعا ، الا تذكر ولو طفيفا بحديقة فرساي، وان تكون احدث حديقة ، والصقها بالزي ، واشدها ملاءمة للذوق ، والطفها في ذلك العصر ، وبالاختصار حديقة الروكوكو الحقيقية الاصلية . لقد سئم الناس المروج التي يرسمها بالحبل « لونوتر » ماريشال فن الحدائق ، والاسيجة المقصوصة قصا ، وكلّت انظارهم من مشاهدة الزينات الباردة التي يصممها المخطط على طاولته ، المستهدف من ورائها في كبرياء ، اثبات ان « الملك الشمس » قد فرض الشكل الذي يريد ، لا على المملكة ، وطبقة النبلاء ، وسائر الطبقات والامة فحسب ، بل على مناظر الطبيعة ايضا . بهذا كانت ماري انطوانيت ، في وعي منها أو غير وعي ، تعبّر عن ذوق العصر الجديد . لقد شبع الناس من هذه الهندسة الخضراء وكلّوا من « مذبح الطبيعة » هذا . . .

لقد وجد جان جاك روسو في هذه الناحية كما في النواحي الاخرى من حيرة جيله الثقافية ، وجد وهو الغريب عن هذا الوسط الارستقراطي التعبير التحرري عندما طالب في كتابه « هيلويز الجديدة » « بحديقة طبيعية » . لم تقرأ ماري انطوانيت ، ولا ريب ، كتاب « هيلويز الجديدة »، ولم تعرف جان جاك روسو ـ فيما اذا كانت قد عرفته ـ الا بوصفه ناظما للمقطوعة الموسيقية « عراف القرية » . بيد ان نظرات جان جاك روسو كانت جزءا من جو العصر . وكان الدوقات والمركيزات يذرفون الدموع عندما يجري على مسمع منهم ذكر هذا المدافع البارز عن البراءة الاصلية . لقد اقرّوا بفضله لانه ، بعد ان زال اثر المغريات الاعتيادية ، قد اوجد لهم اخر مهماز لحواسهم المضناة : اللهو في بساطة مزورة ، واللعب في براءة مزورة ، وتقنيع الحقيقة . ومفهوم ان ماري انطوانيت تطلب هي ايضا مناظر طبيعية « بريئة » ، فتجمع حواليها احسن فناني العصر وادقهم

ذوقا ، ليعملوا القرائح ويرسموا ويبتكروا بأحسن اساليب الفن حديقة (طبيعية) .

لقد كان مفروضا في تلك الحديقة الانكليزية ـ الصينية ـ حسب زي العصر ـ ان تمثل ، ليس الطبيعة وحدها فحسب ، ولكن الطبيعة باسرها ، وان تظهر العالم كاله في عالم مصغر لا تتعدى مساحته بضعة كيلومترات مربعة . كان على هذه الرقعة الصغيرة من الارض ان تضم كل شيء : عطور فرنسا والهند وافريقيا ، وخزامى هولندا ، ومانوليا الجنوب ، والبحيرة ، والنهر ، والجبل ، والمغارة ، والاطلال الرومانتيكية ، والمنازل الريفية ، والمعابد اليونانية ، والمناظر الشرقية ، وطواحين الهواء الهولندية ، الشمال والجنوب ، الشرق والغرب ، الطبيعي والغريب ، وكل هذا ، على الرغم من كونه اصطناعيا ، يجب أن يعطي على قدر الامكان فكرة الحقيقي ، حتى ان المهندس المعماري فكّر في بادىء الامر في اقامة معبد صيني وبركان يبصق اللهب ، ثم تبيّن لحسن الحظ ان هذا المشروع يكلف غاليا جدا . لقد باشر مئات العمال بدافع من الحاح الملكة ، ووفقا لمخططات المهندسين والرسامين الاشغال التي يجب ان تخرج كما لو كان ذلك بعامل سحري من مشاهد الطبيعة الحقيقية مشهدا ارادوه اشد ما يكون طبيعيا وفاتنا . فأجروا جدولا ينساب بين المروج في خرير شاعري عذب ، ـ والجدول عدة ضرورية لكل تمثيلية راعوية حقيقية ـ ، صحيح ان جرّ مياه مارلي في انابيب طولها الفا قدم ، قد كلف من المال بقدر ما في هذه الانابيب من ماء ، ولكن ماذا يهم ذلك ما دام لمنعرجات هذا الجدول منظر طبيعي فتان ! انه يجري سريعا تحت جسور جميلة ويحمل الاوز الابيض بأناقة ، ويصب مياهه المصطفقة بهدوء في بحيرة اصطناعية تقوم فيها جزيرة اصطناعية ايضا . وبعد قليل تنتصب صخرة شعرية البهاء كساها الطحلب الاصطناعي ، ومغارة غرام خفية . لا شيء يدعو للارتياب في ان هذا المشهد ذا البساطة المؤثرة قد خطّ أولا على أوراق عديدة ملوّنة فوق منضدة الرسام ، وقد جعل له عشرون نموذجا من الجص ، مثل فيها الجدول والبحيرة بقطع من المرايا ، والاشجار والعشب بصوف اخضر الصبغة وطحلب ، كما يفعل في مذاود الميلاد . ولكن ليس في ذلك النهاية ، فللملكة في كل سنة رغبات جديدة ،واماني اكثر طلابا ، واقرب من (الطبيعة) يجب ان تجمل مملكتها ، وهي لا تنتظر لاجراء هذه التغييرات الجديدة ، تسديد نفقات الاضافات القديمة ، فاللعبة بين يديها ولا تريد ان تتوقف عن اللعب . وهنالك الطرّف الصغيرة تبدو وكأنها قد وجدت في أماكنها

بطريــق الصدفة ، ومــع هذا ، قد عمل علــى توقيعها مقدما معماريون رومنتيكيون ، جاءت تطابق حديقتها وتزيدها فتنة ، ويقوم على مرتفع من الارض معبد لاله الحب ، اله العصر ، وقد ضم بناؤه المقبب المفتوح عــلى منهج الاقدمين ، منحوتة من اجمل منحوتات بوشاردون تمثل ملاك الحب يقتطع قوسه من جسم هرقل . وترى مغارة نقرت في الصخر بطريقة بارعة الى درجة ان العشاق يرون في الوقت المناسب مــن يقتربون منهــم ، ولا يؤخذون على حين غرة وهم في نشوتهم . كما ان دروبا ضيقة قد رسمت متعرجة الغابة ، ومروجا وشيت بالازهار النادرة ، ومن خــلال حجاب الخضرة كان يلمع سرادق الموسيقى الصغير الابيض المثمن الاضلاع ، ولقد جمع كل ذلك وصهر بذوق الى درجة لا يشعر معها بالاصطناع مــن خلال الفتون .

ولكن « الموضة » كانت تزداد تطلبا ، ففي سبيل نقل ادق عن الطبيعة، ولاضفاء مظهر حقيقي ارقّ على الكواليس ، ولجعل التصوير النقلي أصوب، ادخل في هذه التمثيلية الشعرية التــي كانت أكمل ما في جميــع القصور وابهظها ثمنا ، مشخصون حقيقيون : قرويون وقرويات ، وراعيات بقر ، وابقار ، وعجول وخنازير ، ونعــاج ، وأرانب ، وجزازون ، وحصادون ، ورعاة ، وغسالات لكي يحصدوا ويحلبوا ويغسلوا ويسمدوا الارض ، كيلا ينقطع اللعب لحظة واحدة . ويعقد قرض على الخزينة اهم من سواه بامر من ماري انطوانيت لكي تبعث في قصرها مسرح (قره‌كوزات) بحجم عادي يضم الزرائب ، والاهراء ، واوكــار الطيور ، وابراج الحمــام ، واكوام العلف ، وكان ذلك قريتها الشهيرة . ويخطط « ميك » المهندس المعماري الكبير والرسام هوبرت ، ويرسمــان ، ويقيمان ثمانــي مزارع نقلت نقلا صحيحا عن المزارع العادية بسقوف التبن الطويــل ، وأعشاش الطيــور والمزابل . وبما ان الواجب يحتم ان تظهر ــ باي ثمن كان ــ هذه المنشآت النقلية المتوهجة جدة في حضن هذه الطبيعة الغالية بمظهر الحقيقية فقد قلدوا في خارجها حتى فقر اكواخ المعوزين وبؤسها ، واصطنعوا شقوقا في الجدران ، والبسوها مظهرا رومانتيكيا متهدما بكشطهم الكلس عنها هنا وهنالك ، ورسم هوبرت على الخشب شقوقا اصطناعية ، ووسخ المواقد بالسخام . وعلى العكس من ذلك فان هذه البيوت المتهدمة في ظاهرها قد زودت من الداخل بكل اسباب الرفاه مــن : مدافىء ، ومرايا ، وبيليارد وأرائك مريحة . ذلك انه اذا ما ادرك الملكة الملل ، وارادت ان تلهو علــى طريقة جان جاك روسو ، اي ان تصنع الزبدة بيديها ، وفي صحبتها سيدات

الشرف ، فليس من المقبول ان توسخ اصابعها . فهي عندما تذهب الى زريبة بقرتيها « البيضاء » و « السمراء » تكون ارضها قد صقلت مسبقا ، وفرك شعر البقرتين حتى يصبح ناصعا كالثلج او اسمر ذهبيا ، ثم يؤتى بالحليب ذي الرغوة لا في قدور قروية خشنة ، بل في اكواب من الصيني صنعت خصيصا في « سيفر » وطبعت عليها الاحرف الاولى من اسمها . هذه القرية الساحرة اطلالها اليوم ، كانت لماري انطوانيت مسرحا في الهواء الطلق ، وكوميديا ريفية تافهة او قل مثيرة بتفاهتها . اذ انه ، في حين قد شرع الفلاحون يثورون في طول فرنسا وعرضها ، وهاج الشعب الذي سحقته الضرائب واعلن العصيان مطالبا في صخب بتحسين اوضاعه التي لا تطاق ، كان ما يزال في هذه القرية المزورة تزويرا جديرا بـ « بوتمكين » رفاهة تتناقض والواقع تناقضا اخرق . فتقاد فيها النعاج الى المراعي باوشحتها الزرقاء ، بينما تتمتع الملكة ، تحت مظلة امسكت بها احدى نساء الحاشية ، بمراى الفسالات يبللن الغسيل في الساقية ذات الخرير العذب ، واي شيء اجمل من هذه الاخلاق الدمثة الحلوة ، وأرق واشد فتنة من هذه الدنيا الفردوسية ؟ الحياة فيها صافية نقية كاللبن الذي ينبع من ضرع البقرة . والملكة ترتدي الفساتين المصنوعة من نسيج (الموسلين) الناعم ببساطة ريفية ، ويؤخذ لها في هذه الزينة الوضيعة رسوم تكلف الوف الليرات ، وتقبل على الملذات البريئة ، وتغذي في نفسها « تذوقها للطبيعة »، فتصطاد الاسماك ، وتقطف الازهار ، وتتنزه — نادرا وحدها — في الشعاب المتعرجة ، وتجري في وسط المروج ، وتتأمل الفلاحين الطيبين المزيفين وهم يشتغلون ، وتلعب بالكرة ، وترقص ضروب الرقص في المروج المزهرة بدلا من التزحلق على البلاط ، وتعلق الاراجيح بين الاشجار ، وتنظم لعبة الخاتم الصيني ، وتختفي عن الرفاق ، وتلتقي بهم ما بين المزارع الصغيرة وفي المماشي الظليلة ، وتركب الخيل ، وتعبث ، وتأمر بتمثيل الروايات الهزلية في قلب هذا المسرح الطبيعي وينتهي بها الامر الى ان تقوم هي ذاتها بتمثيلها بين أيدي الآخرين .

وكانت هذه آخر هواية لماري انطوانيت ، اذ شرعت باقامة مسرح خاص لنفسها لا يزال باقيا حتى الان ، فتانا بابعاده الدقيقة — ولم تكلف هذه النزوة سوى ١٤١،٠٠٠ ليرة — ولسوف يؤدي الادوار الهزلية عليه ممثلون ايطاليون وفرنسيون ، ثم تقفز هي نفسها فجأة الى المسرح قفزة حازمة جريئة . ويتحمس للتمثيل رفاقها ذوو الادوار الثانوية ، فيمثل معها الكوميديا شقيق زوجها الكونت دارتوا والسيدة بولينياك واصدقاؤها،

ويأتي الملك من وقت الى آخر ليشاهد في اعجاب زوجته تمثل دورها الهزلي ، هكذا يستمر الكارنافال البهيج في التريانون طيلة العام . انها تقيم الحفلات على شرف زوجها ، وشقيقها ، والامراء الاجانب الذين تريد ان تريهم مملكتها السحرية ، فتشاهد عندئذ الوف الشعل المخفية التي يعكسها زجاج متعدد الالوان ، تلمع في الظلام لمعان الجمشت ، والياقوت الاحمر ، والزبرجد ، بينا تمزق الفضاء السنة النار الزافرة ، وتنتشر عذبة موسيقى خفية قريبة . كما انها كانت تقيم مآدب لمئات من المدعوين ، وتنشيء حوانيت سوقية مؤقتة ، وترقص وتتسلى ، بينما تخدم المناظر الطبيعية السليمة طيعة كزخرف مفرط الرقة لهذا الترف كله . كلا ! ان الانسان لا يشعر بالملل في حضن « الطبيعة » ، وماري انطوانيت لم تنسحب الى التريانون للتأمل اي (للخلوة الفكرية) بل لتزيد من التلهي في حرية اكثر !

ولم يظهر حساب الاموال المنفقة على التريانون الا في ٣١ اب ١٧٩١ فكان المجموع (١٦٤٩٥٢٩) ليرة ، ولكنه في الحقيقة كان يتجاوز المليونين اذا ما ضمت اليه النفقات المستورة ، وهو مبلغ عديم الاهمية ازاء تبذيرات الحاشية كلها ، ولكنه فادح جدا بالنسبة الى اضطراب الميزانية والفقر العام . وسوف تضطر « الارملة كابيه » الى الاقرار امام المحكمة الثورية بقولها : « انني اعترف ان التريانون الصغير قد كلف مبالغ طائلة وربما اكثر مما كنت اريد ، لقد جرنا الى النفقات جرا تدريجيا » . على ان اهواء الملكة الفجائية قد كلفت اكثر من ذلك من الوجهة السياسية .

٩ ـ المجتمع الجديد

لم تكد ماري انطوانيت تستقر في مسكنها المبهج حتى شرعت تعمل المكنسة بنشاط ، فليبعد الشيوخ بادىء ذي بدء لكونهم مزعجين قبحاء يجهلون الرقص والتسلية ، ويعظون بالتروي والفطنة ، لقد اشبعت هذه المرأة الفتية المليئة حياة بهذه التنبيهات والنصائح الابدية بالاعتدال يوم كانت ولية العهد . ولتغب عن الانظار الكونتيس دي نوايل ، هذه المربية الصلبة ، فالملكة لم تعد بحاجة الى التهذيب وهي تفعل ما تشاء . وليبق الاب فيرموند ، المعرف والمستشار الذي عينته لها امها ، على بعد لا يستهان به . ولينح جميع من يتطلبون منها جهدا عقليا او بدنيا . انها لا تريد حواليها سوى الشبان والخليين المرحين الذين لا يفسدون ملاهي

الحياة ودعاباتها بالوقار في غير حينه . ولا يهم كثيرا ان يكون معشر اللهو هذا ذوي مقام رفيع ، او محتد نبيل وسمعة مشرّفة ! ولا يطلب منهم ان يكونوا ذوي ثقافة وذكاء خارقين ــ المثقفون ادعياء والاذكياء خبثاء ــ بل يكفي ان يكونوا ظرفاء وان يجيدوا رواية النكات اللاذعة ، وان يكونوا ذوي مظهر حسن في الحفلات . ان الشيء الوحيد الذي تتطلبه ماري انطوانيت من بطانتها هو اللهو واللهو دائما وابدا . وقد ابدى شقيقها جوزيف الثاني ملاحظته مستاء ، من هذه العصبة اللامبالية في مظهرها ، الانانية في اعماقها، التي تتقاضى لقاء مهمتها في توفير الملاهي مداخيل ضخمة ، وتدسّ خفية في جيوب ثيابها الواسعة كجيوب المهرجين خلال الالعاب الغزلية مخصصات طائلة ، ان ذلك هو السبب في ان تجمع حواليها « اسوأ من في باريس وأصفرهم سنا » .

ولكن سيدا واحدا مزعجا كان يأتي من وقت الى آخر يكدر المعشر المنشرح ، فلا ولم يكن بالامكان ابعاده بسهولة ، انه زوج هذه المرأة الجذلة ، وعدا ذلك ، فهو ملك فرنسا . كان لويس الملاطف المغرم بزوجته غراما صادقا يذهب الى التريانون في بعض الاحيان ــ طبعا بعد ان يكون قد حصل على اذن بذلك ــ وينظر سعيدا فخورا الى الشباب يلهون ، ويحاول احيانا ان يوجه توبيخا وجلا اذا ما لمس تجاوزا مفرطا لحدود آداب المجاملة او اغراقا في التبذير ، ولكن الملكة كانت آنئذ تكتفي بالضحك فيسوّي ضحكها كل شيء . ويتنازل الرفاق المرحون الى العطف نحو الملك ، الذي لا يرفض قط ، وهو الفتى الطائع ، ان يضع توقيعه ذا الخط الجميل في ذيل كل المراسيم التي تنيلهم بها الملكة افضل المناصب . وبما انه ما زال ذلك الصبي الطيب ، فهو لا يزعجهم طويلا ، ولا يمكث سوى ساعة او ساعتين ، ثم يقفل راجعا الى فرساي حيث يلزم مصنع حدادته او مكتبته . وحدث ان ابطأ ذات ليلة في الانسحاب ، ولم تطق الملكة صبرا على الامتناع عن الذهاب الى باريس مع جماعتها المنشرحة ، فعمدت خفية الى تسبيق الساعة الكبيرة ستين دقيقة ، فانصرف الملك كالحمل الطيع يأوي الى فراشه في الساعة العاشرة بدلا من الحادية عشرة من غير ان يشعر بهذه الخدعة الصغيرة في حين ضحك الاوباش الانيقون ضحكا مرحا بدت معه نواجذهم .

ولم تكن هذه الدعابة ، في الحقيقة ، لتساهم في تدعيم الوقار الملكي ، ولكن ما العمل برجل اخرق غليظ الطبع الى هذه الدرجة في قصر التريانون؟ انه لا يحسن المزاح او رواية الملح اللاذعة . وتراه يجلس وجلا خائفا في وسط تلك الشلة وعليه سحنة من يشكو من الم في المعدة ، يتثاءب نعاسا .

بينا لا يأخذ الآخرون في الانطلاق الا حوالي منتصف الليـل . كما انه لا يذهب الى حفلات الرقص المقنع ، ولا يلعب الميسر ، ولا يغازل اية امرأة ، كلا انه لا يصلح لشيء ، ولا يمكن ان يكـون مكانه ملائما في التريانون ، في مملكة الروكوكو ، حيث يسود الطيش والحبور .

لم يكن الملك يعتبر اذن في عداد افراد هذا المجتمع الجديد . كما ان شقيقه الكونت دي بروفانس ، الذي يخفـي طموحـه تحت مظهر عدم الاكتراث ، كان يعتقد بعدم مخالطة هؤلاء الشبان المتغطرسين . ولكن بما ان الحاجة تقضي بان يرافق الملكة احد الانسباء الاقربين في نزهات اللهو ، فقد قام الكونت دارتوا ، شقيق لويس السادس عشر الاصغر ، بتمثيـل دور الملاك الحارس . انه يشكو ــ وهو الخفيف ، الطائش ، القليل الحياء ، لكن المرن الماهر ــ من القلق الذي تشكو منه ماري انطوانيت ، وقد اعتراه مثلما اعتراها وسواس الملل مـن الامور الجديـة . زير نساء ، مبذر ، متحذلق ، وقح اكثر منه شجاع ، زاخر اكثر منه متقد ، يقود هذه الشرذمة الطروب الى كل مكان فيه جديد من : رياضة ، وزي ، وتسلية ، وسرعان ما يرزح هو بمفرده تحت اعباء ديون افدح من ديون الملك والملكة والحاشية باسرها . ولكنه كان يلائم في وضعه هذا ماري انطوانيت ملاءمة عجيبة .

وكانت صديقات الملكة اخطر مـن هؤلاء النبلاء المتقلبين الذين تحوم حولهم الشكوك ، اذ ان قوى عاطفية غامضة قـد دخلت معهن في حلبـة الصراع . فماري انطوانيت عادية جدا وانثوية ورقيقة العاطفة ، وهي في حاجة ماسة الى الحنان وعدم الكلفة ، هذه الحاجة التي لم تخمد خلال سنوات زواجها الاولى بالقرب من زوجها المتراخي المثلوج الفؤاد . وكم كانت تود ، وهي المفرطة الصراحة ان تبوح لاحد من الناس بما يعتلج طي ضلوعها ، وبما ان البوح بذلك الى رجل او صديق لم يكن ليسمح به مبدأ الاخلاق ــ عندئذ على الاقل ــ فقد اضطرت منذ البدء الى ان تبحث دون وعي عن صديقة لنفسها .

ان الحنان النادر المثال في غراميات ماري انطوانيت الانثوية لطبيعي جدا ، فهي وقد اصبحت في السادسة عشرة او الثامنة عشرة مـن العمر وعلى الرغم من كونها متزوجة ــ ظاهريا ــ ، تجد نفسها تقريبا في العمر المثالي لغراميات المدارس الداخلية ، وفي الحـالات النفسية الملائمة لهذه الغراميات . ولم تستطع قط ، وهي التي انتزعت قبل الاوان من امها ، من مهذبتها التي احبتها حبا صادقا ، وجعلت بالقرب من مخلوق غليظ ثقيل الظل ، لم تستطع ان تسكب نفسها في نفس اخـرى ، وان تطلق العنان

للاسترسال الآمن الذي تمتاز به الفتاة امتياز الزهرة بالشذا . كل هذه الصبيانيات ، والضحكات الخافتة في الزوايا ، والنزهات يدا في يد ، والذراع تطوق الخصر ، والعبادة المتبادلة بصفاء النية ، كل هذه العلامات الساذجة « ليقظة الربيع » لم تجد سبيلا الى الظهور لدى هذه المراهقة . ان ماري انطوانيت في السادسة عشرة مثلها في العشرين من العمر لم تحب حبا صادقا كما هي الحال عادة في سن الحداثة او الشباب ، وليس العنصر الجنسي هو الذي ينطلق لديها من عقاله في هياجه الشديد وانما هو الحدس الحيي بذلك او التحمس له . فلم يكن هنالك مفر اذن من ان تكون العلاقات الاولى لماري انطوانيت بصديقاتها من اكثر العلاقات حنانا ، ولكن الحاشية قد فسَّرت فورا موقف الملكة هذا المنافي للعرف والعادة تفسيرا ملؤه الخبث . ولم يعد في وسع هذه الحاشية التي افرطت في الترف والطيش ، ان تتفهم ما هو طبيعي ، وسرعان ما سرت الهمسات والاشاعات عن غرام الملكة بالنساء ، وعن ميولها الجنسية المتطرفة . وقد كتبت الى امها في اطمئنان البراءة وفي صراحة ومرح تامين : « لقد افترضوا فيّ بكل تبذل الميل الى العشيقات والعشاق من الجنسين . » ولقد كان صدق طويتها المتشامخة يحتقر الحاشية والرأي العام والعالم . انها لم تتعرف بعد ، الى قوة الافتراء ذي الالف لسان وهي تستسلم بدون تحفظ للفرصة غير المنتظرة بتمكنها اخيرا من ان تحب وتفضي بمكنوناتها وتضحي بكل تبصر لتثبت لصديقاتها مقدار ادراكها للحب .

وكان اختيارها للمحبوبة الاولى السيدة دي لامبال اختيارا موفقا نسبيا . فقد تجاوبت هذه ، وهي المنتمية الى ارفع الاسر الفرنسية ، ومن ثمة ، غير الطامعة بمال او سلطان ، وذات المزاج الحنون العاطفي ، وغير الحائزة قسطا وافرا من الذكاء ، تجاوبت وميول ماري انطوانيت بصداقة حقيقية . ولم يكن على سلوكها اي غبار ، ولم يتعد نفوذها حدود حياة الملكة الخاصة ، ولم تسعَ لانالة اصدقائها واسرتها بعض الحمايات ، ولم تتدخل في السياسة او في شؤون الدولة ، ولم تستفد من صالة الميسر ، ولم تدفع بماري انطوانيت في اعصار الملاهي ، وظلت امينة لها في تكتم وصمت الى ان ادركها موت بطولي اختتم حياتها .

ولكن سلطانها قد توقف بغتة ذات مساء كنور الشمعة اذ انطفأ . ففي حفلة رقص اقيمت في البلاط سنة ١٧٧٥ ، استرعى انظار الملكة امراة فتية فتانة الجمال والتواضع ، ذات طلعة ناعمة بتولية ، وعينين زرقاوين ، في نقاء ملائكي ، وبما انها لم تكن تعرفها فقد سألت عنها من يحيطون بها ،

فعلمت انها الكونتيس جول دي بولينياك . فلم يكن شعورها في هذه المرة عطفا انسانيا يتحول شيئا فشيئا الى صداقة مثلما كان شأنها مع السيدة دي لامبال ، ولكنه كان شغفا مفاجئا وحبا من أول نظرة . فاقتربت ماري انطوانيت من السيدة الغريبة تسألها ما بالها لا تأتي البلاط الا نادرا فتجيب الكونتيس صريحة ان امكانياتها لا تمكنها من ذلك ، وتخلب هذه الصراحة لب الملكة . ما اطهر نفس هذه المرأة الجديرة بالعبادة حتى تجسر على الاقرار من أولى كلماتها في سلامة طوية تستدر العطف بأفظع عار في العصر ، عار الفاقة ! الا تصلح هذه السيدة لان تكون لها الصديقة المثالية التي تبحث عنها منذ امد بعيد ؟ وألحقت ماري انطوانيت الكونتيس بولينياك فورا بالحاشية وأغدقت عليها امتيازات خارقة الى درجة انها استثارت غيرة الجميع . واخذت تتنزه معها وهما متخاصرتان ، وتصطحبها حيثما تذهب ، وقد بلغ بها الامر الى حد انها نقلت البلاط بكامله مرة الى مارلي لمجرد ان تكون على مقربة من الصديقة المعبودة المشرفة على الوضع .

ولكن هذا الملاك ، هذه المخلوقة الرقيقة الحاشية لم تهبط – ويا للاسف – من السماء بل من اسرة أثقلت كاهلها الديون ، حريصة على ان تستدر الحظوة غير المنتظرة التي تمتع بها احد افرادها ، ولقد شعر وزراء المالية بذلك فسددت عنها بادىء ذي بدء ديون قدّرت باربعمائة الف ليرة ، وقبضت ابنة المحظية مهرا بلغ ثمانمائة الف ليرة ، وانعم على صهرها برتبة رئيس في الجيش ، ثم ، بعد انقضاء سنة على ذلك ، بعقار دخله السنوي سبعون الف دوكا ، وعين مرتب لوالده ، ومنح زوجها الملاطف الذي حل محله احد العشاق منذ زمن بعيد ، لقب دوق وامتياز البريد وهو اكثر الامتيازات ادرارا للارباح . واصبحت شقيقة الزوج ، ديانا دي بولينياك ، على الرغم من سيء سمعتها ، سيدة شرف في البلاط ، وقد عينت المحظية نفسها مربية لاولياء عهد فرنسا وسمي والدها سفيرا ، علاوة على مرتبه . لقد سبحت الاسرة كلها في فيض من البحبوحة والمراتب السنية ، واغدقت النعم ، فضلا عن ذلك ، على اصدقائها . وبالاختصار ، فان اسرة بولينياك قد كلفت الدولة من جراء هذه النزوة الملكية المفاجئة نصف مليون ليرة سنويا . وكتب السفير مرسي مذعورا : « لا مثيل لهذا الانعام الذي نفع اسرة كل هذا النفع في برهة قصيرة كهذه » . ولم تكلف السيدة مانتنون والسيدة بومبادور نفسهما الدولة اكثر مما كلفتها اياه هذه المحظية ذات الطرف الملائكي الكسير ، هذه السيدة بولينياك الحلوة الوديعة .

ان الذين لم يجرهم الاعصار ينظرون بدهشة الى تساهل الملكة غير المحدود ، هذا التساهل الذي لا يسمح لهؤلاء الناس السفلة ، عديمي القدر ، ولهذه الشرذمة من الانتهازيين ان يفرطوا في استخدام اسمها ومركزها وسمعتها . ويعرف الجميع ان الملكة بذكائها ، ورباطة جأشها ، وشرف نفسها ، تفوق مئات المرات هذه المخلوقات الحقيرة التي تشكل معشرها اليومي . ولكن ما يقرر علاقات الناس بعضهم ببعض انما هو المهارة لا القوة ، وعلو الارادة لا سمو العقل . فماري انطوانيت لا مبالية وآل بولينياك طموحون ، انها نزاءة وهم عنداء ، انها وحيدة ، وهم يؤلفون عصبة تفصلها بصورة منظمة عن سائر افراد الحاشية ، انهم يستأثرون بها اذ يلهونها . وعبثا أنَّبها معرفها العجوز المسكين بوصفها تلميذة قديمة له ، لائما اياها على تساهلها المفرط في سلوك اصدقائها وصديقاتها . ولكن ماذا يستطيع هذا الكلام ان يفعله ضد الاحاديث العذبة اثناء التخاصر ، وماذا يقدر العقل ان يقوم به ازاء المكر والتدابير اليومية ! لقد كانت السيدة بولينياك وعصبتها يمسكون بالمفتاح السحري لقلب الملكة ، لانهم كانوا يلهونها ويكافحون سأمها ، لذا فقد اصبحت ماري انطوانيت في مدى بضع سنوات مستعبدة كليا لهذه العصبة من الحسبة الماهرين .

وظلت حلقة ذوي الامتياز تشكل شيئا فشيئا حوالي ماري انطوانيت حاجزا يتعذر تخطيه ، وسرعان ما عرف سائر الحاشية ان وراء هذا الحاجز الاصطناعي يتفتح الفردوس الارضي ، فهناك تزهر المناصب الرفيعة وتوزع المرتبات ، وان مزاحا او ثناء اجيدت صياغته يتيح لك الحصول على انعام بذل آخرون في سبيله جهودا متواصلة سنوات عديدة ، وكان عدم المبالاة والمرح والسرور تسود ابدا ذلك المكان المفعم سعادة ، وكانت كل نعم الارض تنتظر المخلوق الذي افلح في ولوج ديار النعيم هذه المظللة بالعناية الملكية . ولا عجب في ان يتأكل الغيظ افئدة جميع الذين قد طردوا الى خارج السور ، فراحوا يتكتلون تدريجيا ، وتتكاتف صفوفهم سنة بعد سنة ، ويوما بعد يوم . وسرعان ما صوَّب الحقد ذو العيون المائة من خلال نوافذ قصر فرساي المهجور ، انظاره الى عالم الملكة الطائش اللامبالي .

١٠ ـ زيارة الاخ

بلغت نشوة الملاهي الذروة فجأة لدى ماري انطوانيت عام ١٧٧٦ وخلال كارنافال ١٧٧٧ . واصبحت الملكة لتعشقها متع الحياة لا تتغيب عن اية حفلة من حفلات الرقص في الاوبرا ، والرقص المقنع ، وسباق الخيل ، ولا تعود الى المنزل ، قبل الفجر ، وتتجنب دائما فراش الزوجية ، وتظل جالسة الى مائدة الميسر حتى الساعة الرابعة صباحا ، وتثير ديونها وخسائرها الاستياء العام . فيرسل السفير « مرسي » يائسا التقرير تلو التقرير الى فيينا قائلا : « لم نر قصر فرساي منذ زمن طويل مقفرا كما نراه في هذا الشتاء . لم تنقض خلال الشهر المنصرم ، مشاغل الملكة او بالاحرى ملاهيها ولم تتبدل ، كأن شيطانا قد امتلك هذه المرأة الفتية : انها لم تبلغ قط هذه الدرجة من الهياج والعربدة الجنونية مثلما بلغتها في هذه السنة الحاسمة » .

وقد جاء خطر جديد يضاف الى كل ذلك . فماري انطوانيت لم تعد في عام ١٧٧٧ تلك الصبية الغريرة ذات الخمسة عشر ربيعا ، بل امرأة في الثانية والعشرين من العمر ، متفتحة الجمال مغرية وشاعرة بالاغراء . لقد كان من غير الطبيعي ان تظل باردة لا مبالية في جو بلاط فرساي الخلاعي المهيج . ان جميع نسيباتها والاتراب لها ، وجميع صديقاتها ، قد أصبحن امهات منذ امد بعيد ، ولكل منهن زوجها الحقيقي ، او عشيقها ، على الاقل ، وهي الوحيدة التي تلفي نفسها في هذا الوضع من جراء عجز زوجها التاعس . انها لم تهو احدا بعد ، مع انها اجمل من في بيئتها ، واجدرهن بالاشتهاء وأشهاهن . وعبثا حوّلت الى صديقاتها افتقارها الهائل الى الحب ، وسدى حاولت اخماد ذلك الفراغ الداخلي الذي كانت تحسه ، بملاه اجتماعية متواصلة ، فلم ينجح في ذلك شيء ، ان الطبيعة تتطلب شيئا فشيئا حقوقها لدى هذه المرأة ، كما تتطلبها لدى كل امرأة عادية في الجوهر . ولقد أخذت ماري انطوانيت تفقد فقدانا مطرّدا ، في علاقاتها مع الشبان النبلاء المحيطين بها ، طمأنينتها الاصلية اللامبالية . انها الان تكافح الخطر الاعظم ، ولا ريب ، ولكنها تفقد ، وهي تلعب بهذا الخطر لعبا مستمرا ، ضبط مزاجها الذي يخونها ، فهي تحمر ، وتشحب ، وتأخذ في الارتعاش عند اقتراب احد هؤلاء الشبان الذين تشتهيهم لا واعية ، وترتجف ، وتغرورق عيناها ، ولكنها لا تنقطع عن استثارة مجاملاتهم الغزلية . فللمشهد الغريب الذي ورد ذكره في مذكرات « لوزون » الذي

تحتضنه الملكة وتعانقه بسرعة مباغتة بعد ان كانت في الدقيقة السابقة ثائرة الغضب ، ثم تهرب فورا ، خجلة ، مذعورة من نفسها ـ مسحة من الحقيقة ، ويعكس الاضطراب ذاته تقرير سفير السويد عن غرامها الواضح بالكونت دي فرسن الشاب . انه لبدهي الا تعود هذه المرأة البالغة الثانية والعشرين من عمرها ، والتي ضحى بها ، وعذبها وحرمها من كل حب ، هذا الزوج الثقيل الدم ، قادرة على السيطرة التامة على نفسها . ومع هذا فهي لا تزال تدافع عن نفسها ، ولهذا السبب ذاته لم تعد اعصابها بقادرة على تحمل هذا التوتر الداخلي . ولقد وقى ماري انطوانيت من التفريط بالشرف الزوجي حتى ذلك الحين تهذيب المعجبين بها الوجل : اذ غادر لوزون وفرسن البلاط حالما شعرا بالاهتمام المفضوح الذي تخصهما به الملكة ، ولكن مما لا ريب فيه ، لو برهن احد العشاق الشبان الذين كانت تتدلع معهم ، عن جراة في الوقت الملائم ، لانتصر بسهولة على هذه الفضيلة المحروسة حراسة ضعيفة . لقد تمكنت ماري انطوانيت لحسن الحظ ، حتى ذلك الحين ، من ان تتمالك نفسها في اللحظة الاخيرة . ولكن الخطر كان يتفاقم مع الاضطراب النفساني ، ان الفراشة ترفرف وهي تقترب شيئا فشيئا من اللهب الذي يجتذبها ، ولكن ، رفة جناح طائشة ، ولا مناص من وقوعها في النار المدمرة .

فهل ادرك هذا الخطر الحارس الذي نصبته امها بالقرب منها ؟ لنا الحق في افتراض ذلك ، فانذاراته المتعلقة بلوزون وديلون واسترازي تثبت ان هذا العازب العجوز الفني بالتجارب يقدّر هذه الحالة وعواقبها أكثر مما تفعل الملكة نفسها التي لا تدرك كم هي فضاحة نزواتها المزاجية واضطرابها الجامح . لقد شعر بالكارثة التي قد تسببها ملكة فرنسا اذا ما وقعت فريسة لعاشق غريب ، قبل ان تنجب من زوجها ولي عهد شرعي : فاصبحت ، لذلك ، الحيلولة دون وقوع هذا المحذور محتومة مهما كلف الامر . فوجه الكتاب تلو الكتاب الى فيينا طالبا مجيء الامبراطور جوزيف الى فرساي ليشاهد ما يجري ، اذ ادرك هذا المراقب الهادي الصموت انه قد آن الاوان لانقاذ الملكة من نفسها .

وكان للزيارة التي قام بها جوزيف الثاني الى باريس اهداف ثلاثة : التحدث الى صهره الملك حديث رجل الى رجل حول مسألة الواجبات الزوجية الشائكة التي لم تكمل بعد ، وتوبيخ شقيقته الطائشة بسلطة الاخ البكر ، وابراز الاخطار البشرية والسياسية الكامنة في تكالبها على الملذات ، وثالثا واخيرا ، توطيد دعائم التحالف ما بين آل هابسبورغ وآل بوربون .

ولقد أصاب جوزيف الثاني اهدافه السياسية عدا عن احراز هذا النجاح الشخصي ، فقد جرت احاديثه مع صهره حول مسألة العلاقات الزوجية الدقيقة بسهولة مدهشة . وتلقاه لويس السادس عشر الشريف ببشاشة وثقة تامة . وعبثا امر فردريك الثاني سفيره البارون جولتز ، ان يشيع في باريس ان جوزيف الثاني قد قال للملك بروسيا : « لي أصهرة ثلاثة جديرون بالشفقة : فصهر فرساي ابله ، وصهر نابولي مجنون وصهر بارم احمق » . ويجدر القول بهذه المناسبة ان هذا « الجار الرديء » قد بذل جهدا لا طائل تحته ، لان لويس السادس عشر ، لا يمكن دغدغته عن طريق الكبرياء ، وقد اطاشت السهم سلامة طويته . ولقد تحادث الصهران في حرية وصراحة ، وقد فرض لويس السادس عشر بعض الاحترام على جوزيف الثاني بعد ان تعرف اليه هذا الاخير عن كثب ، وفيما يلي بعض ما كتبه عنه : « ان هذا الرجل ضعيف ولكنه ليس بالابله ، انه ذو بعض من الدراية والحصافة ولكنه جامد بدنيا وعقليا . حديثه معقول ، لا يميل الى التعلم ، ولا يرغب في الاستطلاع . »

ولقد استمال جوزيف الثاني الملك خلال بضعة ايام ، فاتفقا في جميع الامور السياسية ، ومما لا شك فيه ان الامبراطور قد حصل على وعد من الملك بالاستسلام للعملية في كتمان . اما مقابلة جوزيف الثاني لماري انطوانيت فقد كانت ادق بكثير لان نتائجها اخطر . ولقد انتظرت الملكة زيارة شقيقها بمشاعر متناقضة ، فهي ، من جهة ، سعيدة بان تتمكن من الافضاء بمكنونات نفسها بصراحة الى احد اعضاء اسرتها ، ومتخوفة ، من جهة اخرى ، من الاساليب الخشنة والتعليمية التي احب الامبراطور دائما ان يتبعها معها . الم يبكّتها اخيرا كطفلة قائلا : « فيم تتدخلين ؟ أفي نقل وزراء واحلال آخرين في اماكنهم ، ام في احداث منصب جديد باهظ التكاليف في البلاط ؟ هل تساءلت ولو مرة بأي حق تتدخلين في شؤون الدولة والملكة الفرنسيتين ؟ ما هي الدراسات التي تلقيتها ؟ وما هي المعارف التي اكتسبتها لتجسري على التفكير بان رأيك يمكن ان يصلح لشيء ، لا سيما في الامور التي تستلزم معارف واسعة المدى ؟ انت الصبية اللطيفة التي لا تفكر الا في الطيش ، والتبرج ، واللهو طيلة اليوم ، ولا تقرأ ، ولا تسمع ولو ربع ساعة في الشهر كلام تعقل ، ولا تفكر ، ولا تتأمل ، ولا تتدبر قط نتائج الامور التي تفعل او تقول ؟ »

ان ملكة التريانون المفسدة ، المتملقة ، في البلاط لم تتعود قط لهجة المدرّس القاسية هذه ، وهذا ما يجعلنا ندرك سبب خفقان قلبها عندما

اعلن لها فجأة وصول الكونت فالكنستاين (١) الى باريس وعزمه على المجيء الى فرساي في الغد . ولكن كل شيء جرى احسن مما توقعته . فلجوزيف الثاني ديبلوماسيته الكافية التي حالت دون ارعاده عليها فور دخوله ، بل انه بالعكس من ذلك ، أثنى على جمالها الفتان وأكد لها انه سينتقي زوجة تشبهها ، في حال اقدامه على الزواج ، ووقف منها موقف مجاملة . ان ماري تيريز قد أصابت الحقيقة اذ تنبأت لسفيرها قائلة : « لست اخشى ان يكون رقيبا شديد التصلب على اعمال الملكة ، بل اعتقد انها ، وهي الجميلة الفاتنة ، ستمزج الذكاء باللياقة فتنال استحسانه ويصبح بما يراه منها مفترا . »

وفي الحقيقة ان لطف شقيقته الحسناء الساحرة ، وفرحتها الصادقة بمرآه ، والاهتمام الذي ابدته وهي تصغي اليه ، من جهة ، وسلامة طوية صهره ، والنجاح الذي احرزته تمثيليته الهزلية في التواضع ، من جهة اخرى ، كل هذا قد حمل ذلك الدعيّ المرهوب الجانب على السكوت ، اليس الكثير من العسل يهدىء الدب المتذمر ؟ ولقد كان اولُ انطباع للامبراطور ملائما ، فكتب الى ليوبولد الثاني يقول : « انها امرأة لطيفة وفاضلة ، صغيرة السن ، قليلة الرزانة ، لها ، في الحقيقة ، اساس من الحشمة والفضيلة في مركزها المحترم ، اضف الى ذلك ، ذكاء وسداد بصيرة ما اغلب ما اذهلاني » .

ولكن اذا كان جوزيف الثاني يحضر جميع الحفلات التي تقيمها له ويتظاهر بالتكاسل ، فعقله النافذ كان لا يفتأ يلاحظ في حدة واحكام . ولقد رأى ، مضطرا ، ان ماري انطوانيت « لا تشعر بشيء نحو الملك وانها تعامله بعدم اكتراث واهمال وترفع لا يمكن التسليم بها ، وادرك بدون اي عناء ما هو قدر آل بولينياك ، وما هو « مجتمع » شقيقته ذات « الرأس الهوائي » بأكمله . ولم يطمئن باله الا الى نقطة واحدة ، فيقول ان سلوكها ، في وسط هذا المجتمع المتفسخ ، افضل من سمعتها . على ان كل ما سمعه ورآه في هذا الصدد لم يحمله على الارتياح الى المستقبل ، فيرى ، لذلك ، ان توجيه بعض الانذارات العنيفة اليها ليس عديم النفع . فكان ان بكتها مرارا عديدة بلا مداراة . ونذكر على سبيل المثال انه قال لها مرة امام شهود : « لا نفع للملك منك في شيء » ، وانه سمى صالة صديقتها الدوقة دي غيمينيه « مقمرة حقيقية » . ان هذه التوبيخات العلنية قد آلمت

(١) اسم الامبراطور جوزيف الثاني المستعار الذي دخل فيه الى فرنسا ليطبع زيارته بالطابع الشعبي . (المعربان)

ماري انطوانيت مرير الايلام ، الامر الذي جعل الحديث قاسيا احيانا ما بين الشقيق وشقيقته ، فعناد المرأة الفتية الصبياني كان يقاوم وصاية الاخ المتعاظمة*، على انها كانت تشعر في صراحتها الاصيلة بمقدار صحة الملاحظات وبمقدار ضعفها هي المفتقر الى حارس مثله على مقربة منها .

ويبدو انه لم يجر اي تكاشف حاسم بينهما . فصحيح ان جوزيف الثاني يذكر ، فيما بعد ، في كتاب الى ماري انطوانيت حديثا لهما وهما على مقعد حجري ، ولكنه من الواضح انه لم يودّ ان يذكر لها خلال الاحاديث المقتضبة اشياء هامة وجوهرية . لقد شاهد خلال شهرين فرنسا بأسرها ، وعلم عن هذه المملكة اكثر مما يعلمه ملكها ، وادرك الاخطار التي تتعرض لها شقيقته احسن مما فعلت هي . وكان في عداد الامور التي علمها ان لا شيء يبقى في دماغ هذه الطائشة ، وانها تنسى خلال ساعة كل ما يكون قد قيل لها ، وقبل كل شيء ، كل ما تريد نسيانه . فكتب في هدوء تام « تعليمات » تلخص كل افكاره وملاحظاته وسلمها ، في ساعة الفراق ، هذه الوثيقة الموضوعة في ثلاثين صفحة طالبا اليها الاّ تقراها الا بعد رحيله . فليكن لها هذا التنبيه المخطوط دليلا وهاديا اثناء غيابه .

وربما كانت هذه « التعليمات » هي التي تلقي الضوء على خلق ماري انطوانيت اكثر من جميع الوثائق التي نملكها ، لان جوزيف الثاني قد كتبها بقلبه في استقلال فكريّ تام . فهي في اسلوبها المغالي ، وفي مبدئها الاخلاقي المؤثر في النفس ، تبرهن عن مهارة وديبلوماسية فائقة ، اذ ان الامبراطور قد تجنب بذوق صائب ، اعطاء قواعد سلوكية مباشرة لملكة فرنسا . انها سلسلة اسئلة ، من نوع يشبه التعليم المسيحي لحمل الكسلى على التفكير والتساؤل والاجابة ، ولكن هذه الاسئلة كانت تشكل قرار اتهام غير مقصود ، كما ان تتمتها غير المرتبة في ظاهرها ، تؤلف سجلا كاملا لاخطاء ماري انطوانيت . ان جوزيف الثاني يذكر اخته ، قبل كل شيء ، بمقدار الوقت الذي اضاعته سدى :

« العمر يتقدم ولم تعد لديك معذرة الطفولة . ماذا يكون مصيرك فيما لو تأخرت اكثر من ذلك ؟ »

ويجيب هو ببعد نظر مفزع :

« امرأة تاعسة وكذلك اميرة اتعس ! »

ويعدد ، في شكل أسئلة ، هفواتها كلها ، ويلقي ضوءا ساطعا وفاترا على موقفها من الملك ، اذ يقول : « هل تبحثين عن فرص ؟ هل تتلاءمين والعواطف التي يبديها نحوك ؟ الست باردة ، ساهية عندما يداعبك

ويكلمك ؟ الا يبدو عليك الملل وحتى الاشمئزاز ؟ واذا ما صحّ ذلك ، فكيف تريدين ان يقترب منك رجل بارد ويحبك ؟ »

« أتجعلين نفسك ذات لزوم للملك ؟ أتقنعينه بان ما من احد يحبه باخلاص ويتمنى مجده وسعادته اكثر منك ؟ أتقومين بهذه التضحيات في سبيله ؟ ألديك تكتم على نقائصه وضعفه ؟ أتخرسين جميع الذين يجرؤون على أطلاق الاشاعات عنها ؟ »

ثم يفلي الامبراطور جوزيف سجل ملاهيها الجامحة صفحة فصفحة قائلا :

« هل فكرّت في الاثر الذي قد تتركه أو يجب أن تتركه في الجمهور علاقاتك وصداقاتك فيما اذا لم تركزّيها مع أفراد منزهين عن اللوم وخالين من الشبهات ، لانك تبدين وكأنك تساهمين في الرذائل وتأذنين بها ؟ . . . هل قدرت العواقب المرعبة للعب الميسر ، والمعشر الذي يجمعه ، والقدوة التي يرسمها ، والقواعد التي يرتبهـا ؟ تنازلي الى التفكير لحظة واحـدة في الصعوبات التي لقيتها في حفلات رقص الاوبرا ، وفي المغامرات التي رويت لي عنها انت بنفسك . لا يسعني ان اكتمك ، ان هـذه هي اقل الملاهي ملاءمة من جميع الوجوه ، لا سيما الوجه الذي تختارينه انت للذهاب ، لان السيد (اي الكونت دارتوا) الذي يرافقك هو لا شيء . ماذا تقصدين من التنكر ومن تلبس شخصية تختلف عـن شخصيتك ؟ أتظنين انهم لا يعرفونك ، رغم هذا ، وان الكلمات التي تصدر عنهم لم تُصَغْ في ذلك القالب لتسمعيها انت ، بل قد قيلت خصيصا لتسليتك ، وحملك عـلى الاعتقاد بانها انما قيلت في براءة تامة .

« . . . ان للمكان في حد ذاته سمعة سيئة جدا ، عم تبحثين فيه ؟ . . أعن محادثة شريفة ؟ انك لا تستطيعين اجراءها مع صديقاتك لان القناع يحول دون ذلك . أم عن الرقص ؟ وهـذا متعذر ، فلم المغامرات اذن ، والخلاعات ، والاختلاط بهذا العدد من الفاسقين ، والفتيات ، والغرباء ، وسماع هذه الالفاظ ، وربما ؟ التلفظ بأمثالها ، ويا للقباحة ! أصارحك بان هذه النقطة هي التي تثير الناس ذوي التفكير الشريف والذين يحبونك، اكثر ما يغتاظون منها . الملك مهجور وشأنه في فرساي ، وانت تعاشرين وتمتزجين بكل ما في باريس من اوباش ! »

ويكرر لها جوزيف الثاني باصرار دروس امها القديمـة ، ويحدثها اخيرا لان تهتم بعض الاهتمام بالمطالعات : « لن تكون ساعتان منها يوميا باكثر مما يلزمك ، فتجعلانك اكثر تعقلا وتفكيرا طيلة ما تبقى من اليوم . »

ثم تنطلق من فيه بغتة وسط هذه الموعظة نبوءة لا يقدر المرء ان يقرأها دون ان ترتعد لها فرائصه . انه ينذرها ، فيما اذا لم تنقد الى نصائحه ، بأسوأ الامور ويعلن لها بالحرف الواحد : « انني ارتعد الان من سعادتك في الحياة ، اذ ان هذا لا يمكن ان يستمر طويلا ، وستكون الثورة قاسية اذا لم تستعدي لها ! »

« ستكون الثورة قاسية » ، لقد خطّت الكلمة الرهيبة لاول مرة . وعلى الرغم من انها حملت على محمل آخر ، فهي لم تفقد قيمتها . ولكن ماري انطوانيت لن تفهمها الا بعد مرور عشر سنوات على ذلك .

١١ ــ الامومة

تبدو زيارة جوزيف الثاني حادثا عديم الاهمية في حياة ماري انطوانيت من وجهة النظر التاريخية ، ولكنه قد نجم عنها ، في الحقيقة ، تبدل حاسم . فبعد مرور بضعة اسابيع على القيام بها ، يمكننا ان نلمس نتائج المحادثة ما بين الامبراطور ولويس السادس عشر في موضوع المخدع الزوجي الدقيق . فقد (انتعش) الملك وتصدى لواجباته الزوجية بشجاعة جديدة . اما ماري انطوانيت فانها لم تعلن في كتابها المؤرخ في ١٩ آب سنة ١٧٧٧ سوى هاتين الكلمتين : « تحسن ضئيل » .

ان الهجوم الاكبر لم ينجح ، ولكن ها هو ذا صوت الظفر يدوي مجلجلا في الثلاثين من الشهر ، اذ قد تمكن « الزوج البليد » لاول مرة في تاريخ هذه الحرب الغرامية ذات السبعة اعوام ، من ان يقتحم الحصن الذي لم يذد عن نفسه قط . فاذا بماري انطوانيت تبادر الى الكتابة الى امها قائلة : انني في صميم السعادة في حياتي . لقد تم زواجي منذ ثمانية ايام ، وكرر البرهان على ذلك البارحة ايضا ، وبصورة اكمل من المرة الاولى . فكرت بادىء ذي بدء في ان ارسل اليك ساعيا يا امي العزيزة ، فخشيت ان يثير ذلك ضجة وأقاويل . ولاعترف بما تكنه نفسي من رغبة في التأكيد من امري . لا اظنني حاملا بعد ، ولكن لي الامل ، على الاقل ، ان اصبح كذلك بين الحين والآخر . »

ان فرحة المرأة الفتية المرتاحة الى زوجها البطل لتبدو مبكرة ، اذ ان لويس السادس عشر لم يتفرغ لهذه « اللذة الجديدة » بالحماسة ذاتها التي كان يتفرغ بها للصيد ، فكتبت ماري انطوانيت الى امها شاكية بعد ذلك بعشرة ايام ، تقول : « ليس من ذوق الملك ان ننام في سرير مشترك . وانني

لاتعهده بالعناية لئلا يجري بيننا انفصال تام في هـذا الشأن . انـه يأتي احيانا ليقضي الليل عندي . »

ولم تتلقّ الامبراطورة هذا النبأ بارتيـاح لانها تعتبر هـذه المسألة « جوهرية » جدا ، ولكنها توافق ابنتها ذات الذوق الصائب على عـدم مضايقة زوجها ، وتسألها ان تتلاءم وساعات نومه . ان نبأ الحمل ما يزال اذن منتظرا على احر من الجمر في فيينا ، ولم تعتقد الزوجة التي كاد ان ينفد صبرها ، الا في شهر نيسان ان احر امنية لها ستتحقق . فما كادت تظهر العلامات الاولى حتى ارادت ماري انطوانيت ان ترسل ساعيا الـى والدتها ، ولكن طبيب البلاط ، على الرغم من انه كان مستعدا للمراهنة بالف ليرة ذهبية على كون الملكة محقة في اعتقادها ، لـم ينصحها بالقيام باي شيء في باديء الامر .

ولكن في الخامس من شهر ايار اعلن السفير « مرسي » المتحفظ النبأ بتأكيد ، وفي الحادي والثلاثين من شهر تموز ، احست الملكة في الساعة العاشرة مساء بحركات الجنين الاولى ، وفي الرابع من شهر اب ، اعلن نبأ حبلها رسميا في البلاط . ومنذ ذلك الحين اخذت تكتب الى ماري تيريز قائلة : « انه يتحرك غالبا ، وهذا ما يسبب لي فرحا عظيما . » ويطيب لهـا وهي في احسن مزاج ان تعلم زوجها بنبأ ابوته بشكل مازح مبتكر : فتدنو منه كالحة الوجه ، كمن قد لحقت به اهانة ، وهي تقول : « جئتك مولاي اشكو اليك احد رعاياك الذي دفعته جراته الى رفسي في بطني » . فيغيب عن الملك المسكين لاول وهلة ما رمت اليه ، ثم يقهقه ضاحكا ملء شدقيه ، ويقبل على زوجته يلثمها في خيلاء مريحة ، وقد اذهلته مهارتها غير المنتظرة .

وبدأت الاحتفالات المختلفة فورا ، فاقيمت صلوات الشكر في الكنائس، وبعث مجلس الامة بتهانيه ، وامر رئيس اساقفة باريس بتلاوة الصلوات لاجل خاتمة سعيدة للحبل ، وبديء البحث بعناية فائقة عن مرضعة للطفل الملكي الآتي ، وهييء مبلغ مئة الف ليرة ليوزع على الفقراء . ولقد وجه الجميع افكارهم نحو الحدث العظيم ، ولا يغرب عـن بالنا ذكر الطبيب المشرف على التوليد الذي تعتبر هذه الولادة بالنسبة اليه كلعبة قمـار : فاذا كان المولود ذكرا اجيز باربعين الف ليرة ذهبية ، اما اذا كـان انثى فلا تتعدى جائزته العشرة آلاف ليرة . وكان البلاط مضطربا بانتظار مشهد حرم منه زمنا طويلا . اذ ان عملية الوضع لملكة فرنسا لم يكـن حسب التقاليد القديمة الثابتة ـ من الامور الخاصة ، بـل كان يجب ان تجري

هذه المحنة الاليمة ، وفقا للانظمة المتقادمة العهد ، بحضور الامراء والاميرات على مشهد من البلاط . ان الاسرة المالكة بأجمعها ، وعددا كبيرا من كبار الموظفين ، يحق لهم حضور الولادة في غرفة المرأة المشرفة على الوضع ، وبدهي ان ما من احد يفكر في رفض هذا الامتياز البربري المنافي لقواعد الصحة ـ فكان الفضوليون يصاون من جميع الاقاليم ومن اقصى القصور ، فتغص حتى غرف السطوح في مدينة فرساي الصغيرة ، وترتفع اسعار المواد الغذائية الى ثلاثة اضعافها من جراء الازدحام . وتطيل الملكة مدة الانتظار لهؤلاء الضيوف غير المرغوب فيهم . واخيرا يرن جرس القصر ليلة الثامن عشر من ديسمبر (كانون الاول) ايذانا بان آلام المخاض قد ادركت الملكة . فتندفع السيدة دي لامبال الى الغرفة اولا ثم تتبعها السيدات الاخريات في هرج ومرج . ويوقظ الملك والامراء والاميرات في الساعة الثالثة صباحا ، ويقفز الحرس والخدم الى ظهور الخيل يستحثونها نحو باريس وسان كلو لدعوة جميع من تضمهم السلالة الملكية او لهم مقام الامارة.

وما كادت بضع دقائق تنقضي على اعلان طبيب البلاط بدء المخاض بصوت عال حتى غزت الغرفة العصبة الارستقراطية بكاملها . وازدحم النظارة الذين جلسوا ، حسب القابهم ، على ارائك صفت حوالي السرير . ووقف على كراسي وأرائك اولئك الذين لم يجدوا لهم مكانا في الصفوف الاولى ، لانهم ابوا ان يفوتهم اي انين او حركة مهما كلف الامر . فأثقل هواء هذه الغرفة المقفلة النوافذ . وجعله خانقا تنفس خمسين شخصا وروائح الخل والعطور النافذة . ولكن ، ما من احد ترك مكانه او فتح نافذة ، واستمر مخاض الملكة العلني سبع ساعات كاملة ، حتى الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا حين تمت الولادة وكانت طفلة ـ يا للاسف ـ فحملت بكل وقار الى الغرفة الملاصقة لغرفة الام لتغسل وتوضع فورا تحت عناية المربية . وخرج الملك من الغرفة وقد هزت اعطافه الخيلاء ، ولم يعد لديه صبر عن تأمل ثمرة جهده المتأخرة ، وتبعه افراد الحاشية متزاحمين . ودوى فجأة صوت الطبيب المولد حادا آمرا : « هواء ، ماء حار ، يجب فصدها في قدمها » .

لقد اصيبت الملكة باحتقان دموي ، وأفقدها وعيها هواء الغرفة المسموم ، وربما الجهد الذي بذلته لكتم آلامها امام خمسين فضوليا ، وها هي ذي مسجاة بلا حراك تحشرج على وسائدها . لكن الماء الحار لم يصل اذ ان افراد الحاشية قد احسنوا التفكير في كل هذه المراسيم التي يرجع عهدها الى القرون الوسطى ، ولكنهم لم يفكروا في اتخاذ الاحتياط

الاولي لهذه المناسبة ، وهو تهيئة الماء الحار . فقام الجراح بتجربة الفصد من غير اي استعداد . فنفر الدم من الوريد ، وفتحت الملكة عينيها : لقد انقذت . تفجرت البهجة عندئذ من الصدور الى ابعد من حدود الاعتدال ، وتبادل الناس التهاني ، وتعانقوا ، وبكوا ، وقرعت الاجراس قرعا خارقا للعادة اعلانا للنبأ السار .

وبعد قليل زالت آلام المراة وبدات سعادة الام . واذا كان الفرح غير كامل ، واذ كانت المدافع لم تطلق سوى احدى وعشرين طلقة تحية لمولد الاميرة ، بينا كانت تطلق مائة طلقة وطلقة تحية لمولد ولي للعهد ، فان الناس قد اغتبطوا ، رغم ذلك ، في فرساي وباريس . وارسل السعاة عبر اوروبا ، ووزعت الصدقات في جميع انحاء فرنسا ، وافرج عن عدد كبير من السجناء ، وجهز مائتا شاب وفتاة ، وزوجوا على نفقة الملك . وفي يوم الاحتفال بدخول الملكة النفساء الكنيسة كان هؤلاء الازواج ينتظرون الملكة في كنيسة السيدة (نوتردام) يهتفون هتافا حماسيا لمن احسنت اليهم . وانعم على اهالي باريس بالاسهم النارية ، والتنويرات ، والصنابير التي تجري منها الخمر ، وتوزيع الخبز واللحم ، وابيح الدخول الى دار الكوميدي الفرنسية ، وحفظت مقصورة الملك للفحامين ومقصورة الملكة لبائعات الاسماك ، فقد حقّ للفقراء بدورهم ان يفرحوا ولو مرة واحدة . ولقد كان كل ما هنالك حسنا ، وكل شيء جميلا . وفي وسع لويس السادس عشر الان ، وقد اصبح والدا ، ان يمرح ويفتخر ، وقد ازيلت العقبة الكؤود ، وتحققت الوحدة الزوجية ، وفي وسع ماري انطوانيت الان وقد اصبحت اما ، ان تغدو امراة سعيدة ، رزينة ، واعية ، وفي امكان الاقارب والحاشية والبلاد باسرها ان يبتهجوا ، وقد تجلت فرحتهم بالفعل في ضروب شتى من المهرجانات والملاهي .

على ان مخلوقة واحدة ، هي ماري تيريز ، لم تكن مسرورة مثل سائر الناس . ان ولادة هذه الحفيدة تبدو وقد حسّنت وضع ابنتها الاثيرة ، ولكنها لم توطّده نهائيا ... فهي لا تنفك ، بوصفها امبراطورة ، تفكر الى ابعد من السعادة العائلية ، اي في دوام السلالة الملكية فتقول لابنتها : « لا بد لنا من ولي للعهد ! » اي ولادة ملك آت لفرنسا من دم آل هابسبورغ . لكنها لم تحظ بنعمة هذه الفرحة ، فوافتها المنية في التاسع والعشرين من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٧٨٠ .

ولم تضع ماري انطوانيت هذا الابن المرتجى كل ذلك الارتجاء الا بعد انقضاء سنة على وفاة ماري تيريز . وبالنظر للحوادث المثيرة التي

وقعت في الولادة الاولى ، فقد تقرر هذه المرة ، الغاء الناحية المشهدية ، ولم يسمح بالدخول الى غرفة الولادة الا للاهل الاقربين . ولقد جرى كل شيء طبيعيا . ومع ذلك ، فلم يعد للملكة قوة كافية لتسأل ، وهم يأخذون المولود الجديد ، هل هو ذكر ام انثى . ولكن ها هوذا الملك يدنو من سريرها ــ ودموعه تجري على وجنتيه وهو الذي كان من العسير اثارة عاطفته ــ ويعلن بصوت جهوري : « ان السيد ولي العهد يطلب الدخول »، فتنطلق الفرحة العامة ، ويفتح الباب على مصراعيه بأبهة ، ويؤتى بالدوق دي نورماندي مفسولا ، مقمطا ، الى الام السعيدة . لقد اصبح في الامكان، اخيرا ، اجراء الاحتفالات العظمى الخاصة بميلاد ولي للعهد ، وفقا لجميع الانظمة . فأطلقت المدافع ، وعلمت باريس بالحدث السعيد . فاستؤنفت سلسلة احتفالات اهم واعظم منها يوم ولادة شقيقته الاميرة . وارسلت جميع نقابات الحرف اليدوية وفودا تمثلها الى فرساي تصحبها الموسيقى. واستمر الموكب المتعدد الالوان تسعد ايام ، فقد ابت كل نقابة الا ان تحيي الملك الآتي على طريقتها الخاصة : فمنظفو المداخن قد رفعوا على ايديهم موقدا جلس في اعلاه منظفون صغار ينشدون اغاني الفرح ، والجزارون كانوا يسوقون امامهم ثورا هائل الجثة ، والحمالون ساروا في صفوف رافعين كرسيا مذهبا ركز عليه تمثالان من الخشب يمثلان المرضعة وولي العهد الصغير ، وسار الحذاؤون حاملين احذية اطفال ، ومشى الخياطون وقد حملوا بزة مصغرة ترمز الى الزي الرسمي لفرقة الجيش التي سينتمي اليها ولي العهد في المستقبل ، وحمل الحدادون حلة ، وسندانا ينزلون عليه طرقات موقعة ايقاعا ، وبرهن القفالون ، الذين يعلمون ان الملك زميل لهم هاو ، عن بذل خارق ، فجاؤوا بقفل كبير بارع الصنع ما ان فتحه لويس السادس عشر حتى خرج منه ولي عهد صغير صنع من الحديد صنعا عجيبا ، وارتدت النساء البائعات في اسواق « الهال » ، وهن انفسهن اللائي امطرن الملكة ، بعد بضع سنوات ، وابلا من اشنع الاهانات ، ارتدين حللا من الاطلس الاسود وهن يتلين مدائح من نظم لاهارب . وجرت في الكنائس احتفالات باقامة الذبيحة الالهية ، واقام التجار مأدبة فخمة في دار البلدية في باريس ، وهكذا اسبل ستار النسيان على البؤس ، والحرب مع الانكليز وعلى جميع الهموم ، وانتفى الكدر في ثانية واحدة ، فجمهوريو الغد وثواره انفسهم اخذوا يسبحون في افراح ملكية متطرفة صاخبة . ولقد نظم كولو ديربوا نفسه ، وهو زعيم اليعقوبيين الآتي ، وكان آنئذ ممثلا مغمورا في ليون ، مقطوعة تكريما « للاميرة المعظمة التي استهوى كل

القلوب لطفها وفضائلها » ، يسأل فيها السماء بحرارة من اجل ماري انطوانيت ، رغم انه هو الذي سيوقع فيما بعد على الحكم باعدام « لويس كابيه » .

كان الشعب لا يزال متعلقا بعاهليه ، فكانت ولادة هذا الطفل الملكي سعادة للبلاد ، ومجيئه الى الدنيا عيدا للجميع . فأخذت آلات الكمان والطبول والابواق تدوي في منعطفات الشوارع ، واخذ الناس يلهون في كل مدينة بل في كل قرية ، ويغنون ويرقصون . ان الناس اجمع يحبون الملكة والملك ويحتفلون بهما ، لا سيما ، وقد قاما بواجبهما بهذه الصورة .

اما بالنسبة لماري انطوانيت فقد حل الطلسم الان نهائيا ، واحدثت الامومة فيها التبدل الاول مع انه لم يكن تبدلا حاسما . ولقد سبق لحبلها ان اضطرها الى اعتزال ملاهيها الجنونية طيلة شهور عديدة ، واستهوتها الافراح العذبة التي كانت تشعر بها مع اطفالها اكثر من ملاهي الميسر السطحية . لقد وجد افتقارها الهائل الى الحنان اخيرا ـ ذلك الافتقار الذي بذّرته في حب التزين الباطل ـ سبيل استخدامه الطبيعي . ان طريق الادراك والضمير قد اضحت الان ممهدة . بضع سنوات أخرى من الهدوء والسعادة ، وتهجر هذه المراة الجميلة ذات اللحاظ الرقيقة ، بعد ان تكون قد هدأت ، صخب الحياة الطائشة لتنظر في ارتياح الى اولادها يتدرجون في الحياة تدرجا بطيئا . ولكن القدر لم يمنحها هذه المهلة ، ففي الوقت الذي اخذت فيه ماري انطوانيت تهدأ ، اخذ العالم يضطرب من حولها اضطرابا شديدا .

١٢ ـ الملكة تفقد شعبيتها

لقد أشارت ولادة ولي العهد الى ذروة سلطان ماري انطوانيت ، فقد غدت ملكة للمرة الثانية بعد ان منّ عليها بوريث للعرش . ومن جديد ، كانت هتافات الشعب الحماسية تظهر لها اي رصيد لا ينضب من الحب والثقة يحتفظ به الشعب الفرنسي لملوكه ، على الرغم من تبدد اوهامه . ولكم يسهل الان على ملك ان يحمل امة كهذه على التعلق به . ويكفي ماري انطوانيت الان ، ان تقوم بالحظوة الفاصلة بين التريانون وفرساي ، وان تترك عالم الـ (روكوكو) الى العالم الحقيقي ، وان تهجر مجتمعها العابث وتتجه نحو الشعب ، نحو النبلاء ، نحو باريس . وهذا كاف لضمان النصر . ولكنها ، بانتهاء ساعات محنتها عادت الى مباهجها وخفتها ،

فبدأت احتفالات التريانون الغاليــة المشؤومة مرة اخرى ، اثر الاحتفالات الشعبية . ولكن صبر الشعب في هذا الوقت كان يقارب النهاية بعد تخطيها الحدود ، ولم يعد بالامكان التصدي للسيل في الوقت الحاضر .

ولم يحدث في باديء الامر اي شيء في العلانية ، لا شيء فوق المعتاد. كل ما هنالك ان فرساي اصبحت شيئا فشيئا شديدة الهدوء ، واخذ عدد السيدات والسادة يقل ، شيئا فشيئا ، والزوار النادرون يظهرون بعض البرود . انهم الان ينفذون المظاهر حبا بالشكليات لا حبا بالملكــة . فهم ما يزالون يثنون ركبهم ويقبّلون باحترام يد العاهلة ، لكنهم لم يعودوا كالسابق يتزاحمــون للحصول عــلى حظوة محادثتها . وتبقى النظرات مظلمة ، لا تعبر عن اهتمام ، وعندما تدخل ماري انطوانيت الى المسرح لا ينهض شاغلو المقصورات ولا رواد القاعــة بسرعــة كالماضي . والهتاف « عاشت الملكة » الذي كان مألوفا في الشوارع لم يعد يتردد صداه . ولم يكن هنالك عداوة مكشوفة بعد ، انما الحرارة التــي كانت تمتزج سابقا بالاحترام الاجباري قد اختفت . انهم لا يزالون يطيعون العاهلة ، ولكنهم توقفوا عن تكريم المراة . ولا تزال زوجة الملك تخدم باحترام ، ولكــن لم يعد هناك اي تسابق . ولم تكن رغباتها تعاكس علنا ، وانما تقابل بالصمت انه الصمت العنيد السيء ، الخبيء ، صمت التآمر .

كان مركز هذا التحالف السري القصور الثلاثة او الاربعة التي تملكها الاسرة المالكة : اللوكسمبورغ ، والقصر الملكي ، وقصر المنظر الجميــل ، وحتى فرساي الذي تحالف باسره ضد التريانون مقر الملكة . اما فرقــة الضغينة هذه فقد كانت تقودها السيدات « بنات لويس الخامس عشر » ، فهن لم يغفرن للمراهقة بعد ان تهربت من مدرستهن ـ مدرسة السوء ـ ولسمو مرتبة الملكة فوق مرتبتهن ، وبداع من غضبهن ، اذ لم يعد لهن من دور يلعبنه ، فانسحبن الى قصر المنظر الجميل . وفي السنوات الاولى بعد انتصار ماري انطوانيت بقين وحيدات يقبعن في مسكنهن فريسة للملل دون ان يهتم بهــن احد . لان كل التكريم كان يتجه بحرارة الى المراة الشابة الفاتنة التي تمسك السلطة بيديها الناعمتين البضتين . ولكن الان ، وقد فقدت ماري انطوانيت شعبيتها ، فقد فتحن ابــواب قصرهن للزائرين ، فكل السيدات اللواتي يدعين الى التريانون ، والسيدة « اتيكيت » المهجورة والوزراء المطرودون والنساء المتمسكات بالفضيلــة لدمامتهن ، والسادة الذين القي بهم خلف الستار ، ومتصيدو المناصب المبعدون ، وكل هؤلاء النافرين من التوجيه الجديد والذين ينطوون عــلى انفسهم حدادا عــلى

التقاليد الفرنسية القديمة ، وعلى انحطاط الاخلاق ، كـل هؤلاء اصبحوا يتواعدون في مجمع المبعدين هذا ، حتى غدت شقة « السيدات » في قصر المنظر الجميل كمختبر سري لصانـع السموم حيث تتقطر شيئا فشيئا وتصنف بعناية كل تخرصات البلاط المرة ، وآخر انبـاء « النمساوية » الجنونية وكل « القيل والقال » فيما يتعلق بمغامراتها الغرامية ، وهنالك ايضا يقيـم مقر التسنيح لكـل التقولات المسيئة « ومعمل التخرصات الشهير » ، وهنالك ايضا تؤلف وتقرا وتوزع « الطقطوقات » البذيئة التي تصل بعد ذلك الى فرساي موسعة ، وهنالك ايضا يجتمع خفية وبدناءة كل هؤلاء الذين يريدون ان ترجع عجلة الزمن الـى الوراء : الفاشلون ، والمعزولون من مراكزهم ، من موميات عالم مضى . جيل كامل قد انتهى ، ويريد الانتقام لنهايته وعجزه . ولم تكن حربة كل هذا الحقد الدفين موجهة ضد « الملك الطيب المسكين » الذي يرثى لحاله ، ولكن ضد ماري انطوانيت فقط ، هذه الملكة الشابة المشرقة السعيدة .

ولكن الى جانب جيل الامس وقبل الامس الذي لم تعد له من قوة ليلدغ ، والذي يرغي اليوم غضبا ينتصب الجيل الجديد الذي لم يذق طعم السلطة ابدا ، والذي لا ينوي العمل في الظلمة . لقـد انفصلت فرساي بساوكها الخاص الخالي البـال عن فرنسا الحقيقية حتى غدت لا تلاحظ فيها التيارات الجديدة التي تجتاح البلاد ، واستيقظت طبقة بورجوازية ذكية ارشدتها كتابات جان جاك روسو الى حقوقها ، فترى هنالك قريبا منها ، في انكلترا شكلا ديموقراطيا للحكم . ويذيع هؤلاء العائدون من حرب الاستقلال الاميركية بان هنالك بلادا تسيطر عليها فكرة الحرية والمساواة . وليس في فرنسا غير جمود وضرائب سببهما عدم الكفاءة الشاملة للبلاط . لقد كان الشعب يأمل بالاجماع عنـد موت لويس الخامس عشر بالقضاء على حكم الحظايا الفاضح : والحمّيات الدنسة ، ولكن ، ها قد عـادت النساء الى الحكم من جديد : ماري‌انطوانيت ومن ورائها مدام‌دي‌بولينياك.

وهكذا كانت البورجوازية المستنيرة ترى بمرارة متفاقمة كيف تتصدع السلطة ، وتتزايد الديون العامة ، ويهزل الجيش ولاسطول . وهنا تراود الجمهور الكبير شيئا فشيئا الرغبة في وضع حد لهذه الحالة من الاهمال والفوضى .

وينقلب هذا الاندفاع المتزايد لـدى المواطنين الحقيقيين بالدرجة الاولى ــ وليس من غير حق ــ ضد ماري انطوانيت الضعيفة التي لا ترغب قط في اتخاذ قرار فعال ، واما الملك ــ والبلاد باسرها تعلم ذلك ــ فلم

يعد ابدا كعاهل . فالسيطرة المهيمنة الوحيدة تتجلى في شخص الملكة . وهكذا ، كان على ماري انطوانيت ان تختار : اما الاهتمام بشجاعة ونشاط بشؤون الدولة كوالدتها او الانصراف عنها تماما . وعبثا كان الجانب النمساوي يحاول ان يجرها باستمرار الى السياسة . فمن اجل الحكم او الاشتراك في الحكم ، يتوجب عليها قراءة الوثائق بانتظام ساعتين او ثلاث ساعات في اليوم . ولكن الملكة لا تحب القراءة . ويجب عليها ايضا الاستماع الى مقترحات الوزراء والتفكير فيها ، وماري انطوانيت لا تحب التفكير . وان الاستماع وحده يمثل جهدا ضخما بالنسبة الى عقلها الصبياني . لذلك يكتب السفير « مرسي » الى فيينا قائلا : « انها لا تستمع الى ما يقال لها الا بمشقة . ولا يوجد اية وسيلة ناجعة تجعلها تعالج موضوعا هاما او جديا . ولظمأ الملذات عليها سلطة سحرية . »

وتجيب بحيوية ، عندما يحثها السفير باسم والدتها وشقيقها : « قل لي ما الذي يجب عليّ ان اعمل ، اني اعدك بالتنفيذ » ، وتذهب فعلا الى الملك . ولكن عدم تركيزها يجعلها تنسى كل شيء في صبيحة اليوم التالي . واخيرا ، يختار كاونيتز في بلاط النمسا الامتثال للواقع فيقول : « يجب الاّ نعتمد عليها مطلقا في اي شيء ، ولنكتف بان نسحب منها كما نسحب من مدين مماطل كل ما يمكن سحبه » . ويكتب الى مرسي على سبيل التعزية قائلا : « فكر ايضا بان النساء لا يتدخلن في السياسة في البلاطات الاخرى » . ولكن ، يا للاسف ، لو انها تخلت عن دفة الحكم تماما لاصبحت في مأمن من الملامة والخطأ . غير انها كانت تتدخل بلا انقطاع مدفوعة بعصبة مدام دي بولينياك كلما تعلق الموضوع بتعيين وزير او إشغال منصب ، وراحت تجترح اخطر ما في السياسة ، تتكلم دون ان تلم بأتفه شيء عن الموضوع ، وتتصرف كهاوية ، وتتخذ باستخفاف اهم القرارات في اعقد القضايا وتبدد سلطاتها الهائلة التي لها على الملك في مصلحة الموالين لها فقط .

وكان الشعب ينظر الى الملكة على انها هي التي توجه دفة الحكم . ولما كان الوزراء والسفراء المعينين يكشفون عن عجزهم ، ولما كان نظام الحكم الكيفي قد دلل على عجزه ايضا ، وفرنسا تنحدر بسرعة صاعقة نحو الانهيار ، فان المسؤولية كلها تقع على عاتق ماري انطوانيت التي لا تعي شيئا من كل هذا . لذا فقد رات العناصر التي تطالب في فرنسا بالتقدم والاصلاحات والعدالة والجهود الخلاقة ، تتهامس وتنتقد وتتوعد هذه المخلوقة المبذّرة ، خالية البال ، ساكنة القصر ، هذه الصبيانية ابدا في

التريانون ، التي تضحي بجنون وسخف بحب ورفاهية عشرين مليونا من المواطنين في سبيل مجموعة متعجرفة مؤلفة من عشرين سيدا وسيدة . بيد ان هذا الاستياء البالغ لجميع هؤلاء الذين يطلبون نظاما جديدا ، وعهدا افضل ، وتوزيعا للمسؤوليات اكثر تعقلا ، ينقصه ولفترة طويلة مركز للتجمع . واخيرا ، فانه ينتهي الى التبلور في قصر عدو لدود ومن دم ملكي. وكما ان الرجعية كانت تتجمع لدى السيدات في قصر المنظر الجميل ، فقد اخذت الثورة تتجمع في القصر الملكي لدى الدوق دورليان : انه لهجوم على جبهتين متعارضتين ، ذلك الذي يعلن ضد ماري انطوانيت . وسرعان ما التقط القفاز الدوق دورليان ، هذا الارستقراطي ، ذو الطبيعة الميالة الى الاستمتاع اكثر منها الى الطموح ، والمتهافت على النساء ، والمقامر ، ومحب الحياة ، والمتأفق غير الذكي ، والمصاب بالضعف الفريزي للطبائع غير الخلاقة ، والمتعجرف ، الذي طعنته ماري انطوانيت بكرامته . وبصفته سليلا لفرع يعادل في عراقته البيت المالك ، وفضلا عن كونه رجلا مستقلا غنيا الى حد كبير ، فقد كان لا يخشى مجابهة الملك ومعارضته في البرلمان ، ومناصبة الملكة العداء بصورة سافرة . وهكذا ، فقد وجد المستاؤون بشخصه الرئيس الذي يحلمون به . فهؤلاء الذين يريدون الوقوف في وجه بيت آل هابسبورغ والفرع المالك من سلالة آل بوربون ، والذين يعتبرون السلطة المطلقة كشيء منته وجارح ، والذين يطالبون بنظام معقول وديموقراطي في فرنسا ، كل هؤلاء يضعون انفسهم من الان فصاعدا تحت رعاية الدوق دورليان . حتى اضحى في القصر الملكي الذي يمثل في الواقع المنتدى الاول للثورة رغم وجوده تحت حماية امير ، يجتمع كل المصلحين المتحررين ، والدستوريون ، والفولتيريون، ومحبو الانسانية، والماسونيون، وينضم الى هؤلاء المستاؤون والمدينون والاريستوقراطيون الذين القي بهم في مركز ثانوي ، وكذلك البورجوازيون المثقفون العاطلون عن العمل ، والمحامون عديمو الزبائن ، والكذابون والصحفيون . وهذه القوى المحمومة المتفجرة الحيوية هي التي ستؤلف بمجموعها فيما بعد فصائل الثورة الهجومية . وهكذا يتشكل جيش من اقوى الجيوش الفكرية ، وبفضله تنتزع فرنسا حريتها . ان اشارة الهجوم لم تعط بعد ، ولكن الجميع يعلمون بالهدف والشعار : ضد الملك ، وقبل كل شيء ، ضد الملكة .

وكان بين هاتين المجموعتين من الخصوم الثوريين والرجعيين ينتصب وحيدا ومنعزلا اخطر عدو للملكة وانذره بالشر ، السيد ستشلاس كزافييه، الكونت دي بروفانس ، ومستقبلا الملك لويس الثامن عشر ، انه اخو زوجها

بالذات ، وهو كتوم متستر دساس حذر لا ينضم الى اية فئة من هذه الجماعات لئلا يقامر بسمعته قبل ان تحين له الفرصة ، ويتذبذب من اليمين الى اليسار حتى يكشف له القدر عن ساعته . فهو يرى دون استياء كل مصاعب العهد المتزايدة ، ولكنه يحترس من كل انتقاد علني . انه يحفر كسنجاب اسود مختبيء منتظرا تحت الارض حتى يصبح موقف اخيه مزعزعا الى درجة كافية . ذلك انه لا يستطيع الظفر بالعرش الا بعد اختفاء لويس السادس عشر ، ولويس السابع عشر ، وعندئذ فقط يستطيع ان يصبح ملكا ويتخذ لقب لويس الثامن عشر . طموح كان يغذيه سرا منذ عهد الطفولة ! وكانت السنوات السبع المحزنة التي امضاها لويس السادس عشر عقيما سنوان سمان بالنسبة الى رغباته ومطامحه . ولكن آماله بالارث تلقت ضربة مخيفة بعد ذلك . فولادة ولي العهد قضت على آخر احلامه بوراثة العرش ، واعتبارا من الان فصاعدا قد سد السبيل السوي امامه ، ولم يبق لديه الا اتباع المسالك الخفية الملتوية التي ستوصله اخيرا ـ وان كان ذلك في الواقع بعد ثلاثين عاما ـ الى الهدف المرتجى .

ولم تكن معارضة الكونت دي بروفانس عن حقد صريح كما كان الامر مع دوق دورليان ، انما عن حسد دفين كنار تحت الرماد . ولكن ، هل كان دوره كما يؤكد كثير من الناس شيطانيا الى ابعد حد ؟ وهل ذهب به طموحه بعيدا لدرجة اشرف فيها بنفسه على طبع المنشورات التي تطعن بشرف وزجة اخيه ؟ وهل القى بابن اخيه البائس الذي انقذ سرا من سجن « الهيكل » الى قدر مظلم لسرقته بعض الوثائق ؟ ان سلوكه في تقارير كثيرة يترك المجال حرا ازاء اشد الشكوك هولا . او لم يشتر لويس الثامن عشر حال وصوله الى العرش ، وبأغلى الأثمان ، الرسائل التي كتبها عندما كان يعرف بالكونت دي بروفانس ، أو لم يحصل عليها بالعنف ويتلفها ؟ وكونه لم يجسر على اعطاء الامر بدفن الطفل الميت في سجن « الهيكل » كولي للعهد الا يبرهن على ان لويس الثامن عشر نفسه لم يكن يعتقد بموت لويس السابع عشر ، ولكن باستبداله بطفل أجنبي ؟ ان هذا الرجل العنيد الغامض عرف كيف يسكت ويتكتم . ان المسالك الارضية التي أوصلته الى عرش فرنسا قد طمست اليوم تماما منذ أمد بعيد ، ولكن هنالك شيء معلوم : لم يكن بين اشد أعداء ماري انطوانيت ضراوة عدو اخطر من هذا الشخص المتربص الغامض .

وبنهاية عشر سنوات مبددة تماما من الحكم المطلق ، اصبحت ماري انطوانيت محاصرة من كل جانب ، وقد بلغ الحقد أقصى ذروته منذ عام ١٧٨٥ . ان كل الجماعات المعادية للملكة ـ كل الطبقة الارستقراطية تقريبا

ونصف الطبقة البورجوازية ـ قد تمركزت في مواقعها لا تنتظر سوى اشارة الهجوم ، الذي من بوادره تلك الأوراق الصغيرة التي كانت تكتب وتطبع لتهرب من يد الى يد ، وتختفي لدى ظهور الاجانب ، ثم تعاود التسرب الى كل مكان ، حتى لتجد الملكة بعضا منها على مائدتها تحت « الفوطة » ، كما يجدها الملك فوق مكتبه بين الوثائق ، ويعثر على واحدة منها في مقصورة ماري أنطوانيت مغروزة في المخمل ، مسمومة بالحقد . ولقد باتت الملكة ، وهي تتكىء على نافذتها ، ليلا ، تسمع الاغنية الهازئة التي كانت تتردّد على الشفاه منذ زمن بعيد ، وهذا مطلعها :

الكل يتساءلون همسا :
هل يقوى الملك ، أم لا ؟
أما الملكة الحزينة فانها تكاد تيأس من ذلك .
وتنتهي بعد كل التفاصيل الجنسية بهذا التهديد :
أيتها الملكة الصغيرة ، بنت العشرين عاما
والتي تعاملين الناس بهذا السوء
لسوف ترجعين الى بافاريا .

ولكن الطقطوقات والوخزات الأولى كانت ما تزال تتسم بطابع التحفظ اذا ما قورنت بما سيليها ، وان سهام النقد تلك لم تغمس بعد في السم الحقيقي ، وهدفها الوخز لا القتل ، ولكن ما ان أعلن نبأ حبل ماري أنطوانيت حتى ازدادت لهجة « الطقطوقات » عنفا ، فسخر عن عمد من عجز الملك الجنسي ، وان لم يعد ذلك الان حقيقيا ، واتهمت الملكة دون تورع بالخيانة ، بغية اظهار ابنائها المنتظرين كأبناء زنا ، وهكذا شرع هؤلاء الاعداء باطلاق حممهم الحمراء على ماري انطوانيت من مكامنهم الخفية المحصنة ، خاصة بعد ولادة ولي العهد ، وشهر بصديقتيها مدام دي لامبال ومدام دي بولينياك كاستاذتين في فن وطرق السحاق ، كما شهر بالملكة كشهوانية جنسية وضيعة لا يمكن ارواء غليلها ، وبالملك ك « ذي قرنين » مسكين ، وبولي العهد كابن زنا ، واننا نروي مثلا على ذلك تلك الرباعية التي كانت تطير من فم الى فم اخر :

اذا أردت أن ترى أيها الملك لويس
ابن زنا ، وزوجا مخدوعا ، وعاهرة
فانظر الى مرآتك
والى الملكة وولي العهد ...

وبلغت اوركسترا التخرصات أوجها عام ١٧٦٥ ، فالموضوع قد قدم ،

واللحن قد أعطي ، وليس على الثـورة الا ان تصرخ في الشوارع بما لفّق والّف في الصالونات كي تجر ماري انطوانيت الى المحكمة . ويهوي السكين على عنق الملك ، وقد دفعته الى يد الجلاد الخشنة أيدي الارستقراطيين الحاقدين الناعمة المحلاة بالخواتم .

وكانت ماري انطوانيت تحس بكل هذه التحزبات والتكتلات وراءها ، وتعرف ما يؤلفون ، كما تتكهن بأشخاص المحرضين على ذلك ، ولكن لا مبالاتها وكبرياءها الهابسبورغيين الجاريين في دمها منذ الولادة كانا يجعلانها تعتقد بأن الاستخفاف بالخطر أكثر حزما من الاحتياط له بحذر وذكاء ، وتكتب الى أمها خالية البال قائلة : « اننا في طاعون مـن الأغاني الهجائية التي تشمل جميع افراد البلاط حتى امتدت الخفة الفرنسية الى الملك ، ومن جهتي أنا ، فلم يوفروني أيضا » .

وتتوقف ثورتها وغضبها عند هذا الحد عـلى ما يظهر ، وما الذي يهمها اذا ما ارتمت الذبابات القذرة على ثوبها ، وهي تعتقد بأن تلك السهام الورقية لا تستطيع ايذاءها ، ولا تتصور أن قطرة واحـدة من هذا السم الشيطاني ، سم التخرصات متى دخلت دم الراي العام قادرة على احداث حمى يقف دونها أمهر الاطباء عاجزين ! وتمر بالخطر خفيفة مبتسمة لأن الكلمات ليست بالنسبة اليها سوى قشة في مهب الريح ، ولن تنبهها الا العاصفة .

١٣ ـ قصفة رعد في مسرح الروكوكو

صادفت الخمسة عشر يوما الأولى من شهر اب ١٨٧٥ الملكة وهي في غاية الانهماك ، ليس ذلك لأن الموقف السياسي الذي أصبح شديد الحراجة هو الذي استغرق اهتمام ماري انطوانيت ، وليست أيضا ثورة هولندا ، التي كانت تعرض التحالف الفرنسي النمساوي الى محنة شديدة . كلا ، فمسرحهـا الصغـير الـ « روكوكو » المزين بالصدف والحصى الملون في التريانون ما يزال ينتظرها وهو أهم مـن المسرح الدراماتيكي الذي هو العالم . وهي قد نذرت في هذه الآونة كل فاعليتها المتدفقة لقطعة مسرحية، هي « حلاق اشبيلية » ، مهزلة بومارشيه التي ينتظر تمثيلها على مسرح القصر بفارغ الصبر ، ويا له من توزيع باهر للادوار ذلك الذي يحدث رافعا من شأن هذه الادوار الغريبة ! فالكونت دارتوا ذاته يمثل دور فيغارو ، وفودريل دور الكونت في المسرحية ، والملكة دور روزين المرحة .

ولكن السيد دي بورماشيه هـذا ، أليس هو نفس المسمى كارون

المعروف جيداً مـن قبل البوليس ، والذي كـان قد اكتشف قبل عشر سنوات على زعمه ـ ولكنه في الحقيقـة كتب بنفسه ـ هـذه الطقطوقة الشائنة : « اعلان مهم الى الفرع الاسباني عن حقوقه في تاج فرنسا » ، هذه الطقطوقة التي تصرح أمام العالم بعجز لويس السادس عشر الجنسي ، وكان قد ذهب ليقدمها الى ماري تيريز التي نعتته متناهية الغضب بمحتال، كما نعته لويس السادس عشر بالجنون وبفرد سيء من الرعية ؟ أليس هو ذلك السيد كارون الذي اوقف في فيينا بأمر امبراطوري بتهمة النصب ، والذي كان قد تلقى في سجن سان لازار في باريس عقوبة الضرب بالعصى ، الشائعة حينذاك ؟ نعم ، انه بعينه ! ولكن ماري انطوانيت تصاب بضعف بالغ في الذاكرة كلما تعلق الأمر بمتعها ، ولا يبالـغ كونتيز في فينا عندما يقول : « ان كل ما حدث لأعمالها الجنونية مـن تبدل انما هو ازديادها بالنماء والجمال » . اذ ان هذا المغامر العبقري النشيط كارون لم يسخر منها فحسب ويثر اشمئزاز امها فقط ، وانما قد اقترن اسمه بأفدح مـا أصاب السلطة الملكية من فقدان الكرامة . ان تاريخ الأدب والتاريخ العام لا يزالان يذكران بعد مائة وخمسين عاما هذه الهزيمة التي تثير الاشفاق للملك أمام رجل ادب . ولم ينس ذلك الا زوجة هذا الملك بعد أربعة أعوام فقط ، وكانت الرقابة المتيقظة تماما قد اشتمت عام ١٧٨١ في مسرحية هذا الكاتب الجديدة (زواج الفيغارو) رائحـة البارود بصورة خطـرة ، اذ بمقدورها ، والاندفاع الطائش لجمهور المسرح المتطلع للفضائح يلهبها ، ان تفجر كل نظام العهد القديم . فمنع مجلس الوزراء بالاجماع عرضها ، ولكن بومارشيه ذا الفاعلية التي لا تصدق عندما يتعلق الأمر بمجد او نقود ، يجد الف وسيلة للعودة بمسرحيته دون انقطاع ، وأخيرا توصل الى ان تُقرأ للملك الذي سيكون قراره قطعيا ، ولكن كائنا ما كـان ثقل هذا الرجل الطيب فانه ليس محدود العقل لدرجة لا يرى معها ما في هذه القطعة من التحريض على الفتنة . فاذا به يدمدم مزبدا « ان هذا الرجل يسخر بكل ما يجب احترامه في حكومة ما » ولكن الملكة تسأله بخيبة أمل « افلا تمثل هذه القطعة اذا ؟ » ذلك ان حفلة عرض مسرحـي لامعة تهمها أكثر مـن مصلحة الدولة . فيجيبها لويس السادس عشر : « كلا بالتأكيد » .

لقد أصدر الحكم على القطعـة . ان الملك الشديد المسيحية ، عاهل فرنسا لا يرغب برؤية هذه المسرحية ممثلة عـلى مسرحه ، وليس هنالك من مجال البتة للتساهل في هـذا ، والقضية بالنسبة للملك قد انتهت . ولكن الحال ليست كذلك بالنسبة لبومارشيه الذي لا يفكر مطلقا بالانحناء،

ويعرف ان سلطة الملك شيء موجود على الأوراق الرسمية وقطع النقود فقط ، وان الملكة هي التي تسيطر في الواقع على الملك ، وانها بدورها تنصاع لمدام بولينياك . فليتوجهن اذن الى هذا المرجع الأعلى ! وهرع بومارشيه الى كل الندوات ليقرأ عليها مسرحيته التي أصبحت بفضل منعها ، وبهذا الذوق الانتحاري الذي يتميز بـه مجتمع ذلك العصر المتحلل ، أصبحت وكل الطبقة النبيلـة ، تتلقى بحماسة هـذه القطعة الكوميدية لما فيها من السخرية بهم اولا ، ولأن لويس السادس عشر قد وجدها غير لائقة ثانيا ، وتصل جراة فودريل عشيق مدام دي بولينياك الى حد السماح بتمثيلها في مسرح بيته الريفي . ولكن ذلك ليس كافيا . اذ يجب أن يكـون الملك رسميا على خطأ ، وبومارشيه رسميا عـلى صواب ، ويجب أن تمثل في منزل الملك الذي منعها بالذات .

والتقى الممثلون سرا ، ولكنه على ما يبـدو بمعرفة ماري انطوانيت التي كانت تفضل ابتسامة من هذه السيدة بولينياك على تقدير زوجها ، وتلقـوا الأمر بدراسة أدوارهم ، كما وزعت البطاقـات سلفا ، فبدأت العربات تتزاحم امام باب المسرح . وفي اللحظة الأخيرة فكّر الملك بكرامته المهددة ، اذ قد أمر بمنع عرض القطعة . والآن فان الأمر يتعلق بسلطته ، فمنع العرض برسالة مختومة قبل ساعة من رفع الستارة فاطفئت الأنوار ورجع الناس الى بيوتهم .

وهكذا فان القضية تبدو من جديد وكأنها انتهت ، ولكن مجمع ماري انطوانيت الفاقد الحياء يسره أن يبرهن على أن قوته تفوق قوة رأس متوج عديم الحيوية ، فعهد الى ماري أنطوانيت والكونت دارتوا بالالحاح لدى الملك . وكما هو الحال دائما فقد رضخ هذا الرجل العديم الارادة لارادة امراته . ولكنه لتغطية ضعفه أمر بتغيير المقاطع الشديدة الجراة ، والتي يعرفها الجميع عن ظهر قلب . وهكذا حدد عرض « زواج الفيغارو » في المسرح الفرنسي في ٢٧ نيسان « ابريل » ١٧٨٤ فانتصر بومارشيه عـلى لويس السادس عشر . وكون الملك قد منع القطعة وتنبأ بفشلها فقد جعل لهذه الأمسية بنظر هؤلاء السادة ذوي العقلية العاصية طابعا مثيرا ، فاشتد الازدحام الى درجة كسرت معها الحواجز الحديدية أمام المدخل ، واقتحمت الأبواب ، وتلقى المجتمع القديم بتصفيق جنوني هـذه القطعة التي تحمل اليه الضربة القاضية معنويا دون ان يتطرق اليه الشك ، بان هذا التصفيق هو أول حركة عصيان علنية ، وبارق الثورة الأول .

ولقد كان من الواجب على ماري أنطوانيت نظرا لهذا الموقف ان تمكث

مبتعدة عن مسرحية كمسرحية السيد بومارشيه ، كما لم يكن من الواجب ان يستطيع هذا المخلوق المباهاة بعد ان طعن بشرف الملكة وكرامة الملك ، برؤية دور احد شخصياته تمثله ابنة ماري تيريز وزوجة لويس السادس عشر ، اللذين كانا قد سجناه بتهمة الاحتيال ، ولكن السيد بومارشيه هو الزي السائد في باريس منذ انتصاره على الملك ، والملكة تتبع الزي السائد. فماذا يهم الشرف ، والأعراف المرعية ! ومن ثم ليس ما حدث الا تمثيل مسرحية ، ثم يا له من دور ظريف ، دور هذه الفتاة الخبيثة الذي جاء في نصه ما يلي :

« تصوروا اجمل صغيرة جذابة ، حلوة ، ناعمة ، رقيقة ، وغضة تثير الشهية ، ذات قدم خفيفة الوطء ، وقد ممشوق ، معتدل ، وذراعين بضتين ، وفم وردي . ثم يا ليديها ! وخديها ! واسنانها ! وعينيها ! »

فهل يمكن السماح لأية امراة اخرى سوى ملكة فرنسا بتمثيل هذا الدور الظريف ؟ اية يدين تفوقان يديها بياضا أو ذراعين تفوقان ذراعيها بضاضة ؟ اذا فلتذهب المراعاة والاعتبارات الى الشيطان ! وليؤت بالممثل الماهر دازينكور من مسرح الكوميدي فرانسيز لكي يلقن هؤلاء الهواة طلاقة الاداء والرشاقة ، وليوص لدى الآنسة برتان بأجمل الثياب . يجب الاستمتاع مطلقا ، وعدم التفكير دوما بخصومات البلاط ومشاكسات هؤلاء الاقارب الأعزاء وهموم السياسة الغبية . ان هذه المسرحية تستأثر الآن بماري انطوانيت في مسرحها الابيض الذهبي الجميل ، دون أن تشك بان الستار يرتفع الآن عن مسرحية اخرى سوف تلعب فيها دونما ارادة الدور الرئيسي .

وتقترب الاستعدادات لتمثيل «حلاق اشبيلية» من نهايتها ، وما تزال ماري انطوانيت منهمكة ، شديدة القلق ، هل ستبدو شابة بصورة كافية في دور روزين ؟ وفي الصالة المؤلفة من اصدقاء مدللين ومتطلبين ، الن يعاتبوها على نقص في حيويتها أو طبيعتها ؟ وكونها هاوية اكثر منها ممثلة ؟ انها في الواقع مليئة بالهموم ، ولكنها هموم غريبة على ملكة ، ولماذا تتأخر مدام كامبان عن المجيء اليوم ؟ ها هي ذي قد وصلت اخيرا ! ولكن ما الذي حدث ؟ لماذا تبدو غريبة الملامح قلقة ؟ وتنتهي مدام كامبان بالتمتمة بأن جوهري البلاط بوهمر ، قد حضر لعندها البارحة ورجاها الحصول على مقابلة سريعة لدى الملكة ، وقد قص عليها هذا اليهودي الانكليزي قصة من اغرب القصص وأكثرها غموضا ، فقد قامت الملكة سرا بشراء عقد من الجواهر الثمينة منذ بضعة اشهر وقررت في ذلك الحين الدفع بالتقسيط ،

ولكن موعد القسط الأول مر منذ أمد بعيد ولم يدفع درهم واحد ، وبما أن دائنيه يلحون بالطلب فهو بحاجة الى نقوده حالا .

كيف ؟ ماذا ؟ اية جواهر ؟ واي عقد ؟ ما قصة النقود والتقسيط هذه ؟ ان الملكة لا تفهم في البدء ، هل يتعلق الأمر بذلك العقد الرائع المصوغ بكثير من الذوق من قبل الجوهريين بوهمر وباسنغ ؟ اذا كان ذلك هو العقد فانها تعرفه بالطبع . لقد عرضاه عليها عدة مرات بمليون وستماية ألف من الليرات ، ولقد رغبت فعلا في الحصول على هذه القطعة الرائعة ، ولكن الوزراء الذين يتكلمون دائما عن العجز لا يريدون اعطاء النقود ، فكيف يستطيع هؤلاء الأدعياء الزعم بأنها اشترته ! وبالتقسيط ايضا ! وسرا ! وأنها مدينة لهم بالنقود بسبب ذلك ؟ لا شك في أن هنالك خطأ غريبا ! ولكن ألم تصل في الواقع منذ اسبوع رسالة فريدة من نوعها من قبل هذين الجوهريين ـ انها تذكر ذلك الآن ـ يشكرانها فيها على شيء ما ، ويتحدثان عن جوهرة كريمة ! أين هي هذه الرسالة ؟ لقد احرقتها ! ذلك انها ليست معتادة على قراءة الرسائل بكاملها ، وقد أتلفت حالا هذه الثرثرة غير المفهومة ، المبالغة التبجيل .

ولكن ما الذي يراد منها بالضبط ؟ فماري انطوانيت بعدم اعتدالها تجعل سكرتيرها يكتب كلمة الى بوهمر ، تستحضره فيها ، ولكن ليس غدا، وانما يوم (٢٩ آب) ، رباه ! ان قضية هذا الأبله ليست عاجلة ، واني بحاجة الى كل راسي لترديد أدوار « حلاق اشبيلية » .

ويصل الجوهري بوهمر يوم ٨ آب (اغسطس) شاحبا ومضطربا ، ولكن القصة التي يقصها غامضة تماما . والملكة تعتقد في البدء أن الأمر يتعلق بمجنون . فالكونتيس دي فالوا صديقة الملكة الحميمة ـ (كيف ؟ صديقة ؟ ولكني لم استقبل مطلقا سيدة بهذا الأسم !) ـ هذه الكونتيس قد فحصت العقد لديه وصرحت له بأن الملكة ترغب في شرائه سرا ، كما أن نيافة الكاردينال دي روهان ـ (ماذا ؟ هذا الرجل المزعج الذي لم أبادله كلمة في حياتي) ؟ ـ قد استلم الجواهر بالنيابة عن جلالتها .

ومهما بدت هذه القصة سخيفة ، فيجب أن يكون هنالك شيء من الصحة في هذه القضية ، لأن هذا الرجل المسكين مبتل الجبين ، يرتجف من الرأس الى القدم ، بسببها ، كما أن الملكة تقشعر غضبا من التفكير بأن لصوصا قد عبثوا بمهانة ، باسمها ، فتأمر الجوهري بأن يقدم اليها كتابة وبدون تأخير عرضا للقضية بكل تفاصيلها . وفي ١٢ آب تستلم هذه الوثيقة العجيبة التي ما تزال محتفظا بها في الأرشيفات حتى اليوم .

وتعتقد ماري انطوانيت انهـا في حلم ، فهي تقرأ ، وكلما تقدمت في قراءتها تفاقم غضبها وسخطها . ان هذا النصب غير ذي سابقة ، فيجب الضرب بطريقة تصبح مثلا . انها لا تبلّغ أي وزير عن ذلك ، في الوقت الحاضر ، ولا تستشير أي صديق ، بل تعهد الى الملك وحده يوم ١٤ آب بالقضية كلها ، وتطلب منه الدفاع عن شرفها .

ولسوف تدرك ماري انطوانيت فيما بعد انه كـان من الخير لها أن تفحص باعتناء قضية معقدة ومهمة كهذه ، ولكن هـذه الطبيعة العديمة الصبر المتعالية لم تكن يوما بقادرة على التفكير بصورة جدية ، أو على وزن امورها عـلى ضوء ما هو صالح وما هو طالـح ، ولا سيما عندما تكـون كبرياؤها المندفعة ، النقطة المسيطرة في شخصيتها ، في الميزان . ولم تكن الملكة لترى أو تقرأ في غمرة اندفاعها سوى اسم واحد هو اسم الكاردينال لويس دي روهان الذي كانت تكرهه منذ سنين بكل حرارة وعنف عواطفها، والذي تظنه ــ دون اعتبار للامور ــ قادرا على ارتكاب أي الدناءات ، وأي نقص في الضمير ــ ولكن هذا القس السيد ورجل المجتمع لم يسبب لها بالواقع اي أذى ، بل انه هو الذي رحب بها لدى دخولها فرنسا ترحيبا بالغ الحرارة على باب كاتدرائية ستراسبورغ . وهو الذي عمّد أطفالها وانتهز كل الفرص للتقرب منها بتودد . وفي الواقع فانه ليس هنالك أي تناقض ما بين طبيعتيهما ، وانما الامر على العكس ، فالكاردينال دي روهان هذا هو الجزء المقابل لماري انطوانيت في عالم الرجال . فهو مثلها صبياني وسطحي ومسرف ، ويبدي من الاهمال لواجباته الدينية ما تبديه هي من الاهمال لواجباتها الملكية . فهو قس مجتمع كما أنها ملكة اجتماعية ، وهو قس (روكوكو) وكذلك فهي ملكة (روكوكو) . وانه لكان قد بلغ الكمال في قصر التريانون بأخلاقه المنمقة وتكاسله وبذخه الذي لا حد له ، ولكان والملكة قد تفاهما لدرجة عجيبة : الكاردينال الجميل ، الخفيف ، الظريف ، الصبياني ، والملكة الجميلة ، المرحة ، الفانية والسعيـدة بالحيـاة . ان الصدفة فقط هي التي جعلت من هذين الكائنين خصمين ، ولكن كثـيرا ما يكون هؤلاء الأكثر تشابها في قرارتهم ، اكثر الاعداء تحاملا على بعضهم بعضا .

وفي الحقيقة ان ماري تيريز هي التـي فرقت ما بين روهان وماري انطوانيت ، فالملكة قـد ورثت حقدها عن امها ، قبـل أن يصبح أسقفا لاستراسبورغ ، اذ كان لويس دي روهان سفيرا في فيينا ، وهنالك قام بكل شيء جلب له غضب الامبراطورة العجوز التي وجدت أمامها ثرثارا

مدّعيا عوضا عن الديبلوماسي الذي كانت تنتظره . ومع ذلك فانها كانت قد استفادت من نقص مستواه العقلي . فان غباء سفير أجنبي لم يكن الا ليزيد حظ السياسة التي كانت تتبعها نجاحا . ولكانت سامحته أيضا على بذخه بالرغم من انه كان قد اغضبها مشاهدة خادم المسيح الزائف هذا يصل فيينا بعربتين فخمتين لا بد وأن كلامنهما كلفت (٤٠) ألف ايكو (قطعة عملة) متبوعا بشحنة كاملة من الحرير الأخضر يكسف ثراء القصر الامبراطوري . ولكن هنالك نقطتين لم تكن الامبراطورة لتتسامح أو تهزل بهما : الدين والأخلاق . فرؤيتهما لاحد خدم الرب محاطا ببلاط من المعجبات هاجرا رداءه المقدس الى بزة الصيد ، قانصا في يوم واحد مائة وثلاثين طريدة ، يثير في نفس هذه المرأة المتدينة سخطا وصل حد الهياج عندما لحظت أن هذا السلوك الطائش ، بعيدا عن اثارة الاشمئزاز لدى الناس ، فانه يلقى تأييدا عاما في فيينا ، مدينتها ، مدينة اليسوعيين ، واللجان الاخلاقية . فكل جماعة النبلاء في فيينا ، التي فَرض عليها تقشف بلاط شُونبَرن واقتصاده كانوا يتنفسون الصعدات في مجتمع هذا المحب للحياة والمبذر الأنيق ، ولا سيما النساء اللواتي جعلت أخلاق الارملة المتدينة حياتهن صعبة ، انهن يزدحمن في حفلات عشاء السفير المرحة . ولسوف تعترف ماري تيريز مستاءة ، فتقول : « ليس بين نسائنا الشابات والعجائز ، الجميلات والدميمات ، من هي ليست مسحورة بهذا المتفرد بأطواره ، وبتصرفاته الطائشة ، والتي تفوق العادة . ويبدو عليه أنه مسرور هنا لأنه يؤكد رغبته في البقاء حتى بعد موت عمه . »

بل ان هنالك ما هو أسوأ من ذلك : فالامبراطورة المجروحة سوف ترى كونيتز نفسه ، رجل ثقتها المخلص ، وهو يسمي روهان صديقه العزيز ، كما ترى ابنها جوزيف ـ الذي يسره دوما أن يقول نعم عندما تقول أمه كلا ـ يرتبط مع الاسقف رجل المجتمع ، بصلة صداقة ، وهكذا فسوف ترى هذا السيد الأنيق يفتن عائلتها ، والبلاط ، والمدينة ، فيجرهم جميعا الى مرح الحياة . ولكن ماري تيريز لا تريد أن تصبح مدينتها فيينا الكاثوليكية المتقشفة ، مثل فرساي الخليعة ، ولا تريد أن تتفشى الخيانة الزوجية والمعاشرة الجنسية في طبقتها النبيلة : ان هذا الطاعون لن يتمركز في مدينتها ، ولذا يجب على روهان أن يرحل ، وهكذا فانها تكتب الى ماري أنطوانيت الرسالة تلو الأخرى لكي تعمل كل ما في وسعها لابعاد هذا « الشخص الحقير » ، « هذا العقل غير القابل للتقويم » ، « هذا الجسم المحشو بكثير من الآراء السيئة » ، هذه « الرعية السيئة » ، هذه « الحقيبة

المثقوبة جدا » . ومن الملاحظ هنا كيف جر الغضب هذه المراة الشديدة التعقل الى هذا الابتذال اللغوي . انها تتنهد ، بل وتصرخ بيأس طالبة ان يصار الى « انقاذها » اخيرا من رسول الكفر هذا ... وبالفعل فما كادت ماري انطوانيت تصبح ملكــة حتى حصلت ـ راضخة لأمر امها ـ علــى استدعاء لويس دي روهان .

ولكن عندما يسقط روهان فذلك لكي يرتفع مــن جديد ، اذ يعين كتعويض له عن السفارة الضائعة اسقفا ، وبعدها بأمد قليل ، اسقفا اكبر ، اي راعي ابرشية الملك . وبذا يصبح اكبر شخصية كنسية في البلاط ، يتم عن طريقها توزيع كل عطاءات الملك الخيرية ، ويتمتع هو بواردات ضخمة ، فهو ليس اسقف استراسبورغ فقط ، ولكنه ايضا متصرف الالزاس ، ومصلي دير سان فاست الطائل الارباح ، ومدير المستشفى الملكي ، وعميد في جامعة باريس (السوربون) ، وفضلا عن ذلك (دون معرفة السبب) عضو في الاكاديمية الفرنسية ، ولكن نفقاته رغم كل ذلك كانت تربو على وارداته مهما كان ارتفاعها ، لأنه وهو البشوش الخالي الفؤاد ، والمسرف ، كان ينثر الاموال بملء يديه ، فهو يخصص الملايين لاعادة بناء قصر اساقفة استراسبورغ ، ويقيم اشد الحفلات بذخا ، كما ان علاقاته لم تكن تقتصر على النساء ، وانما كان من بين كل اهوائه الغريبة هوى واحد يكلفه اكثر من سبع عشيقات معا هو السيد ديكاليومسترو وعما قريب فلن يكون سرا لاحد ان تصبح ماليات الاسقف في حالة محزنة ، حتى اخذ خادم المسيح هذا يصادف لدى المرابين اليهود اكثر مما يصادف في الكنيسة ، ويصادف بصحبة النساء الجميلات اكثر مما يصادف بصحبة علماء اللاهوت ، وفي هذا الوقت بالذات بدأ البرلمان يهتم بديون المستشفى الذي يديره روهان : فهل هنالك ما يثير الدهشة اذا كانت الملكة قد ظنت ، للوهلة الأولى ان هذا الشخص الخفيف قد اخترع كل هــذه القصة لتدبير بعض النقــود بواسطة اسمها !

انها تكتب الى اخيها في حركة الغضب الاولى : « لقد اتخذ الكاردينال اسمي كأي مزور نقود مبتذل وغير حاذق . ومن المحتمل انه قد ظن تحت وطأة حاجته الى النقود ان باستطاعته الدفع الى بائعي المجوهرات في الاجل الذي كان قد اشار اليه ، دون ان يكتشف شيء من ذلك . »

ان خطأها مفهوم ، كما ان غضبها الأقصى الذي منعها من الغفران لهذا الرجل مفهوم ايضا . ان ماري انطوانيت لم توجه الكلام ، مرة واحدة، الى لويس دي روهان خلال خمسة عشر عاما ، منذ مقابلتها الأولى معه امام

كاتدرائية استراسبورغ ، مخلصة لأوامر امها ، بل انها قد اغلظت له القول حتى بصورة مكشوفة امام كل البلاط . فهي لا تستطيع ان تمنع نفسها من اعتبار كون هذا الرجل قد زج باسمها في قضية نصب كعمل انتقامي دنيء ، ان هذا التحدي لشرفها يبدو لها اشد تهتكا ونذالة من كل ما كانت قد تحملته من قبل كبار طبقة النبلاء الفرنسية . فهي تحتم على الملك بلهجة محمومة والدموع في عينيها ان يعاقب هذا النصّاب !

اما الملك وهو الاعزل من السلاح أمام متطلبات امرأة لا تزن نتائج اعمالها ورغباتها فقد وضع نفسه طائعا كالعبد في خدمة غضب نسائي مرتجل ، دون التحقيق في الاتهام ، ودون طلب الوثائق ، ودون استجواب الجوهري او الكاردينال .

وفي يوم ١٥ آب احدث الملك ذهولا في مجلس الوزراء أعرب عن نيته بتوقيف الكاردينال حالا ! الكاردينال ؟ الكاردينال دي روهان ؟ جفل الوزراء متعجبين ، ونظر بعضهم الى بعض مذهولين . وبعد برهة غامر احدهم بالسؤال عما اذا كان توقيف شخصية كبرى ، ورجل كنيسة علاوة على ذلك ، كأي شقي مبتذل ، لن يحدث تأثيرا سيئا ، ولكن هذا هو بالذات ما تطلبه ماري انطوانيت : العقاب العلني ، اذ يجب اخيرا اعطاء عبرة بدهية للجميع حتى يعرف أنه ليس بالمستطاع الزج باسم الملكة دونما خوف في جميع الدناءات . وينتهي الوزراء أخيرا بالقبول مرغمين وممتلئين بالتخمينات المتشائمة والقلق . ويدور مشهد غير متوقع مطلقا ، بعيد بضع ساعات من ذلك . اذ انه لما كان عيد الصعود هو عيد الملكة أيضا ، فقد كان البلاط بأجمعه قادما الى فرساي لتقديم تهانيه ، حتى ازدحمت قاعة عين الثور (قاعة قريبة من غرفة نوم الملك) وقاعة المرايا بأفراد الحاشية وكبار الشخصيات . وكان روهان الشخصية الرئيسية الذي وقع على عاتقه ذلك اليوم القيام بالقداس البابوي ، ينتظر هو ايضا لابسا قفطانه الارجواني ، وقد ارتدى سلفا قميصه الأبيض .

ولكن لويس السادس عشر لم يخرج بابهة مع زوجته للذهاب الى القداس ، وتقدم الى روهان احد الخدم قائلا له ان الملك يطلبه في مكتبه الخاص . هناك وجد روهان الملكة واقفة متقلصة الشفتين ، وهي تحول نظرها عنه ، ولا ترد على تحيته ، وبجانبها الوزير بريتويل ، ـــ وهو عدو شخصي للكاردينال ـــ وهو متشدد وبارد وغير مؤدب . وقبل ان يتسع لروهان الوقت ليسأل نفسه عما قد يراد منه ، توجه اليه الملك دون دوران او مراعاة قائلا : « يا ابن عمي ، ما قصة هذا العقد الذي حصلت عليه باسم

الملكة ؟ » . فشحب روهان الذي لم يكن يتوقع ذلك وتمتم قائلا :
« مولاي ، أرى انه قد احتيل عليّ ، ولكن لم احتل على أحد . »
ـ « اذا كان الامر كذلك يا ابن عمي ، فلا يجب ان تكـون لديك أية مخاوف ولكن اشرح ما تعنيه . »

ولكن روهان عجز عن الجواب وهو يرى بمواجهته ماري انطوانيت بكماء ، متوعـدة ، فخانه الكلام ، وأثـار ارتباكه شفقة الملك الذي قال ليخرجه من مأزقه :

ـ « حسنا اكتب اذا ذلك الذي يجب ان تقدم لي الحساب عنه » .

قال له لويس السادس عشر هذا وخرج من القاعة مصحوبا بماري انطوانيت وبريتويل . فوصل الكاردينال الذي بقي وحيـدا الى كتابـة (١٥) سطرا ، ووضع شرحه هذا امام الملك الذي عـاد الى الغرفة . ان امرأة باسم مدام دي فالوا هي التي جعلته يقرر الحصول على العقد لاجل الملكة ، وهو يعترف الآن بأن هذه المرأة قد خدعته .

ـ واين هي هذه المرأة ؟
ـ اني لا أعرف يا مولاي .
ـ هل العقد موجود لديك ؟
ـ انه بين يدي هذه المرأة يا مولاي . »

وطلب الملك استدعاء الملكة وبريتويل وحارس الأختام (وزير العدل) وأمر بقراءة مذكرة الجوهريين ثم طلب البطاقتين الموقعتين على الزعم من قبل الملكة . فاضطر الكاردينال الذي كان في اقصى الاعياء الى الاعتراف :
« انهما بحوزتي يا مولاي ، انهما مزيفتان » .

وأجاب الملك ـ « اعتقد انهما مزيفتان ، وعلى الرغم من ان الكاردينال يعرض تسديد ثمن العقد ، فان الملك يختتم النقاش بشدة قائلا : « ايها السيد ليس بوسعي في حالة كهذه الا وضع الاختام على منزلك ، والاحتفاظ بشخصك . ان اسم الملكة كريم جدا بالنسبة اليّ وهو قـد لطخ ، ولذا يجب أن لا اهمل شيئا . »

وتوسل روهان لتجنيبه هذا العار ، لا سيما في اللحظة التي يجب أن يظهر فيها امام الله ويقيم القداس بحضور البلاط بأجمعه ، وتردد الملك الشفوق الطيب أمام اليأس الظاهر لدى هذا الرجل الذي قد احتيل عليه. الا ان الملكة لم تستطع ان تكبت نفسها فعنفت روهان باكية مـن الغضب سائلة اياه : « كيف امكنه الاعتقاد بانها قد اختارته كوسيط لمقاولة بعض الاعمال سرا ، وخفية من الملك ، وهي التي لم تشرفه بكلمة واحدة خلال

ثمانية اعوام » ؟ فعقد لسان الكاردينال أمام هذا اللوم ، وهو الآن ذاته لا يفهم كيف استطاع فقدان التعقل حتى زج بنفسه في هذه المغامرة المجنونة ، واما الملك فهو آسف ، ولكنه اختتم قائلا : « انني اتمنى ان تستطيع الدفاع عن موقفك ، واما انا فاني مجبر على القيام بواجبي كملك وكزوج . »

وهكذا انتهت المحادثة ، ولكن كل النبلاء كان ينتظرون في الرواق المزدحم نافذي الصبر ، ثائري الفضول ، أذ كان يجب ان يبدأ القداس منذ زمن طويل ، فلم هذا التأخير ؟ ما الذي حدث ؟ وقد اخذ البعض يذهبون ويجيئون قلقين ، وراح البعض الآخر يتهامسون وهم جالسون ، ويحس الجميع بان هنالك عاصفة في الهواء .

وفجأة انفتح باب المكتب الملكي على مصراعيه ، وبدا روهان أولا ، شاحبا ، مزموم الشفتين ، ووراءه بروتويل الجندي القديم ، ذو الوجه الممتلىء ، الاحمر المشابه لوجوه قطافي العنب ، وعيناه تلمعان استثارة . واذا به يهتف بقائد الحرس فجأة ، في منتصف الحجرة ، وبصوت صاخب عن عمد قائلا : « وقف السيد الكاردينال ! »

فاقشعر كل الحاضرين ، ودب الذعر في قلوبهم لتوقيف كاردينال ! وسليل عائلة روهان ! وفي غرفة انتظار الملك ! هل هو سكران هذا العسكري الكهل الجلف ؟ كلا ! لأن روهان لا يدافع عن نفسه ، ولا يثور ، بل يذهب لملاقاة قائد الحرس ،وعيناه خافضتان ، فيتباعد افراد الحاشية مذهولين ، وامام هذه الجمهرة من الأعين المتفحصة المهينة المستثارة ، كان الامير دي روهان ، راعي ابرشية الملك الخاص ، وكاردينال الكنيسة ، التي ليس من سلام أبدي خارج نطاقها ، متصرف الالزاس وعضو الاكاديمية الفرنسي، وحامل طائفة من التكريمات العليا ، يجتاز القاعة تلو القاعة منظورا اليه وكأنه مجرم مبتذل من قبل الجندي الصلب الذي يتبعه .

وعندما عهد بروهان في قاعة بعيدة الى حرس البلاط ، صحا فجأة من جموده فاذا به يستفيد من الذهول العام لكي يكتب على عجل الى قسه الخاص عدة خطوط موصيا اياه بأن يحرق بسرعة بعض الكتابات الموجودة ضمن علبة صغيرة حمراء ــ ولقد كانت هذه بطاقات الملكة الزائفة ، كما سنرى فيما بعد خلال المحاكمة . وقفز في الخارج احد خدم روهان على جواده بسرعة ، وذهب طرادا الى قصره في استراسبورغ حاملا كلمة الكاردينال ، فوصل اليه قبل وصول البوليس الاقل منه سرعة لكي يختم على قصره وقبل ان يقاد (ويا للعار) اسقف فرنسا الاكبر ــ وهو على وشك

القيام بالقداس امام الملك وكل البلاط ـ الى سجن الباستيل . وفي نفس الوقت فقد اعطي الأمر لالقاء القبض على كل هؤلاء الذين لعبوا دورا ما في هذه القضية الغامضة . ولم يتم القداس ذلك اليوم في فرساي ، اذ ما جدوى ذلك ، وليس هنالك من شخص متفرغ الفكر للاستماع اليه ، فكل البلاط ، بل كل المدينة وكل البلاد مذهولة بالنبأ الذي كان يتردد كقصفة رعد .

وعادت الملكة الى جناحها الخاص وهي شديدة التأثر واعصابها لا تزال ترجف غضبا ، وها هو أخيرا ، على الاقل ، أحد هؤلاء السفلة الذين يطعنون شرفها ، احد هؤلاء المتخرصين ، وقد أعيد الى رشده ! ألن يتراكض كل الناس السليمو التفكير لتهنئتها بالقبض على هذا المحتال ؟ أو لن يمتدح البلاط حزم الملك الذي كانوا يظنونه طوال هذا الزمن ضعيفا ؟ ولكن يا للغرابة فان احدا لم يأت ! بل ان نظرات أصدقائها الحيرى كانت تتجنبها . ان كل شيء هادىء اليوم في التريانون وفرساي ، الا ان النبلاء لم يكونوا ليخفوا سخطهم على هذه الاساءة الى شرف واحد منهم بهذه الطريقة ، كما ان الكاردينال دي روهان الذي كان الملك قد وعده بالتسامح ، اذا وضع نفسه تحت احتكامه ، قد رفض ذلك ببرودة ، وقد تمالك نفسه من تخوفاته ، مختارا الاحتكام الى البرلمان . وتحس ماري انطوانيت بالضيق ، لقد تسرعت جدا ، انها لا تستطيع الاغتباط بنصرها ، وفي المساء ، تجدها وصيفاتها غاصة بالعبرات .

ولكن قرارة نفسها اللعوب اياها لا تلبث ان تسترجع الزمام ، فتخف لتكتب رسالة الى أخيها جوزيف مليئة بالاوهام المجنونة . قائلة فيها : « فيما يتعلق بي فانني شديدة السرور اذ لم اعد اسمع عن هذه القضية المزعجة شيئا . ذلك اننا الآن في شهر آب ، ولن تعرض القضية أمام البرلمان قبل كانون الاول بل حتى السنة المقبلة ، فلم الاهتمام اذا بهذا الامر الثانوي ؟ وماذا يهم اذا تهامس الناس وتقولوا الاقاويل ! » فليسرع في احضار مساحيق الزينة ، والحلل الجديدة ، فاننا لن نهجر مسرحية أخاذة بسبب قضية تافهة كهذه ! وهكذا تتابع الاستعدادات للمسرحية ، وترديد أدوارها . ودرست الملكة ـ عوضا عن ملفات البوليس المعلقة بهذه المحاكمة الكبرى ، التي قد يكون ايقافها ما زال ممكنا ـ دور روزين الصغيرة المرحة في « حلاق اشبيلية » . ولكنها على ما يبدو قد درست هذا الدور ايضا بصورة سطحية جدا ، والا كانت قد أصغت ملء اذنيها انتباها ، وفكرت عند استماعها كلمات زميلها باسيل الذي كان يصف في

دوره قدرة التخرصات بصورة شديدة التنبؤ ، ولكانت قد ادركت بالمناسبة أن هذا التمثيل الظاهر الخفة ، كان يعبر في الحقيقة عن مصيرها الشخصي، ولسوف يكون هذا العرض الاخير لهذه الملهاة في ١٩ آب ١٧٨٥ نهاية مسرح (الروكوكو) الى الابد .

١٤ ـ قضية العقد

ما الذي حدث تماما ؟ انه لمن الصعب تقديم قصة معقولة عن قضية العقد ، لأنها كما جرت في الواقع لهي من اغرب القضايا . حتى ولو كانت حبكا قصصيا ، لكان في الصعب الاعتقاد بها ، ولكن عندما يمتزج امتلاك فكرة خارقة للعادة وشعرية في نفس الوقت بالواقع ، فان هذا ليفوق في المخيلة ، وفي فن توزيع الأدوار ، أمهر القصاصين . وعندئذ فخير لجميع الكتاب أن لا يغيروا منه شيئا ، ولا حتى باضافة شيء الى حبكته العبقرية .

ان غوته بنفسه عندما حاول في « القبطي الكبير » نسج ملهاة مستخلصة من قضية العقد قد ترجم الى مزاح غير مستساغ ما كان في الحقيقة واحدة من اعظم خدع التاريخ فجورا ، واضطرابا واثارة . وما كتب موليير قطعة تجد فيها تجميعا اشد غرابة للصوص ونصابين ومخدوعين ومهرجين واناس سخر بهم بصورة طريفة ، من قطعته المثيرة لأشد القهقهة (الاناء المعفن) ، حيث تؤلف لصة شريرة وثعلب تعدي كل ضروب الاحتيال مع دب سمين ساذج ، أعجب انواع التهريج .

ان كل قطعة كوميدية جديرة بهذا الاسم يجب ان تدور حول امراة ، والمرأة في قضية العقد هذه ، هي ابنة سيد مفلس وخادمة فاسقة ، كانت في بادىء الامر طفلة قذرة مهجورة تغدو حافية القدمين وتتغذى بالبطاطا المسروقة في الحقول ، وتحرس الابقار لقاء قطعة من الخبز ، وبعد موت الاب نذرت الام نفسها للدعارة ، وهي للاستجداء . وفي السابعة من عمرها ، التقت الطفلة في طريقها بمصادفة سعيدة ، بالمركيزة دي بولانفيليه وتوجهت اليها بهذه الشكوى الغريبة : « الرحمة بيتيمة مسكينة تجري فيها دماء آل فالوا » ماذا ؟ اهذه الطفلة المليئة بالبراغيث والواهنة من الجوع ، سليلة آل فالوا ومن دم القديس لويس ؟. وحدثت المركيزة نفسها بأن هذا ليس معقولا ، ولكنها مع ذلك أوعزت بايقاف عربتها لتحادث المتسولة الصغيرة .

وكما قلنا آنفا ، فان كل شيء في قضية العقد هذه يبدو غير قابل للتصديق ، واكثر الاشياء غرابة يرتكز على حقائق . ان هذه الطفلة ، جان

الصغيرة ، هي فعلا ابنة شرعية لجاك دي سان ريمي ،-السكير ، ومرهب الفلاحين ، وممتهن مهنة القفص ، ولكنه بالرغم من ذلك ، سليل أصلي ومباشر لآل فالوا . وسرعان ما اصطحبت المركيزة دي بولانفيليه المتأثرة بقصة هذا السقوط الرهيب لسليلة ملكية ، الطفلة جان واختها الصغيرة لكي تربيهما على نفقتها في احدى مدارس الراهبات . وفي الرابعة عشرة من عمرها ، التحقت بخياطة كصانعة تتعلم المهنة ، ثم اصبحت غسالة وكواية ، وماتحة ماء ، واخيرا راهبة في دير للفتيات النبيلات .

ولكن الرهبنة ليست مقدّرة للصغيرة جان ، وسوف تبرهن عن ذلك فيما بعد ، ذلك ان دماء ابيها الشريرة تجري في عروقها ، ولما بلغت الثانية والعشرين من عمرها تسلقت علنا جدار الدير مع اختها الصغيرة . ثم اذا بها تظهر فجأة في بلدة « بار ــ سور ــ أوب » دون نقود ورأساهما محشوان بالمغامرات ، وفيها تجد جان بسبب جمالها ضابطا في قوى الأمن من صغار النبلاء يدعى « نيكولا دي لامونت » ، فيتزوجها ، وذلك في اللحظة الاخيرة ، اذ ان البركة الزوجية لم تمنح لهما ، الا قبل شهر واحد من ولادة توأمين .

ولو ارادت السيدة دي لاموت لاستطاعت ان تتابع حياة بورجوازية صغيرة ، هادئة ومتواضعة ، بصحبة زوج متساهل لم يكن غيورا قط . ولكن « دم سلالة فالوا » كان يطالب بحقوقه ، ولم يكن قط للصغيرة جان سوى فكرة واحدة : الصعود ! بأي طريقة ، وبأي وسيلة ! انها تبدأ بالذهاب للاقاة المحسنة اليها المركيزة دي بولانفيليه ، ويشاء الحظ ان تستقبلها هذه في قصر الكاردينال دي روهان في سافرن ، ولتوها استغلت بمهارة شديدة الضعف المحبب لدى هذا الكاردينال اللطيف الجذاب ! فحصلت بواسطته ــ بأي ثمن ؟ هذا مما يشك فيه ! ــ على ترقية زوجها الى رتبة كابيتن في احدى فرق الفرسان وعلى سداد ديونه .

وكانت جان تستطيع هذه المرة ايضا السرور والاكتفاء بذلك . ولكنها لم تعتبر هذه القفزة الجميلة الا كاحدى الدرجات . ولما كان زوجها الذي عين برتبة « كابيتن » من قبل الملك قد منح نفسه بنفسه لقب كونت ، فهل من المستطاع عندما تتحلى بلقب رنان مثل الكونتيس دي فالوا دي لاموت ، البقاء في الريف والتعفن به ، بمرتب بائس ، وبمخصصات الضابط المتواضعة ؟ ان هذا لمن السخف ! ان اسما كهذا يقدر بمائة الف من الليرات في العام بالنسبة لامرأة جميلة لا يردعها ضمير ، وقد صممت على نهب كل ما يمكن نهبه من جميع المتبجحين والبلهاء . واذاً فقد قدم « الشريكان »

الى باريس واستأجرا فيها منزلا في شارع نوف سان جيل ، حيث اخذا يقنعان كل المرابين بأن للكونتس دي فالوا حقوقا في املاك شاسعة ، وهي الآن في سبيل المطالبة بهـا ، وحيث اخذا يعيشان بواسطة الأموال التي يصلان الى اقتراضها ، حياة باذخة ، مـع انهما كانا لا يقترضان ادوات المائدة الفضية ، من المخازن المجاورة الا لمدة لا تزيد على الثلاث ساعات . وعندما كان الدائنون يلحون كثيرا كانت الكونتس دي فالوا دي لاموت تعلن بانها سوف تذهب الى فرساي لتقديم مطالبها الى البلاط .

وبالطبع فانها لم تكن تعرف احدا في البلاط ، ولكانت قد اتعبت فيه ساقيها الجميلتين دون ان تصل حتى الى غرفة انتظار الملكة ، ولكن المغامرة الجميلة كانت قد احكمت ضربتها سلفا . اذ رابطت مع بعض المستعطفين الآخرين في غرفة انتظار السيدة اليزابيت فاغمي عليها فجأة ، وعندما هرع الجميع رن صوت زوجها باسمها الطنان والدموع بعينيه قائلا : « ان الجوع الذي عانته خلال سنين ، والانهاك الناتج عنه هما سبب هذا الاغماء » . وهكذا اعيدت المريضة المزعومة الى بيتها محمولة على محفة وقد نجحت في اثارة العطف ، فأرسل اليها مئتا ليرة ورفعت مخصصاتها من ثمانمئة الى الف وخمسمئة ليرة . ولكن ذلك لم يكن بالنسبة الى سليلة فالوا الا صدقة. ولقد اعادت الكرة عن عمد فأغمي عليها مرة ثانية في غرفة الانتظار ، ومرة ثالثة في قاعة المرايا حيث كان من عادة الملكة ان تمر . ولكن ماري انطوانيت التي كانت هذه السائلة الملحاح تعتمد على كرمها لا تعرف شيئا عن هذا الحادث لسوء الحظ ، كما ان اغماء رابعا كان من شأنه ان يثير الشكوك . وهكذا رجع الزوجان الى باريس بغنم ضئيل . وعلى الرغم من ان هنالك شأوا بعيدا لكي ينالا ما يبتغيانه ، فقد كانا يحترسان من الاعتراف بذلك طبعا . وانما كانا يعقبـان بملء شدقيهما بان الملكـة قريبتهما ، وقـد استقبلتهما بأكثر الصور لطفا وتوددا . وبما أن هنالك كثيرا مـن الناس كانوا يرون بأن العلاقة مع هذه الكونتيس دي فالوا المرموقة في مجتمع الملكة انما هي علاقة غاليـة ، فان بعض الخراف السمينة لن تتأخر عـن المجيء اليها لكي تجزّ لها صوفها . وهكذا عـاد الزوجان وباستطاعتهما الاقتراض من جديد لبعض الوقت . وهكذا خلق هذان النصابان الغارقان في الديون بلاطا حقيقيا كان يديره أمين سر أول مزعوم ، اسمه ريتو دي فيليت كان يشارك دون رادع الكونتيس النبيلة لا في احتيالها فقط ، وانما في سريرها ايضا . وأما امين السر الثاني لوت فقد كان ينتمي الى السلك الديني . ولقد استأجرت هذه العصبة بـين ليل وضحاه سائقين وخدما

ووصيفات ، واخذت تسير على حياة مرحة في شارع نوف سان جيل ، وتنظم هناك حفلات ميسر لا تؤول بأي ربح للحمقى الذين كانوا يسلمون انفسهم للحبائل المنصوبة ، والتي كانت ضربا من التسلية ، بسبب حضور عدد كبير من النساء المشبوهات .

ولكن بعض المزعجين مع الاسف ، من الجنود والدائنين المتهنين كانوا يعكرون صفو الزوجين ، بل انهم كانوا يجرؤون دون لياقة على المطالبة بتسديد ديونهم ، بعد ان انتظروا أسابيع وأشهرا معدودات بحيث أصبح الزوجان يجدان نفسيهما من جديد في نهاية الحبل . ولما لم تعد الألاعيب الصغيرة تجدي نفعا ، فلسوف يحين الوقت للتجرؤ على القيام بضربة كبرى .

وكان القيام بعملية احتيال كبرى يستلزم شيئين : نصابا حاذقا وضحية جيدة . والضحية لحسن الحظ موجودة سلفا في متناول اليد : انها ليست شخصا آخر سوى الكاردينال دي روهان ، عضو الاكاديمية الفرنسية اللامع ، وأسقف فرنسا الاكبر . ان امير الكنيسة هذا ، رجل ينتمي تماما الى عصره ، ليس بأذكى ولا بأغبى من كثيرين من الناس الآخرين . ورغما عن مظهره الخارجي الفاتن فانه مصاب بداء عصره ، فهو شديد السذاجة .

ان الانسانية لا تستطيع على الدوام ، ان تعيش دون عقيدة ، وبما ان معبود العصر فولتير قد ازاح زي الايمان السائد عن مكانه ، فقد أخذت روح الخرافة تحل محله في منتديات القرن الثامن عشر . فيبدأ عصر ذهبي بالنسبة للكيميائيين الباحثين عن صنع الذهب ، والمتاجرين بالاشباح ، والماسونيين ، والدجالين ، ومحضري الارواح ، وبائعي الادوية السحرية . فلم يكن هنالك من نبيل أو من سيدة مجتمع يتقاعسان عن الذهاب الى مقصورة كاليوسترو ، او العشاء على مائدة الكونت دي سان جرمان ، أو حضور تجارب « ميسمر » بعصاه المغناطيسية .

ان كون هؤلاء الناس « الملهمين » ومحبي الحياة ، بهذه الخفة ، وبهذه العقلية الصبيانية ، وكون الملكة وقادة الجيش ، والقسس ، لا ينظرون نظرة جدية الى مراكزهم او مناصبهم أو رتبهم ، جعلهم يشعرون بالحاجة الى ملء فراغ حياتهم المخيف ، والى اللعب بالميتافيزيك (علم ما وراء الطبيعة) ، وبالأسرار المبهمة ، ويدعون انفسهم يسقطون بأغبى درجة ممكنة ، في اكثر اشراك الدجالين ابتذالا ، رغما عن كل ذكائهم وكل عقلهم ، وكان نيافة الكاردينال دي روهان أشد الساذجين سذاجة بين كل هؤلاء

المساكين عقليا ، اذ وقع بين براثن اشد هؤلاء المشعوذين مهارة : كاليوسترو « الالهي » ، الزعيم الروحي لهؤلاء الدجالين ، الذي يسكن في قصر سافرن ويستولي لا على اموال مضيفه فحسب ، وانما على عقله ايضا .

ومن المسلم به ان العرافين والدجالين يعرفون بعضهم بعضا منذ النظرة الاولى ، وهذا ما حدث بين كاليوسترو ومدام دي لاموت ، اذ أخبر كاليوسترو العارف بأمنيات الكاردينال القلبية ، السيدة دي لاموت أن أعز أمنية يشتهيها روهان ضمنيا هي أن يصبح وزير فرنسا الأول ، كما انها تتوصل ايضا الى العلم بالعقبة الوحيدة التي يخشاها الكاردينال : الكراهية التي تبديها ماري انطوانيت تجاهه ، والتي يعلم بها دون ان يستطيع تعليلها لنفسه . ان معرفة الضعف لدى رجل ما ، تعادل بالنسبة لامرأة حاذقة وماكرة ، السيطرة عليه ، وهكذا فان هذه المرأة اللعوب قد نسجت بسرعة الحبل الذي سوف تستعمله لترقيص الدب الأسقفي حتى يدر لها الذهب. فمنذ شهر نيسان (ابريل) ١٧٨٤ بدأت مدام دي لاموت ، بابداء ملاحظة هنا وأخرى هناك متحدثة كيف تعهدت لها الملكة « صديقتها العزيزة » بثقتها وأسرارها بمزيد من الرقة ، وطفقت تخترع بحيلتها التي لا تفتأ تزيد اخصابا ، حكايات كانت توقظ لدى الكاردينال الفكرة بأن هذه المرأة الصغيرة الجميلة قد تستطيع ان تكون الوسيط المثالي ما بينه وبين الملكة . وها هو يعترف لها بأنه متأثر جدا لكون صاحبة الجلالة لم تشرفه ، بنظرة واحدة منذ سنوات ، وهو الذي لا يعرف سعادة أقصى من خدمة جلالتها باخلاص . آه ، لو اراد اي شخص فقط تنوير الملكة عن حقيقة عواطفه ! فوغدته « الصديقة الحميمة للملكة » ، وهي شديدة التأثر والاشفاق ، بالدفاع عنه لدى ماري انطوانيت . ويا لدهشة روهان من قوة تأثير تدخلها هذا ، اذ ان مدام دي لاموت قالت منذ شهر في باريس ان نظرة الملكة اليه قد تغيرت وانها لن تتأخر عن منحه اشارة خفية عن عواطفها الجديدة . ولن يكون هنالك اي شيء رسمي ، ولكنها طبعا قد تبدي له سرا في حفلة الاستقبال التالية في البلاط ، اشارة خفية براسها . وعندما يريد المرء رؤية شيء ما أو الاعتقاد به ، فانه يرى هذا الشيء او يعتقده بسهولة ، وهكذا فكر الكاردينال الساذج في حفلة الاستقبال التالية في البلاط ، بأنه قد لحظ فعلا « فارقا » بسيطا في تحية الملكة اليه . ولمكافاة الوسيطة الحنون فقد صب الدراهم بين يديها صبا .

ولكن لا يزال هنالك الكثير امام النبع لكي يكون تدفقه بنظر مدام دي لامونت كافيا ، فلاستدراج الكاردينال اكثر من ذلك كان يجب اعطاؤه

براهين محسوسة عن الحظوة الملكية . افليس باستطاعتها ان تريه رسائل ؟ الم تحتفظ في بيتها بل في سريرها بـ (سكرتير) مجرد مـن كل ضمير ؟. وبالفعل فان رينو لم يتأخر عن تزييف رسائل مزعومة موجهة مـن الملكة الى صديقتها المزعومة الكونتيس دي فالوا وطالما كان هذا الكاردينال المجنون يؤخذ بالشرك ، فلمَ لا تتابع السير في هذا الطريق المربح ؟ ولمَ لا تزيف مراسلات بينه وبين الملكة لكي تتمكن من افراغ خزانته ؟. وهكذا فقد كتب الكاردينال الأعمى ـ بناء على نصيحة مدام دي لاموت ـ تعليلا تاما لتصرفاته حتى هذا اليوم ، وقد تفرغ اياما تامة لاعادة قراءة هذا التعليل وتصحيحه، وعهد اخيرا الى هذه المرأة المهلكة بنسخة عنـه . وللبرهان على ان مدام دي لاموت ان هي الا ساحرة حقيقية ، فقد جلبت اليـه بعد عدة ايـام فقط ، رسالة صغيرة الحجم ، على ورق من النوع الذي كانت تستعمله ملكة فرنسا ـ مشبع بالعروق المذهبة ، وحامـلا في ركنه شعار فرنسا الملكي ـ وفي هـذه الرسالة كتبت الملكة المتكبرة سليلـة آل هابسبورغ ، الصعبة المنال ، الى الرجل الذي كانت تحتقره حتى اليوم ، قائلة :

« انني شديدة السرور ، اذ لم اعد ارى فيك مذنبا ، وانني لا استطيع الآن منحك المقابلة ، التي ترغب فيها ، وعندما تسنح الظروف بها ، فسوف أوعز باخبارك ، كن متكتما ... »

ولم يتمالك هذا الفر المخدوع نفسه من الفرح ، فكتب متبعا نصيحة مدام دي لاموت ، الى الملكة شاكرا ، ثم تلقى وكتب رسائل أخرى ، وكلما ازداد قلبه امتلاء بالفخر واللهفة ، لفكرة كونه قد اصبح ذا حظوة كبرى لدى ماري انطوانيت ، كانت مدام دي لاموت تزداد انهماكا في افراغ جيوبه، وهكذا فان مشروعها الجريء بلغ ذروة نجاحه .

وانها لخسارة على كل ، الا تكون شخصية مهمة ، بـل ورئيسية بالنسبة لهذه القصة الكوميدية ، كالملكة ، قد قررت فعلا القيام بدورها ، اذ انه لم يكن من المستطاع متابعة هذه اللعبة الخطرة دون تدخلها ، لانه من المستحيل حمل شخص ما ، حتى بسذاجة الكاردينال على التصديق الى الأبد بأن الملكة قد حيته بينما هي في الحقيقة تشيح بنظرها باصرار عن هذا الرجل البغيض اليها . واصبح من المتخوف أكثر فأكثر ان ينتهـي هذا الأبله المسكين الى التشكك بأن وراء الاكمة ما وراءها . وبما انه من البداهة ان الملكة لن توجه اليه الكلام مطلقا افلا يكفي حمل هذا الأبله على الاعتقاد بانه قد تكلم مع الملكة فعلا ؟ ولمَ لا يستفاد من الليل الذي لا يفتأ مساعدا للغش ، لتقديم شخص ما الى روهان في احدى الممرات الظليلة في حديقة

قصر فرساي ـ مكان ملائم جدا ـ شخص يلقن بضع عبارات يحفظها غيبا ويحل محل الملكة ؟ ـ الا يقول المثل : ان كل القطط ليلا متشابهة اللون ؟

ولكن كيف السبيل لايجاد ممثلة ـ او بديلة ، كما يقال اليوم في السينما ـ ؟ هنالك طبعا تتنزه في كل ساعة نسوة صغيرات متساهلات من كل نوع وقياس ، رشيقات وبدينات ، شقراوات او سمراوات ، تتنزهن فرحات ـ في حديقة القصر الملكي جنة الدعارة في باريس . ولقد كلف « الكونت » دي لاموت بهذه المهمة ، فلم يلبث ان اكتشف شبيهة للملكة . وهي امراة شابة باسم نيكول ـ وسوف تسمى فيما بعد البارونة دوليفا ـ كانت تدعي بأنها صانعة قبعات نسائية ، ولكن مهنتها في الحقيقة كانت تقوم على خدمة الرجال اكثر من خدمة الزبائن . ولم يحتج « الكونت » الى ابداء كثير من الحيل لاقناعها بتمثيل هذا الدور السهل « لانها غبية جدا » ، ولان دي لاموت قد هدّدها بأن امراته سوف تشكوها لقضاتها . وجرى احضار الممثلة الخدوم يوم ١١ آب (اغسطس) الى شقة اجرت خصيصا في فرساي ، حيث تولت الكونتس دي فالوا بنفسها الباسها ثوبا من الموسلين المنقط ، صورة طبق الأصل للثوب الذي ترتديه الملكة في اللوحة التي رسمتها لها مدام فيجي لوبرون مركزة على شعرها الذي نضحته بالمساحيق باعتناء ، قبعة ذات حواف عريضة تغطي وجهها ، ثم اخذا الطريق بحيوية وجراة ، باتجاه الحديقة الليلية المعتمة مع الصغيرة الخائفة التي سوف تحتل مكان ملكة فرنسا خلال عشر دقائق ، امام اسقف المملكة الاكبر . وهكذا فان اكبر حادث احتيال عرفه الزمن كان في طريق اخراجه.

وتجتاز الكونتيس دي لاموت وزوجها ومعهما الملكة المزعومة شرفة فرساي متنكرة ، وقد ساعدتهم السماء بنشرها على الارض ظلمة تامة . وها هم ينزلون نحو الخميلة المسماة خميلة فينوس ، حيث لا يكاد ظل اشجار الصنوبر والأرز يسمح بتمييز شيء سوى استدارة الاجسام . انه موضع مهيأ بصورة مدهشة ، للمداعبات الغرامية ، وبصورة اروع ايضا الى لعبة الخداع هذه .

لقد اخذت العاهرة الصغيرة المسكينة ترتجف قلقة ، ولكم كانت تقبل بالهرب عن طيبة خاطر ، ولكنها كانت تمسك بيدها الوردة والبطاقة اللتين يجب اعطاءهما الى سيد نبيل سوف يتقدم الى محادثتها في هذا المكان . وفجأة سمع وقع اقدام على الحصى وظهرت قامة رجل . انه رينو السكرتير ، ممثلا دور خادم ملكي ، ومستصحبا روهان ، فأحست نيكول بنفسها فجأة مدفوعة بحيوية ، بينما اختفى الزوجان المحتالان كأن الظلمة

قد بلعتهما ، فهل هي وحدها الآن ؟ كلا ، لأنها رات رجلا مجهولا يتقدم نحوها ، طويلا وممشوق القوام يرتدي قبعة تغطي عينيه ، انه الكاردينال ، ولكن يا لغرابة تصرف هذا الرجل ! انه ينحني امامها حتى الارض ثم يقبل ذيل ثوبها . والآن فعلى نيكول ان تقدم اليه الوردة والرسالة اللتين امسكت بهما في يدها . ولكنها في غمرة اضطرابها تنسى الرسالة وتدع الوردة تسقط على الارض . الا انها تتمتم بصوت مخنوق بضع الكلمات التي كانت قد تعلمتها بصعوبة : « انك تستطيع ان تأمل بأن الماضي سوف يُنسى » ويبدو ان هذه الكلمات قد اثرت الى درجة متناهية بهذا السيد المجهول لانه انحنى من جديد عدة مرات ، وتأتى ، وهو بادي السعادة بتعابير الاعتراف بالجميل وباحترام عميق ، دون ان تعلم الصغيرة المسكينة السبب . ان كل ما كانت تشعر به هو الخوف ، خوف مميت من ان تتكلم وتفضح نفسها ، ولكن ، الحمد لله ! ها هي تسمع وقع خطى مسرعة فوق الحصى ، وشخصا يهمس بصوت خفيض ومتأثر : « تعالي بسرعة ، بسرعة ، فها هي السيدة والكونت دارتوا ! » وتفعل الكلمة فعلها ، فيبتعد الكاردينال خائفا مسرعا بصحبة الكونتيس دي لاموت ، بينما يعود الزوج النبيل بالصغيرة نيكول ، فتنزلق الملكة المزعومة وقلبها يخفق بحذاء القصر ، حيث الملكة الحقيقية نائمة وراء النوافذ المعتمة ، دون ان تشك بشيء .

لقد نجحت هذه الخدعة الجديرة بأشعار ارستوفان (الشاعر الكوميدي اليوناني الشهير) بصورة مدهشة . وتلقى هذا الكاردينال المجذوب ضربة على أم راسه افقدته رشده تماما ، فقد كان من الضروري حتى الآن ، تخدير حذره دون انقطاع ، ولم تكن هزة الرأس المزعومة سوى نصف برهان ، وكذلك الرسائل ، واما الآن وهو يعتقد انه قد تكلم الى الملكة فعلا ، وعلم من لسانها بالذات ، انها قد سامحته ؟ فان ما تقوله الكونتيس هو اصدق بالنسبة اليه من كلام الانجيل ، فهي تستطيع الآن ان تقبض على عنانه وان تفعل به ما تشاء ، ولم يكن من رجل في فرنسا ذلك المساء يفوق الكاردينال سعادة : فقد بات روهان ينظر الى نفسه سلفا كوزير أول ، بفضل تعطّف الملكة .

واخبرت الكونتيس دي لاموت ، بعد بضعة ايام من ذلك ، الكاردينال، بأن الملكة تقدم اليه برهانا جديدا عن حظوته لديها ، اذ ان جلالتها تريد التبرع - وروهان على علم بقلبها الكبير - لأسرة نبيلة سقطت الى الفاقة بمبلغ خمسين الف ليرة ، ولكن ليس في متناول يدها مثل هذا المبلغ في الوقت الحاضر . فهل يريد الكاردينال ان يقوم بهذه الصدقة نيابة عنها ؟

ولا يستغرب روهان لحظة في نشوة سعادته الطاغية احتياج الملكة الى اي مبلغ رغم وارداتها الضخمة . فكل باريس تعلم ان الملكة مدينة دائما . فاستدعى حالا ، يهوديا الزاسيا اسمه (سرف بيير) واقترض منه خمسين الف ليرة ، وبعد يومين من ذلك اصبحت النقود ، بحوزة الكونتيس دي لاموت ، فالزوجان النصابان اصبحا يجيدان الآن جذب الحبال التي ترقص الدمية ، وهما يجذبانها بصورة اشد بعد ثلاثة اشهر من ذلك ، اذ تحتاج الملكة الى بعض النقود من جديد ، فيسرع روهان الى رهن اثاث بيته ، وادواته الفضية ، وهدفه الوحيد المحافظة على رضا مليكته وحاميته .

ان العصر الذهبي بالنسبة لـ (الكونت) والكونتيس دي لامونت قد بزغ . فالكاردينال بعيد في الألزاس بينما نقوده ترن بمرح في جيوبهما ، ولا داعي للتفكير بالهموم ما داما وجدا احمق يدفع لهما كل ما يريدانه ، ويكفي لقاء ذلك كتابة رسالة له باسم الملكة بين حين وآخر ، فليس عليهما الا ان يعيشا حياة بذخ بالانتظار دون الاهتمام بما قد يجيء به الغد ! اذ انه اذا كان الملوك والأمراء والكاردينالات في ذلك العصر خليي البال ، فالنصابون كانوا كذلك ايضا . وهكذا شرعا بشراء منزل ريفي محاط بحديقة فخمة في بلدة بار-سور-اوب ، ومزرعة واسعة ، واصبحا يأكلان في صحاف من الذهب ، ويشربان بأوان من الكريستال اللامع ، ويقامران ، ويستمعان الى الموسيقى في هذا المسكن الجميل ، واخذت خيرة المجتمع تتنازع شرف التردد على الكونتيس دي فالوا دي لاموت ! ما اجمل العالم الذي يترعرع فيه هؤلاء الحمقى !

وان الذي سحب الورقة الرابحة في ثلاث مرات من اللعب لن يتردد بالمخاطرة بضربة جريئة . واذا بورقة « الأس » المربحة تدسّ صدفة في يد الكونتس دي لاموت ، ففي احدى الحفلات قصّ احدهم أن جوهريي البلاط المسكينين بوهر وباسنج يعانيان متاعب كبيرة فقد وضعا كل رأس مالهما بالاضافة الى مبلغ مقترض لشراء أروع عقد من الجواهر وقعت عليه الانظار ، وهذا العقد كان مقدرا الى مدام دي باري التي لم تكن تتردد بشرائه لو لم تختطف الحصبة لويس الخامس عشر ، فعرضه الجوهريان ، بعد ذلك على البلاط الاسباني ، ثم ثلاث مرات على الملكة ماري انطوانيت التي كادت لحبها الجواهر تشتريه دون الاهتمام بالثمن ، ولكن لويس السادس عشر المقتصد الممل لم يشأ إنفاق مليون وستمائة الف ليرة ، وبذا أصبح الجوهريان في وضع حرج ، وبدات الفوائد التي كان عليهما دفعها تثقل من عبء جواهرهما الجميلة ، وسيكونان مجبرين دون شك على بيع

الجواهر بأقل من قيمتها الحقيقية . ولكن لم لا تحض الكونتس دي فالوا صديقة الملكة الحميمة ، صديقتها الملكة على شراء هذه الجواهر الثمينة بشروط ملائمة ، وتسديد ثمنها على أقساط عديدة طبعا ؟ ان في هذا الكثير من الربح . فوعدت مدام دي لاموت الحريصة على المحافظة على خرافة نفوذها بالتدخل بطيب خاطر . وفي يوم ٢٩ كانون الاول (دسمبر) اتى الجوهريان الى منزل شارع « نوف سان جيل » حاملين بضاعتهما الثمينة لكي تراها الكونتس .

يا للروعة ! . وتكاد انفاس الكونتس دي لاموت تتوقف مبهورة . وتجتاز مشاريع جسورة ؛ تشابه بلمعانها هذه الجواهر تفكيرها الماكر ؛ لم لا تقنع هذا الكاردينال الغبي كالحمار بشراء هذا العقد سراً لأجل الملكة ؟ وما كاد الكردينال يعود من الألزاس حتى بادرته الكونتس دي لاموت بجد قائلة : ان هذه حظوة جديدة تبسم له ، فالملكة ترغب بشراء بعض الجواهر ، الثمينة ، دون علم زوجها طبعاً ، وهي بحاجة الى وسيط كتوم بهذا الشأن ، وهي تقدم له برهاناً جديداً عن ثقتها اذ تفكر فيه لأجل هذه المهمة السرية الكريمة !

وهكذا فقد استطاعت الاعلان الى بوهمر السعيد بعد عدة أيام أنها قد وجدت مشتريا : الكاردينال في استراسبورغ : مليون وستمئة الف ليرة تدفع على عامين بأقساط مدة الواحد منها ستة أشهر ويجب تسليم الجواهر في الأول من شباط ، وتسدد الدفعة الأولى في الواحد من آب . ويمهر الكاردينال الاتفاق بخاتمه ويسلمه الى الكونتس لتعرضه الى نظر (صديقتها). فرجعت اللصة بالجواب في يوم الغد ٣٠ حزيران . ان جلالتها موافقة تماما . ولكن الحمار الذي كان راضخاً حتى الآن تمرد على خطوة واحدة من باب الأصطبل ، اذ أن الأمر يتعلق بعد كل شيء ، بمليون وستمئة الف ليرة ؛ وهذا ليس بالأمر التافه ، حتى بالنسبة لأشد الامراء بذخاً ! فيجب أن يكون هنالك نوع من الاعتراف بالمبلغ على الاقل ، في قضية بهذه الدرجة من الاهمية ، أو وثيقة ممضية من قبل الملكة . وثيقة مكتوبة ! بكل سرور ! افلا يزال السكرتير موجوداً ! وأعادت مدام دي لاموت في اليوم التالي الاتفاق ، وكل فقرة منه تحمل الى جانبها تأشيرة ملكية باللاتينية تعني : موافقة ؛ وفي أسفل الوثيقة امضاء الملكة : ماري انطوانيت ملكة فرنسا .

ان اسقف فرنسا الاكبر ، عضو الاكاديمية الفرنسية ، السفير السابق والوزير الاول عما قريب — في مخيلته — لو كان يملك كثيراً أو قليلاً من الذكاء ، لعلم انه في فرنسا لا توقع الملكة اية وثيقة مطلقاً الا باسمها المجرد ، وأن توقيعا كهذا (ماري انطوانيت ملكة فرنسا) يدل من الوهلة الاولى على

انه صنع من قبل مزور ، وليس بالمزور الغبي فقط ، بل التام الجهل ايضاً . ولكن هل كان باستطاعته التشكك بعد ان تلقته الملكة شخصياً في خميلة فينوس في فرساي ؟ بل انه يقسم بجلالتها مبهوراً على عدم ترك هذه الوثيقة تفارقه ، وعلى ان احداً لن يراها . واتى الجوهري في أول شباط ، لتسليم العقد الثمين الى الكاردينال الذي سيحمله بنفسه الى مدام دي لاموت ، وذلك لكي يضمن تسليمه الى يد مخلصة للملكة . ولم يطل انتظاره في منزل شارع نوف ــ سان جيل ، اذ انه سمع خطوات رجل يصعد الدرج ، فرجت مدام دي لاموت الكاردينال الدخول الى غرفة مجاورة حيث سيرى ويتأكد من خلال باب زجاجي ان الجواهر قد سلمت بطريقة سليمة ، وفي الواقع فان شاباً مرتدياً بزة سوداء كاملة قد بدا ــ وهو بالطبع السكرتير الطيب رينو ــ واعلن عن نفسه انه آت « بأمر الملكة » محدثاً الكاردينال نفسه : يا لها من امرأة جديرة بالاعجاب، هذه الكونتس دي لاموت، يا للتكتم والمهارة والاخلاص، التي تبديها لايصال كل شيء الى «صديقتها» ! فسلم العلبة الثمينة ، وسلمتها هي بدورها الى الرسول الذي اختفى بالسرعة التي جاء بها حاملا الغنيمة . واخيراً استأذن الكاردينال بالذهاب متأثراً : الآن بعد هذه الخدمة الصادقة التي قام بها ، فسوف يصبح قريباً ، إذ لا يمكن ان يتأخر ذلك بعد الآن ــ هو مساعد الملكة الأول ، والخادم الاول للملك : وزير فرنسا الاول !

ولكن بعد ذلك بعدة ايام تقدم احد تجار المجوهرات اليهود الى البوليس شاكياً باسم زملائه الاذى الذي يلحقه بهم شخص اسمه « رينو دي فيلت » بعرضه للبيع ، وبثمن بخس جداً جواهر كريمة ، لدرجة لا يمكن ذلك معها إلا اذا كانت مسروقة . فاستدعى رئيس البوليس رينو ، ولكن هذا صرح بأن المجوهرات قد اعطيت له من قبل احدى قريبات الملك ، الكونتس دي فالوا التي عهدت اليه ببيعها ! . الكونتس دي فالوا ! ويفعل هذا الاسم فعله السحري لدى موظف الامن الذي اطلق حالا سراح رينو الذي كان فريسة الخوف المميت ، الا ان الكونتس ادركت خطر الاستمرار في بيع الاحجار الكريمة والمنزوعة من العقد في باريس ــ اذ لم تكد الغنيمة ، تقع بين يدي الكونتس بعد طول الانتظار والمطاردة حتى فكتها وقطعتها ــ لذلك فقد حشت جيوب زوجها بالمجوهرات وارسلته الى لندن ؛ حيث لن يستطيع جوهريو شارع بوند ستريت وبيكاديلي في لندن عما قريب التشكي من عدم وجود عروض مغرية وكبيرة . ويا للغبطة ! ان كمية وافرة من الدراهم اكثر بألف مرة مما كانت النصابة الجريئة تأمله حتى في احلامها ، قد سقطت عليها فجأة .

الا انها لم تتردد في عرض ثروتها بتثاقلَ وقح وقد اثملها النجاح ،

فاشترت عربات تجرها اربعة جياد انكليزية ، والحقت بخدمتها وصفاء مرتدين بزات رسمية رائعة ، وزنجياً يرتدي شرائط فضية من راسه الى قدميه ، واشترت سجاداً وتماثيل من البرونز ، وأدوات ثمينة وقبعات من الريش ، وسريراً من المخمل ، وعندما ذهب الزوجان المحترمان للاقامة في منزلهما الشهير في بلدة بار ـ سور ـ أوب كانت اربع وعشرون عربة تكاد لا تكفي لنقل الاثاث والاشياء الثمينة التي اشترياها بسرعة في باريس ، حتى أن البلدة الصغيرة بار ـ سور ـ أوب قد شهدت حفلا جديرا بقصة ألف ليلة وليلة، اذ ان أتباعاً مرتدين الحلل الفخمة سبقوا وهم ممتطون صهوات جيادهم الموكب الشبيه بمواكب ملوك الهند المغوليين ، ثم تلت العربة المغلقة الفخمة المطعمة بالصفد اللؤلؤي اللون ، والمبطنة بالحرير الابيض حاملة الاغطية المصنوعة من الساتان ، التي تغطي بأناقة اقدام الزوجين ، والتي تحمل شعار سلالة « فالوا » الملكية منقوشاً باللغة اللاتينية التقليدية : « من الملك ، جدي ، استمد دمائي ، واسمي . » واما الضابط السابق في قوى الامن فقد كان يرتدي ثيابا في غاية الابهة فهو يحلي كل اصابعه بالخواتم ، وحذاؤه معقود بالجواهر ، وتبرق على صدره المنتفخ كالأبطال ثلاث او اربع سلاسل ساعات من الذهب ، وكانت خزانة ثيابه (تحتوي وقد امكن التحقق من ذلك خلال المحاكمة فيما بعد) ما لا يقل عن ثماني عشرة بزة وكلها زاهية جديدة ، من الحرير او البروكار ومزينة بأفخم زخرفات الدانتلا ، وأنواعها وأزرارها جميعاً من الذهب الخالص المشغول .

واما زوجته ، فلم تكن تقل عنه ابهة : إنها مغطاة بالجواهر والاحجار الكريمة بصورة تضاهي معها سطوعاً واشعاعاً آلهة المعابد الهندية . ولم تكن بلدة بار ـ سور ـ أوب قد شهدت قط ، ثراء فاحشاً مشابهاً لهذا الثراء ، ولذا فقد كان لهذا الثراء قدرة سحرية لا تلبث ان تفعل فعلها : فالنبلاء المجاورون اخذوا يزدحمون في هذا المنزل ويشتركون في حفلاته الجديرة بقادة الرومان القدامى ، اذ تقوم فصائل من الخدم والاتباع بتقديم الأطعمة المنتقاة في آنية ثمينة فضية ، وتصحب الموسيقى الطعام ، بينما يتنزه (الكونت) في ابهاء منزله الفخمة ناثراً النقود بملء يديه .

هنا تصل قضية العقد من جديد الى نقطة تبدو معها بسبب سخفها وغرابتها ، وكأنها مستحيلة التصديق . أما كان للفضيحة أن تظهر بعد عدة اسابيع من هذا ! وكيف يستطيع هذان النصابان ـ انه السؤال الذي يتبادر دون وعي الى كل تفكير طبيعي ـ ان يتابعا بهذه الوقاحة عرض بذخهما وثرائهما الفاحش دون الاهتمام بالبوليس ؟ اجل ، ولكن مدام دي لاموت

كانت تفكر بحذق قائلة في نفسها : « اذا جرت الامور بمجرى سيء ، فان لنا دعامة قوية . فلنفترض ان امر الاحتيال قد اكتشف : ان الكاردينال دي روهان سيتدبر الامر حينئذ ، لأن اسقف فرنسا الاكبر سيكون مجبراً على تلافي اثارة الضجة حول قضيةٍ قد تغطيه بالعار الى الابد ، انه سيفضل دفع ثمن العقد من جيبه الخاص دون ان تطرف له عين ، فلم التخوف اذن ! » لقد كان باستطاعتها النوم ملء جفنيها في فراشها المصنوع من الحرير الدمشقي الفاخر ، ما دام هنالك شريك كهذا . وبالفعل لم تكن هذه السيدة الطيبة ، وزوجها المحترم ، وسكرتيرها الحاذق ، يعانون اي قلق بل كانوا يتمتعون ما وسعهم التمتع بالارباح التي عرفوا استخلاصها بحذق من رصيد الغباء الانساني الذي لا ينضب .

الا ان شيئاً ما بدا غريباً للكاردينال الكريم . فقد كان يتوقع مشاهدة الملكة في حفل الاستقبال الاخير مزدانة بالعقد الثمين ، كما انه كان يأمل دونما شك كلمة او اشارة ودية ، او حركة اعتراف بالجميل ، خفية عن الجميع إلا عنه بالطبع . ولكنه لم يحصل على شيء من هذا ! بل ان ماري انطوانيت كانت تمر الى جانبه ببرود وتجاهلٍ كالعادة دون ان تسطع جواهر العقد فوق عنقها الابيض . ولم يتمالك روهان نفسه اخيراً عن سؤال مدام دي لاموت مستغربا : « لماذا لا تتحلى الملكة بجواهري ! » . فتجيبه هذه المراة الماكرة ، التي لن تربكها إجابة : ان الملكة تأنف من التحلي بالعقد قبل ان يتم تسديد ثمنه ، وهي تريد مفاجأة زوجها به حينئذ فقط ! فاكتفى بهذه الاجابة مطمئناً ، كالحمار الذي يفحص راسه في العلف من جديد بعد لحظة من القلق . ولكن شهر ايار عقب شهر نيسان الذي عقبه شهر حزيران ، فكان الأجل المحدد لتسديد القسط الأول ــ أول آب ، اربعمئة ألف ليرة ــ يزداد اقترابا دونما توقف . فكان على المغامرة ان تخترع قصة جديدة للحصول على مهلة أخرى ، فأعلنت للجوهريين ان الملكة قد فكرت وراَت الثمن مرتفعاً وأنها مستعدة لارجاع العقد فيما اذا لم يقبل الجوهريان بتخفيض مائتي ألف ليرة ، وكانت مدام دي لاموت الماكرة تظن انه بذلك سوف يضطر الجوهريان الى التفكير والمناقشة بينهما ، مما سوف يمنحها مهلة جديدة . ولكنها أخطأت هذه المرة، إذ أن الجوهريين اللذين كانا قد حددا ثمناً مرتفعاً واللذين هما الآن في وضع حرج ، قبلا بتخفيض السعر دون مناقشة ، فكتب باسنج الى الملكة رسالة لاعلامها عن قبولهما بذلك وذهب بوهمر لتسليمها اياها يوم ١٢ تموز ، اليوم الذي كان عليه فيه ، علاوة على ذلك ، تسليم جوهرة أخرى الى الملكة .

تقول الرسالة :

« سيدتي ، إننا في غاية السعادة ، إذ نجرؤ على التفكير بأن الترتيبات الاخيرة التي اقترحتها علينا والتي خضعنا لها باحترام وحمية ، هي برهان جديد على خضوعنا واخلاصنا الى اوامر جلالتك ، وإنه لسرور بالغ بالنسبة الينا ، إذ نفكر ان اجمل حلية من الجواهر قد أوجدت سوف تخدم أعظم الملكات وخيرهن . »

ان هذه الرسالة بشكلها الغامض لن تكون مفهومة اول وهلة من قبل شخص لا يتوقع شيئاً من هذا القبيل ، ولكن مع ذلك فلو كانت الملكة قد قرأتها بانتباه لتساءلت مستغربة : اية ترتيبات ؟ وأية حلية من الجواهر ؟ ولكن من النادر ما كانت ماري انطوانيت تقرأ ــ كما لاحظنا ذلك مئات المرات ــ رسالة الى آخرها ، لانها كانت تجد ذلك مملاً ، كما ان التروي ما كان يوماً من خصائصها البارزة . وهكذا فإنها لم تفتح الرسالة الا بعد انصراف بوهمر ، ولجهلها طبعاً بقضية العقد فإنها لم تفهم معنى هذه الجمل المنمقة المعقدة ، فأمرت وصيفتها باستدعاء بوهمر ، للاستفهام منه، ولكنه كان لسوء الحظ قد غادر القصر . فتركت الملكة الأمر ، دونما اهتمام ، الى ما بعد ، رامية بالرسالة الى المدفأة .

ان عدم الاهتمام الذي ابدته ماري انطوانيت ــ ولا سيما إحراق الرسالة ــ يبدو غير قابل للتصديق لأول وهلة ، وذلك ككل ما يتعلق بقضية العقد ، حتى ان بعض المؤرخين امثال لويس بلانك رأوا في اتلاف الرسالة هذا نقطة مشكوكاً بها ، كما لو ان الملكة كانت على علم بشيء من هذه القضية المحيرة ؛ بينما كان تصرفها المتسرع عادياً جداً لدى امرأة كانت طوال حياتها تحرق دون تأخير كل المراسلات التي توجه اليها ، خوفاً من إهمالها الشخصي وخوفاً من تجسس البلاط : انه لم يعثر في مكتبها حتى بعد الاستيلاء على قصر التويلري على اية كتابة وجهت إليها . وهكذا فالاجراء الذي كانت تلجأ اليه حذراً كان في هذا الظرف ضرباً من الغفلة .

وهكذا فقد ساهمت مجموعة مــن المصادفات بتأخير افتضاح امــر الاحتيال ، ولكن لم تعد الألاعيب السحرية كلها الآن تجدي نفعاً ؛ اذ اقترب اليوم الأول من آب وجاء بوهمر يريد نقوده . ولكن مدام دي لاموت لجأت الى حيلة أخيرة : فوضعت فجأة كل اوراقها مكشوفة على المائدة أمام الجوهريين وأعلنت اليهما وجهاً لوجه قائلة : « لقد خدعتما ، فوثيقة الضمان التي بحوزة الكاردينال دي روهان تحمل توقيعاً مزيفاً ، ولكن الامير عظيم الثراء ، وسوف يسدد النقود » لقد كانت بذلك تأمل تبديل اتجاه الضربة ، مؤملة ــ وتعليلها المنطقي سليم من هذه الناحية ــ ان يسرع الجوهريان

ثائري الغضب الى الكاردينال ويقصا عليه كل شيء ، وعندئذ فسيفضل هذا تسديد المبلغ ـ مليون وستمائة الف ليرة ـ على جلببة نفسه بالعار الى الابد امام البلاط والعالم اجمع . ولكن بوهمر وباسنج كانا يفكران كمنطقيين او كعالمي نفس ، لقد كانا هلعين على نقودهما فقط ، ولا يريدان التعامل مع كاردينال مثقل بالديون . وهما يعتبران الملكة ـ وكان الاثنان لا يزالان يعتقدان بأن للملكة ضلعاً في القضية ، وذلك لأنها لم تقل شيئاً فيما يتعلق برسالتهما ـ اقدر من هذا الكاردينال الطائش على الدفع كمدينة . وهي على اسوأ الفروض ـ يا لهما من واهمين ! ـ لا تزال تمتلك العقد مما يشكل ضماناً مأموناً .

لقد وصلنا الآن الى نقطة لم يعد الاحتيال يجدي معها فتيلاً ، اذ كانت دفعة واحدة كافية لينهار برج بابل هذا المبني من الاكاذيب والخدع المتبادلة . وبعد دقيقة واحدة من اجتماع ماري انطوانيت بالجوهري بوهمر الذي هرع الى القصر راجياً ان تستقبله الملكة ، علم الاثنان كلاهما ان القضية برمتها مبنية على اكاذيب شنيعة ! ولسوف تبين المحاكمة ذلك .

ومن بين البراهين والشهادات الموجودة في هذه القضية المبهمة الشديدة الغموض ، إن شيئاً واحداً يعتبر في يومنا هذا اكيداً . لم تكن لدى ماري انطوانيت اية فكرة عن سوء التصرف المشين الذي ارتكب تجاه اسمها وشخصها وشرفها ، لقد كانت بريئة ـ بمعنى الكلمة القضائي ـ بريئة كأقصى ما تمكن البراءة ، لقد كانت فقط ضحية ، ولم تكن مطلعة ولا شريكة ، في حادثة النصب هذه ، اجرا عملية نصب عرفها التاريخ . إنها لم تستقبل الكاردينال قط ، كما انها لم تعرف اللصة مدام دي لاموت مطلقاً ، ولم تلمس العقد ابداً . ولم يستطع اتهامها بالاشتراك مع الكاردينال والمغامرة دي لاموت في المؤامرة ـ سوى الحقد والعداوة الميتة ؛ ويجب ترديد هذا : لقد زجت بالملكة دون علمها في هذه القضية المشينة ، عصابة من المزيفين والنصابين واللصوص البلهاء .

وعلى الرغم من ذلك فلا يمكن تبرئة ماري انطوانيت تماماً من الناحية المعنوية ، إذ انه ما كان بالامكان تدبير تآمر كهذا ، لو لم تكن سمعتها سيئة تشجع المحتالين ، ولو لم يكن اي عمل طائش يبدو من قبلها قابلاً للتصديق بالنسبة الى الضحايا . وما كان بالامكان تخيل كوميديا مليئة بالأكاذيب كهذه لولا اعوام المجون والجنون في التريانون ، ولما كان تفكير سليم يتجرأ على ان ينسب لماري انطوانيت مخابرات سرية مجهولة من زوجها ، او وعداً ليلياً في خميلة مظلمة . ولما كان روهان او الجوهريان ليقعوا في أحابيل اكاذيب وقحة

كهذه ، او ليصدقوا بأن الملكة ترغب دون علم زوْجها وهي خاوية الوفاض بشراء حلية من الجواهر بواسطة وسيط وبالتقسيط لو لم تكن فرساي كلها قد تهامست فيما بعد عن نزهات ليلية في الحديقة ، وعن جواهر أعيدت او أبدلت ، وعن ديون لم تسدد . ولما استطاعت مدام دي لاموت ، أن تبني هذا الصرح من الأكاذيب لو لم تكن خفة الملكة قد هيأت لها عناصره ، ولو لم تكن سمعة ماري انطوانيت السيئة قد مهدت لها الطريق . ان ماري انطوانيت ـ ويجب ان لا يَكل من ترديد هذا ـ كانت بريئة تماماً في كل الملابسات الشديدة الغرابة ، التي لازمت هذه القضية ، ولكن كون البعض قد تجرأ على القيام باحتيال مماثل الضخامة ، مستعملاً اسمها ، وصُدّق ذلك عنه ، فإن هذا من وجهة نظر التاريخ هو خطؤها الأكبر .

١٥ ـ المحاكمة والحكم

عرف نابليون بنظرته النسرية غلطة ماري انطوانيت الجذرية في قضية العقد : « كانت الملكة بريئة ، ولكنها احتكمت الى برلمان باريس لاعلان براءتها امام الجميع ، وكانت النتيجة انهم قد اعتقدوها مذنبة . » وفي الواقع كانت تلك أول مرة فقدت فيها ماري انطوانيت ثقتها بنفسها . وبينما كانت كالمعتاد، تمر الى جانب اوحال التخرصات ، والنمائم المثيرة للاشمئزاز دون ان تحول نظرتها ، فقد حاولت هذه المرة الالتجاء الى محكمة كانت لا تعيرها التفاتاً حتى الآن . محكمة الراي العام . لقد تظاهرت ماري انطوانيت خلال سنوات بعدم سماع او ملاحظة صفار السهام المسمومة الموجهة ضدها . ولكنها الآن وهي تطلب بتصميم ، في هذه النوبة من الغضب المفاجىء الجامح ـ الهستيري تقريبا ـ محاكمة كشفت عن ثورة كبريائها القديمة العنيفة : انها تريد ان يكفّر الكاردينال دي روهان عن الجميع ، لانه تمادى الى أقصى ما وصل اليه الجميع . ولكنها كانت لسوء الحظ وحيدة في اعتقادها بسوء نية هذه الدمية « الاراجوز » المسكينة . وحتى في فيينا اخذ الامبراطور جوزيف الثاني يهزّ راسه بتشكك عندما رسمت له اخته الكاردينال بصورة المجرم ؛ ولقد كتب قائلاً : « لقد عرفت دوماً في شخص الاسقف الأكبر أشد الرجال خفة وأقلهم اقتصاداً ، ولكن اعترف بأنني لم اكن لاعتقده قادراً على عملية نصب وعلى منقصة سوداء كهذه التي يتهمونه بها » .

وكان الاعتقاد بكون الكاردينال مذنباً يقل في فرساي عن ذلك كثيراً . وبدات بعد قليل شائعة غريبة في الانتشار ، فحواها ان الملكة تود التخلص

من شاهد مزعج ،ولقد دفعها النفور الذي أورثته اياها أمها الى انفجار متسرع مقدمة نفسها بنفسها الى الحق العام .

واخيرا أصبح بإمكان كل اعدائها السريين ان يتكاتفوا الآن ضدها ، اذ وضعت ماري انطوانيت يدها بطيش في عش الثعابين ، واصطدمت بكتلة من الكرامات الجريحة ، اذ ان الكاردينال لويس دي روهان ــ وكيف أمكنها نسيان ذلك ــ يحمل اسما من امجد واعرق الاسماء في فرنسا ، وتربطه روابط الدم بعدة سلالات اقطاعية أخرى ، لا سيما سلالات « سوبيز » و « مارسان » و « كوندي » . ولقد شعرت كل هذه السلالات العريقة أنها اهينت بصورة عميقة ، اذ أوقف احد افرادها في قصر الملك وكأنه لص تافه . كما سخط السلك الكنسي ايضا ، على التجرؤ بتوقيف كاردينال بواسطة عسكري جلف ، توقيف صاحب نيافة وهو مرتدٍ كل شاراته وزيه الرسمي قبل ان يقيم القداس . وهكذا قدمت شكوى الى روما ، واصبح النبلاء ورجال الكنيسة يشعرون بالاهانة . ودخلت مجموعة قوية ايضا الحلبة مصممة على الكفاح لأنه قد زج في الباستيل ليس بالكاردينال حاميهم فقط ، وانما برئيسهم الاكبر ، وبسيد جمعيتهم . فاستغلوا الفرصة الطيبة لالقاء عدة أحجار على نوافذ الملكية والكنيسة .

وأما الشعب الذي كان في المعتاد محروما من كل الاحتفالات وفضائح عالم البلاط المتهتكة ، فقد خلبت هذه القضية لبه ، اذ تقدم اليه اخيرا مشهد عظيم : مشهد اتهام كاردينال حقيقي علنا ، كاردينال يظلل رداؤه الارجواني الاسقفي ، مجموعة منتقاة من النصابين والدجالين والوسطاء والمزورين . وتقف هنالك فيما وراء الظل ــ وهذه ذروة المشهد ــ « النمساوية » المتكبرة المتعجرفة . ولم يكن بالمستطاع تقديم موضوع اكثر تسلية من فضيحة « صاحب النيافة المدهش » الى مغامري الريشة والقلم ، ومؤلفي الطقاطيق ورسامي الرسوم الكاريكاتورية والمنادين على الجرائد .

ولم يسبب حتى صعود مونجولفيه « بمنطاده » وهو الصعود الذي جلب للانسان أروع انتصار لها ، لم يسبب في باريس ، بل وفي العالم بأسره ، تأثيرا مماثلا لتأثير هذه المحاكمة التي فرضتها ملكة ، فانقلبت شيئا فشيئا الى محاكمة لها شخصيا . ولما كانت المرافعات المطبوعة مسموحا لها بالظهور قبل الجلسات ، دون أية رقابة ، فقد أصبحت المكتبات شبه محاصرة ، واجبر البوليس على التدخل بالقوة . ولم تصل مؤلفات فولتير الخالدة او مؤلفات جان جاك روسو او بومارشيه ، حتى خلال عشر او عشرين سنة الى رقم توزيع مماثل لما بلغته هذه المرافعات خلال اسبوع واحد . فكان الناس

يتخاطفون سبعة آلاف ، بل عشرة آلاف ، بل عشرين الفاً من النسخ ، والحبر لم يجف عليها بعد ،من يد البائعين . وكان الدبلوماسيون في السفارات الاجنبية يقضون ايامهم في إعداد رزم منها لارسالها بما امكن من السرعة الى امزائهم ، المتشوقين لمعرفة الطقاطيق عن فضائح قصر فرساي ، وكان الجميع يريدون قراءة كل شيء والاطلاع على كل ما ظهر . ولم يبد هنالك اي موضوع آخر للحديث خلال أسابيع واسابيع . وكان الناس يتقبلون أشد الفرضيات جنونا بصورة عمياء . وأخذت قوافل حقيقية تصل من الارياف لحضور جلسات المحاكمة . وكذلك السادة وافراد الطبقة البورجوازية والمحامون ، وكان الصناع في باريس يهجرون حوانيتهم ساعات بأكملها لأجل ذلك . واحست غريزة الشعب التي لا تخطىء بصورة لا شعورية ان ما يجري ليس فقط استعدادا لمحاكمة جريمة فردية ، بل إن الخيوط التي سوف تقود الى فرساي تحيك نفسها بنفسها خارجة من هذا المنزل الصغير القذر . وانه سوف يتعرض الى فضائح ، ورسائل توقيف مختومة والى تبذير البلاط ، والحالة المالية السيئة ، وان ثغرا صغيرا حفرته الصدفة سوف يسمح للامة جمعاء بإلقاء نظراتها على عالم سري كانت مبعدة عنه ، ولم تكن القضية قضية عقد فقط في هذه المحاكمة وانما قضية نظام الحكم القائم بأسره . لان من الممكن ان يثبت هذا الاتهام فيما إذ سير بذكاء ، ضد الطبقة الحاكمة بأسرها وضد الملكة وبالتالي ضد النظام الملكي فيصرخ مثلا : احد مشاغبي البرلمان المالوفين قائلا : « يا للقضية العظيمة السعيدة ، كاردينال نصاب وملكة تحيط بها قضية تزوير ! يا للوحل القذر الذي يتراكم على الصولجانين الاسقفي والملكي ، ويا له من نصر للافكار التحررية ! »

ولم تتوجس الملكة بعد بالكارثة التي أثارتها بهذه الحركة دون روية ، ولكن اقتلاع مسمار واحد احيانا يكفي لانهيار بنيان متصدع ، مهدد بالخراب منذ امد بعيد . وهكذا ، وفي هذا الجو ، فتحت علبة باندورا (علبة الشرور في الميثالوجيا اليونانية)الغامضة بحذر في المحكمة . ولم يكن محتواها نظيفا بالطبع . ولم تكن هنالك سوى نقطة واحدة في مصلحة الكونتيس دي لاموت ، تلك هي استطاعة زوجها النبيل الكونت دي لاموت الفرار الى لندن حاملا معه بقية العقد ، مقدما بذلك البرهان العملي . واصبح في استطاعة كل شخص اتهام الآخرين بسرقة وتصريف الشيء المختفي ، في الوقت الذي اخذ يلمح فيه بخبث الى الآن بأن العقد قد لا يزال موجودا في حوزة الملكة . وادركت الكونتيس دي لاموت بأنه لا يمكن ايجاد حل للقضية الا على حسابها، فاتهمت كاليوسترو بهذه السرقة وهو بريء ، وجرته الى المحاكمة ، وذلك

للحط من شأن الكاردينال ، ولم تكن الكونتيس لتقف عند حد ، فعلّلت ، وبصورة وقحة خالية من الحياء ، ان ثراءها المفاجيء يرجع الى كونها عشيقة صاحب النيافة للكاردينال ، قائلة بأن كرم هذا القس الرقيق يعرفه الجميع !. وأخذت القضية تضيق حول الكاردينال ، ولكنه نجح أخيرا بالقبض على شريكي الكونتيس بالجرم (رينو) ، وصانعة القبعات الصغيرة (البارونة !) دوليفا ، فألقت افادتهما الضوء على كل شيء .

وكان هنالك اسم تحاشى الطرفان : الاتهام والدفاع ذكره ، وهو اسم الملكة . واحترس كل من المتهمين من إلقاء اية تبعة على ماري انطوانيت ، وحتى مدام دي لاموت نفسها ، قد استنكرت فكرة احتمال كون الملكة تلقت العقد واعتبرتها تخرصا مجرما – ولكنها سوف تتخذ موقفا مختلفا جدا فيما بعد – ولكن تشكك الجماهير أثاره كون جميع المتهمين كانوا يتكلمون عن الملكة ماري انطوانيت مظهرين أعمق آيات الاحترام والتبجيل ؛ وكأن هناك اتفاقا يضمهم جميعا . وسرعان ما تناثرت الشائعات بأنه قد صدر أمر ب «مراعاة» الملكة وتجنب ذكرها . وتهامس الناس فيما اذا كان الكاردينال قد تطوع بشهامة بأخذ الاتهام على عاتقه ، وتساءلوا فيما اذا كانت الرسائل التي أوعز بإحراقها بهذه السرعة ، وهذا التكتم مزورة فعلا ؟ أفليس وراء الاكمة ما وراءها اذا ؟ ولم يعد القاء الضوء على القضية بذي فائدة ؛ ذلك ان التكتم على اسم ماري انطوانيت في المحكمة قد جعلها وكأنها هي التي حوكمت بصورة خفية .

وصدر الحكم اخيرا يوم ٣١ أيار وقد ازدحمت الجماهير متدافعة أمام قصر العدل منذ الساعة الخامسة صباحا ، وضاقت ضفة نهر السين اليسرى بجموعهم ، كما غصت الضفة اليمنى ، والجسر الجديد بهم . وكان رجال الامن على خيولهم يحافظون على النظام بمشقة قصوى ، وشعر القضاة الاربعة والستون وهم يدخلون المحكمة تطالعهم نظرات الجمهور الثائرة ، وهتافاته المهيجة ، بأهمية حكمهم بالنسبة لفرنسا بأجمعها . وكان الانذار الحاسم ينتظرهم أمام مدخل القاعة الكبرى حيث كان تسعة عشر ممثلا لبيوت روهان وسوبيز ولورين واقفين في صفين ، بانتظارهم مرتدين ثياب الحداد . وقد انحنى هؤلاء تحية لدى مرور القضاة دون ان يتفوهوا بكلمة ، مكتفين بما تعبّر عنه ثيابهم وتصرفاتهم . وقد كان لهذا الطلب الصامت بإصدار حكم يعيد الى آل روهان شرفهم المهدد وزن كبير لدى القضاة الذين جلهم من كبار نبلاء فرنسا . وعرف هؤلاء قبل ان يبدأوا مداولاتهم ان الشعب والنبلاء والبلاد بأسرها تنتظر تبرئة الكاردينال .

وطالت المداولات ست عشرة ساعة ، بينما كان آل روهان وكثير من الفضوليين ينتظرون منذ الساعة الخامسة صباحا حتى العاشرة مساء ؛ وكان الحكم على الكونتس دي فالوا وشركائها معلوما سلفا ، وبرّئت صانعة القبعات دون صعوبة ، لسذاجتها ولجمالها ايضا ، استمرت المداولات تدور إذن حول الكاردينال فقط . واجمع الجميع على تبرئة ساحته ، وقد ظهر البرهان على انه كان فريسة للخداع وليس محتالا .

ولكن الاختلاف كان على شكل التبرئة اذ كان ذلك قضية سياسية مهمة ، فطلب حزب البلاط ، ان تتضمن التبرئة تقريعا على (تهوره البالغ) اذ كان ذلك خطأه الاعظم لاعتقاده بإمكانية اعطاء الملكة اياه موعدا ليليا في خميلة ، وفي السر ، وطالب الاتهام عقابا له عن هذا الانتقاص من الاحترام لشخص الملكة المقدس بأن يقدم الكاردينال اعتذاراته الذليلة امام المجلس الاكبر بأجمعه ، وان يتخلى عن مناصبه ، بينما اراد الحزب الآخر الذي كان ضد الملكة تبرئته بصورة كاملة وبكل بساطة . ولم يكن حكم كهذا ليخلو من الخطر ، لأنه اذا ما قبِل يكون للكاردينال الحق في الاعتقاد بامكانية قيام الملكة بهذا الاستهتار بناء على مسلكها ، مما يشكل انتقادا علنيا لطيش الملكة . كانت المسألة اذن دقيقة : فلو اعترف — على الاقل — بأن الكاردينال قد انتقص من الاحترام الواجب للعاهلة ، لكان ذلك تعويضا لماري انطوانيت عن استغلال اسمها بهذا الشكل . واما تبرئة الكاردينال الكاملة فتنطوي على حكم معنوي على الملكة .

كان قضاة البرلمان يعلمون بكل هذا ، وكان الطرفان المتنازعان والشعب يقشعرون بنفاد صبر ، اذ كان على هذا الحكم ان يبت فيما هو اهمّ من قضية منفردة دون اهمية ، اذ لم تكن هذه مسألة شخصية ، بل مسألة سياسية كان عليها ان توضح ما اذا كان البرلمان الفرنسي يعتبر الملكة « مقدسة » لايمكن المساس بها ، أم خاضعة للقوانين كأي مواطن فرنسي آخر .

لقد تداول القضاة اذن ست عشرة ساعة فيما بينهم ، فكانت الآراء والمصالح تصطدم خلالها . وجند الطرفان كل شيء لأهدافهما حتى الذهب ، وتعرض اعضاء البرلمان جميعا ، منذ اسابيع لمختلف انواع الاقناع والنفوذ والتهديد بل والرشوة ايضا . وأخذ الناس يغنون في الشوارع :

اذا بدا لك الحكم على الكاردينال غير شرعي
فاعرف يا صديقي ان الاموال
تسيِّر كل شيء في فرنسا
هل تفهمني جيدا ؟

وتلقى الملك والملكة لاهمالهما الطويل للبرلمان عقابهما اخيرا ، اذ كان كثير من القضاة يفكرون بأن الوقت قد حان لاعطاء الحكم المطلق درسا قاسيا . وهكذا برىء الكاردينال « دون اى لوم » بستة وعشرين صوتا ضد اثنين وعشرين ، كما برىء صديقه كاليوسترو ، والحمقاء الصغيرة اوليفا . كما عومل الشركاء بشفقة فاكتفي بنفيهم . ودفعت مدام دي لاموت الثمن كله . فحكم عليها بأغلبية الاصوات بالجلد من قبل الجلاد ، ووسمها بالحديد المحمر والسجن المؤبد في سجن « سالبتريير » .

ولكن شخصا آخر وجد نفسه وكأنه حكم عليه حكما ابديا بتبرئة الكاردينال ، وهذا الشخص هو ماري انطوانيت نفسها . فقد اسلمت منذئذ ودون دفاع الى التخرصات العلنية والحقد الذي لا رادع له .

وعند اصدار الحكم ، قفز احدهم خارج قاعة المحكمة واسرع بنقله الى الجمهور . فأخذ مئات الاشخاص بدورهم يعلنون عن البراءة بحماسة مجنونة ، وبلغ الفرح مدىً وصلت معه الهتافات الى ضفة السين الاخرى ، وحلّ هتاف « عاش البرلمان » محل « عاش الملك » مترددا في كل ارجاء المدينة . وشق القضاة طريقهم بصعوبة امام الحماسة الشعبية بينما كان الناس يرتمون على اعناقهم ، وسيدات الاسواق يقبلنهم ، والازهار تنثر امامهم . وتحرك موكب المبرئين المنتصر بمهابة متوجها ، وتعداده عشرة آلاف شخص ، وعلى راسه الكاردينال دي روهان ، وكأنه غاز منتصر ، مرتديا زيه الارجواني نحو الباستيل حيث سيقضي ليلة اخيرة . وهنالك انتظرته مواكب كانت تتجدد دون انقطاع حتى الفجر ، ولم يقلْ كاليوسترو عنه تدليلا ؛ ولم يمنع المدينة من اشعال الزينات احتفالا به سوى امر من البوليس . وهكذا قام الشعب بالاحتفال برجلين — وهذه علامة خطر — لم يفعلا في سبيل فرنسا سوى الاضرار بصورة هائلة بمهابة الملكة والملكية . اما ماري انطوانيت فقد اجهدت نفسها محاولة اخفاء يأسها ، اذ كانت هذه الصفعة العلنية عنيفة جدا، ولقد وجدتها وصيفتها مغرورقة العينين بالدموع، كما اخبر مرسي فيينا بأن الملكة تتألم بصورة اكبر مما تستوجبه هذه القضية. وقد احست ماري انطوانيت بغريزتها التي تفوق تفكيرها بما ينطوي عليه هذا الاخفاق من اشياء لا يمكن اصلاحها ، وانها قد اصطدمت وللمرة الاولى منذ حملت التاج بقوة تفوق قوتها .

ولكن الملك كان ما يزال يمتلك حق اصدار الكلمة الاخيرة ، ويستطيع باجراءٍ جريء انقاذ شرف زوجته المهان ، وافزاع كل هذه المقاومة الخرساء. وكان باستطاعة ملك قوي أو ملكة حازمة طرد هذا البرلمان العاصي . ولكن

لويس الرابع عشر قد تصرف بهذه الطريقة ، ولربما لويس الخامس عشر ايضا ، ولكن شجاعة لويس السادس عشر لم تكن تصل الى هذا الحد ، فاكتفى بابعاد الكاردينال ونفي كاليوسترو لكـي يعطي زوجته مـا يشبه التعويض . وكان هذا نصف اجراء اغضب البرلمان دون ان يقيده بشيء ، وجرح العدالة دون ان يرد الاعتبار الى شرف زوجته . لقد اختار ، وهو المتردد دائما ، الحل الوسط الذي كان دائما أسوأ الحلول سياسيا . واضاع فرصة اتخاذ قرار كان بمستطاعه ان يحدث تأثيرا ضخما . وهكذا دشن البرلمان عهدا جديدا باصداره ذلك الحكم ضد الملك .

واستعمل البلاط ايضا هذه الطريقة المشؤومة في اتخاذ اجراء نصفي ضد مدام دي لاموت ، فكان هنالك ايضا طريقتان من الممكن اتباع إحداهما ، فإما اعفاء المجرمة من العقاب الرهيب بالتفاتةٍ رحيمة ـ ولكان ذلك قد أحدث اثرا طيبا ـ او بالعكس احاطة العقاب بأقصى العلنية والدعاية الممكنة . ولكنه لجأ كالعادة الى اجراء نصفي ، فبعد ان اقيمت مصطبة الجلد المخيفة ، واجرّت النوافذ المحيطة بساحة التنفيذ بأسعار فاحشة ـ خاف البلاط من جرائه ، وجعل التنفيذ في الساعة الخامسة صباحا كيلا يتجمع المشاهدون ، وجلد اربعة عشر جلادا بزيهم الرهيب الكونتس التي كانت تقاوم بضراوة النمرة الجريحة وتخمشهم وتعضهم وتطلق الصرخات الهستيرية ، لاعنةً الملك والملكة والبرلمان . ثم اذا بها تنضو عنها ثوبها بجنون فتبدو عارية تماما . ولما وسمها الجلادون بالحديد الاحمر بأول حرف من كلمة سارقة ، ندت عنها حشرجة وحشٍ فقد صوابه ، وعضّت الجلاد عبر ردائه ، واخيرا سقطت مغشيا عليها . وحملها الجلادون الى سجن « سالبترير » حيث حكم عليها بالاشغال الشاقة المؤبدة .

ولكن ما كادت تذاع تفاصيل العقاب الرهيب حتى اتجه عطف الجميع الى هذه المغامرة ، وقبل خمسين عاما من ذلك ، كانت طبقة النبلاء بأجمعها ، رجالا ونساء ، قد حضرت جلوسا لمدة أربع ساعات التعذيب الرهيب الوحشي بالحديد المحمي والزيت المغلي الذي نفذ بشخص ضعيف القوى العقلية اسمه داميان ، كان قد تجرأ على مهاجمة لويس الخامس عشر ، وأصابه بخدش بسيط . وقد ذكر ذلك كازانوفا في مذكراته ، وأما الآن فيبدي هذا المجتمع عطفه على « البريئة » مدام دي لاموت ، ويجد بذلك طريقة مأمونة الخطر لانتقاد الملكة والاحتجاج عليها ، بابداء عطفه العلني على « الضحية المسكينة التاعسة » فنظم الدوق دورليان تبرعا عاما لها وتلقت هذه يوميا زيارات سيدات وسادة النبلاء ، وكم كانت دهشة الراهبة الرئيسة في السجن عندما

رأت بين الزائرات يوما ما أعز صديقة للملكة الاميرة دي لامبال بالذات التي أثارت زيارتها شتى الاقاويل والاشاعات ، والشكوك . وبعد عدة اسابيع من ذلك هربت مدام دي لاموت من السجن ليلا بمساعدة بعض الاصدقاء السريين ، وفرت الى انكلترا ، فأجمع الجميع في باريس حينئذ على الاعتقاد بأن الملكة هي التي انقذت بنفسها (صديقتها) شكرا لها على كتمانها (بشهامة) أمام المحكمة اشتراك الملكة في جريمة الاحتيال .

وكان تهريب المجرمة في الواقع طعنة مسمومة من أشد ما وجهه الحزب المعادي للملكة من طعنات . إذ أنها اطلقت السنة الاشاعات تتهم الملكة ما وسعها الاتهام ، وتنسب اليها التآمر مع السارقة سرا . ولكنَّ ما كان اشد خطرا من ذلك بما لا يقاس هو الفرصة الذهبية لابتزاز الاموال اغتناما للفرص التي استغلتها مدام دي لاموت بلؤم شيطاني ، ومهارة خبيثة ، مستفيدة من حريتها في لندن . فطبعت « مذكراتها » بعدة أجزاء ، ووجهت فيها اشنع التهم الاخلاقية والخلقية الى ماري انطوانيت متهمة إياها بالنصب وبسرقة العقد احتيالا ، ومدعية بطولةً شهمة ، اذ ضحت بنفسها لانقاذ شرف الملكة « صديقتها » ، واعلنت بصفاقة مذهلة أن « صداقتها » مع الملكة كانت « صداقة غرامية » مرجعها العلاقات السحاقية الشاذة بينهما . وأثارت بالطبع هذه المذكرات والاتهامات المثيرة الفاضحة ، فضول الجماهير الى الحد الاقصى ، ولاقت هوىً شديدا في نفوس جمهور متعطش للفجور ولقراءة أخبار فضائح البلاط والاميرات . وشجع ذلك مدام دي لاموت ـ لا سيما وقد در عليها الاموال الوفيرة ـ فاندفعت تذيع وتبتدع تفاصيل جنسية عن الملكة ، وحياتها الجنسية ، تجاوبت في انحاء اوروبا . واحس البلاط بخطر هذه التخرصات المثيرة فارسل اليها محظية الملكة الكونتيس دي بولينياك لتشتري سكوتها بمبالغ ضخم « مائتا الف ليرة » قبضتها هذه لتعاود هجومها بوقاحة أعنف مما سبق ، فنشرت الرسائل الغرامية المعطرة التي « ارسلتها » الملكة الى الكردينال دي روهان على زعمها ، كما ادعت بأنه كان عشيق ماري انطوانيت عندما كانت لا تزال اميرة نمساوية يانعة ، وكان سفيرا لفرنسا في فيينا ، وصدق الجمهور متشوقا هذه الاخبار مع ان قليلا من التفكير المنصف الرزين يكفي للدلالة على ان ماري انطوانيت كانت حينئذ ، ومنذ امد طويل ، في فرساي ولية للعهد ، لما كان روهان سفيرا . وأدى ذلك الى تدفق الطقطوقات الجريئة المفضوحة وتوالت الشائعات المثيرة ، متزايدة الاندفاع . وظهرت بعد قليل لائة لكل الاشخاص الذين كان لهم علاقات فاسقة مع الملكة، تحتوي على ما لا يقل عن اربعة وثلاثين اسما من الجنسين ، وتشتمل على

اسماء دوقات وممثلين وخدم وأخي الملك وخادمه الخاص والكونتيس دي بولينياك والاميرة دي لامبال . وحتى على اسماء عاهرات مبتذلات من أرصفة الشوارع ممن كن قد نفّذ فيهن عقاب الجلد . ولكن الامر لم يقف عند هذا الحد ، بل إن مخيلات الناس جميعا في القصور والحفلات الارستقراطية والبيوت العادية والشوارع وبيوت الشعب والمواخير والحانات، أي بالاختصار مخيلات سكان المدينة وحتى البلاد بأسرها ، هذه المخيلات الفاسدة التي استثارتها ودغدغتها وافسدتها الى أبعد الحدود التفصيلات الجنسية المثيرة عن الملكة ، قد اضافت اسماء أخرى كثيرة ، وظهرت كتب ومنشورات سرية محلاة بصور جنسية قذرة تمثل الملكة في شتى الاوضاع القذرة التي يمكن ان تتخيلها مخيلة مريضة محمومة ، ومع كل انواع العشاق والعشيقات ، وانقضّت هذه الشائعات الخبيثة المجنونة ، والطقطوقات الجنسية الجريئة ، والاحاديث المسمومة انقضاضا متزايد العنف من كل حدب وصوب ، من أرقى الصالونات حتى أقذر المواخير ، على شخص الملكة . وكان الناس طرًا وبكل طبقاتهم يصدقونها ويستزيدون منها بصورة محمومة ، بحيث لم تنقض على قضية العقد سنتان او ثلاث سنوات حتى اصبحت ماري انطوانيت بصورة نهائية معتبرة من اسفل النساء وامكرهن وأشدهن انحطاطا جنسيا ، واقذاعا خلقيا ، وشذوذا اخلاقيا ، واكثر الجميع طغيانا في فرنسا .

واما تلك الماكرة الخبيثة مدام دي لاموت التي وسمها الحديد الاحمر بوسم اللصوص ، فقد اعتبرت من قبل الجميع ضحية بريئة ، ولذا فلم تكد تندلع الثورة حتى حاولت النوادي الثورية العودة بها الى باريس تحت حمايتها ، وإعادة محاكمة قضية العقد أمام محكمة ثورية هذه المرة بحيث تصبح مدام دي لاموت المدعية وتقف ماري انطوانيت في قفص الاتهام .

ولم يمنع سوى الموت هذه الماكرة الشهيرة من العودة الى باريس في موكب المنتصرة ، وحمل وسام الجمهورية على صدرها . فقد أصيبت بنوبة جنون مفاجئة ، والقت بنفسها عام ١٧٩١ من النافذة .

ولولا هذا التدخل الحاسم من قبل القدر لشهد العالم مهزلة تزيد سخفا عن مهزلة محاكمة قضية العقد ، ولرأى المتخرصة تتلقى هتاف الجماهير وهي تشهد تنفيذ الاعدام بضحيتها .

١٦ ـ يقظة الشعب ويقظة الملكة

تعود الاهمية التاريخية التي اتصفت بها قضية العقد ، الى الضوء الساطع الذي القته على كواليس بلاط فرساي ، وعلى شخص الملكة . ولكن

في فترات التاريخ المضطربة قد يصبح النور الوهاج شديد الخطر . ويحتاج الشعب ، ذلك الكيان الغامض العنيف ، الى هدف لكي يصبّ عليه حقده ونقمته عندما يشعر بنفسه ضحية الظلم ، فيفتش عن المذنب ، لكي يحمله مسؤولية الاوضاع التي يقاسيها . ولا يستطيع مجموع الشعب أن يفهم الافكار المعنوية المجردة ، بل انه يعتقد ان هنالك اشخاصا تقع المسؤولية على عاتقهم . وكان شعب فرنسا قد خضع طويلا للظلم آملاً ان تتغير الاحوال لدى إعتلاء كل ملك جديد العرش . فثابر على دفع الضرائب الفادحة والجزية للسادة والكنيسة ، وكانت الضرائب تزداد في امتصاص دمه كلما ازداد خضوعه ، وفيما كانت مستودعات المؤونة خالية في بيوت فرنسا الغنية ، وفلاحوها يعيشون في فقر مدقع على أرضها الخصبة ، والخبز مفقود تحت سماء أجمل بلدان اوروبا ، فتش الشعب عن شخص ليحمله مسؤولية ذلك ، لأنه اذا ما نقص الخبز لدى البعض ، فمعنى ذلك انه يفيض عن الحاجة لدى البعض الآخر ، واذا كانت الواجبات والفروض تسحق فئة فمعناه أن فئة اخرى تتمتع بكل الحقوق . وانتشرت هذه النقمة شيئا فشيئا في كل البلاد ، ممهدة ، كما هو الحال دائما ، للبحث عن هدف وفكرة معينين . وكان المفكرون أمثال فولتير وجان جاك روسو قد فتحوا اعين الطبقة البورجوازية التي ابتدأت تزن الامور بنفسها وتفكر وتنتقد وتقرأ وتكتب وتنظم نفسها ، وكما يسبق البرق احيانا العاصفة ، فان بعض المزارع هنا وهناك قد نهبت وأصبح بعض السادة الاقطاعيين مهددين ، وانتشرت النقمة منذ أمدٍ بعيد فوق البلاد كسحابة سوداء .

وتتابعَ في هذا الجو الداكن برقان رهيبان نذيران بالعاصفة الكبرى ، إذ أوضحا للشعب الموقف على حقيقته ، وكانا ، قضية العقد من ناحية ، وإذاعة بيان وزير المالية « كالون » عن العجز المالي من ناحية اخرى ، فقد كشف كالون بسبب العقبات التي عرقلت اصلاحاته ، وربما بسبب حقد سري على البلاط ، عن ارقام دقيقة علم بها الشعب بعد ان كانت ولمدة طويلة سرية . فقد استدانت الخزينة مبلغ مليار ومئتين وخمسين مليونا من الليرات خلال اثني عشر عاما . فشحبت وجوه الشعب عندما وقف على هذا الرقم ، وتساءل مهيجا عن سبب القروض ، وعما صرفت في سبيله . وجاءته محاكمة قضية العقد بالجواب الذي كان ينتظره ، فقد علم منها هؤلاء المساكين الذين يشتغلون اربع عشرة ساعة في اليوم في سبيل بعض الدريهمات أن هنالك أوساطا تقدم فيها أحيانا جواهر ثمنها مليون ونصف المليون كهدية غرامية ، وتشتري قصورا بعشرة او عشرين مليونا من الليرات ، بينما لا يجد الشعب

ما يسد به رمقه . ولما كان الجميع يعلمون انه لا يد للملك البسيط ذي الشخصية البورجوازية الصغيرة في هذا التبذير الهائل ، فان امواج السخط الدافقة اتجهت نحو الملكة الحسناء الخليعة المسرفة ، ووجد الشعب في شخصها المسؤول عن ديون الخزينة ، وفهموا سبب تدني قيمة اوراق العملة يوما بعد يوم ، وغلاء الخبز والضرائب المتصاعدة . كان السبب برأي الشعب هو هذه « العاهرة » التي تزين جدران غرفة كاملة في قصرها التريانون بالجواهر ، وترسل سرا الى اخيها جوزيف أمبراطور النمسا ذهبا بما يعادل مائة مليون ليرة من أجل حروبه ، والتي تغمر عشاقها وعشيقاتها بالاموال والمناصب والمنح . وهكذا وجد الشقاء العام فجأة هدفه المنشود ، والمسؤول عن إفلاس الخزينة في شخص ماري انطوانيت ، واطلق عليها الجميع اسما جديدا عرفت به بين عشية وضحاها ، في كل انحاء فرنسا وهو « سيدة العجز المالي » .

وهطلت السحابة الداكنة المتجمعة امطارا من النشرات والطقاطيق والاقتراحات ، وتلتها العرائض من كل مكان ، ولم تشهد فرنسا في تاريخها ما يماثل هذه الحقبة كلاما وكتابة . فاستيقظ الشعب ، وقد انبثّ المتطوعون والجنود العائدون من حرب الاستقلال الاميركية في كل انحاء الوطن حتى اصغر القرى يحدثون الشعب عن بلاد ديمقراطية ليس فيها بلاط ولا ملك ولا نبلاء ، وكل من فيها مواطن ، والجميع متساوون تسيطر عليهم الحرية . أو لم يحدثهم جان جاك روسو وفولتير وديدرو ، في كتاباتهم بأن النظام الملكي ليس خير نظام للحكم ، وليس بالنظام الوحيد الذي اراده الله ؟ وهكذا رفع الشعب راسه الذي كان قد أحناه الاحترام المتوارث ، واصمتته الهيبة القديمة ، وبدأ يتطلع بفضول جديد . وتولدت لدى النبلاء والبورجوازيين والشعب ثقة بأنفسهم جديدة عارمة ، وانقلبت الهمسات الخرساء التي كانوا يهمسونها في المحافل الماسونية والاجتماعات العلنية متضخمة شيئا فشيئا الى هدير جبار كقصف الرعد ، واصبح الجو مشحونا بالكهرباء تتناثر فيه النيران .

ولم يعد الاستياء العام يحتاج منذئذ الى اقناع او الى حذر ، بل اصبح مفضوحا مكشوفا ، وتبذت حتى مظاهر الاحترام الخارجية المصطنعة للملكة ، فصفّر لها الجميع بسخرية لما بدت لأول مرة في مقصورتها الخاصة في المسرح بعد قضية العقد . وتابعتها مظاهر الحقد المكشوفة حتى الى قاعة المرايا في بلاط فرساي . ولما عرضت لوحتها في احد المعارض الفنية اضطرّ لنزعها بعد قليل بسبب التعليقات الوقحة عليها ، ثم تلقت أشد الصفعات إيلاما

عندما رجاها قائد البوليس بصورة مهذبة تجنب الذهاب الى باريس في الوقت الحاضر كيلا يحدث ما لا تحمد عقباه .

ان غضب الشعب بأكمله الذي كان يكتمه منذ امد طويل ، ثار فجأة ضد شخص واحد هو ماري انطوانيت . وقد هزها هذا الحقد العلني العارم وأيقظها من لامبالاتها بعنف ، فأخذت تسائل آخر من بقوا مخلصين لها : ما الذي يريدونه مني ! وما الذي فعلته ضدهم !

فكان قصف الرعد هذا ضروريا لايقاظ ماري انطوانيت من استهتارها المتعجرف ولامبالاتها ؛ والآن وقد استيقظت بدأت تفهم إهمالها واستماعها الى المشورات السيئة ، فأسرعت ، بعصبيتها الطبيعية ، لاتخاذ الاجراءات الواضحة الصريحة لتصلح من اخطائها ما هو اشد إثارة ، فخفضت بجرة قلم مصروفاتها الشخصية الباذخة ، وطردت حائكتها الشهيرة مدموازيل « برتان » . وأنقصت مخصصات ثيابها واصطبلاتها بما يقارب المليون ليرة سنويا . واختفت العاب الميسر وممولوها من صالونات القصر . وأوقفت العمل في بناء الاجنحة الجديدة في قصر « سان كلو » وأسرعت ببيع القصور ، والغت بضعة مناصب غير ضرورية مبتدئة بمحظييها في تريانون . ولأول مرة في حياتها عاشت ماري انطوانيت مفتحة الاذنين غير خاضعة للزي السائد في مجتمعها وعالمها الخاص ، بل للزي الجديد : الرأي العام .

وقد اطلعتها هذه المحاولات الاصلاحية الاولى دون تأخير على حقيقة معظم من احاطت نفسها بهم ، وغمرتهم بالنعم على حساب سمعتها سنين وسنين ، اذ حسبتهم أصدقاءها . فقد أبدى هؤلاء الوصوليون تذمرهم ، ولكنها وقد نزعت الغشاوة عن عينيها بقيت صامدة وفهمت كثيرا من الاشياء التي كانت قد أهملتها ، فابتعدت بصورة ملحوظة عن صحبة « مدام دي بولينياك » المشؤومة واقتربت من ناصحيها القدامى مرسي وفرموند وكأنها أدركت ، ولكن بعد فوات الاوان ، صحة تحذيرات أمها .

وكانت عبارة « بعد فوات الاوان » اجابة القدر على كل جهودها . فلم يُعرِ الشعب هذا التقشف الجزئي كبير اهتمام ، ومرت غير ملحوظة كقطرات من الماء في برميل ضخم طافح . ولحظ البلاط فجأة بجزع ان الاجراءات العادية الفردية لا تكفي لاصلاح الحال ، ويجب العثور عن هرقل جديد لقهر المصاعب المالية . فبدأ بالتفتيش عن المنقذ ، واخذ يجرب الوزير تلو الوزير دون جدوى ، إذ لجأ جميع هؤلاء الى حلول عابرة عديمة الفاعلية ، كعقد القروض الجديدة ، وزيادة الضرائب واوراق النقد دون التعرض الى أسباب المرض الجذرية التي كانت تتلخص في التلاعب في اصدار النقد وسوء توزيع

الثروة القومية التي كانت مستقطبة في ايدي بعض الاسر الاقطاعية .

الا ان القلق كان يزداد في البلاط بازدياد الاحساس باقتراب الكارثة ، وفهم إن تغيير الوزراء لم يعد يجدي نفعا ، ولم يعد يتطلب من المنقذ ، وقد اصبح الافلاس على قاب قوسين من الخزينة ، ان يكون نبيل المحتد بل ان يكونشعبيا وان يوحي بالثقة الى الشعب ، هذا الكائن الغامض الخطر . فيا له من تغير في نظرة البلاط الىالامور ! .

وكان هذا المنقذ موجودا ومعروفا من قبل البلاط ، وهو « نيكر » الذي سبق له ان لجأ اليه عندما عصفت به الحيرة مرة ، على الرغم من كونه سويسريا منتميا الى اصل شعبي فضلاً ، عن كونه بروتستانتي المذهب . وكان باقي الوزراء حينئذ قد استاءوا من هذا الدخيل الذي فضح عجزهم في بيانه الذي اصدره ، فنصبوا العراقيل امامه ، حتى اثاروا غضبه فبعث باستقالته الى الملك على ورق كتابة عادي ، ولم يغفر له لويس السادس عشر عندئذ هذا الانتقاص من احترامه فعزم ، بل وأقسم على ألا يستوزره مرة ثانية .

ولكن نيكر كان رجل الساعة الوحيد ، وادركت الملكة ضرورة اللجوء اليه لا سيما بالنسبة اليها ، لكي يهدىء من ثائرة هذا الوحش الهائج المرتفع الزئير : الراي العام . واضطرت على الرغم من نفورها الداخلي ، وتردد الملك ، الى استدعائه الى مكتبها الخاص . ورجته مستعملة كل قوتها في الاقناع بقبول المنصب ، وهتف الشعب في شوارع ورواقات فرساي وباريس ذلك المساء عندما عرف بخبر تعيينه : عاش الملك ! عاش نيكر !

ولكن القلق والتخوف كانا يعصفان بنفس ماري انطوانيت مع ذلك ، كما صرحت الى مرسي في رسالة منها ، تخوفها من نيكر بذاته ، وقلقها من احتمال اخفاقه وتحميل الشعب اياها حينئذ ــ وهي التي استدعته ــ مسئولية هذا الاخفاق . وفي هذه الرسالة تقول لمرسي : « ارجوك تناسي ضعفي الذي جعلني استدعي نيكر ، لقد قدر علي ان أجلب التعاسة معي ، وكم انا في حاجة الى صديق مخلص اعتمد عليه في هذا الحين ! » تدل لهجتها على كائن يهزم الالم في اعماق نفسه لا على المراة الطائشة الرعناء المستهترة المدللة .

لقد عضّت ماري انطوانيت ثمرة المعرفة المرة ، فأضاعت معها تلك الثقة التي تعطيها اللامبالاة ، إذ لا يستطيع ان يجهل التخوف الا من جهل الخطر . وادركت أخيرا عظم المسؤولية التي تثقل كواهل هؤلاء الذين يمتلكون المناصب الرفيعة ، وأحست للمرة الاولى بثقل هذا التاج الذي كان يبدو لها خفيفا خفة قبعة تحيكها لها الآنسة برتان . واصبحت مثقلة الخطى بعد

رشاقتها وقد لاحت لها الآن الاخاديد في الارض الغضّة التي تقف عليها . وانقلب سلوك الملكة فجأة من النقيض الى النقيض ، فأصبحت تنشد الهدوء والوحدة تلك التي كانت لا تلتذ بالعيش الا في دوامة من الصخب ، وأخذت تتجنب المسرح وحفلات الرقص وتبتعد عن مجلس الملك الرسمي . ولم تعد تتنشق الهواء النقي الا بصحبة اطفالها حيث يختفي الحقد في جو هذه الغرفة المليئة بالضحكات البريئة ، وحيث تشعر بالثقة كأم أكثر من شعورها بها كملكة .

والآن وقد اصبح كيان ماري انطوانيت بأجمعه ، لا ينشد سوى الهدوء، اشار مقياس حرارة الزمن الى العاصفة . وفي الساعة التي أدركت فيها اخطاءها فأرادت تلافيها والابتعاد بتواضع عن مجرى الاحداث الصاخبة ، دفعتها إرادة جبارة لا ترحم الى قلب هذه الاحداث التي أصبحت من أروع المآسي التي عرفها التاريخ .

١٧ ـ الصيف الحاسم

اظهر نيكر الذي عهدت اليه الملكة بدفة السفينة عزمه حالاً على مجابهة العاصفة . فلم يتردد ولم يلجأ الى الحلول النصفية مدركا ان ليس هنالك سوى حل واحد جذري جريء ، وهو استعادة ثقة الشعب الكاملة . لقد ابتعد مركز الثقة الوطنية خلال السنين الاخيرة ، عن فرساي ، ولم يعد للشعب ثقة في وعود الملك واجراءاته ، كما لم يكن يأمل شيئا من برلمان النبلاء ، او مجلس الاعيان . فكان من الواجب خلق سلطة جديدة حالاً تؤكد من هيبة الحكم ، وتقيم سدا امام طوفان الفوضى . فالشتاء الذي مرّ قاسيا رهيبا ، كان قد شدد من قبضات الشعب وجعل من يأس جماعات الجائعين الذين هجروا القرى للالتجاء الى المدن خطرا يهدد بالانفجار في كل حين . فقرر الملك بعد تردده المعتاد استدعاء « مجلس الطبقات » الذي كان الممثل الحقيقي للشعب منذ مائتي سنة ، ومضاعفة عدد ممثلي الطبقة الثالثة ، اي الشعب ـ بناء على نصيحة نيكر ـ لنزع الاغلبية ممن كانوا لا يزالون يمتلكون كل شيء ، اي النبلاء والاكليروس ، فتعادلت القوتان واحتفظ الملك بحق التقرير النهائي لنفسه . وفكر البلاط أن استدعاء « مجلس الطبقات » سيخفف من المسؤولية الملكية ويقوي سلطتها .

ولكن الشعب كان له رأي آخر ، إذ لم يكن قد لجأ الى رأيه قط . وكان يعلم ان الملوك لا يلجأون الى استشارة شعوبهم الا عند ما يبلغ بهم اليأس

مبلغه ، لا عن طيبة خاطر، وراي الامة مهمة كبرى تقع على كاهلها ، فقررت الاستفادة منها . وهبت موجة من الحماسة على المدن والقرى بأجمعها ، فكان الانتخابات عيد ، والاجتماعات العامة أمكنة اندفاعات وطنية ، وافتتح اخيرا مجلس الطبقات يوم ٥ ايار (مايو) ١٧٨٩ وأصبحت فرساي للمرة الاولى مجددا ليس فقط مقرا للملك بل عاصمة فرنسا الفعلية وقلبها وروحها .

لم تشهد هذه المدينة الصغيرة ازدحاما مماثلا قط في تاريخها . فبالاضافة الى البلاط ، والى ما يقارب الفي نائب بعثت بهم فرنسا من كل ارجائها ، غصت بعدد عديد من الفضوليين والمشاهدين ، بحيث ارتفعت اسعار المبيت والطعام فيها ، بنسب فاحشة .

وكان الامر يتعلق في البدء بتفاهم الملك مع شعبه لا بالمشاحنات . فقرعت اجراس الكنائس يوم ٤ ايار (مايو) تستدر البركة الالهية على هذا الصنيع الاكبر . وزحفت باريس بأجمعها الى فرساي لتشهد هذا اليوم التاريخي فغص بهم كل مكان ، وكان الموكب رائعا بالفعل . فقد اظهر البلاط ابهته ــ للمرة الاخيرة ــ بفخامة لكي يشعر الشعب بأنه صاحب الجلالة الحقيقية والسيد الاوحد . فخرج الموكب الملكي في الساعة العاشرة صباحا يسبقه الخدم والحرس الملكي ببزاتهم الرسمية البراقة ، تتلوهم بجلالة ، العربة الملكية المذهبة ذات النوافذ ، تجرها خيول مطهمة مزينة . وجلس بجانب الملك شقيقه الاوسط ، وعلى المقعد الاضافي شقيقه الاصغر . وارتفعت الهتافات داوية « عاش الملك ! » محيية هذه العربة الاولى ، مما جعل السكون الصامت الذي تلاها عندما مرت عربة الملكة والاميرات بعدها مؤلما . فكان ذلك كخط فاصل خطه الرأي العام ما بين الملك والملكة . وتلقى الجمهور بنفس الجمود والصمت العربات التالية ، مقلةً افراد الاسرة المالكة . واتجه الموكب نحو كنيسة « نوتردام » حيث كان « مجلس الطبقات » بمجموع اعضائه ــ الفا رجل ــ بانتظاره والشموع بأيديهم .

وكان منظر الاعضاء المنتظرين فريدا ، وجديدا بالنسبة للملك والملكة والبلاط . فقد وقف النبلاء ورجال الكنيسة في طرف تميزهم أرديتهم المزركشة الفخمة ، وقبعاتهم الزاهية يعلوها ريش أبيض ، بينما تجمّع ممثلو الشعب في طرف آخر في ثيابهم السوداء لا تزينها سوى ربطات عنق بيضاء ، ووقفوا ساكنين جامدين . فبدوا بسواد ثيابهم وجدية مسلكهم ، وكأنهم قضاة .

ولفت انظار الشعب في الموكب الذي مشى بعرض مهيب حافل في

فرساي منظر الدوق دورليان الذي انضم الى نواب الشعب عوضا عن ممثلي النبلاء ، فأثار بذلك هتافات حماسية فاقت الهتافات التي ارتفعت للملك نفسه .

وفي اليوم التالي عقدت جلسة المجلس الوطني الاولى . واحست فيها ماري انطوانيت بإهانة جارحة إذ تلقاها السكون المثلج من جديد دون ان يهتف لها احد ، بينما هتف البعض لها بضعف ، شفقة عند خروجها من القاعة . فشعرت ماري انطوانيت بالفارق الكبير نسبةً لزيارتها الاولى لباريس ، وادركت انها ستكون بمعزلٍ عن المصالحة الوطنية الكبرى .

ولحظ الجميع الحزن الذي كان يخيم على الملكة ، والذي كان مرجعه بالاضافة الى الاهانات الجارحة التي كانت تتلقاها ومسلك الجميع العدائي تجاهها ـ مرض ابنها البكر الذي مات بعد شهر من ذلك لاحقا شقيقته الكبرى التي كانت قد توفيت قبل عام . مضيفا ألما جديدا ساحقا الى قلب الام والملكة المحطم . فكان عليها ان تظهر يوميا بكامل أبهتها امام الشعب ، والجمع العدائي المسلك تجاهها ، بينما كان ابنها على سرير الموت يلفظ انفاسه الاخيرة .

وتتابعت الاحداث بعد ذلك بسرعة الشلال المتدفق . فبدأ النزاع بين النبلاء ورجال الدين من جهة وممثلي الشعب من جهة أخرى ، وصوت هؤلاء على انعقاد مجلس وطني ، ورفضوا الخروج من قاعة الالعاب التي اجتمعوا فيها عندما اراد البلاط طردهم ، وصاح الناطق باسمهم ميرابو عندئذ جملته الشهيرة « اننا هنا بإرادة الشعب ولن نخرج الا على أسنة الحراب » . وفي خلال ذلك كان الملك والبلاط يتصرفان بتردد وتخوف مشؤومي العواقب ، في حين كان يجب عليهما التزام أقصى الحزم . فكان لويس السادس عشر يجنح ساعة الى اليمين وساعة الى اليسار ، يتجاذبه كل انواع المستشارين دون ان يصل الى اتخاذ أي قرار ، وكان الشعب كلما شعر بتردد الملك والبلاط يزداد اندفاعا وعزما على الوصول الى مآربه .

وايقظت حرية الصحافة والكتابة ـ وقد افلتت من المراقبة ـ الشعب بسرعة ساحقة ، واثارته فأخذ الالوف منهم في التجمع يوميا في القصر الملكي في باريس ، حيث يقيم الدوق دورليان ، يتداولون في السياسة تحت رعايته ، ويستثيرون بعضهم بعضا ، وفجأة شرع الجميع يعملون في السياسة ، واكتشف آلاف من الطموحين والعاطلين عن العمل فرصتهم الذهبية ، واصبحت السياسة شغل الجميع الشاغل ، فشرعوا جميعا باصدار المنشورات داعين لأفكارهم . وتدفقت هذه المناشير كالسيل تتزايد يوما

فيوما ، وتصدر ساعة فساعة بجو محموم . وبين عشية وضحاها أصبحت كلمات (الأمة) و (الشعب) كلمات قدسية عليا تعني القوة وتعني العدالة الاقصيين .

وهكذا أخذت احجار الصرح الملكي تتهدم يوما فيوما . وبدأ الجنود والضباط ، منذئذ ينضمون الى الحركة الجارفة ، وأحس موظفو الدولة ان الامر بدأ يفلت من ايديهم ، وبلغت الحركة المجلس الوطني الذي اخذ يهتز باتجاه الشعب ، وشعر مستشارو البلاط بالقلق والحيرة يستحوذان عليهم . وأراد الملك ان يبدو بمظهر الحزم عن طريق استخدام الشدة ، فاستدعى فرق الجيش التي بقيت مخلصة له ، وأصدر قراره بطرد نيكر الوزير الشعبي الوحيد يوم ١١ تموز ونفيه كمجرم متحديا شعور الامة بأسرها .

وكانت الايام التالية مليئة بالاحداث التي نقشت على صفحة التاريخ بأحرف لا تمحى ، ولكن كتابا واحدا كان يجهل كل شيء مما حدث على ما يبدو ، ذلك هو مذكرات الملك المسكين اليومية التي اذا رجعنا اليها نراه يسجل ما يلي : ١١ تموز : « لا شيء . ذهاب السيد نيكر » وفي ١٤ تموز عندما سقط سجن الباستيل نجد ايضا هذه الكلمة المأساة : « لا شيء » التي تعني ان هذا النهار خال من الصيد ومن اقتناص وعل ما ، اي انه خال من الاحداث الخطيرة . وأما في باريس فكان الامر مختلفا فقد كان طرد نيكر الشرارة التي وضعت النار في البارود ، فتوالت الاجتماعات مذ عرف النبأ يوم ١٢ تموز وخطب « كميل ديمولان » احد زعماء حزب الدوق دورليان ، في ساحة القصر الملكي ، في الجمهور بأن الملك يهيىء مذبحة تشبه مذبحة سان بارتلمي الشهيرة ، وطالب باللجوء الى السلاح . ووجدت الثورة في لحظة واحدة شعارها : الشارة المثلثة الالوان التي اصبحت فيما بعد علم الجمهورية ، وبدأ الشعب بمهاجمة الجيش في كل مكان . وزحف يوم ١٤ تموز عشرون الف شخص اندفعوا من ساحة القصر الملكي ــ قصر الدوق دورليان ــ متجهين الى حصن الباستيل ، فدكوا هذا السجن الحصين ، ورفعوا رأس مديره على سنان رمح متراكضين به . وكانت تلك اول مرة يسيل فيها الدم في الثورة . ولم يعد باستطاعة اي كان التجرؤ على مقاومة هذا الانفجار الشعبي العنيف . واما الجنود الذين كانوا مرابطين في السجن فقد انسحبوا منه لأنهم لم يتلقوا اي امر من بلاط فرساي المتردد . وعندما حل المساء اشعلت النيران في كل ارجاء باريس للاحتفال بهذا النصر .

ولكن بالرغم من هذا الحدث العالمي ، لم يكن اي شخص في البلاط ــ على بعد مسيرة ست ساعات ــ يتوجس حدوث شيء . بل كان الملك يظن

انه قد استرجع هدوءه الآن بعد ان طرد الوزير المزعج . وقد يصبح بإمكانه التفرغ للصيد منذ الغد . واستمع الى التقارير التي وصلته عن الاضطرابات في باريس ، ونهب مستودعات السلاح دون اتخاذ اي قرار . ولم يتغير اي شيء في برنامج القصر اليومي ، فآوى الملك الى فراشه في الساعة العاشرة كالمعتاد ، واستغرق في نوم هادىء عميق .

ولكن يا للوقاحة هذا العصر وفوضويته ، لقد بلغت به الجرأة والاستخفاف درجة اصبح من الممكن معها ازعاج ملك خلال نومه ! فقد وصل الدوق دي لانكورت طرادا الى فرساي على صهوة جوادٍ مزبد لكي يحمل الى البلاط أخبار الاحداث في باريس . فضرح اليه بأن الملك نائم في مخدعه . ولكنه اصر بإلحاح طالبا ايقاظ الملك ، وانتهى الامر بهم اخيرا الى السماح له ، بالدخول الى مخدع الملك المقدس لابلاغه رسالته . فأعلن للملك سقوط الباستيل ، ومصرع مديره ، ورفع راسه على أسنة الرماح . فتسلل التخوف الى قلب لويس السادس عشر وسأله متأتئا :

ــ ان هنالك عصيانا اذن ؟

ولكن حامل الرسالة التعيس اجابه بقسوة مصححا :

ــ كلا انها ثورة يا مولاي ...

١٨ ــ فرار الاصدقاء

سخر الناس كثيرا من لويس السادس عشر لعدم ادراكه المغزى الكلي لكلمة « الثورة » التي كان قرنها قد اخذ يذرّ عندما ايقظه من نومه في الرابع عشر من شهر تموز نبأ الاستيلاء على الباستيل : ولكنه « في منتهى السهولة للاذكياء » كما يقول موريس ماترلنك في فصل شهير من كتاب « الحكمة والقدر » ، « ان يعرفوا ما كان يتوجب عليهم عمله ، حالما يكونون قد اطلعوا على الاحداث كلها » . لا ريب في انه لا الملك ولا الملكة قدّرا ولو تقريبيا ، لدى اولى بوادر العاصفة ، مدى الانقلاب الذي كان مزمعا ان يحدث ، ومن جهة اخرى ، فاي المعاصرين استطاع منذ الساعة الاولى ان يلمّ بسعة الحركة التي اخذت تنطلق ؟ هل ُوجد انسان واحد بين اولئك الذين اوقدوا الثورة وغذوا ضرامها ؟ لم يكن لدى ايٍّ مــن زعماء الحركة الشعبية الجديدة انفسهم كميرابو، وبايّي، ولافاييت اية فكرة عن درجة تجاوز الهدف التي ستضطرهم اليها هذه القوة المنفلتة وتجرهم جرّا عنيفا رغم أنوفهم ، اذ ان روبسبيير ، ومارا ، ودانتون الذين اصبحوا فيما بعد من اشدّ الثوار اندفاعا ، كانوا لا

يزالون في سنة ١٧٨٩ ملكيين عن قناعة . ولم تأخذ اذا لفظة « الثورة » ذلك المعنى الشامل ، القاسي ، التاريخي ، (الذي تعيرها اياه اللغة الفرنسية اليوم) الا عن طريق الثورة ذاتها ، فالزمان وحده هو الذي طبعه في الدم والفكر ، لا الاحداث الاولى . انه لتناقض غريب الاّ يكون عجز لويس السادس عشر عن تفهم الثورة هو الذي قضى عليه ، بل على العكس من ذلك ، الجهد المؤثر الذي بذله هذا الرجل القليل الذكاء لادراكها .

كان لويس السادس عشر يحب مطالعة التاريخ ، ولم يسبق له ان شعر بالانفعال ، وهو المراهق الوجل ، مثلما شعر به يوم أن قدم له شخصيا دافيد هيوم الشهير مؤلف « تاريخ انكلترا » هذا الكتاب الذي كان يُعدّ من كتب الملك المفضلة . لقد قرأ فيه ، ببالغ الاهتمام ، وهو ولي للعهد ، الفصل الذي يشرح كيف قامت الثورة على الملك شارل ، وكيف انتهى به الامر الى حزّ عنقه ، ففعل هذا المثل فيوريث العرش الجبان ، فعل إنذار شديد . وعندما نشأت حركة مماثلة لتلك الحركة في بلاده ، ظن أنه يحسن عملاً ، حفاظا على نفسه ، بأن يعيد قراءة ذلك الكتاب ودراسته ، ليتعلم في الوقت المناسب ما يتوجب على الملك تجنبه . أراد ان يُحلّ التسليم محل العنف الذي برهن عنه الملك الآخر ، مؤملاً بذلك النجاة من وخيم العاقبة . فكانت هذه الرغبة في تفهم الثورة الفرنسية بمقارنتها بثورة تختلف عنها كل الاختلاف ، وبيلة عليه ، اذ ليس على الملك أن يتخذ القرارات في الدقائق التاريخية استنادا الى صيغ متقادمة العهد، ونماذج مُبطَلة، ان نظر العبقرية الثاقب وحده يستطيع ان يثبيّن في الحاضر وسائل الخلاص الحقيقية ، والعمل البطولي السريع وحده يقوى على صد تيار القوى البدائية الثائرة ثورة صاخبة . وليس في الامكان تهدئة العاصفة بالاتيان بالقلوع ، فذلك لا يقلل من عصفها بكل ما فيها من شدة حتى تستنفدَ قواها وتهدأ من تلقاء ذاتها .

هنا كانت مأساة لويس السادس عشر : أراد ان يدرك ما كان عاجزا عن ادراكه ، بتصفح التاريخ تصفح كتاب مدرسي ، وان يتجنب الثورة بتخليّه في خوف ووجل ، عن كل ما كان يسم موقفه بسمة الملكية . ولكن الامر لم يكن كذلك بالنسبة لماري انطوانيت : فهي لم تستطلع الكتب ، وكادت الا تستشير احدا . فلم يكن من عادتها التذكر والتبصر ، حتى في أشدّ الاوقات خطورة ، لقد كان كل حساب وكل تسوية غريبين عن طبيعتها التلقائية ، كانت قوتها تستند الى غريزتها . وقد قاومت هذه الفريزة الثورة منذ اللحظة الاولى بلفظة « لا » تؤكدها تأكيدا مطلقا . فهي ، وقد ولدت في قصر ملكي ، وربيت في حضن مبدأ الشرعية ، واعتقدت ان حقوقها الملكية صادرة عن الله ،

قد اعتبرت كل مطالبة تصدر عن الامة عصيانا لا مبرّر له : فمن طلب لنفسه جميع الحريّات ، وجميع الحقوق ، كان اقلّ الناس استعدادا للاعتراف بحقوق الغير وحريّاتهم . إن ماري انطوانيت لم تدخل في أية مناقشة مع نفسها أو مع الغير ، انما كانت تقول مثل اخيها : « ان مهنتي هي ان اكون ملكة » . كان مكانها في القمة ومكان الشعب في الحضيض ، فتأبى لنفسها الاتضاع وتوجب على الشعب عدم الارتفاع . ولم تنفك، منذ سقوط الباستيل حتى يوم المقصلة ، تشعر انها على حق . ان روحها لم تحالف الحركة الجديدة لحظة واحدة : فليست الثورة بالنسبة اليها سوى لفظة يقصد بها تجميل فكرة العصيان .

ولكن هذا الموقف المتجبر ، المتصلب وغير المتزعزع الذي وقفته ماري انطوانيت ازاء الثورة لم يكن يحتمل ـ في البدء على الاقل ـ أية خصومة مع الشعب . فهي وقد ترعرعت في فيينا اللطيفة الهادئة ، كانت تعتبر « الشعب الطيّب » مخلوقا سليم الطوية ، الا انه لا يملك عقلاً راجحا ، كانت تعتقد اعتقادا راسخا ان هذا القطيع الشجاع المخدوع سيتحول يوما عن هؤلاء المشاغبين ، والخطباء ، فيعود الى حظيرته المحبوبة ، الى العائلة المالكة التي تتوارث العرش . فوجهت حقدها كله نحو العصاة ، والمتآمرين ، والمشاغبين ، واعضاء النوادي ، والفوضويين ، والخطباء ، والوصوليين ، والملحدين الذين كانوا يدفعون الشعب الشريف الى اعلان العصيان على العرش والكنيسة باسم مُثُل مبهمة ، وبدافع الطموح . وما ممثلو عشرين مليونا من الفرنسيين في نظرها سوى « شلة من المجانين والمجرمين » . فمن كان من هذا النوع ولو ساعة واحدة ، أصبح في نظرها محكوما عليه نهائيا ، ومن وجّه كلاما ، لا غير ، الى احد اصحاب البدع ، هؤلاء الهائجين ، اضحى موضعا للشبهة عندها . لذلك لم تعبّر عن اي عرفان لجميل لافاييت الذي خاطر بحياته وانقذ ثلاث مرات حياتها وحياة زوجها واولادها : فالموت في نظرها افضل من ان تكون مدينة بسلامتها لهذا المتعجرف الساعي وراء مرضاة الشعب سعيا حثيثا . انها لن تولي ـ حتى وهي في السجن ، احد هؤلاء الذين لا تعترف بهم كقضاة لها ، بل تسميهم جلادين ـ او احد النواب ، شرف سؤاله اي شيء كان . وهي تثابر في عنادكلي على رفض التسوية رفضا شديدا ، اذ ان ماري انطوانيت لم تر في الثورة ، من بدئها الى نهايتها ، سوى موجة من الوحل القذر اثارتها أحط الغرائز الانسانية واكثرها ابتذالاً ، ولم تفقه اي شيء من الحق التاريخي والارادة البناءة لتلك الحركة ، بل كانت مصممة على الاّ تفهم سوى حقها الملكي وتدافع عنه .

ومما لا يمكن إنكاره ان هذا الاصرار على عدم الرغبة في التفهم ، كان خطأ ماري انطوانيت التاريخي. ان هذه المرأة المتوسطة ، والمحدودة ، بالنسبة الى مفهوم السياسة ، والمحرومة من نظرة اجمالية في تتابع الافكار ، والمعدومة الذكاء السيكولوجي ، لم تحاول قط ان تدرك ، بحكم التربية او الارادة : شيئاً غير بشري وقريب ومحسوس . فكل حركة سياسية ، اذا ما نظر اليها عن كثب ، من وجهة النظر الانسانية ، بدت مضطربة ، وكل فكرة ، اذا ما وضعت موضع التنفيذ ، تشوه رسمها . ان ماري انطوانيت حكمت على الثورة ــ وهل يمكن ان يكون غير ذلك ؟ ــ حكمها على الرجال الذين تولّوا قيادتها ؟

وما الافراد الاشد صخباً عادةً بأشرف الناس أو افضاهم . الا يحق للملكة ان تحترز عندما ترى ان الافراد الذين اثقلت الديون كواهلهم اكثر من الغير ، والذين فقدوا اعتبارهم في الطبقة الارستقراطية ، والذين تفوقوا على سواهم بشدة الفجور مثل ميرابو وتاليران ، هم أول من تخفق قلوبهم للحرية ؟ كيف يمكن لماري انطوانيت أن تتصور الثورة من الامور الشريفة والخلقية ، عندما تجد ان الدوق دورليان البخيل ، الطماع ، المستعد لكل عمل قذر ، يتحمس لهذه الاخوّة الجديدة ؟ وعندما يكون محبوبَ الجمعية الوطنية هو ميرابو الفاسق ، تلميذ « آرتان » في الادب الفاحش ، وحثالة الطبقة النبيلة ، الذي بعد ان قضى بعض الوقت في كل من سجون فرنسا لأسباب الاختطاف، وبعض الحوادث المريبة ، عاش فيما بعد على التجسس ؟ هل يمكن ان تكون حركة تشيّد مذابح لافرادٍ مثل هؤلاء حركةً الهيةً ؟ افي إمكانها حقيقةً ان تعتبر ، طليعةً للانسانية الجديدة ، ذلك الحشد القذر من بائعات الاسماك وبنات الشارع اللائي يلوّحن على رؤوس حرابهن ، برؤوس ضحاياهن الدامية كأنها غنائم حرب ؟ ان ماري انطوانيت لم تعتقد بالحرية لأنها لم تشهد في بادىء الامر سوى العنف . وبما انها لم تنظر الا الى الانسان ، لم يكن لديها أدنى ريب في الفكرة المخفية وراء هذا الاندفاع الجارف الذي اقلق العالم .

انها لم ترَ شيئاً ولم تعِ شيئاً من حسنات حركةٍ سلمتنا اشرف المبادىء في العلاقات الانسانية : حرية المعتقد ، حرية الفكر ، حرية القلم ، حرية التجارة وحرية الاجتماع ، وحفرت في الواح الوصايا للعصور الحديثة مساواة الطبقات ، والاعراق والاديان ، ووضعت حداً الخرائب العصور الوسطى المعيبة : التعذيب ، والسخرة والرق . انها لم تفهم شيئاً قط ، ولم تحاول ان تفهم المرامي المعنوية التي كانت مستترة ما وراء فتنة الشارع الوحشية . انها لم تر سوى البلبلة في التجمهر الصاخب المترامي الاطراف ،

ولم تلمح الخطوط الاولية لنظام جديد في قلب المعارك الرهيبة والاضطرابات ، لذلك كرهت من البدء حتى النهاية ، وبكل ما في قلبها المتكبّر من قوة ، زعماء هذه الحركة وجيوشها . وهكذا حدث ما كان مقدرا ان يحدث ، وبما ان ماري انطوانيت لم تنصف الثورة ، فقد قست عليها الثورة ولم تنصفها .

الثورة عدوّتي اللدود ـ هذه كانت وجهة نظر ماري انطوانيت . وكان يقين الثورة ان ماري انطوانيت هي العقبة الكؤود . لقد ادركت عامة الشعب بغريزتها التي لا تخطىء ان ماري انطوانيت هي الخصم الوحيد الحقيقي . لذلك كان شخصها منذ البدء ، الهدف الذي هدفت اليه المعركة في اشد عنفها .

ولم يحسب للويس السادس عشر أيّ حساب لا خيرا ولا شرّا ، هذا ما عرفه كل فلاح وما لم يجهله صبيان الازقة . لقد كانت بعض الطلقات النارية تكفي لتخويف هذا الرجل الجبان ، ولحمله على الموافقة على كل شيء ، فاذا ألبس القبعة الحمراء لبسها ، او أمر بالهتاف عاليا « ليسقط الملك ! ليسقط الطاغية ؟ » اطاع كما يفعل الشخص الكرتوني (قره كوز) . ولكن ارادة وحيدة في فرنسا دافعت عن العرش وامتيازاته و « هذا الرجل الوحيد الذي يملكه الملك » حسب تعبير ميرابو كان « زوجته » . فمن كان مع الثورة كان على الملكة . لقد كانت هي الهدف منذ البدء ، ولكي يبدو هذا الهدف واضحا ، ولكي يتكوّن فاصل بيّن ما بينها وبين الملك ، اخذت جميع المنشورات الثوريّة تمثل لويس السادس عشر أباً حقيقيا للشعب ، ورجلا صالحا ، فاضلا نبيلا ، ولكنه متناهي العنف « ومخدوع » . فاو توقف الامر على صديق الانسانية هذا ، لساد صلح تامّ بين الملك والامة . ولكن تلك الغريبة ، تلك النمساوية الواقعة تحت تأثير اخيها ، الاسيرة لزمرة من عشاقها ومعشوقاتها ، محبّة التسلّط والاستبداد ، كانت تأبى هذا التفاهم ولا تنفك تحيك المؤامرات لكي تدعو الى نجدتها جيوشا اجنبية تدكّ باريس مدينة الحريّة . إنها تلجأ الى حيل جهنمية لتخدع الضباط وتدفعهم الى تسليط مدافعهم على الشعب الاعزل ، انها وهي المتكالبة على شرب الدماء ، تهيب بالجنود الى إحداث مجزرة شبيهة بمجزرة القديس برتلماوس بتوزيعها عليهم خمرا وهدايا ، لقد حان الوقت لتفتيح عيني الملك التاعس ! وفي الحقيقة ، كان الخصمان يفكران تفكيرا متماثلا : فماري انطوانيت تعتبر الشعب طيبا لولا الدساسون الذين يخدعونه ، والشعب يعتبر الملك طيبا لولا زوجته التي تحرضه وتعميه . والخلاصة ان الحرب محصورة بين الملكة والثوار . ولكن ، كلما اشتد الحقد عليها وازدادت الشتائم والاتهامات الموجهة اليها احتدمت

كبرياؤها . إن من يدير بشدة حركة جسيمة او يقاومها ، يتخطى اثناء المعركة وسائل امكاناته : ومنذ ان ناصب الشعب باجمعه ماري انطوانيت العداء استحال غرورها الصبياني الى انفة وتوحدت قواها المبعثرة ، فخلق منها شخصية حقيقية .

ولكن هذه القوة التي ظهرت متأخرة لم يكن في استطاعتها ان تبرهن عن نفسها الا في حالة الدفاع ، إذ لا يمكن للمرء ان يهاجم عدوه ، وقد ربطت الى رجاله كرة حديدية ، وما الملك المسكين المتردد سوى كرة حديدية ربطت الى رجل ماري انطوانيت . لقد كان الاستيلاء على الباستيل صفعة على خده الايمن ، فادار في التالي خده الايسر : فبدلاً من ان يرغي ويزبد ، ويعنّف ، ويعاقب ، وعد الجمعية الوطنية بسحب جيوشه من باريس ، بينا كان من المحتمل ان تحارب في سبيله ، منكرا بذلك اولئك الذين قضوا دفاعا عنه . ان عدم اجترائه على رذل قتلة حاكم الباستيل كان اعترافا منه بحق الارهاب وبشرعية العصيان . واستعدّت باريس لتشكر له هذا التذلّل ، ولتضفر له اكاليل الازهار جزاء لطفه ، وتمنحه ولو مؤقتا ، لقب « باعث الحرية الفرنسية » . فاستقبله المحافظ على ابواب المدينة قائلا له بعبارات مبهمة : « ان الامة قد استعادت مليكها » وامسك ، طيّعا ، بالشارة التي اختارها الشعب رمزا لكفاح سلطته ، ولم يشعر ان الشعب لا يهتف له ، انما للقوة التي مكنته من التغلب على الملك لقد فقد لويس السادس عشر الباستيل في الرابع عشر من تموز (يوليو) وفقد في السابع والعشرين منه كرامته كاملة ، وانحنى امام خصومه الى درجة تدحرج معها تاجه الى الارض .

وبما ان الملك قام بتضحيته ، لم يكن لماري انطوانيت بد من ان تقوم هي بدورها بالتضحية ! لقد برهنت هي ايضا عن حسن نيتها بافتراقها رسميا عن اولئك الذين احتقرتهم الامة ، هذا السيد الجديد ، لا سيّما عن آل بولينياك ، والكونت داراتوا الذين حكم عليهم بالنفي من فرنسا نهائيا .

وما كان الفراق ليؤلمها كل ذلك الايلام ، لو لم تكن مكرهة على قبوله ، إذ انها كانت في قرارة نفسها لا تهتم منذ زمن طويل بهذه العصبة العابثة . ولم تنتعش ــ الا ساعة الفراق ــ مودّتها لرفاقها التي كانت قد فترت منذ زمن بعيد . فقد قاموا معا بألوف الاعمال الجنونية ، واطلعت السيدة بولينياك على جميع اسرارها ، وربّت أولادها ، ورافقت نموّهم . والآن وقد وجب الفراق ، كيف لا تعترف انه توديع لشبابها الطائش ؟ وان ساعات الهناء قد انقضت الى غير ما رجعة ، لقد حطمت قبضة الثورة القاسية عالم القرن الثامن عشر الشفاف كالصبني الصقيل كالرخام ، فزالت الافراح اللطيفة

والملاهي العذبة . ولقد بدأ عصر جديد ربما كان عظيما وقديرا ، ولكنه شرس وقتال . ولقد فرغت اجراس الروكوكو من توقيع أنغامها الرخيمة ، ومرّت سراعا ايام التريانون الهانئة . ولم يسع ماري انطوانيت وهي تحبس دمعها ان ترافق اهل مودتها ساعة الفراق الاخير ، فمكثت في غرفتها لشدة ما كانت ترهب الانفعال العاطفي الشديد . وعندما اقبلت العربات مساءً الى فناء القصر تتهيأ لتحمل الكونت دارتوا واولاده ، والامير دي كونده ، والامير دي بوربون ، والسيدة بولينياك ، والوزراء والاب فيرموند ، كل هؤلاء الناس الذين احاطوا بها أيام الصبا ، اكتفت بأخذ ورقة خطت عليها كلمات الوداع للسيدة بولينياك . وغشيها منذ ذلك الحين حزن عميق مشوب بخوف مبهم وطبع كل ما تكتبه بطابع الهدوء .

لقد خيّم الصمت الآن على كل ما يحيط بهذه الملكة التي احبّت الحركة حبّا مفرطا . اين خلان الامس ؟ لقد تواروا كلهم كما تتوارى ثلوج عام تولّى . اين من كانوا يتحركون حواليها فيما مضى تحرّك الصبية المولعين بالهدايا من امثال لوزن واسترازي وفودروي ؟ واين رفاقها في المسير والرقص واين الفرسان ؟ لقد لاذوا بالفرار في عرباتهم او على صهوات الخيل ، وغادروا فرساي جميعا متنكرين لا ليذهبوا الى الرقص المقنّع هذه المرة بل ليحول تنكرهم دون قيام الشعب بجز أعناقهم . وكانت عربة جديدة تجتاز في كل مساء المشبكات المذهبة الى غير رجعة ، فأخذت قاعات القصر تبدو أوسع مما يجب وخيّم عليها الصمت : فلا مسرح بعد الآن ولا مراقص ولا مواكب ولا مآدب ، لا شيء سوى القداس صباحا والاحاديث العديمة الجدوى مع الوزراء الذين لا نصح لديهم يسدونه . إذ قد اصبح قصر فرساي مصدر قلق ابتعد عنه جميع العقلاء .

وفي اللحظة التي هجر فيها ماري انطوانيت جميع اولئك الذين اعتقدهم الناس خلاّنا مقرّبين ، برز من الخفاء صديق حقيقي هو هانس آكسل دي فرسن . لقد ظل هذا المحب الكامل الراغب في الحفاظ على شرف من يحب في المعتزل طيلة الفترة التي كان فيها غرامه للملكة يثير ضجة ، ذائدا بهذه الوسيلة عن أعمق سر في حياة ماري انطوانيت أمام تهجمات الفضول والثرثرة الفاضحة . أما الآن وقد انصبّت عليها اللعنة ، ولم تعد صداقتها مجلبة للكسب ، والاعتبار ، والشرف ، ومثارا للغيرة ، بل مستلزمة على العكس من ذلك ، شجاعةً وعزما صادقا على التضحية ، فان هذا الصديق الوحيد ، والمحبوب الوحيد في الحقيقة ، قد احتلّ مكانه مختارا الى جانب الملكة فولج بذلك باب التاريخ .

١٩ ـ هل كان هانس عشيقا للملكة

إننا نعلم الآن بطريقة لا تدحض ان « هانس اكسل دي فرسن » لم يكن كما ظن طويلا شخصا ثانويا في رواية ماري انطوانيت السيكولوجية بل انه الشخص الرئيسي ، ونعلم ايضا ان علاقاته بالملكة كانت اكثر من مغازلات مرحة ومن مداعبات رومانطيقية ومن مغامرات على طريقة الشعراء القدامى ، وإنما هي على العكس من ذلك حب متين مجرب مئة مرةٍ يحمل طي ذاته جماعَ غلامات قوته : ارجوان الشهوة ، وصولجان الاقدام المتعالي ، وسعة العاطفة المسرفة . غير ان شكا اخيرا كان لا يزال يحوم فوق نوعية هذا الحب : هل كان « حبا عذريا » كما اعتاد أن يقول ادب القرن الاخير وهو يعني حب المراة المشتهية والمشتهاة التي ترفض بسبب حيائها المفرط ان تستسلم كليا للرجل الذي يعشقها وتعشقه ؟ ام انه كان « حبا آثما » ، اي انه بالمعنى الذي نفهمه اليوم حبٌ كاملٌ حرٌ يستسلم بشجاعة ودونما حساب ؟ ترى هل كان هانس اكسل دي فرسن الفارس الخادم والمتعبد الرومانطيقي لماري انطوانيت ، ام انه كان في الحقيقة عشيقها ؟

ـ كلا ! وبالتأكيد ، كلا !

هذا ما يهتف به في الحال بحنقٍ خاصٍ وبسرعة مريبة بعض مؤرخي السيرة من الملكيين والرجعيين الذين يرون مهما كلف الامر ان ملكتهم كانت « طاهرةً وخاليةً من الدنس والعار » . وإليك ما يدعيه باقتناع يحسد عليه « فيرنيرفون هايدنشتام » الذي كتب يقول :

« كان هانس يحب الملكة بشغف ، دون ان تدنس فكرة جسدية نصاعة هذا الحب الجدير بشعراء التروبادور ، وبفرسان الطاولة المستديرة ، ولقد احبته ماري انطوانيت دون ان تنسى لحظةً واحدة واجباتها كزوجة ومركزها كملكة » .

إنه لمن المستحيل اذن على هؤلاء المتعصبين الغلاةِ للاحترام الملكي ان يتصوروا ان تكون آخر ملكاتِ فرنسا قد خانت مخزون الشرف المتوارث عن كافة امهات ملوكنا ، أو تقريبا عن كافتهن » . وفي الحقيقة ها نحن نراهم منذ الآن يحتجون على كل فكرةٍ معاكسةٍ لتفكيرهم . لذلك لا بحثَ ، حباً بالله ، ولا نقاشَ ايضا حول « هذا الافتراء المخيف » ، ووفقا لتعبير كونكور : « لا تشبثَ سراً او جهرا » باكتشاف حقيقة الاحداث . اما المدافعون المطلعون على « عفة » ماري انطوانيت فإنهم يقرعون بعصبيةٍ شديدة جرسَ الاستياء لمجرد الاقتراب من هذه المسألة .

فهل يجب اذن الانحناء لأمر هؤلاء الغلاة دون ان نتساءل اذا كان « فرسن » لم ينظر طيلةَ حياته الى ماري انطوانيت الا « وهالة القداسة على جبينه » ، او انه نظر اليها نظرة رجل ؟ ترى الا يمرّ من يتجنب هذه المسألة بحياءٍ على هامش المشكلة الحقيقية ؟ ذلك اننا لا نستطيع معرفة كائنٍ ما ، طيلةَ جهلنا سرّه الاخير ، ولا يمكننا خاصةً ان نعرف طباع امرأة اذا كنا نجهل طبيعة حبها . وفي علاقاتٍ تاريخيّة كهذه حيث لا يلمس العشقَ المستمرّ طوالَ سنواتٍ حياةَ امرأةٍ بطريق الصدفة بل بالعكس يستولي على النفس بكلّ وزنه وكلّ جبريته ، لا تكون مسألة تحديد هذا الحبّ باطلةً او متطرفة بل رئيسية ، هذا اذا كان بودّنا التعرف الى شخصية ماري انطوانيت الخلقية الصحيحة . لأن الحكم العادل السليم انما يقتضي فتح العينين جيدا . فلنقترب اذن ولنحلّل عن كثب الوضع والوثائق ، ثم فلنفحصها جيدا فلعلنا نجد رغم كل شيء حلاً للمسألة .

السؤال الاول : اذا سلّمنا ، اتفاقا مع الاخلاق البورجوازية ، بفكرة الاثم في حال استسلام ماري انطوانيت التام لفرسن ، فمن الذين يتهمونها بهذا الاستسلام التام ؟ بين معاصريها لا يوجد غير ثلاثة رجال ، ولكنهم ذوو منزلة لا ثرثارون عاديّون تافهون ، انهم من المطلعين الملمين بمعرفة الوضع معرفةً كاملة . وهؤلاء الرجال هم : نابوليون ، وتاليران ، وسان بريست وزير لويس السادس عشر والشاهد اليومي لكل حوادث البلاط ، فجميع هؤلاء الثلاثة يؤكدون دونما تحفظ وبطريقةٍ لا تقبل الشك بأن ماري انطوانيت كانت عشيقة فرسن . أما سان بريست الذي هو أكثرهم اطلاعا على الوضع فإنه ايضا اكثرهم دقةً بالتفاصيل ، فهو يتكلم دون حقدٍ على الملكة ، وبموضوعية تامة عن زيارات فرسن الليلية السرية لقصور التريانون وسان كلو والتويلري التي كان الجنرال لافايت يسمح لفرسن وحده بالدخول اليها بطريقةٍ سرية . كما انه يتكلم ايضا عن تواطؤ الدوقة بولينياك (صديقة ماري انطوانيت الحميمة) التي كانت تؤيد ان تمنح الملكة حظوتها لغريبٍ لن يحاول ان يجني اية منفعة من هذه الحظوة . الا نرى اذن ان حذف ثلاث شهادات لها مثل هذه القيمة ، كما يفعل حماة الفضيلة المتطرّفون ، وان اتهام نابوليون وتاليران بالافتراء انما يقتضيان جسارةً تفوق ما يقتضيه تفحص المسألة تفحصا مجردا ؟

ولكن لننتقلن الى السؤال الثاني : من هم المعاصرون أو الشهود العيانيّون الذين يكون افتراءً بالنسبة اليهم اتهامُ ماري انطوانيت بأنها كانت عشيقة فرسن ؟ لا احد على الاطلاق . وانه لمن الواجب الملاحظة بأن المقربين

الحميمين للملكة يتحاشون بإجماع غريب ذكر اسم فرسن . فمرسي مثلا الذي يقلّب دبّوس شعر الملكة ثلاث مرات لا يذكر اسمه مرة واحدة في البرقيات الرسمية ، كما ان اولياء القصر لا يتحدثون ابدا في رسائلهم لأصدقائهم الموثوقين الا عن « شخصٍ ما » ، ولكنْ احدا لا يلفظ اسمه ، كأنّ مؤامرةً من الصمت المريب حيكت بشأنه طيلة قرن بكامله ، كما أن السِيَرَ الاولى الرسمية تنسى عن قصد أن تذكره . وهذا ما يدفعنا الى التفكير بأن كلمة سر صدرت للجميع لكي ينسوا نسيانا كاملا هذا المهدّم لأسطورة الفضيلة المطلقة الرومانطيقية .

وهكذا فإننا نرى أن البحث والاستقصاء التاريخيين قد وُجدا مدة طويلة حيال مسألة عويصة ، فكانا يصطدمان دائما بظنون متجبّرة مهيبة ، وكان المستند الموثوق يُسرق دائما بأيدي اصحاب الغيرة المتطرفة . فأصبح من المستحيل دراسة الموضوع بصورة واضحة اعتمادا على المستندات الموجودة،لأن المستندات المفقودة وحدها تحتوي علىالشواهد والأدلة القاطعة . وتحتّم على علم التاريخ أن يقبع في افتراضية دائمة ، وطالما تنقصه الوثائق الصحيحة فإنه يغلق ملفّ قضية فرسن ويقول متنهدا : لا مخطوطة لدينا ولا مطبوعة : إذن فلا يقين !

ولكن حيث ينتهي عمل التنقيب المرتبط ارتباطا وثيقا بالحوادث الملموسة ، يبدأ فنُّ الاستدلال النفسيّ الحرُّ المجنّح ، وحيث يفشل علم الوثائق ، يتدخل علم النفس فتكون افتراضاته المنطقيّة غالبا اكثر صدقا من الحقيقة الجافة ، حقيقة الاضبارات والوقائع .

وبالرغم من هذا فلنتفحص مرة اخرى بعض المستندات . فهانس اكسل دي فرسن ، بالرغم من كونه رومانطيقيا ، كان ايضا رجلا نظاميّا . فهو يكتب « مفكرته اليومية » بدقة منهجية ، مسجلا فيها بعناية ، كل صباح، الوقت وحالة الطقس والاحداث السياسية والاحداث التي تتعلق به شخصيا . وبالاضافة الى ذلك فانه يدوّن ، كرجل دقيق ، في دفتره الرسائل المستلَمة والرسائل المرسَلة مع تواريخها . ثم يسجّل الملاحظات اللازمة لمفكرته ويحافظ على مراسلاته بطريقة منظمة . فهو إذن شخص مثاليّ بالنسبة للمؤرّخين ، لأنه حلّف عند موته عام ١٨١٠ سجلا حافلا عن حياته كلها ، هو بمثابة كنز من المستندات لا مثيل له . ولكن ما الذي حدث لهذا الكنز ؟ لا شيء . هذا شيء غريب حقا ! فقد مُدّ ستار من الصمت بعناية بل بخوف من قِبَل الوارثين على هذا السجل ، فلم يستطع احد الوصول الى خزانة الوثائق ولم يُنبأ احد بوجودها . وبعد نصف قرن من موت فرسن ،

قام اخيرا سليل من تَسَبه يَدعى البارون كلينكو فشتروم فنشر الرسائل مع قسم من المفكرة . ولكن يا لغرابة الامر ، لم تكن هذه الرسائل كاملة ! بل ان جملة من رسائل ماري انطوانيت التي يذكرها الدفتر في باب « رسائل جوزيفين » قد اختفت ، كما اختفت « مفكرة » فرسن في أيامه الحاسمة .

وثمة شيء آخر يثير الدهشة ايضا ، ففي الرسائل المنشورة قد أبدلت اسطر بكاملها بنقط ، ذلك ان يدا مجهولة مرّت عليها . ولا يمكننا ان نمنع انفسنا من التفكير ، كلما أتلفت رسالة او شوّهت على يد الخلف من الانسباء، بأن الغاية هي طمس بعض الوقائع في سبيل هدف مثاليّ خسيس . ولكن فلنحترس من الآراء المسبّقة ولنبقين هادئين منصفين .

اذن ، لقد حذفت مقاطع من هذه الرسائل وابدلت بنقط . فلماذا ؟ يدعي كلينكو فشتروم ان التشطيب نال منها في الاصل حتى غدت غير مقروءة. ولكن من الذي شطب عليها ؟ من الارجح فرسن نفسه . من الارجح ! ولكن لماذا ؟ فيجيب كلينكو فشتروم على هذا السؤال في رسالة مرتبكة بأن هذه الاسطر كانت تحتوي بلا ريب أسرارا سياسية او ملاحظات مكدّرة من قِبَل ماري انطوانيت على غستاف ملك السويد . ولما كان فرسن يُطلع الملك على كافة هذه الرسائل (على كافتها ؟) فمن المعقول (!) انه حذف منها هذه المقاطع . يا للغرابة ! ان رسائل فرسن كانت بمعظمها مرقّمة ، فلم يكن باستطاعته ان يقدّم للملك الا نسخا عنها . فأية غاية اذن جعلته يشوّه الاصول حتى غدت غير مقروءة ؟ لا شيء سوى ان الامر مريب .

لننظر عن كثب الى تلك المقاطع غير المقروءة المستبدلة بنقط ، فنلاحظ ان النقط المشبوهة لا تظهر غالبا الا في مطلع او ختام الرسائل ، في البدء او بعد كلمة « الى اللقاء » . فتكتب ماري انطوانيت مثلا «ها انني قد انتهيت»، اي قد انتهيت من الاخبار السياسية وجاء الآن دور . . . كلا لم يجيء دور اي شيء في هذه الرسائل المبتورة حيث لا نجد سوى نقط تتلوها نقط . أما العبارات المحذوفة في وسط رسالة ما ، فإنها توجد دائما ، ويا للغرابة ، في مقطع لا يتكلم عن السياسة . ولنقدّم مثلا آخر : تكتب ماري انطوانيت : « كيف حال صحّتك ؟ أراهن انك لا تعتني بها وهذا خطأ . . . اما انا فإنني متجلدة فوق ما يستطاع » . فهل يمكن لرجل بصير ان يتصوّر في هذه العبارة اعتبارات سياسية ؟ وتكتب الملكة عن اولادها قائلة : مشاغلي بهم هي سعادتي الوحيدة . . . وعندما اكون حزينة « آخذ طفلي الصغير » . ولا شك ان تسعماية وتسعة من ألف قارىء يضيفون « بعد تركك اياي » ، لا ملاحظة ساخرة عن ملك السويد .

فما علينا اذن ان نحمل تأكيدات « كلينكلو فشتروم » محمل الجد ، اذ ان ما حذف ليس اسرارا سياسية ، ولكنه هنا سر بشريّ . وللكشف عن هذا السر يوجد لحسن الحظ وسيلة التصوير المكبّر الذي باستطاعته ان يُظهر بسهولة العبارات المشطّب عليها . فليؤت لنا اذن بالاصول ! ولكن ما اسرع ما يفاجئوننا بفقدان الاصول ايضا . فحتى سنة ۱۹۰۰ تقريبا ، اي طيلة قرن ونيّف، كانت الرسائل محفوظة بعناية ومنسّقة في قصر آل فرسن. وفجأة اذا بها تختفي . ذلك ان البارون العجوز « كلينكلو فشتروم » كان يعرف كيف يحافظ على سر من الاسرار . فقد كان هذا النبيل المتحدّر من ارومة قديمة يعتقد ان من واجبه المحافظة على شرف الملكة التي احبّها سلفه، حتي وان كان الامر مغايرا لاقتناعه الخاص . فشرع يتباهى علانية بتبجيله للمرأة التي لا تنال . واخذ يتظاهر بأنه المدافع عن الاسطورة الرومانطيقية ، اسطورة « الصداقة المغرمة » ضد جيل ممعن في الشك يوما بعد يوم . ومع ذلك فكم من عذاب كانت تسبّب له هذه الرسائل الشهيرة لعلمه علم اليقين ان «فرسن» نفسه لم يشذّ بها بيده ، بل « شذّ » اخوه «فابيان» من بعده .

ولشدّ ما كان « كلينكلو فشتروم » متأكدا من ان السر سيبقى محفوظا طيلة بقائه على قيد الحياة ، لان مفتاح صندوق الرسائل لم يكن ليفادره ابدا . ولكن ماذا سيكون من امر هذه الرسائل « الخائنة » التي تبوح بالاسرار العائلية ، فيما لو استولى عليها بعد موته احد المتعلقين اكثر منه بالحقيقة التاريخية ، والابهين اقل منه بما تحتويه من مشاعر ؟ اقلقت هذه الفكرة راحته واقضّت مضجعه ، فاستدعى عند لحظاته الاخيرة صديقة قديمة وأمرها بأن تلقي في المدفأة المقابلة لسريره ، واحدة تلو الاخرى ، جميع الرسائل التي تحتوي على عبارات مشطّبة (اما بقية الرسائل فانها ما زالت حتى اليوم في حوزة العائلة) . وعندما انتهى من حرقها تنفّس الصعداء قائلا : « يبحث العالم الآن ما يشاء ، فهو لن يعلم شيئا كثيرا ! » هذا ما رواه احد الخدم وقد حضر هذا المشهد المؤلم . عندئذ اعتقد البارون العجوز ان باستطاعته الموت ناعم البال ، أوَ لم يُنقذ الى الابد « سُمعة » الملكة و « فضيلتها » باتلافه هذه الاوراق ! ؟

الا ان حرقه هذه الرسائل كان اكثر من جريمة : انه حمق شديد . ذلك ان اتلاف هذه المستندات هو بحد ذاته اعتراف بالذنب ، ثم هنالك قانون مكدّر في علم الجريمة يقرّر ان كل اتلاف مستعجل للوثائق انما ينتج عنه دائما نجاةُ بعضها . وهكذا فقد وجدت « آلمازودر هالم » احدى قيّمات المحفوظات الشهيرات ، وهي تقلّب الاوراق التي خلّفها « فرسن » ، نسخة

كان « فرسن » ذاته قد نقلها بخط يده عن احدى رسائل ماري انطوانيت اليه . ولم يكن الناشرون فيذلك الوقت ينتبهون لهذه الرسالة لانها كانت منسوخة فقط ، ولأن « اليد المجهولة » كانت ولا شك قد احرقت اصلها . وبفضل هذا الاكتشاف فقد اصبح بين ايدينا بطاقة موثوقة من الملكة ، ومع هذه البطاقة مفتاح جميع الرسائل ، او بالاحرى الوتر العاشق الذي ُوقّعت جميعها عليه .

وبواسطة هذه الرسالة يمكننا ان نتصور الآن ما ابدله الناشر المحترس، المفرط في احتراسه ، بنقط في الرسائل الاخرى ، لأن هذه الرسالة انما تحتوي هي ايضا كلمة « الى اللقاء » ، ولكن دون ان يتبعها تشطيب او نقط ، فنقرأ هكذا : « الى اللقاء يا احب الرجال ويا اكثرهم حبا ! » هذه البيّنة هي شديدة الايحاء : فهل نفهم الآن لماذا يثور اناس مثل كلينكلوفشتروم وهايل نشتام وجميع الذين اقسموا بالمحافظة على « العفّة » من الذين يملكون ولا شك وثائق اخرى من هذا النوع ستبقى مجهولة الى الابد ، كلما اردنا تفحّص قضيّة « فرسن » تفحّصا موضوعيا لا لبس فيه ولا تحامل ؟ وان من يفهم نبرات القلب لا يمكنه ان يشك بالامر : وهذا السطر الذي وقع في يدنا يحلّ محلها جميع الاسطر المحذوفة ، لأنه يرينا ملكة تتكلم الى رجل بمثل هذه الشجاعة ، بعد أن تكون قد تخطّت جميع الاعراف ومنحته منذ امد طويل آخر دلائل ودّها وحنانها . واذا كان عمل الاتلاف بحد ذاته لا يكوّن بيّنة قاطعة ، فهذه الكلمات المعدودة هي في نظر من يحسن الفهم اجلّ بيّنة .

ولكن لنمضين الى ابعد ! فهنالك الى جانب الرسالة المنقذة مشهد من حياة « فرسن » من شأنه ان يحلّ المسألة من الناحية السيكولوجية . يجري المشهد بعد موت الملكة بستة اعوام . فقد انتدب « فرسن » ليمثّل الحكومة السويدية في مؤتمر « رشتات » ، ولكن نابوليون بونابرت اعلن فجأة للبارون « ادلشايم » انه يمتنع عن المفاوضة مع « فرسن » لأنه كان يعرف آراءه الملكية ، ولأن فرسن بالاضافة الى ذلك قد نام مع الملكة . ولم يقل بونابرت « كان له علاقات معها » ، بل لقد استعمل متحدّيا ، العبارة الاباحية تقريبا : « لأنه نام مع ملكة فرنسا » . ولم تكن للبارون ادلشايم فكرة الدفاع عن فرسن ، لأن الامر كان واضحا بالنسبة اليه ايضا . لذلك فقد اكتفى بالاجابة ضاحكا انه كان يعتقد بأن هذه الحكايات المتعلقة بالعهد الملكيّ البائد قد تنسيت منذ امد طويل ، وبأنها على أية حال غير متعلقة بالسياسة ، ثم مضى الى فرسن فقصّ عليه تفاصيل الحديث . ولكن ماذا فعل فرسن ؟ او

بالاحرى ماذا كان عليه ان يفعل لو كانت كلمة بونابرت محض افتراء ؟ الم يكن من واجبه دحض هذه التهمة حالا عن الملكة المتوفاة ؟ الم يكن مترتبا عليه رفع صوته احتجاجا على هذا النمّ المفضوح ؟ الم يكن مترتبا عليه ان يدعو الى المبارزة هذا الجنرال الصغير الكورسيكيّ المتخرّج حديثا من المدرسة الحربية ، والذي اختار لتهمته اكثر الكلمات صراحة ورعونة ؟ ومن ثم هل يجوز لرجل مستقيم الخلق . كريم المحتد ، ان يتغاضى عن تهمة امرأة بأنها خليلته وهي ليست كذلك ؟ الآن كانت الفرصة المؤاتية والواجب الملزم يحتّمان على فرسن ان يضع بواسطة سيفه حدا لهذا الزعم الذي ما برح ينتشر في الخفاء منذ وقت طويل ، موقفا الى الابد كل ما يشاع من اقاويل . ولكنه صمت ويا للأسف ! ثم تناول ريشته واخذ يسطر بعناية فائقة في مفكرته محادثة ادلشايم وبونابرت بكاملها ، دون ان ينسى تسجيل ما تسب اليه « بأنه نام مع الملكة » ذلك انه في اعماق نفسه لم يفكر بأن يدحض بكلمة واحدة ، هذه التهمة « الشائنة المفرضة » كما يقول كاتبو سيرته . ولكنه خفض راسه دلالة على الرضوخ . وبعد ايام ، عندما شرعت الصحف الانكليزية تعلق تعليقات شتى على هذا الحادث كتب فرسن : « لقد بدت لي مضجرة الكتابة عني وعن الملكة العاثرة الحظ » ، ثم اضاف يقول : « ولقد صدمتني صدمة شديدة » . هذا هو جُلّ احتجاج فرسن ، وهو ليس باحتجاج . وهنا ايضا يبدو لنا الصمت ابلغ من الكلام المباح !

فنحن نرى اذن ان ما حاول ان يخفيه بغيرة متطرّفة الورثة المتحفظون الوجلون ، وهو كون فرسن عشيقا لماري انطوانيت ، لم ينفه ابدا فرسن ذاته. ومن ثم فهنالك تفاصيل اخرى صادقة تنتج عن حشد من الاحداث والوثائق : فعندما اخذ فرسن يظهر في بروكسل مع خليلة ثانية توسلت اليه شقيقته ان يتصرّف بطريقة تجعلها « هي » (اي الملكة) لا تعلم شيئا لئلا يكون تصرّفه بمثابة إهانة جارحة لها . (هنا يمكننا ان نتساءل بأي حق تطلب منه شقيقته هذا لو لم تكن « هي » عشيقة له ؟) ، ثم إن المقطع من مذكراته حيث يدوّن بأنه كان يمر اثناء الليل الى قصر التويليري قد حُذف ، ان وصيفة للملكة شهدت امام محكمة الثورة بأن رجلا كان يغادر غالبا مخدع الملكة اثناء الليل . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فإن الاحاطة بشخصية ما هي وحدها تسمح بشرح ما خفي من سلوكها ؛ لأن مسلك الشخص انما هو خاضع لطبيعته خضوعا حتميا . فمسألة وجود علاقات حميمة او محض عذرية ، هي مرتبطة آخر المطاف بوضع ماري انطوانيت الخلقي ، ومن الواجب بعد الاخذ بكافة البينات المفصلة التساؤل : اي سلوك ترى يتفق ومزاج الملكة اتفاقا منطقيا

ونفسيا ، عطاء ذاتها عطاء حرا سموحا ، او امتناعها المتوجس خيفة ؟ ان من يواجه المسألة من هذه الزاوية لا يتردد ابدا ، لأن ماري انطوانيت الى جانب عثراتها الناتجة عن ضعفها انما تملك قوة فائقة هي شجاعتها التي لا تعرف حدا او ترددا . فهذه المرأة الصادقة حتى اعماقها ، العاجزة عن اي خبث ، ارتفعت مرات عديدة فوق الاعراف السائدة ، في فرص اقل شأنا من هذه ، لامبالية بأقوال الناس وتخرصاتهم . واذا كانت لا تبلغ العظمة الحقيقية الا في الساعات الحاسمة ، فهي لم تكن ابدا مسكينة خائفة ، ولم تدع اية صيغة من صيغ الشرف او الاخلاق (اخلاق العامة او اخلاق البلاط) تتغلب على ارادتها الشخصية . فهل من الممكن ان ترتدي هذه المرأة الشجاعة رداء التحفظ حيال الكائن الاوحد الذي تحبه من كل قلبها ، لكي تظهر بمظهر الزوجة الورعة الشريفة ، زوجة الملك لويس التي ارتبطت به لا عن حب بل لاسباب تتعلق بالدولة ؟ وهل يُعقل ان تضحي بغرامها في سبيل وهم اجتماعي ، وسط عصر غامض متقلقل حيث اخذت وشائج النظام والاستقرار تنحل في سكرة شديدة موارة هي سكرة الموت القريب ، في عالم بات يختلج اختلاجة النزع الاخير ؟ وهل يُعقل ايضا ان تتخلى هذه المرأة التي لم يكن احد يستطيع ان يلجمها عند حد او ان يكبح جموحها ، عن شكل من اشكال الشعور هو اشدها على الاطلاق انسجاما مع طبيعتها كامرأة ، مراعاة لوهم من الاوهام ، وفي سبيل زواج مشوه ، ومن اجل رجل تنقصه الرجولة ، وباسم خُلُقية لشد ما كانت تزدريها بغريزتها المفطورة على الحرية ، وطبيعتها التي لا تكبح ؟ ان من يريد الايمان بمثل هذه الاشياء غير المعقولة فليؤمن على هواه ! ولكن مشوهي صورة ماري انطوانيت ، ليسوا من الذين يعرفون معرفة حرة لا حصر فيها مقدار شجاعتها وجرأتها في غرامها هذا الوحيد . ان اولئك المشوهين انما هم الذين ينسبون الى هذه المرأة الجريئة نفسا خوارة تعذبها جميع الاعتبارات الاجتماعية ، نفسا لا تجرؤ على استكمال رغبتها ، بل تخنق في نفسها عاطفتها الطبيعية . اما الذين لا يستطيعون فهم الشخصية الا في وحدتها الكاملة التي لا تتجزأ ، فانهم لا يشكون مطلقا بأن ماري انطوانيت كانت عشيقة « هانس أكسل دي فرسن » بكل نفسها التي اسيء اليها ، وبكل جسدها الذي طالما دنسه زوج خائب .

ولكن ما هو شأن الملك في هذه القصة ؟ الم يصبح ذلك الشخص المضجر المزعج المضحك ، كما تغدو الحال عادة عندما تعشق امرأة على زوجها ؟ وهل ترى من صالحه ان تحاول الاجيال المتعاقبة إسدال الستار على علاقة ثلاثية كهذه ؟ في الواقع لم يكن لويس السادس عشر ذلك الزوج المخدوع الذي يثير

الضحك ، ولكنه كان مطلعا على علاقات فرسن بزوجته . وهذا ما يعبر عنه « سانت بريست » عندما يقول : « لقد وجدت الطريقة الملائمة لجعله يتقبل راضيا علاقاتها بالكونت فرسن . »

هذا التأويل يطابق تماما واقع الحال ، إذ ما من شيء كان يناقض طبيعة ماري انطوانيت كالمكر والرياء . فالزنى المستتر لا يلائم استقامة روحها ، والصلات القذرة الكثيرة الوقوع بين الناس ، والجمع الدنيء ما بين الزوج والعاشق ، هي غريبة عن مزايا خلقها . وانه لمن المؤكد ان ماري انطوانيت ، عندما بدأت علائقها الحميمة بفرسن (وهي علائق متأخرة نسبيا أتت بعد خمس عشرة أو عشرين سنة من زواجها) من المؤكد انها فصمت عرى كل علاقة جسدية مع زوجها . يؤيد هذا الافتراض الذي هو سيكولوجي محض ، وبشكل مفاجيء ، رسالة من أخيها جوزيف الذي عرف في فيينا بطريقة ما ، ان اخته بعد ولادة طفلها الرابع كانت تريد قطع كل علاقة جنسية بلويس السادس عشر ، ولا شك ان تاريخ هذه الرسالة يطابق تماما بداية العلاقات الصميمة **بفرسن**.

فالموقف إذن واضح لمن يحب ان يرى بوضوح ، ان ماري انطوانيت التي تزوجت ، بسبب مرتبط بالدولة ، من رجل لا تحبه ، ولا يجذبها اليه اي جاذب ، كبتت طيلة سنوات حاجتها للحب والحنان ، مراعاة للواجبات الزوجية . ولكنها بعد ان وضعت طفلين ، وأعطت السلالة الملكية وريثين للعرش يجري في عروقهما الدم البربوني الاثيل ، اقتنعت بأنها قامت بواجبها الخلقي تجاه الدولة والشرع والعائلة ، وأخذت تشعر بأنها اصبحت حرة . وبعد عشرين سنة من التضحية في سبيل السياسة ، وعند الساعة الاخيرة التي تنذر بالمأساة ، استعادت هذه المرأة التي كانت عرضةً لتجربة قاسية ، حقها الطبيعي بألا تمتنع بعد الآن عن عشيقها الذي كان يقوم بالنسبة لها مقام الصديق والخليل ، والنجيّ والعشير ، والذي كان مثلها شجاعا ، ومستعدا بتفانيه للتعويض لها عما كان ينقصها من زوجها . فكم هي فقيرة تلك الافتراضات المصطنعة التي تصور ماري انطوانيت ملكةً «فاضلةً محض ودودة» أمام حقيقة سلوكها الواضحة ! ولكم يخفض الذين يدافعون بكل حيلة عن « شرف » هذه المرأة الملكي من جانب شجاعتها ، وجلال شأنها الخلقي ! لأن المرأة لا تكون شريفةً ونبيلةً إلا عندما تستسلم استسلاما حرا كاملا لمشاعرها الراسخة التي يبلورها مرور الزمن ، ولأن جلال الملكة الحقيقي إنما هو رهن بتصرفها الانساني .

٢٠ ـ الليلة الاخيرة في فرساي

نادرا ما نضج الحصاد قبل أوانه في فرنسا منذ آلاف السنين ، كما حدث في هذا الصيف من عام ١٧٨٩ . فلقد افرك الحَبْ في سنابل القمح بسرعة ، إلا أن بذور الثورة التي سقاها الدم المراق ، قد نمت هي ايضا بسرعة أكثر . فامّحت بجرّة ريشة واحدة اخطاء تكدّست منذ عشر سنين أو عشرين أو ثلاثين ، ومظالم مرت عليها القرون . وانهار الباستيل الآخر حيث كبّل الملوك بسلاسلهم حقوق الشعب الفرنسي . وفي الرابع من شهر آب (أغسطس) انهدمت قلعة الاقطاعية العريقة وسط هتافات الحبور ، فتخلى النبلاء وامراء الكنيسة مكرهين عن امتيازاتهم بفرض السخرة على الاجراء والفلاحين ، وبجباية الضرائب العشرية ، كما ألغيت جباية المكوس على الملح . ولقد نال الفلاحون والمواطنون والصحافة الحرية التامة ، واعلنت وثيقة حقوق الانسان . وكأني بهذا الصيف قد حقق جيع احلام جان جاك روسّو !

أما النوافذ في « قاعة اللذائذ الصغيرة » التي اختارها الملوك للهوهم ، واختارها الشعب ليرفع فيها صيحات الاستنكار والمطالبة بحقوقه ، فقد كانت تهتز تارة من تهاليل الفرح ، وطورا من تهاويل الغضب : فعلى بُعد مائة خطوة من هناك أخذ يُسمع طنين بشري متواصل هو اشبه ما يكون بطنين خلية النحل . ولكن صمتا حائرا كان يرين على قصر فرساي الكبير البعيد قليلا ، حيث أخذ اهل البلاط ينظرون من النوافذ مذعورين الى هذا الضيف الصاخب الذي ، وإن كان قد دعي لاستمزاج رأيه فقط ، شرع يتحفّز لفرض سلطانه على الملك . فكيف العمل إذن لاقصاء هذا الساحر الحدث المطلّ على حياة فرنسا ؟ لقد ابتدأ لويس السادس عشر وهو في أشد حالات الارتباك ، يجري محادثات مع مستشاريه الذين كانوا يناقضون بعضهم بعضا . أما الملك والملكة فقد فكرا أخيرا بأنه من الافضل انتظار خفوت العاصفة ، قائلين : ما علينا ! لنمكثنّ مترقبين ، في مؤخرة الاحداث ، فمرور الزمن هو الذي سيصلح الحال .

ولكن الثورة تريد دائما ان تسير في الطليعة ، بل يجب ان تسير في الطليعة اذا كانت تأبى الفور في الارض ، لأن الثورة نهر عظيم من الانهار ، يكون توقفها شؤما عليها ، وتراجعها نذرا بنهايتها . فهي من طبيعتها تتطلب دائما اكثر لكي ترسخ دعائمها ، ومن طبيعتها انها تكتسح دائما لكي لا تقهر : فالصحف تقرع طبل هذه المسيرة المتقدمة باستمرار ، وأصحابها هم أولاد بل

صبية الثورة الذين يسيرون بجلبة وحماسة جنونية في طليعة الجيش الحقيقي . ذلك ان جرّة ريشة بسيطة منحت الحرية للكلمة المكتوبة والملفوظة ، هذه الحرية التي كانت في بداية حماستها تتعثر وتسقط في الفوران والتطرف . واذا بعشر جرائد وعشرين وثلاثين وخمسين جريدة تطل فجأة : ميرابو ينشىء واحدة وديمولان وبريسو ولوتيلو ومارا لكل منهم صحيفته أيضا . وإذا بهذه الصحف جميعها تصخب صخبا جهنميا ، محاولة كل منها ان تجمع عددا اكبر من القرّاء ، وان تظهر بمظهر الوطنية اكثر من سواها ، حتى انه لم يعد يُسمع في البلاد غير صوتها . وكانت خطتها الصراخ عاليا ، والعربدة الجريئة (لأن الصحيفة التي تعربد اشد واكثر يكون لها حظ اوفر بالنفاد) ، وبالنتيجة كانت غايتها إثارة الاحقاد على البلاط ! ومن ثم فالملك كان يتهيأ للخيانة ، والحكومة تمنع وصول القمح ، وفرق اجنبية تسير لحل النوادي السياسية ، ومجزرة جديدة كمجزرة « سان برتيليمي » على وشك ان تقع . وتمضي الصحف مزمجرة : انهضوا يا ابناء الامة ! انهضوا ايها المواطنون ! ناشرة في الليل والنهار ما يثير الرعب ، والحذر ، والحنق ، والسخط الجنونيّ ، التي اخذت تتسرب الى ملايين القلوب . ووراء هؤلاء القارعين على الطبول كان ينتظر في الخفاء جيش الشعب الفرنسي ، وهو مسلح بالرماح والسيوف ، ولكنه قبل كل شيء مسلح بسخط وافر .

وكان كل شيء في نظر الملك يسير سيرا حثيثا لأنه كان يستحيل على هذا الرجل الجسيم الحكيم ان يجاري سير الافكار الجديدة الفتية . وبالنسبة للثورة فقد كان كل شيء يسير سيرا بطيئا في قصر فرساي الذي كان يتردد ويجر الخطى جرّا . فالى الامام اذن يا باريس ! ولتضعي حدا لهذه المفاوضات التي لا نهاية لها ، ولهذه المساومات الثقيلة بين الملك والشعب ! هذا ما كانت تقوله وتكرّره الصحف . فأنت تملكين يا باريس مائة الف بل مائتي الف قبضة ، ولديك في ترساناتك بنادق ومدافع تنتظر ، فمدي ايديك اليها ، وانطلقي الى فرساي لكي تستولي على الملك والملكة ، ولكن في الوقت نفسه اقبضي على زمام مصيرك بقبضة من حديد !

اما كلمة السر فقد أعطيت لدى دوق اورليان ، في « القصر الملكي » الذي اصبح مركز قيادة الثورة ، ولقد اصبح كل شيء جاهزا بعد ان شرع المركيز « ديريج » يعدّ الحملة بطريقة سرية . ولكن البلاط والمدينة كانا متصلين بطرق مستترة : ففي النوادي السياسية يعرف المواطنون بواسطة الخدم المأجورين كل ما يجري في قصر فرساي ، ويطلع هذا بواسطة عملائه

على الهجوم الذي يعدّ ، فيقرر ان يتدخل ، ولكنه بات لا يثق بالجنود الفرنسيين ، فيدعو فرقة من الفلاندريين لتحرس القصر . وفي الواحد من تشرين الاول تركت هذه القوة مراكزها الدائمة متوجهة الى فرساي . ولكي يربح القصر حسن ولائها فقد اعدّ لها استقبالا ضخما ، وهيأ لها قاعة دار الاوبرا الواسعة حيث أقام لها وليمة فاخرة ، كانت بالرغم من القحط السائد في باريس حافلة بالخمور والقصاع الشهية ، اذ ان للمعدة دورها أيضا في توثيق عرى الاخلاص والحبّ ! ولاستثارة حماسة هؤلاء الجنود للملك ، فقد انتقل الملك والملكة مع وليّ العهد المحمول على الذراعين ، الى القاعة التي يجري فيها الاحتفال ، وهي بادرة من بوادر التكريم لم تكن معهودة من ذي قبـــل .

ولم تكن ماري انطوانيت تعرف كيف تنهج فـن ربح الناس اليها بأساليب المهارة والحساب والخداع . غير ان الطبيعة قد زينت نفسها وجسدها بسيماء من النبل تستغوي الذين يقتربون منها للمرة الاولى . ولم يكن لا الافراد ولا الجماعات يعرفون التخلص من هذا السحر الغريب الآسر ، الذي يبعثه في نفوسهم الانطباع الاول الذي سرعان ما يتبدد بعد تعمّق المعرفة . وفي هذه المرة ايضا عندما دخلت هذه المرأة الصبية المليئة الاعطاف رقة وابّهة ، قفز الضباط والجنود من مقاعدهم وشهروا سيوفهم لافظين هتافا صاخبا حماسيا على شرف الملك والملكة ، متناسين ولا شك الهتاف الذي تتطلبه منهم الامة . واخذت الملكة تسير بين الصفوف ، فهي تعرف كيف تبتسم بطريقة ساحرة، وكيف تكون محببة . وتعرف كأمها الاوتوقراطية، وكأشقائها ، وكالغالبية من آل هبسبورغ (وهذا الفن ظل متوارثا بـين الارستقراطية النمساوية) ان تظهر بمظهر اللياقة واللطافة مع أكثر الناس بساطة ، ولكن دون ان تخفض من جانبها ، ودون ان تتخلى عن كبريائها الذي لا يتزعزع ، وهكذا فقد اخذت تدور حول المائدة مع اطفالها وهي تبتسم ابتسامة سعيدة صادقة ، اذ انها منذ زمن بعيد لم تسمع هذا الهتاف « لتحيا الملكة ! » . اما منظر هذه الملكة المليحة المرحّبة ، الآتية كضيف لزيارة هؤلاء الجنود الخشنين ، فقد أثار إخلاص الضباط والرجال ، فاذا هم جميعا مستعدون للموت في سبيل ماري انطوانيت . اما الملكة فقد تركت هي ايضا هذا الحفل الصاخب والحبور يملأ قلبها ، لأنها حستْ مع النبيذ المضياف ، رحيق الثقة المذهبة ، التي جعلتها تعتقد أن الاخلاص ما زال متوفرا ، وان عرش فرنسا ما برح في حرزٍ حريز !

ولكن منذ نهار الغد هبّت الصحف الوطنية تعلن بلهجة مسعّرة أن

الملكة والبلاط استأجروا القتلة ضد الشعب . فقد جرّع الجنود النبيذ الاحمر المسكر ليسفكوا بطاعة عمياء دماء مواطنيهم ، وداس الضباط واهانوا الراية المثلثة الالوان ، كما انهم انشدوا اناشيد دنيئة على مرأى من الملكة التي كانت تبتسم لهم ابتسامات مثيرة .

وبعد يومين ، أي في الخامس من تشرين الاول ، قامت تظاهرة في باريس . كيف ؟ هذا سر من اسرار الثورة الفرنسية العديدة الغامضة ، لأن هذه التظاهرة ذات المظهر العفوي المفاجىء ، هي في الواقع مدبرة تدبيرا رائعا ، وموقتة توقيتا سابقا . فقد كانت من الناحية السياسية محاكة بمهارة ، لكي تنطلق مباشرة وبطريقة مضبوطة من نقطة محددة ذات هدف معين ، مما يدل على ان ايدي شديدة اليقظة والمهارة قد احاطت بها . ولقد كانت ذكية منذ فكرتها الاولى (وهي فكرة لعلها من وضع « شودرلو دي لاكلو » الماهر في علم النفس ، والذي كان يقود كما نعرف ذلك ، الحملة في « القصر الملكي » ضد التاج ، لحساب دوق اورليان) . تقوم هذه الفكرة على الذهاب الى فرساي للاستيلاء على الملك ، ليس بواسطة جيش من الرجال ، ولكن بواسطة حشد من النساء . فقد يقال عن الرجال انهم متمرّدون ثائرون ، ويستطيع اي جندي مطيع عند تلقّيه الامر اطلاق النار عليهم . اما النساء في حالات الانتفاضات الشعبية ، فهن يظهرن عادة بمظهر اليائسات ، وان الحراب المسنّنة لترتد خاشعة امام صدورهن الضعيفة . وبالاضافة الى هذا ، يعرف قادة الحركة ان رجلا رعديدا وعاطفيا كالملك لا يجرؤ ابدا على اصدار الامر بتصويب مدفع على النساء . اذن فليدفعن الهياج الى ذروته ، وذلك بإيقاف تموين باريس بالخبز طيلة يومين متصلين ، لكي تنتشر المجاعة فيها التي هي لولب الحنق الشعبي الفعال . عندئذ تنفجر الحركة ، فتسرع النساء الى الطليعة ، الى الصف الاول !

وفي الواقع انها امرأة صبية ، يقال ان يديها كانتا مليئتين بالخواتم ، تلك التي نفذت الى جماعة من الحرس ، في صباح الخامس من تشرين الاول ، فاستولت على احد الطبول وشرعت تقرع عليه . فتراكضت جماعة من النساء بسرعة عجيبة ، ورصصن صفوفهن خلفها ، صارخات مولولات بأنهن يردن خبزا . هكذا بدأت التظاهرة . وبعد قليل انضم الى هذا الحشد الغفير جماعة من الرجال يرتدون ازياء النساء ، وراحوا يدفعون بهذا النهر الصاخب الى « قصر البلدية » الذي اكتسحوه بعد نصف ساعة ، مستولين على كميات وافرة من المسدسات والرماح ، وحتى على مدفعين . وفجأة اذا بقائد يدعى « مايار » (ترى من الذي دعاه ، ومن الذي دفعه ليلعب هذا الدور ؟) يؤلف

جيشا من هذا الحشد المضطرب المبدّد ، ويحضه على السير الى فرساي ، لجلب الخبز في الظاهر ، وفي الواقع لجلب الملك الى باريس . اما « لافايت » قائد الحرس الوطني ، فقد وصل على صهوة جواده الابيض متأخرا كعادته ، (وكأن القدر هو الذي كان يدفع هذا الرجل الاخرق ، الواثق ، الشريف الخلق على نبالة ، على الوصول دائما بعد وقوع الاحداث بساعة من الزمن) . ومن الواضح ان مهمته كانت تقتضيه منع انطلاق الركب الى فرساي ، وكان من جهته يودّ باخلاص انجاز هذه المهمة ، ولكن جنوده أبوا ان يطيعوه . فلم يبق عليه الا ان يسير في ركاب جمهور الثائرات مع حرسه الوطني . وهو يعلم انها مهمة غير كريمة ، وهو يشعر ، هذا الصديق القديم للحرية ، ان عمله هذا غير مسرّ ابدا . لذلك فقد راح بوجه قاتم يخب على صهوة جواده الشهير ، وراء الجيش الثائر ، جاهدا ان يسيطر على حماسة الجمهور من النساء ، هذه الحماسة التي تبدو غير منطقية ، والتي كانت ما تزال في بدايتها ، ولكن عبثا . (وهذا هو رمز للعقل البشري البارد الذي يحسب كثيرا ، ولكنه يبقى واهنا) .

اما قصر فرساي فلم يعرف شيئا حتى الظهيرة عن الخطر المقترب منه . فالملك كعادته كل يوم ، امر باسراج حصانه ، ومضى الى الصيد في غابات « مودون » . والملكة مضت هي ايضا منذ الصباح ، وحيدة سائرة على قدميها الى قصر « التريانون » . ولقد وجدت ان لا شيء يدعوها الى البقاء في قصر فرساي الرحب ، الذي هربت منه الحاشية مع خيرة اصدقائها منذ وقت طويل ، والذي يقوم الى جانبه «المجلس الوطني» حيث يقدّم المتعصبون كل يوم اقتراحات عدائية ضدها . وهي الآن متعبة من جميع هذه الاصوات الساخطة ، ومن هذه المعارك الجارية في الفراغ . انها متعبة من الرجال ، ومن تاجها ذاته . وهي لاتشتهي الا الراحة وحيدة ، طيلة ساعات هادئة ، بعيدا عن كل ما يتعلق بالسياسة ، في الحديقة الخريفية حيث كانت شمس تشرين الاول تصبغ اوراق الاشجار بأشعتها النحاسية . انها تريد ان تقطف بطمأنينة آخر زهرات الاحواض قبل قدوم الشتاء ، الشتاء العاصف الرهيب ، ولعلها تريد ايضا ان ترمي الطعام لأسراب البط ، وللاسماك الصينية ، في الغدير الصغير . ومن ثم فانها تريد ان تستريح ، ان تستريح اخيرا من جميع الثائرات ، ومن جميع المشاكسات ، فتجلس في المغارة حرة اليدين ، دون ان تعمل شيئا او ان تريد شيئا ، بفسطانها الصباحي البسيط ، والى جانبها كتاب مفتوح لا تقرأ فيه ، فاتحة قلبها على رحبه لكي يشعر بإرهاق الطبيعة في الخريف .

وهكذا كانت الملكة جالسة على مقعد حجري في المغارة (ولعلها نسيت منذ وقت طويل انها كانت تدعى مغارة الحب) عندما شاهدت حاجبا آتيا نحوها وفي يده ظرف . فنهضت مقبلة الى لقائه . فوجدت رسالة من « سان بريست » يعلن فيها ان الجماهير الشعبية زاحفة الى فرساي ، ويستحث الملكة للعودة حالا الى القصر . عندئذ التقطت ماري انطوانيت بسرعة قبعتها ومعطفها وعادت بخطاها المجنحة الدائمة الشباب ، وكانت عودتها مسرعة الى درجة انها لم تلق نظرة اخيرة على هذا القصر الصغير الذي كانت تحبه ، وعلى حواشيه الرقيقة المصنوعة بكثير من الجهد ، وبكثير من اللذة . فهل من الممكن ان يتبادر الى ذهنها انها لن ترى مرة ثانية تلك الاعشاب اللطيفة ، وتلك الروابي الرقيقة مع المحراب المكرّس للحب والغدير الخريفي ، ومع تلك البيوت الريفية التي تحيط بقصر التريانون ، وان ذهابها سوف يكون بلا عودة ؟

وعند وصول ماري انطوانيت الى قصر فرساي وجدت الوزراء وممثلي طبقة النبلاء في اضطراب وحيرة مستبدة . فقد عاد احد الخدم من باريس بسرعة ، ولكنه لم يأت الا بأخبار غامضة مشوّشة . ولقد مضى بعده عدد من الرسل ، ولكن جيشا من النساء اوقفهم في الطريق . وفجأة اذا بفارس يقترب ، فيقفز عن صهوة حصانه المزبد ويندفع راقيا الدرج الرخامي : انه فرسن . فهذا الرجل المستعد دائما للتضحية بذاته ، امتطى صهوة جواده ، عند اول بوادر الخطر ، واقبل ينهب الارض نهبا ، مجتازا صفوف « الثمانية آلاف يهوديت » كما يدعوهن مفاخرا كميل دي مولان ، ليكون الى جانب الملكة في هذه الساعة المدلهمّة . واخيرا وصل الملك الى المجلس المنعقد ، فقد وجدوه في الغابة قريبا من باب بلدة « شاتيّون » واضطروه الى الانقطاع عن الصيد ، هوايته المفضلة . وكان عليه في المساء ان يكتب في مفكرته عن رحلة صيد غير موفقة « انقطعت بسبب الحوادث . »

وها هو الملك حاضر الآن في فرساي ، وهو مذعور قلق العينين ، وبما ان كل جهد قد بات ضائعا ، لأنهم نسوا بسبب الاضطراب الذي سيطر على الجميع ان يقطعوا جسر « سافر » في وجه الطلائع الثائرة فقد انعقد المجلس العام . وكان متبقيا لديهم ساعتان من الوقت ، وهما كافيتان لاتخاذ أي قرار صارم . فاقترح أحد الوزراء على الملك ان يمتطي صهوة جواده ، عاديا في مقدمة فرقة الخيالة والفرق الاخرى المعروفة باخلاصها للعرش ، للقاء المتظاهرات اللواتي سيرغمهن مجرد ظهور الملك على التراجع . اما الحذرون اليقظون فقد راحوا ينصحون الملك والملكة بأن يتركا حالا القصر ، وان يلجآ

الى قصر « رامبوييه » القديم ، فتفشل هكذا اول ضربة غادرة موجهة ضد العرش . ولكن لويس السادس عشر ، الحائر الازلي ، أخذ يتردد ، قاصرا عن اتخاذ أي قرار جازم ، تاركا الاحداث تأتي اليه بدل ان يسارع الى لقائها.

اما الملكة فقد وقفت مطبقة الشفتين بين هؤلاء الرجال الحائرين المترددين ، الذين لا يوجد بينهم رجل واحد حقيقي . وإن غريزتها لتحدثها الآن بأن جميع اعمال العنف المعدة ضد التاج يجب ان تنجح ، لأن الجميع منذ ان سفك الدم الاول في باريس ، أخذوا يخافون الجميع : « اذ ان الثورة بكاملها ، كما قيل ، كانت نتيجة للخوف » . ولكن ماذا تستطيع ان تفعل وحدها ؟

وفي باحة القصر كانت المركبات مجهّزة بخيلها المكدونة اليها ، وبعد ساعة فقط تستطيع العائلة الملكية مع الوزراء والمجلس الذي اقسم على اتباع الملك حيثما يشاء ، ان يكونوا جميعا في قصر « رامبوييه » . ولكن الملك لم يقرر أبدا اعطاء اشارة السفر ، فأخذ الوزراء يلحّون في طلب الرحيل ، ولا سيما « سان بريست » الذي اتجه الى الملك قائلا : « ان اقتيادك الى باريس غدا ، إنما يكون نذيرا بفقدانك التاج ! » ولكن « نيكير » الذي يتمسك بشعبيته اكثر من تمسكه بحقوق التاج ، قدم رأيا معاكسا تماما . فأخذ الملك كعادته يتأرجح كرقاص الساعة بين هذين الرأيين المختلفين . ثم اقبل المساء ، وظلت الخيل بفارغ صبر تحفر الارض بحوافرها ، تحت عاصفة من المطر الغزير ، كما ان الحجاب والخدم ظلوا طيلة ساعات على ابواب المركبات ، والمجلس ما انفكّ منعقدا لا ينتهي .

ولكن فجأة اذا بضجيج مبهم مختلط يصعد من جادة باريس ، إنه ضجيج النساء المقتربات ، ضجيج اولئك السوقيات المسترجلات اللواتي كن يسرن بخطى واسعة ككتلة قاتمة في الليل ، وتنانيرهن مرفوعة فوق رؤوسهن يتقين بها المطر المنهمر . وبعد لحظات كانت طلائع الثورة أمام فرساي ، إذ وصلت النساء مبلّلات بالماء حتى عظامهن ، جائعات مرتجفات من البرد ، وقد امتلأت احذيتهن بالوحل . فهذه الساعات الست من السير الحثيث لم تكن لعبة مسلية ، بالرغم من مهاجمتهن الحانات أثناء الطريق ناهلات منها جُرع النبيذ لتدفئة معدهن المقرقرة . هنا شرعن يطلقن الف صراخ بأصواتهن الخشنة المبحوحة ، موجهات للملكة هتافاتهن المعادية . وكانت زيارتهن الاولى من حظ المجلس الذي ما انفك يعقد جلسته منذ الصباح ، والذي لم تكن مسيرة النساء لتفاجىء بعض أعضائه الذين هم من انصار دوق أورليان .

وفي بادىء الامر لم يطلبن من المجلس الا خبزا ، ووفقا للبرنامج الموضوع

سابقا فانهن لم يتكلمن ابدا عن رغبتهن بنقل الملك الى باريس . فتقرر إرسال بعثة الى القصر لمقابلة الملك ، بمرافقة رئيس المجلس « مونييه » وبعض النواب . وعندما وصلت النساء الست اللواتي وقع عليهن الاختيار الى القصر ، راح الحجّاب يفتحون الابواب بلياقة أمام هؤلاء البائعات للأزياء وللسمك اللواتي هن من نساء الشارع . ولقد تسلقت هذه البعثة العجيبة درجا من الرخام العريض ، وادخلت الى رُدَهٍ لا يدخلها عادة إلا صفوة النبلاء الاقحاح . وبين النواب الذين رافقوا رئيس المجلس ، كان هناك رجل متين البنية ضخم الجثة ذو مظهر مرح ، لا يثير الانتباه بنوع خاص ، ولكن اسمه يمنح هذه المقابلة مع الملك قيمة رمزية ، لأن الدكتور « غيوتان » نائب باريس هو أول من جعل المقصلةتزور البلاط للمرة الاولى في الخامس من تشرين الاول ، واسم المقصلة الفرنجي إنما هو اشتقاق من اسمه .

وكان الملك لويس لطيفا بشوشا ، فاستقبل هؤلاء السيدات بتودد شديد ، حتى ان الناطقة بلسانهن ، وهي امرأة صبية كانت عادة تقدم الازهار للمترددين الى « القصر الملكي » في باريس كاد يغمى عليها ، ولعل شيئا من الهلع ألم بها . فأجريت لها الاسعافات اللازمة ، وعندما ثابت الى رشدها قبّلها الملك الساذج البسيط قبلة لطيفة ، ووعد النساء الذاهلات بالخبز وبكل ما يردن ، بل لقد وضع مركباته تحت تصرفهن من اجل العودة الى باريس . فالامور كما يظهر اخذت تسير سيرا رائعا ؟ الا ان بعض العملاء المستترين اخذوا يثيرون جمهور المتظاهرات اللواتي استقبلن بعثة النساء بصراخ الغضب والتأنيب ، متهمات رفيقاتهن بأنهن قبلن الرشوة واكتفين بالاكاذيب . اذ انهن لم يسرن تحت المطر المنهمر مسافة ست ساعات ليعدن بمعد خاوية ، ولكي يكتفين بالوعود البراقة . كلا ، لن يغادرن أماكنهن قبل ان يصطحبن الملك والملكة ومن اليهما الى باريس ! وسرعان ما دخلت بعض النساء الى قاعة المجلس لينمن فيها ، بينما عمدت بعض من يتقنّ فنون الغزل مثل « تيرواني دي ماريكور » الى إغواء الجنود . ولم يلبث عدد المتظاهرات ان ازداد إذ انضم اليهن بعض المتأخرات في الطريق ، فكنت لا تنفك ترى أشخاصا مشبوهين ينسلّون على طول الحواجز ينيرهم ضوء القناديل الشاحب الباهت .

اما البلاط فلم يأخذ حتى هذه الساعة ايضا قرارا حاسما : ترى الا يكون الهرب أفضل في مثل هذه الحال ؟ ولكن كيف يمكن اجتياز هذا الحشد الغفير المضطرب بتلك المركبات الثقيلة ؟ كلا لقد فات الاوان . وأخيرا عند منتصف الليل سمع قرع طبول آتية من بعيد : إنه « لافايت » الذي كان

يقترب من القصر ، وتوجه حالا عند وصوله الى المجلس ، ثم قام بزيارة الملك . ورغم انحنائه باحترام صادق ليقول : « جئتك يا مولاي براسي لكي انقذ هامة جلالتك من اي أذى » ، فان احدا على الاطلاق لم يفكر بأن يقول له كلمة شكر واحدة ، حتى ماري انطوانيت التي اخذت تزدريه هو أيضا . عندئذ أعلن لويس السادس عشر بأنه لم تبق لديه أية نية بالذهاب او الابتعاد عن المجلس ، لأن لافايت والجيش هم هناك مستعدون لحمايته . فعاد النواب عندئذ الى منازلهم ، وكان المطر غزيرا يبلل كل شيء ، فالتجأ جنود الحرس الوطني والمتظاهرات الى الثكنات والكنائس ، وازدحموا تحت السقائف ، وعلى كل درج مدروء . ورويدا رويدا ابتدات القناديل تنطفي ، وبعد ان زار « لافايت » مرة اخيرة جميع المراكز ،بالرغم من وعده السهر على أمن الملك ، قصد الى اوتيل « دي نواي » واندس في سريره عند الساعة الرابعة صباحا . وكذلك دخل الملك والملكة الى حجرتيهما دون ان يشكا بأنهما سينامان للمرة الاخيرة في قصر فرساي .

٢١ ـ مركبة الملكية الحزينة

ذلك هو العهد القديم ، والملكية وحراسها ، وجميع الارستقراطيين ينامون ولكن الثورة فتية ، ودمها حار فائر ، فلا تحتاج الى راحة ، إذ انها تنتظر بفارغ صبر لحظة العمل الحاسمة . أما جنود التمرد من النساء اللواتي لم يجدن مأوى يأوين اليه فقد تجمعت حلقات حول النيران المضرمة في وسط الشارع ، ولا يستطيع احد ان يقول لماذا لا يزلن في فرساي ولا يعدن الى باريس ليأوين الى اسرتهن ، بالرغم من تنازل الملك ووعده إياهن بكل شيء. لا شك ان ارادة خفية تمسك بهذه الجماعة المضطربة وتسيطر عليها . وإن ظلالاً تروح وتجيء كانت لا تنفك تنقل البلاغات السرية . وفي الساعة الخامسة صباحا ، بينما كان القصر ما يزال غارقا في الظلمة والكرى ، تسللت فئات تقودها يد نبيهة ، من باحة الكنيسة ، وتركزت تحت نوافذ القصر . ولكن ماذا عساهم يريدون ؟ ومن ذا الذي يقود هؤلاء الاشخاص المشبوهين ؟ ومن الذي يوجههم ويدفعهم الى هذا المكان لهدف لم يُعرف بعد ولكنه معيّن محدد ؟ ان المحركين يبقون في الظل ، كما ان الدوق « دورليان » والكونت « دي بروفانس » شقيق الملك قد فضلا الا يبيتا هذه الليلة في القصر الى جانب مليكهما الشرعي ، وقد يكون لديهما مبررات خاصة . على كل حال ، وفجأة ، إذا بطلقة بندقية تنفجر ، طلقة من تلك الطلقات المثيرة ، الضرورية

دائما لاضرام نار المعركة المطلوبة . فأخذ المتظاهرون يتقاطرون من كل جهة ، عشرات ومئات والوفا ، وهم مسلحون بالرماح والمعاول والبنادق ، كأنك ترى فرقا بكاملها من النساء والرجال المتنكرين بأزياء النساء ، وقد اندفعوا جميعا نحو حجرات الملكة . ولكن كيف حدث ان سلكت بائعات السمك هؤلاء ، وسوقيات باريس ، اللواتي لم تطأ اقدامهن سابقا أرض فرساي ، بمثل هذه المهارة والدقة والسرعة في هذا القصر الرحب الكثير السلالم ، والذي يضم اكثر من مئة غرفة ؟ وبلمحة عين هاجمت جمهرة النساء والرجال المتنكرين السلم الذي يؤدي الى حجرات ماري انطوانيت ، ولقد حاول ان يعترض طريقهن بعض رجال الحرس ، ولكن اثنين منهم سقطا في الحال وقتلا بشراسة ، فتقدم منهما رجل ضخم ملتحٍ وجزّ راسيهما اللذين كانا بعد دقائق يموران نازفين على رؤوس الحراب الطويلة .

ولكن الضحيّتين ادّتا واجبهما ، لأن صراخ نزاعهما الحاد أيقظ القصر في الوقت المناسب . وكان ان تملص أحد رجال الحرس الثلاثة من مهاجميه ، فأخذ يتسلق الدرجات أربعا أربعا بالرغم من انه جريح ، صارخاً « أنقذوا الملكة ! » في هذا القصر الرخامي الذي كان يرجّع الصراخ كصدفة جوفاء . فاندفعت إحدى الوصيفات مذعورة الى حجرة ماري انطوانيت ، بينما راحت الابواب التي اسرع جنود الحرس الملكي ـ للذود عنها ـ ترتج تحت ضربات المعاول والفؤوس . ولم يمهل الوقت الملكة ان تلبس جوربها او حذاءها ، ولم تستطع الا ارتداء فسطان فوق غلالتها ، ووضع شال على كتفيها ، وهكذا اخذت تجتاز راكضة ، ـ حافية القدمين ،وجوربها في يدها ، وقلبها خافق خفقانا شديدا ، ـ الممر الذي يؤدي الى قاعة الاسرار الملكية الفسيحة ، ومنها الى جناح الملك . ولكن يا للهول ! ان الباب مغلق . فشرعت الملكة مع وصيفتها يطرقن عليه طرقا يائسا بقبضاتهن ، ولكن احدا لم يستجب لهن . وكان عليهن ان ينتظر خمس دقائق ، خمس دقائق طويلة مرعبة ، قبل ان تبلغ طرقاتهن مسمع أحد الخدم القابعين في الجهة الثانية من الباب فيأتي ليفتح لهن ، لكن تدخل عندئذ ماري انطوانيت ، وتلتجيء الى حجرات زوجها . وفي هذه الاثناء كان القاتلون المأجورون قد دخلوا بالعنف الى الغرف المجاورة ، وشرعوا يفتشون في الاسرّة والخزائن كما ان الحاضنة كانت قد انضمت الى الملكة مصطحبة معها ولي العهد مع شقيقته صاحبة السمو الملكي . وهكذا اجتمعت الاسرة الملكية وقد سلمت حياة افرادها ، ولكن حياتهم فقط .

واخيرا استيقظ النائم من سباته ، « لافايت » الذي كان عليه هذه الليلة الا يتعبّد لـ « مورفيه » إله الليل والنعاس ، والذي لقّب منذ ذلك

الحين « الجنرال مورفيه » . وعند يقظته شعر بعواقب ثقته اللامبالية ، فأقبل الى القصر ، ولم يستطع ان ينفذ من الموت رجال حرسه الاسرى وان يُخرج جمهرة المتظاهرات من الحجر الملكية إلا بالرجاء والتوسلات لا بسلطة القائد الذي بيده زمام الامر . والآن بعد ان زال الخطر الداهم ظهر فجأة الكونت « دي بروفانس » والدوق « دورليان » وهما حليفان « مبودران » على اكمل وجه . ويا لغرابة الامر ! إذ اخذت الجموع المحتشدة الهائجة تفسح لهما طريق المرور باحترام وإجلال . عندئذ استطاع مجلس التاج ان ينعقد . ولكن ماذا عساه ان يناقش ، والقصر قد اصبح مجرد قشرة جوز سريعة العطب بين القبضات السوداء الدموية ، قبضات عشرة آلاف من المتظاهرين ، راحوا يشدون عليه الخناق ؟ فلقد انتهت إذن المفاوضات والمساومات بين الغالب والمغلوب ، واصبحت الجماهير تزمجر تحت النوافذ ما لقنه إياها بهمس لطيف ، اليوم او بالامس ، عملاء النوادي السياسية ، هاتفة : « الى باريس ايها الملك ! الى باريس ! » وكان الصراخ شديدا عنيفا ، حتى أن زجاج النوافذ أخذ يرتج ، وحتى ان رسوم الاسلاف المعلقة على جدران القصر أخذت ترتجف من الذعر !

وحيال هذا الامر الملح من قبل المتظاهرين نظر الملك الى لافايت نظرة متسائلة : هل من الواجب عليه ان يطيع في الحال ؟ ولكن لافايت خفض عينيه، لأن إله الجماهير هذا بات يعلم منذ البارحة انه فقد هالة جبينه . اما الملك فقد كان يأمل أيضا ان يتأنى ليربح الوقت ، لذلك فقد قرر ان يظهر على الشرفة لكي يهدىء من غليان الجموع الصاخبة ، ولكي يحد قليلا من جوعها النهم للانتصار . ولم يكد الملك الطيب يطل على الشعب حتى اخذ التصفيق يشق كبد السماء . فالشعب يصفق دائما للملك عندما يتغلب عليه . ولماذا تراه لا يصفق عندما يطل الملك عليه حاسر الراس ، منحنيا بتودد نحو المكان الذي اجتثت فيه راسا حارسين من حراسه كبهيمتين ، ثم لوّح بهما على اسنة الرماح ؟ اذ ان هذا الرجل البارد، القليل الحساسية بالكرامة والشرف، لا تكلفه أية تضحية خلقية شيئاً . ولو عاد جمهور الشعب الى المنازل هادئا ، لكان الملك بعد هذا الاتضاع الاداري ، وبعد ساعة تماما ، يمتطي حصانه ويمضي الى الصيد لا مباليا لكي يعوض عما فاته البارحة بسبب «الحوادث» . ولكن الشعب لم يكتف بهذا النصر الوحيد ، بل مضى في سكرة كبريائه هذه يطلب خمرة أقوى مفعولا ، واشد دوارا في الراس . فعلى الملكة ان تظهر هي ايضا الى الشرفة تلك الملكة الحجرية القلب ، النمساوية الماجنة الصعبة المراس. هي ايضا ، هذه المغرورة ، يجب ان تحني رأسها أمام النير اللامرئي .

هنا أخذ الصراخ يزداد عنفا ، وأخذت الجماهير تدق الارض بأقدامها دقا ضاريا ، وأخذ نداؤها الآمر الملحّ الاجش يهدر مرددا : « نريد الملكة ! لتصعد الملكة الى الشرفة ! » .

ولكن ماري انطوانيت لم تتحرك من مكانها ، حيث كانت شاحبة ، مطبقة الشفتين . وإن ما يشلّ حركتها ، ويطرد اللون من تقاسيم وجهها ، ليس خوفها من الشتائم والحجارة والبنادق التي اصبحت على وشك ان تنطلق ، ولكنه الشموخ والكبرياء الوراثية التي لا تحطم ، كبرياء رأسٍ ورقبةٍ لم ينحنيا ابدا امام أي شخص . وها هي الآن أبصار الجميع مصبوبة عليها ، وقد استبدت بها الحيرة والقلق . واخيرا ، بعد ان اصبحت النوافذ ترتج من الضجيج الصاخب المرتفع ، وقد اصبحت الحجارة على وشك ان تصفر ، تقدم لافايت منها قائلا : « هذه الخطوة ضرورية يا مولاتي لتهدئة غضب الشعب » . فأجابت ماري انطوانيت : « ما دام الامر كذلك فانني لن اتأخر . » ثم أخذت ولديها بيديها ، وخرجت الى الشرفة شامخة الرأس ، مزمومة الشفتين لا كمتوسلة ، ولكن كجندي يسير الى المعركة وقد صمم تصميما إداريا ان يموت دون ان يرتجف . واطلت ماري انطوانيت على الجماهير دون ان تنحني ، فإذا بموقفها هذا المستقيم المتشامخ يفرض نفسه على جمهور المتظاهرين ، واذا بنظر الملكة ونظر الشعب كمجريين كهربائيين يلتقيان معا . فكان التوتر شديدا الى درجة ان صمتا مميتا جثم على الساحة الفسيحة طيلة دقيقة بكاملها . ولم يكن احد يعلم ما الذي سيقطع هذا الصمت المتوتر ، أهي زمجرة الحنق والحقد ، أم طلقة بندقية ، أم رشق من الحجارة . ولكن لافايت الجنرال الشجاع دائما في الظروف العصيبة تقدم من الملكة ، وبحركة فيها من سمات الفروسية ، انحنى أمامها لاثما يدها .

فانفرج الموقف انفراجا سريعا بعد هذه الحركة ، وحدث ما لم يكن يحسب له حساب أبدا ، اذ ان هتاف « لتحيَ الملكة » انبجس من رحاب الساحة وقد لفظته ألوف الصدور . ذلك ان هذا الشعب الذي سيطر عليه الذهول قبل برهة أمام ضعف الملك ، هو ذاته اخذ يهتف الآن لشموخ وصلابة هذه المراة التي اظهرت انها لم تأت لتستجدي عطفه عليها بابتسامة مصطنعة ، او بضروب من التودد الجبان . وعندما عادت ماري انطوانيت من الشرفة اجتمع حولها جميع من في الغرفة وهنأوها كأنها انقذت من خطر مميت . ولكن ، بعد خيبة أملها الاولى ، لم يعد يخدعها هذا الهتاف الشعبي الذي جاء متأخرا . لذلك فقد قالت لمدام « نيكير » وعيناها مغرورقتان بالدموع : « لا بد وانهم سيرغموننا أنا والملك على الانتقال الى باريس ، مع رأسي حارسينا

المرفوعين على أسنة رماحهم . »

وكان شعور ماري انطوانيت صائبا ، فلم يعد الشعب يقنع بانحناءة تصطنع امامه ، بل انه ليهدم هذا البيت حجرا حجرا ، ولوح زجاج إثر آخر ، قبل ان يتنازل عن إرادته . ذلك ان النوادي السياسية لم تحرك هذه الآلة الضخمة هكذا عبثا ، كما ان هذه الالوف من الرجال والنساء لم تسر طوال ست ساعات تحت المطر لكي تؤوب بمجرد الخسران . وهوذا اللغط يرتفع الآن بشكل عنيف ، وهؤلاء هم رجال الحرس الوطني الذين أتوا لحماية البلاط قد أصبحوا على استعداد للانضمام الى الجماهير المحتشدة لمهاجمة القصر . ولكن لم يلبث رجال البلاط ان رضخوا للأمر ، فألقيت من اعالي الشرفة ومن النوافذ اوراق تعلن بأن الملك قرر ان ينتقل الى باريس ليجعل إقامته فيها مع اسرته . هذا جل ما كان يطلبه المتظاهرون ، فوضع الجنود عندئذ بنادقهم ، واختلط الضباط برجال الشعب ونسائه ، وراحوا يتعانقون ويهتفون مغتبطين . وأخذت البيارق تخفق فوق الجموع ، ثم نقل الراسان النازفان على رؤوس الحراب الى باريس بسرعة ، لأنهما لم يعودا ضروريين كوسيلة من وسائل الانذار والتهديد .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر فتحت درفتا القصر الكبيرتان الشبيكتان المطليتان بالذهب على مصراعيهما ، وخرجت مركبة كبيرة ذات اربعة دواليب، يجرها ستة رؤوس من الخيل فوق البلاط الخشن ، ناقلة الملك والملكة والاسرة بكاملها . انهم الآن يغادرون فرساي الى الابد . وها هوذا فصل من التاريخ ، او عشرة قرون من الاوتوقراطية الملكية قد بلغت نهايتها العسيرة .

ولقد رأينا ان الثورة اشتعلت ، في الخامس من تشرين الاول ، في يوم ماطر تعصف به الرياح الاربع من كل جانب . اما انتصار السادس من تشرين الاول فقد حياه نهار رائع . فالنسيم الخريفي نقي ، شديد النقاء ، والسماء ذات زرقة حريرية ، واوراق الاشجار النحاسية لا تهزها اية ريح من الرياح . فكأن الطبيعة تحبس انفاسها بفضول لتشاهد هذا الحدث الفريد بين القرون : اي اختطاف الشعب لمليكه . ويا لهذه اللوحة الغريبة التي تؤلفها عودة لويس السادس عشر وماري انطوانيت الى عاصمتهما ! فهي نصف موكب جنائزي ، ونصف مسيرة جذلة ، اي انها تجمع بين دفن الملكية وكرنفال الشعب في اطار واحد . ولكن ماذا عساه يكون هذا الاحتفال الغريب الجديد من نوعه ؟ حيث لا يتقدم عربة الملك فرقة من العدائين الذين لهم شرائط على اكمامهم ، ولا يخب على جانبها من اليمين واليسار فرقة البزاة على خيولهم الرمادية اللون ، وفرقة الحرس الملكي ببزاتها ذات الشرائط المقصبة . وليس

هم النبلاء الذين يرافقونها ببذلاتهم الفخمة الاحتفالية ، ولكنها جمهرة قذرة المظهر ، غير منظمة راحت ترافقها وكأنها تدفع امامها حطام سفينة . اما جنود الحرس الوطني فقد كانوا يسيرون في طليعة الموكب وهم ممزقو الثياب، مبددو الصفوف ، متشبكو الاذرع، يضحكون ويهزجون وغلايينهم في افواههم، وقطع من الخبز مغروزة في اطراف حرابهم . وكانت النساء يمتطين المدافع ، او يقاسمن جنود الخيالة صهوات افراسهم ، او يسرن على الاقدام بين اذرع الجنود والعمال كأنهن ماضيات الى عيد . وخلف هؤلاء كانت تسمع قرقعة العربات المحملة بالطحين الذي سُرق من المخازن الملكية ، وكان رجال من الخيالة يحرسون هذه العربات . وكانت هذه المسيرة تتقدم ثم تتأخر ثم تندفع باطراد ، وهي جذلة تهتف للجماهير التي احتشدت للتفرج عليها . وكانت « تيرواني دي ماريكور » رئيسة النساء المسترجلات ، لا تنفك تلوح بسيفها تلويحا جنونيا . وفي وسط هذا الصخب وهذا الهياج العنيف كانت تتقدم عربة مسكينة حزينة قد علاها الغبار ، وانحشر في داخلها خلف الستائر المنخفضة قليلا ، لويس السادس عشر الخَلَف الجبان للويس الرابع عشر ، وماري انطوانيت بنت ماري تيريز ، والتي تشبه حياتها المأساة ، وولداهما والحاضنة . وكانت تتبع خطاهم الجنائزية عربات الامراء الملكيين ، وحاشية البلاط ، والنواب ، وما ندر من الاصدقاء الاوفياء . انه النظام القديم وقد راح يدحرجه النظام الجديد ، وهو للمرة الاولى لا يستطيع ان يقاوم اندفاعه العنيد .

ولقد دامت هذه المسيرة بين فرساي وباريس ست ساعات . وطوال الطريق كان الناس يخرجون من البيوت ، ولكنهم لا يكشفون عن رؤوسهم باحترام امام هذين المغلوبين ، بل يصطفون بفضول وصمت وكل منهم يريد ان يشاهد اتضاع الملك والملكة . اما المتظاهرات فكن يشرن الى غنيمتهن صارخات بلهجة منتصرة : « اتينا بالخباز والخبازة والخباز الصغير . ولقد قضي على المجاعة الآن » . وكانت ماري انطوانيت تسمع جميع هذه الهتافات الحاقدة المزدرية ، فتنكمش على نفسها في قعر العربة لكي لا ترى احدا ولا يراها احد ، وتغمض عينيها ، ولعلها كانت تحلم طيلة هذه الساعات الست الطويلة التي لا تنتهي ، بالسفرات التي لا تعد ولا تحصى ، التي كانت تقوم بها على هذه الطريق بالذات وهي فرحة لامبالية ، بمركبتها الخفيفة الخاصة ، وبرفقة مدام بولينياك ، عندما كانت تمضي الى حفلات الرقص المقنّعة ، او الى دار الاوبرا ، او الى جلسات العشاء التي لا تعود منها حتى الفجر ، ولعل عينيها كانتا تبحثان احيانا ، بين خيالة الحرس ، عن صديقها المتنكر بزيّهم ،

صديقها الوحيد الحقيقي الذي كان يرافق الموكب . ولربما كانت ايضا لا تفكر بشيء ، لأنها كانت متعبة ، منهوكة القوى ، شاعرة بأن عجلات مركبتها كانت تدور ببطء ، ببطء شديد ، نحو مصير ليس له مردّ .

واخيرا توقفت مركبة الملكية الحزينة عند ابواب باريس ، حيث كان ينتظر « الجثمانَ » السياسي استقبال حافل ، فتقدم حاكم المدينة « بايي » على ضياء المشاعل الشاحبة ، واستقبل الملك والملكة ، مشيدا بيوم السادس من تشرين الاول الذي جعل لويس السادس عشر محكوما خاضعا لمحكوميه ، اذ قال مفخما : « ما اجمل هذا النهار يا مولاي ، الذي سيمتلك فيه الباريسيون جلالتكم وأسرتكم في مدينتهم . » فأحس الملك العديم الشعور بهذا الغمز من جانبه ، واجاب بلهجة جافة : « آمل يا سيدي ان تؤول إقامتي في باريس الى استتباب السلام ، والوفاق ، والى الخضوع للشرائع » .

ولم ينته كل شيء ، اذ رغم تعب العاهلين المضني المميت ، كان عليهما ان يذهبا الى دار البلدية « اوتيل دو فيل » لكي تستطيع باريس بأجمعها مشاهدة رهينتيها . وهناك نقل « بايي » كلمات الملك التالية : « انني لأجد نفسي دائما في مدينتي باريس الحبيبة بلذة وثقة » . ولكن « بايي » نسي كلمة « وثقة » . فلاحظت ماري انطوانيت بحضور ذهنٍ غريب نسيان هذه الكلمة الهامة التي قد يكون من شأنها التأثير على هذا الشعب الثائر ، ونبهت بصوت مرتفع بأن الملك عبّر ايضا عن ثقته بشعبه .

واخيرا كان على العاهلين ان يطلا من النافذة على ضوء المشاعل التي قدمت من ناحيتي وجهيهما لكي يتأكد الشعب من ان الملك والملكة هما اللذان احضرا من فرساي ، لا دميتان من الدمى التي تحركها بعض الاصابع . ويا لحماسة الشعب الذي اثمله انتصاره غير المنتظر ! والذي جعله سخيا ، فراح يهتف بهتافاته المهجورة منذ وقت طويل : « ليحي الملك ! » « لتحي الملكة ! » التي اخذت تتجاوب في رحاب ساحة الاضرابات . عندئذ فقط سمح للويس السادس عشر ولماري انطوانيت ، مكافأةً لهما ، بالانتقال الى قصر «التويلري» دون حرس عسكري ، ليستريحا فيه من عناء هذا النهار الرهيب ، ولكي يتسنّى لهما قياس اللجّة التي دفعا اليها . وبعد قليل توقفت المركبات الملتحفة بالغبار امام قصر مظلم مهجور ، اذ ان الاسرة الملكية منذ عهد لويس الرابع عشر ، اي منذ اكثر منماية سنة ، لم تقطن في هذا القصر الذي كان مخصصا لاقامة الملوك ، لذلك فقد كانت حجره عاطلة من الاثاث : فلا اسرة فيها ، ولا شموع للانارة . وكانت ابوابه مصدّعة ، وزجاجه مكسّرا تدخل منه الرياح الباردة . وبسرعة شرع على ضوء الشموع المستعارة ، بإعداد غرف

النوم للأسرة الملكية التي سقطت من السماء كأنها نجم مذنّب . وعند دخول ولي العهد البالغ من العمر اربع سنوات ونصف السنة ، ولي العهد الذي نشأ في اجواء فرساي والتريانون الرائعة ، والذي كان معتادا على بهاء الثريات ، ولمعان المرايا المتوهجة ، وعلى ثراء البيئة وابهتها ، رفع وجهه الى امه وقال : « كل شيء قبيح المنظر هنا ، يا أماه ! » فأجابته الملكة : « لقد سكن هذا المكان ، يا بني ، لويس الرابع عشر ، ولقد كان سعيدا . فليس علينا نحن ان نكون ارفع ذوقا منه » . اما الملك لويس لقد اقتنع لامباليا بسريره ، وتثاءب ثم قال للآخرين بصوت كسول : « ليتدبّرن كلٌ أمره كما يستطيع ، أنا مسرور هنــا » .

اما ماري انطوانيت فلم تكن قانعة بقسمتها هذه . فهي لن تعتبر أبدا هذا البيت الذي لم تختره بمحض حريتها ، الا كسجن مظلم . كما انها لن تنسى أبدا كيف اتي بها اليه بطريقة وضيعة . وها نحن نراها تكتب بسرعة الى « مرسي » قائلة :

« لن يستطيع أحد ان يصدق ما حدث لنا في الاربع والعشرين ساعة الاخيرة . لقد حاولت كثيرا ان اتحاشى المبالغة ، ولكن بالعكس فان كل شيء هو أقل مما رأيناه وعانيناه » .

٢٢ ـ العودة الى النفس

كانت الثورة في عام ١٧٨٩ لا تعي مطلقا مقدار قوتها ، وتخشى احيانا بوادر جراتها . ومن ثم فان الجمعية العمومية ومستشاري مدينة باريس ، والبورجوازية ، (وجميعهم كانوا لا يزالون مخلصين في دخيلتهم للملكية) قد اصبحوا الآن مذعورين من حركة النساء التي جعلت الملك رهن أيديهن دون ان يكون له ما يحميه . لذلك فقد راحوا يعملون ما في وسعهم ، بدافع من الحياء ، لمحو هذا العمل الخشن العنيف ، موحدين جهودهم لتحويل حادث اختطاف الاسرة الملكية ، بوساطة الاكاذيب ، الى نوع من تغيير الاقامة الاختيارية . وهكذا فقد كانوا يتبارون تباريا مؤثرا بوضع اجمل الورود على قبر السلطة الملكية ، آملين في سرهم اخفاء حقيقة موت الملكية الابدي ، وحقيقة وضعها في الكفن منذ ٦ تشرين الاول (اكتوبر) . واذا بالبعثات تتعاقب على زيارة الملك لتؤكد له تعلقها العميق بشخصه . فالبرلمان ارسل ثلاثين عضوا من اعضائه ، وجاء المجلس البلدي يقدم احترامه للملك ، كما ان حاكم المدينة انحنى امام ماري انطوانيت وقال :

« ها هي المدينة تصفق لرؤيتك في قصر ملوكنا . وهي ترغب ان يوليها الملك وجلالتك عطفا بالاقامة الدائمة فيها » .

ولقد جاءت « الفرقة العليا تقدم هي ايضا شعائر احترامها ، مع الجامعة ، وديوان المحاسبات ، ومجلس التاج الملكي ، واخيرا الجمعية الوطنية التي جاءت بكامل اعضائها في ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) . وكان الشعب يزدحم يوميا جماعات جماعات امام نوافذ «التويلري» هاتفا : «ليحي الملك !» « لتحي الملكة ! » . وهكذا كان الجميع يعملون ما في وسعهم ليعبروا للملك عن فرحهم « بتغييره موضع اقامته عن اختيار تام » . غير ان ماري انطوانيت العاجزة دوما عن اخفاء عاطفتها ، وزوجها المطيع دائما ، كانا يدافعان ضد تزويق الحوادث بهذا الشكل ، بعناد يمكن فهمه وتعليله من الناحية الانسانية ، ولكنه يبقى اعتباطيا من الناحية السياسية . واليك ما كتبته الملكة للسفير « مرسي » : « لو استطعنا ان ننسى المكان الذي نحن فيه ، والطريقة التي جئنا بهاليه ، لكنا مسرورين من حركة الشعب » . وفي الواقع فهي لا تستطيع ولا تريد ان تنسى ذلك ، لأنها تلقت اهانات جمة ، فنقلت بالقوة الى باريس ، وهوجم قصرها في فرساي ، وفتك بحرسها الملكي دون ان ترفع الجمعية الوطنية والحرس الوطني اصبع الاحتجاج . واخيرا لقد سجنت في قصر التويلري ، ويترتب على العالم بأسره بأن يأخذ علما بهذه الاهانة التي التي المت بحقوق الملك المقدسة . لذلك لم يكن من أمرهما الا انهما راحا عن قصد يبرزان قضية اندحارهما : فالملك كف عن الصيد ، والملكة قاطعت الذهاب الى المسرح ، ولقد امتنعا كلاهما عن الظهور في الشارع وعن الخروج بمركبتهما ، تاركين فرصة ثمينة تفلت من أيديهما ، فرصة ان يصبحا من جديد شعبيّين في باريس . ولقد اورثهما هذا الانزواء المتصلب ضررا فادحا ، ذلك أن البلاط عندما كان يظهر بمظهر المعتدى عليه كان يُقنع الاذهان بقوة الشعب ، ولما كان الملك يعلن دائما انه الاضعف ، فقد اصبح كذلك بالفعل . فالملك نفسه والملكة هما اللذان حفرا حول « التويلري » حفرة غير منظورة ، وهما اللذان ، بسبب كبريائهما الاحمق ، قد حوّلاه الى أسر للحرية التي لم يكن ينكرها عليهما لا الشعب ولا الجمعية الوطنية .

واذا كان البلاط يعتبر قصر التويلري سجنا ، فهو يريد على الاقل ان يكون هذا السجن ملكيا . لذلك فقد شرعت العربات الضخمة منذ الايام الاولى تنقل الاثاث من فرساي ، وشرع النجارون والفراشون يمارسون العمل حتى ساعة متأخرة من الليل . ثم ، اذا بجميع موظفي البلاط القدامى الذين فضلوا البقاء على الهجرة ، يفدون الى المقر الجديد ، فتمتلىء غرف

المنافع العامة بلفيف الحجاب والخدم والحوذيين والطهاة ، حتى اخذت جميع مظاهر فرساي تنعكس في ممرات القصر ، وحتى اعيدت اليه جميع شعائر اللياقة والكياسة . الا ان فرقا صغيرا ظل يلفت الانظار ، ذلك ان رجال الحرس الملكي التابعين للافايت هم الذين يقومون بالحراسة الآن امام الابواب ، بدل نبلاء الحرس الملكي الذين صفي امرهم .

اما الاسرة الملكية فانها لم تسكن الا في بعض حجرات من سلسلة اجنحة «التويلري» و «اللوفر» الفسيحة العديدة ، لأنها صرفت نظرها عن الاعياد ، والحفلات الراقصة ، وحفلات الميسر ، وعن كل مظاهر البذخ والأبهة . لذلك فهي لم ترتب الا الجناح الذي يطل على الحديقة (وهو الجناح الذي أحرقه مجلس العموم سنة ١٨٧٠ ، ولم يعد بناؤه منذ ذلك الحين) . وهو يتألف ، في الطابق العلوي ، من غرفة النوم وردهة الاستقبال الخاصتين بالملك ، ومن غرفة لشقيقته ، وغرفة لكل من أطفاله ، مع صالة صغيرة . ويوجد في الطابق الارضي غرفة النوم ، الخاصةبماري انطوانيت ، مع صالة ، وحجرة للزينة ، وقاعة للبليارد ، وقاعة للمائدة . وكان الطابقان متصلين بسلم كبير موجود من ذي قبل ، وبسلم صغير أضيف حديثا ليقود مباشرة من حجرات الملكة الى حجرات ولي العهد والملك . وكانت الملكة والحاضنة وحدهما يملكان المفتاح الضروري للباب الفاصل ما بين الطابقين . واذا ما تفحصنا عن كثب وضع الغرف بهذا الشكل ، فاننا نلاحظ حالا انعزال ماري انطوانيت (الاختياري ولا شك) عن بقية أفراد الاسرة . فهي تنام وتسكن منفردة ، وكانت حجرة النوم ، وردهة الاستقبال الخاصتان بها مرتبتين بطريقة تستقبل معها الزائرين ، دون ان يضطر هؤلاء الى المرور على الدرج الرسمي ، وفي المدخل الرئيسي . وسرعان ما يظهر سبب هذه الاجراءات جليا : فهي تستطيع الصعود الى الطابق الاعلى في أية برهة أرادت ، كما انها تكون في مأمن من مفاجئات الخدم والجواسيس ورجال الحرس الوطني ، ومن زوجها ذاته ايضا . فهي ، حتى في محنة أسرها ، تدافع حتى النَفَس الاخير ، بسبب روحها الطليقة ، عما تبقى لها من حرية شخصية .

ولم يكن القصر القديم بممراته المظلمة التي تنيرها ليلا ونهارا قناديل قاتمة ، وبسلالمه اللولبية ، وغرف المنافع المكتظة بالموظفين ، وخاصة بالحرس الوطني الدائب السهر عليه ، والذي هو شاهد على شأو السلطة الشعبية ، لم يكن هذا القصر مكانا تلذ الاقامة فيه . ومع ذلك فقد راحت الاسرة الملكية التي حشرها القدر فيه تحيا حياة أكثر هدوءا ، وأشد ألفة ، ولربما اوفر رغدا مما كانت تجري عليه في قصر فرساي ذي الأبهة والجلال . وكانت الملكة

بعد تناول فطورها تحضر طفليها اليها ، ثم تمضي لسماع القداس ، ثم تمكث وحيدة في غرفتها حتى موعد الغداء المشترك . وبعد الغداء كانت تلعب دور بليارد مع زوجها ، ولعلّه تعويض رياضي بسيط عن لذة الصيد التي انقطع عنها متأسفا . عندئذ فقط كانت ماري انطوانيت تنسحب ثانية الى حجرتها ، لتجتمع ، (بينما يطالع الملك أو ينام) ، بأخصائها « كفرسن » والاميرة « دي لامبال » وغيرها . وبعد العشاء كانت العائلة الملكية بكاملها تجتمع في الردهة الكبيرة : شقيق الملك الكونت دي بروفانس وعقيلته اللذان يسكنان في قصر لوكسامبورغ ، وعمات الملك ، وبعض المخلصين النادرين . وفي الساعة الحادية عشرة كانت تنطفىء جميع الانوار ، فينسحب الملك والملكة الى حجرتيهما . وكانت هـذه الحياة الرتيبة المنظمة الشبيهة بحياة صغار البورجوازيين ، خالية من ضروب اللهو ، والاعياد ، والبذخ . حتى ان مصممة الازياء ، الآنسة « بيرتان » لم تعد تدعى أبدا الى القصر ، كما ان عهد بائعي المجوهرات قد انقضى هو ايضا ، لأن لويس السادس عشر قد اضحى بحاجة الى امواله التي عليه ان يصرفها الآن على ما هو اهم ، اي على عملائه وعلى جهازه السياسي السري .

اما نوافذ « التويلري » فانها تطل على الحديقة ، حيث يشاهد الخريف وسقوط اوراق الاشجار . وها هو ذا الوقت يفر الآن بسرعة ، الوقت الذي كان في الماضي يبدو للملكة طويلا ، وها هو ذا الصمت يسود أخيرا حولها ، الصمت الذي كانت تخشاه دائما . واذا بها تجد الآن الفرصة سانحة للتفكير والتبصر وضبط النفس .

ان الهدوء عنصر خلاق ، فهو يجمع شتات النفس وينقيها من شوائبها ، ويتحكم بقواها الداخلية . يشبه الامر تماما قنينة تحرك باليد ثم توضع على الارض ، فيتصفى سائلها عما عداه ، كذلك الصمت والتأمل بالنسبة للطبيعة العكرة ، فانهما ينقّيان الخلق ويبلورانه . وهذا ما كان من أمر ماري انطوانيت التي أخذت تكتشف نفسها ، بعد ان انطوت على ذاتها انطواءً عنيفا . فالآن اخذ يبدو جليا لهذه الطبيعة الطائشة اللامبالية العابثة ، أن لا شيء كان أكثر شؤما عليها من الخفّة التي أغدقها عليها القدر . ذلك ان ما وهبته إياها الحياة دونما استحقاق ، كان سببا لقحطها الداخلي ، اذ ان أعطيات القدر لها قد افسدتها كثيرا منذ سنها المبكرة . وان تحدّرها من أصل عريق ، وانتدابها لمركز اكثر رفعة أيضا ، وكلاهما حاصلان دون جهد ، قد جعلاها تعتقد بأنها تخلصت من بذل اي عناء الى الابد . فما كان عليها الا ان تعيش على هواها ما دام كل شيء حولها يجري على أكمل وجه : الوزراء يفكرون ،

والشعب يعمل ، والبنوك تدفع جميع نفقاتها ، وكانت هي تتقبّل كل شيء دون تفكير أو عرفان بالجميل . إلا انها عندما وضعت وجها لوجه أمام واجبها المحتم الذي يفرض عليها الدفاع عن تاجها وولديها ، وحياتها الخاصة ، ضد اضخم انتفاضة في التاريخ ، عندئذ اخذت تبحث في نفسها عن وسائل المقاومة، واذا بها تجد في ذاتها مخزونا مدخرا من الذكاء والطاقة على العمل . واذا بالنور يسطع في داخلها ، فتكتب هذه العبارة الرائعة المؤثرة ، التي تنبجس فجأة في احدى رسائلها : « ان الايام العصيبة هي التي تجعلنا نفهم حقيقة نفوسنا . » ولم يكن مرشدوها وامها واصدقاؤها ، طيلة سنوات ، ليؤثروا أيما تأثير على هذه النفس المتغطرسة ، لأنهم أتوها في وقت مبكّر يوم كانت لا تريد ان تسمع شيئا . فالألم كان أول معلم لماري انطوانيت ، وهو المعلم الوحيد الذي تعلمت على يده شيئا .

وها هو ذا عهد جديد يبدأ في حياة هذه المراة الغريبة الداخلية . ونحن نعلم ان الشقاء لا يحوّل خلق امرىء تحويلا جذريا ، ولا يضيف اليه عناصر جديدة ، ولكنه ينمّي فقط الاستعدادات الكامنة الموجودة سابقا ، وإنه لمن الخطأ ان نعتقد بأن ماري انطوانيت لم تصبح ذكية ، وعاملة ، ونشيطة ، وشجاعة ، إلا في هذه السنوات من المعركة الاخيرة الطارئة . لقد كانت تملك جميع هذه الصفات كامنة في نفسها ، ولكنها لم تكن تظهر هذا الجانب من شخصيتها بسبب كسل غريب ، ولامبالاة طفولية . ذلك انها حتى هذا التاريخ لم تكن الا لتلعب مع الحياة ــ وهذا لا يحتاج الى اية قوة من جانبها ــ إلا انها لم تكن مرة لتكافح ضدها . أما الآن ، وامام هذه **المسؤولية التي** وقعت على عاتقها ، فقد شحذت جميع مواهبها واصبحت أسلحة كفاحيّة . ولم تكن ماري انطوانيت لتفكر أو تتبصر بالامور الا منذ ان أصبحت مرغمة على ذلك ، كما انها أخذت تعمل لأنها أجبرت على العمل . وهي ترتفع الآن لأن القدر يريدها ان تكون كبيرة ، لئلا تسحقها القوى المعادية سحقا لا شفقة فيه . فاذا بتحوّل تام في حياتها الخارجية والداخلية يبدأ في قصر التويلري. واذا بهذه المرأة التي مكثت طيلة عشرين سنة غير قادرة على سماع تقرير سفير حتى نهايته ، والتي لم تطلع على رسالة إلا بتسريح طرفها عليها بسرعة ، والتي لم تقرأ ابدا كتابا ، والتي لم تهتم الا باللهو والتسلية و « الموضة » وبعض تفاهات أخرى ، إذا بها تجعل من مكتبها ديوانا سياسيا ، ومن حجرتها مقرا دبلوماسيا . فتفاوض جميع الوزراء والسفراء ، تراقب قراراتهم ، وتحرر رسائلهم ، وذلك عوضا عن زوجها الذي نُحّي جانبا بعد ان نفد صبر الجميع من ضعفه الذي لا شفاء منه . كما انها تتعلم كتابة « الشيفرة » الاصطلاحية،

وتبتكر الاساليب الفنية المدهشة لتراسل سريا ، وبطريقة دبلوماسية ، أصدقاءها في الخارج ، فتلجأ احيانا الى الحبر اللامرئي ، أو تكتب اخبارها بشكل اصطلاحات تدسها خلسة في المجلات وعلب « الشوكولاته » . وكانت تدرس كل كلمة درسا دقيقا لكي تكون طلسما مبهما بالنسبة لبائحي الاسرار، وجلية بالنسبة للملمّين بطريقتها . وكانت تفعل كل ذلك وحيدة ، دون مساعد لها ، ودون كاتب يبقى الى جانبها ، بالرغم من وجود الوشاة على بابها ، وحتى في غرفتها ، مما يهدد حياة زوجها وولديها بالخطر لو اكتشفت رسالة واحدة من رسائلها . وهكذا أخذت هذه المرأة تعمل ، وهي التي لم تكن ابدا معتادة على مثل هذه المهمة الشاقة ، حتى الارهاق الجسديّ . وها نحن نسمعها تقول في احدى رسائلها : « لقد أنهكتني كثرة الكتابة » ، وفي رسالة ثانية : « لم تعد عيناي تبصران ما أكتب . »

وهناك نقطة ثانية بالغة الاهمية في هذا التطور الطارىء على حياة ماري انطوانيت التي اقتنعت اخيرا بما يكون للمستشارين المخلصين من قيمة ، متخلية عن ادعائها الاعتباطي بتقرير الشؤون السياسية تقريرا فرديا . فبينما كانت في الماضي لا تستقبل السفير الهادىء المسن « مرسي » الا وهي تخنق التثاؤبات في حلقها ، وبينما كانت تشعر بفرجة الهم عن صدرها كلما رد هذا الدعي الثقيل الباب خلفه ، اصبحت تبحث الآن ، وهي جد خجلة من نفسها ، عن هذا الرجل الامين الممتلىء خبرة ، والذي ظلت وقتا طويلا لا تقدره حق قدره . وها هي الآن تكتب الى نجيّ امها المسنّ قائلة : « كلما ازداد شقائي ، ازددتُ تعلقا حنونا بأصدقائي الحقيقيين » . وتكتب له ايضا قائلة :

« لقد تأخرت عن إيجاد البرهة السانحة التي استطيع فيها ان أراك بحرية كاملة لكي أؤكد لك مشاعري التي تستحقها ، والتي سأحفظها لك مدى الحياة . »

وفي الخامسة والثلاثين من عمرها أصبحت تفهم اخيرا معنى الدور الخاص الذي هيأه لها القدر ، الدور الذي لا يقوم على منافسة الحسناوات الاخريات من ذوات الغنج والدلّ والتفاهة على انتصارات « الموضة » السريعة الزوال ، بل على اجراء تجاربها المستمرة أمام نظر الاجيال المتعاقبة ، كملكة وكابنة لماري تيريز . واذا بكبريائها التي لم تكن غالبا إلا نوعا من محبة الذات الهزيلة الصبيانية ، محبة صبية « دلوعة » لنفسها ، تتحول بطريقة إرادية جازمة الى شعور بالواجب الذي يحثها على ان تظهر أمام العالم أهلاً للمرحلة البطولية التي تجتازها . لذلك فلم تعد الاشياء الخاصة هي التي تشغلها ، كالهينمة المتغطرسة والبحث عن السعادة . لقد فهمت ماري انطوانيت فهما

عميقا ، وان كان ذلك متأخرا ، أنها مهيأة لتكون وجها تاريخيا ، ولقد زاد هذا الدور الذي عرفت انه مكتوب لها من قواها زيادة كبيرة . ومن ثم عندما ينزل كائن ما الى الاغوار الصميمة من نفسه ، وعندما يقرر ان يغوص باحثا في أعماق شخصيته ، فانه يوقظ في دمه قوى أسلافه الغامضة الغريبة . فكون ماري انطوانيت من آل هابسبورغ ، وكونها متحدرة من بيت مالك كبير ، ووريثة شرف امبراطوري اثيل ، وابنة لماري تيريز ، كل ذلك ارتفع فجأة ، كضرب من السحر ، بهذه المرأة التي كانت عديمة الثقة بنفسها . فهي الآن تشعر بالواجب المحتم الذي يحثها على ان تكون « أهلا بماري تيريز » أي أهلا بوالدتها . ولقد أصبحت كلمة « شجاعة » محور سمفونيتها الحزينة . فهي تكرر دائما ان « لا شيء يستطيع تحطيم شجاعتها » ، وعندما وردتها انباء من فيينا عن أخيها جوزيف ، الذي ظل حتى الرمق الاخير من نزاعه العنيف محافظا على وضع رجوليّ عازم ، شعرت بأن هذا ما يشبه النداء النبويّ اليها ، وأجابت بالكلمة التي هي أكثر شموخا في حياتها قائلة : « اجرؤ على القول انه مات أهلا بي » .

هذا الشموخ الذي أخذت ماري انطوانيت تهزه كراية في وجه العالم بأسره ، كان ولا شك يكلفها أكثر مما نستطيع ان نتصوره ، لأن هذه المرأة لم تكن في الحقيقة متغطرسة ولا قوية . انها ليست بطلة ، بل مخلوق ثرّ الانوثة مولود للحب المتفاني والحنان ، لا للكفاح . والشجاعة التي تظهرها إنما غايتها إيحاء الشجاعة للآخرين ، لأنها لم تعد تعتقد بأن الاحوال التي تمر فيها ستصلح أكثر مما هي عليه . لذلك فهي لا تكاد تدخل حجرتها حتى تسقط ذراعاها من شدة الوهن ، بينما هما تحملان أمام العالم ، بنشاط زاخر ، عَلَمَ شموخها الخفاق . وقد أصبح فرسن لا يجدها إلا والدموع تملأ عينيها . اما ساعاتها الغرامية مع الصديق الذي تحبه كثيرا ، والذي عادت اخيرا فوجدته في محنتها ، فلم تعد تشبه أبدا ساعات اللهو الغزلي . بل بالعكس، كان على هذا الرجل، الذي تأثر بدوره هو ايضا، ان يستخدم جميع قواه لينتزع الحبيبة من أتعابها وحالات سويدائها ، وإن شقاء هذه المرأة هو الذي أخذ يوقظ في نفسه أعمق المشاعر . فنسمعه يكتب الى شقيقته قائلا : « إنها تبكي غالبا ، ويمكنك ان تحكمي كم يدفعني هذا الى حبها . » فلقد كانت السنوات الاخيرة قاسية بالنسبة لهذا القلب المرح العابث ، وان « الرعب الذي عانته ، والدم الذي رأته ، ليمنعانها ان تكون يوما ما سعيدة سعادة حقة . » واننا لنشعر بأن هذه المرأة اليائسة لا تملك أكثر الاحيان الا رغبة واحدة ، وهي انتنتهي محنتها بسرعة . ولنستمعن اليها تقول ،

« إنني أسمح لنفسي بأمنية أخيرة : ان تستطيع آلامنا الحاضرة على الاقل إسعاد ولدينا . » ففكرة ولديها هي الفكرة الوحيدة التي تجرؤ ماري انطوانيت على ربطها بفكرة السعادة . وها هي تقول : « اذا أمكنني ان أكون سعيدة ، فسأسعد فقط بهذين الكائنين الصغيرين . إن ولديّ هما كنزي الوحيد ، وانني أتركهما معي أطول وقت ممكن . » لقد كان اولادها اربعة ، ولكن اثنين منهما توفيا ، وانها لتحصر الآن بولديها الباقيين ، جُماع حبها الذي كانت توزعه في الماضي بخفة ومرح على الجميع . ولشدِ ما كان ولي العهد يفرح قلبها قلبها لأنه قوي ، مرح ، ذكي ولطيف ، ولأنه كان كما تقول بحنان « حبّة قلبها » . ومع ذلك فحيويتها وعواطفها الوالدية أخذت تتبلور رويدا رويدا كمشاعرها الاخرى ، فهي رغم حبها الشديد لابنها تتجنب إفساده ، فإذا بها تكتب الى حاضنته قائلة : « يجب ان يكون حناننا بالنسبة لهذا الصبي قاسيا ، وعلينا الا ننسى بأننا ننشىء ملكا . » وعندما أبدلت حاضنة ابنها القديمة مدام دي بولينياك ، بحاضنة جديدة هي مدام تورزيل ، دبَّجت لهذه الاخيرة تحليلا لشخص ولي العهد ، يكشف بطريقة فذّة عن مواهبها التي كانت حتى الآن دفينة في نفسها : اي عن صحة أحكامها ، وعن صدق حدسها . وها نحن نقدم قسما من هذه الوثيقة :

« عمر ولدي اربع سنين واربعة شهور الا يومين . وان رؤيتك اياه لتغنيني عن التحدث عن طول قامته وعن مظهره الخارجي . لقد كانت صحته دائما جيدة ، ولكننا شعرنا ، وهو ما يزال في المهد ، بأن أعصابه نحيفة ، فأية ضجة غريبة تؤثر عليه . ولقد نبتت أسنانه الاولى متأخرة ، ولكنها نبتت دون مرض او حادث آخر . ولم يحصل له اي تشنج الا عندما أخذت تنبت أسنانه الاخيرة ، اذ أصيب بتشنج عندما نبتت سنّه السادسة كما اعتقد . ومن ثم حصل له عارضان مشابهان : واحد في شتاء ٨٧ ــ ٨٨ ، والآخر عند تلقيحه ، ولكن هذاالعارض الاخير كان بسيطا ، وبسبب نحافة أعصابه فإن كل ضجة لم يعتد عليها تخيفه دائما ، فهو يخاف مثلا من الكلاب لانه سمع كلبا ينبح الى جانبه . ولم أرغمه مرة واحدة على ان يرى بعضها ، لأنني اعتقد بأن مخاوفه ستتبدد لا محالة كلما نما عقله . وهو ، كجميع الاولاد الاقوياء السليمي الصحة ، طائش كثيرا ، وخفيف جدا ، وعنيف عندما يغضب . ولكنه ولد طيب ، حنون ، من سجيته مداعبة الآخرين ، شرط الا يسيطر الطيش عليه . ثم ان محبة الذات لديه شديدة ، وهي ان احسن توجيهها ، يمكنها يوما ان تتحول الى خيره . وانه ليستطيع الى ان يرتاح الى شخص ما ، السيطرة على نفسه ، بل انه يستطيع ان يكبت غضبه

وفروغ صبره لكي يظهر لطيفا محببا . وهو امين ، شديد الامانة لوعده ، ولكنه سريع البوح بكل شيء . فهو يردد بسهولة ما يسمع ، وغالبا ما يضيف الى روايته ما يصوره له خياله ، دون ان تكون له رغبة في الكذب . هذا هو عيبه الوحيد الذي يجب إصلاحه . اما فيما عدا ذلك فإنني أكرر أنه ولد طيب ، ويمكن تنشئته وفقا للخاطر باستخدام أسلوب العاطفة الممزوجة بالحزم . الا ان الصرامة تثيره ، لأن طبعه متقدم على سنّه . ولكي اقدّم مثلا عن طباعه هذه فانني اذكر ان كلمة « اعتذر » كانت تصدمه منذ طفولته . فهو يفعل ويقول ما يُطلب منه ، عندما يكون مخطئا ، ولكنه لا يلفظ كلمة « انني أعتذر » الا بشق النفس ، ومع الدموع التي تنهمر من عينيه . ولقد اعتاد طفلاي على ان يكون لهما ثقة كبيرة بي ، وعلى ان يبوحا لي بخطئهما عندما يخطئان ، بدافع من نفسهما . وهذا ما يجعلني أبدو عند تأنيبهما انني آسفة مغمومة بسبب ذنبهما أكثر مني حانقة . ولقد عوّدتهما ايضا بأن كلمة « لا » أو « نعم » التي الفظها يجب الا تردّ ، ولكنني أقدم لهما دائما التبرير الملائم لسنهما لئلا يظنا ان موافقتي أو رفضي انما هما صادران عن هوى في النفس . أما الصبي فانه لا يعرف القراءة ، ولا يتعلم الا بصعوبة ، لأن طيشه دائما انما يحول بينه وبين الاجتهاد . ولكنه لا يحمل في رأسه اية فكرة متغطرسة ، ولشد ما أرغب في ان يستمر على هذه الحال ، لأنه يترتب على أولادنا ان يعرفوا باكرا حقيقة أنفسهم . وانه يحب شقيقته حبا جما ، وبقلب طيب ، فكلما سره شيء ، كالذهاب الى مكان ما ، أو كالحصول على شيء لذيذ، فانه يطلب دائما لأخته قسمة مماثلة . ومن ثم فإنه مطبوع على المرح ، وهو يحتاج من أجل صحته الى التعرض طويلا للهواء الطلق . »

واذا قابلنا هذا المستند المليء بعاطفة الامومة برسائل المرأة السابقة ، فاننا نكاد لا نصدق انه مكتوب بذات اليد التي كتبت تلك ، لأن الفرق كبير جدا بين ماري انطوانيت الجديدة وماري انطوانيت القديمة . فهما الآن متناقضتان تماما كالشقاء والسعادة ، وكاليأس والامل . ذلك ان الشقاء يطبع عادة بوضوح خاتمه على النفوس المرنة اللدنة التي لم تنضج بعد ، وهو يعرف عندئذ كيف يرسم طبعا واضح التقاسيم على طبيعة مائعة مائجة . ولقد كانت ماري تيريز لا تكف تردد بيأس قائلة لها : « متى تُرى ستجدين ملامح شخصيتك ؟ » اما الآن ، ومع الشعرات البيضاء الاولى التي وخطت فوديها ، فقد اكتشفت ماري انطوانيت ملامح شخصيتها .

ولشد ما ظهر هذا التحول ايضا في لوحة هي الوحيدة التي رُسمت للملكة في قصر التويلري . وكان كوشارسكي ، وهو رسام بولوني ، اول من

خط ملامحها الاولى ، الا ان الهرب الى « فارين » حال دون اتمامها ، وبالرغم من ذلك فإنها أكمل لوحة عن الملكة تملكها أيدينا . اذ ان لوحات « فارت مولر » الرسمية ، ورسوم صالة مدام «فيجيه لابرون» تحاول دائما تذكير الجمهور، بواسطة الازياء والديكورات ، بأن هذه المرأة هي ملكة فرنسا . فاذا بنا نراها واقفة الى جانب عرشها المخملي ، محلاة بالماس ، وهي مرتدية فستانها المصنوع من حرير « البروكار » ، وعلى راسها قبعة جميلة مزينة بريش النعام الرائع . وحتى اولئك الرسامون الذين يقدمونها في زي ميثولوجي أو ريفي ، فانهم لا ينسون بأن يشيروا بعلامة ما الى ان هذه المرأة هي ذات مركز رفيع ، بل انها صاحبة ارفع مركز في الامة ، أي انها ملكة فرنسا . اما لوحة « كوشارسكي » فانها تهمل جميع الازياء والديكورات الباهرة ، وتقدم لنا امرأة رائعة الحسن ، جالسة على كرسي ، تنظر أمامها حالمة ، وهي تبدو تعبة مع بعض السأم . كما انها لا تظهر في زينتها الرسمية ، ولا تلمع في عنقها المجوهرات والحجارة الكريمة ، ولا يخضّب وجهها أي طلاء ، لأن عهد التصنع قد انقضى ، فحلّ الانطواء على النفس محلّ الرغبة في إثارة إعجاب الآخرين ، وامّحى الدَلّ والغنج مخلفين مكانهما ذوقا أكثر بساطة . اما الشعر فإنه يسقط سقوطا طبيعيا عاديا ، ولقد ظهرت فيه اول خصلات مبيضّة. وينزلق الثوب انزلاقا طبيعيا فوق الكتفين المستديرين اللامعين كاللؤلؤ الكريم ، دون ان يهدف وضعه هذا الى التأثير او الاغراء . واما الفم فإنه لا يبتسم ، وأما العينان فإنهما لا تطلبان شيئا . وتظهر ماري انطوانيت من خلال ذلك جميلة ، ولكن جمالها جمال أمومة ، جمال مهذّب يقع بين الرغبة والزهد . فهي لم تعد صبية ولكنها لم تصبح مسنّة . ولعلها لم تعد تشتهي شيئا ، ولكنها ما زالت مشتهاة . وهي جالسة هناك ، بعيدة ، وكأنها غارقة في بحران ضوء خريفيّ.
وبينما تعطينا جميع رسوم ماري انطوانيت الاخرى فكرة عن امرأة مأخوذة بجمالها ، لم تكفّ عن لهوها ورقصها وضحكها سوى برهة وجيزة استدارت خلالها للرسام ، لكي تعود بسرعة في اللحظة التالية الى لذائذها ، فإننا نشعر في هذه اللوحة بامرأة أصبحت اكثر تعقلا واكثر ميلا الى الهدوء . وبين رسومها وتماثيلها العديدة التي هي أشبه بأيقونات احيطت بأطر ثمينة ، او بأنصاب نحتت من الرخام او العاج ، تظهر لنا هذه اللوحة ، التي لم تتم الكائن البشريّ ، وتسمح لنا بأن نستوعب النفس الكامنة ، في شخص هذه الملكة .

٢٣ - ميرابو

لم تلجأ ماري انطوانيت حتى الآن في صراعها الساحق مع الثورة إلا الى حليف واحد : هو الزمن . وهي تكتب قائلة : « المرونة والصبر يستطيعان وحدهما مساعدتنا . » ولكن الزمن حليف انتهازيّ متقلّب ، ينحاز دائما الى الاقوى ، متخليا باحتقار عن كل من يسلّم بكسل زمام امر اليه . اما الثورة فقد كانت دائبة السير الى الامام ، تتغذّى كل اسبوع بألوف المتطوّعين القادمين من المدينة ، ومن الريف ومن الجيش . وكان نادي اليعاقبة الذي اسّس حديثا ، يضغط كل يوم اكثر قليلا على العتلة التي سيكون من شأنها الاطاحة بالملكية . ولقد فهم الملك والملكة متأخرين الخطر الناجم عن حياتهما المنزوية المنفردة ، فراحا يجدّان في طلب الحلفاء .

ولقد تردّد الى القصر عدة مرات حليف قوي الشكيمة ، عارضا خدماته بكلمات تلمّح تلميحا . ولقد حُفظ امره هذا في مستودع الاسرار . وفي الواقع فقد عرف قصر التويلري منذ ايام ايلول ان اسد الثورة الكونت دي ميرابو ، رئيس الجمعية الوطنية الذي يستثير الخوف والاعجاب ، انما يريد ان يأكل من معلف الملكية . ذلك انه كان قد قال لأحد الوسطاء : « دعهم يعلمون في القصر انني اميل الى العمل معهم اكثر من العمل ضدهم » . ولكن البلاط طيلة بقائه في فيرساي كان واثقا من نفسه ، فلم يشعر بحاجة الركون اليه ، ومن ثم فإن الملكة كانت ما تزال تجهل قيمة هذا الرجل الذي كان يستطيع اكثر من سواه قيادة الثورة ، لأنه كان يمثل عبقرية التمرّد ويجسّد روح الحرية تجسيدا ، ولأن القوة الثورية كانت تتمثّل فيه بشكل رجل، والفوضى بشكل كائن حي . ولقد كان اعضاء الجمعية الوطنية الآخرون يتألفون من علماء افذاذ حسني النية ، ومن رجال قانون ذوي حذق والمعية ، ومن ديمقراطيين شرفاء ، وكانوا جميعهم مثاليين يحلمون بالنظام وتطور الدولة ، اما هو فقد كان يجد في فوضى الدولة وتشويشها وسيلة للتنفيس عن فوضاه الداخلية ، إذ ان قوته البركانية التي تعادل قوة عشرة رجال ، كما يقول هو بكبرياء ، تحتاج الى عاصفة عالمية لكي تنتشر على مداها وعلى سجيّتها . ولما كان هو نفسه مصدّعا في وضعه الخلقي والمادي والعائلي ، فقد كان يحتاج الى دولة مصدّعة ليرتفع على ركام انقاضها ، وكانت حتى الآن جميع انفجارات طبيعته الاولية ، من تأليف للمقالات الهجائية المقذعة ، واختطاف للنساء ، ومبارزات ، وإثارة للشكوك والفضائح ، مجرّد متنفسات غير كافية لمزاج ارعن ، مفرط في رعونته ، تفلح جميع سجون فرنسا في ترويضه . فقد

كانت هذه النفس الفائرة تحتاج الى مدىً رحب تتحرك فيه ، وكان هذا الرجل الغريب بحاجة الى مهمّات واسعة تشبع نهمه الشديد . وكان مثله مثل ثور هائج ، أغلق عليه طويلا في مزربه الضيّق ، فارتمى الى حلبة الثورة وحطّم منذ اللحظة الاولى الحواجز النخرة ، حواجز مجلس الطبقات العامة الذي يضم ممثلين عن النبلاء والاكليروس وبقية الشعب . أما الجمعية الوطنية فقد دب الرعب في قلوب أفرادها عندما سمعوا للمرة الاولى هدير هذا الصوت ، ولكنهم رضخوا جميعا لنير سلطته ، ذلك ان ميرابو ، هذا العامل القوي الشكيمة ، وهذا الكاتب الكبير ذو الفكر العجيب ، كان يحفر في ثوان معدودة ، على الواح من الشبه ، اصعب الشرائع وأجرأ الصيَغ . وسرعان ما اخضع الجمعية الوطنية بكافة أعضائها الى إرادته ، وذلك ببلاغة خطبه المثيرة الوامضة وميض البرق . ولولا ماضيه العكِر الباعث على الحذر ، ولولا دفاع رسل النظام دفاعا بدهيًا عن انفسهم ضد هذا الرسول المبشر بالفوضى، لكان للجمعية الوطنية الفرنسية في بادىء أمرها راس واحد بدل الف ومائتي راس ، ولكان لها رئيس واحد مطلق السلطة .

ولكن قرْم الحرية هذا لم يكن هو نفسه رجلا حرا ، لأن ديونا كثيرة تثقل كاهله ، ولا شبكة من الدعاوي القذرة تغلّ يديه . ومن ثم فإن ميرابو لا يستطيع ان يعيش او ان يتحرك دون ان يبذّر الطائل من الاموال ، فهو بحاجة لبوهيمية العيش وللسخاء وللجيوب المحشوّة ذهبا ، وهو بحاجة للكتبة وللنساء وللمساعدين وللخدم ، ولا يستطيع ان يترك العنان لطبيعته إلا في حالتي الرخاء والترف . ولكي يعيش هذا الرجل (الذي اخذ الدائنون يجدّون في أعقابه) حرّا فقد راح يعرض نفسه على الجميع : على نيكير ، على دوق أورليان ، على شقيق الملك ، وأخيرا على البلاط نفسه . ولكن ماري انطوانيت التي كانت شديدة الكره للمنشقّين على معشر النبلاء ، كانت تعتقد انها ما تزال قوية في فرساي ، ولذلك فقد رفضت ان تبسط جناح حمايتها النفعية على هذا « المسخ » ، قائلة للوسيط ، الكونت دي لامارك : « لن نكون اشقياء الى هذه الدرجة القاسية التي تضطرّنا الى اللجوء الى ميرابو ! »

ولكن سرعان ما بلغ الامر بالبلاط الى هذه الدرجة من سوء الحال ! فبعد خمسة أشهر ، وهي فترة طويلة من عمر ثورة ، اتصل السفير ميرسي بالكونت دي لامارك واخبره أن الملكة مستعدّة للتفاوض مع ميرابو ، أي أنها مستعدّة لشرائه . ومن حسن الطالع ان العرض لم يأت متأخرا ، فإذا بميرابو يتلقّف منذ السانحة الاولى الطعم المذهّب . وإذا به يعلم ان لويس السادس عشر خصّص له اربعة سندات ، تبلغ قيمة كل منها مائتين وخمسين الف

ليرة . ولقد وقعها بيده ، على ان يستلمها ميرابو بعد انتهاء دورة الجمعية الوطنية . وهنا يضيف الملك المقتصد بحذر قائلا : « شرط ان يقدّم لي خدمات حسنة . »

ولم يكد المال يتقلّب في جيوب ميرابو حتى غدا يتذكر ، هو أسد الثورة الزائر ، أنه كان دائما في أعماقه من انصار الملكية المتحمّسين . وفي العاشر من شهر نوار (مايو) وقّع على الصك الذي باع فيه نفسه ، متعهدا بأن يخدم الملك « بإخلاص ، وحماسة ، وفاعلية ، ونشاط ، وشجاعة » . وها هو يكتب يومئذ قائلا : «لقد اعتنقت المبادىء الملكية عندما كنت لا أرى من البلاط غير ضعفه ، وعندما كنت لا أستطيع الاعتماد على مناصرة ابنة ماري تيريز ، الملكة العظيمة التي كنت أجهل ماهية نفسها ، وطبيعة تفكيرها . ولقد خدمت الملك يوم كنت لا أنتظر من عاهل عادل ، ولكنه مخدوع ، لا نعمة ولا مكافأة . فماذا علي إذن ان أفعل الآن ، وقد رسّخت الثقة شجاعتي ، واحال عرفان الجميل مبادئي الى واجبات ؟ لسوف ابقى ما كنته دائما ، اي المدافع العنيد عن السلطة الملكية التي حدّدتها القوانين، ورسول الحرية التي تضمنها السلطة الملكية . وسوف يتبع قلبي الطريق التي اختطها لي العقل وحده » .

ولا شك ان هذا الصك لا يشرّف صاحبه كثيرا ، بل إنه ليخشى ان ينكشف للملأ في وضح النهار . لذلك فقد جرى الاتفاق بين الطرفين على الا يحضر ميرابو بشخصه ابدا الى القصر ، وعلى ان يبعث كتابة بنصائحه الى الملك . فيظهر ميرابو هكذا بمظهر الثائر بالنسبة للشارع ، ويعمل داخل الجمعية الوطنية من أجل الملك . وها هو ذا قد باشر العمل في الحال ، فشرع يكتب للملك رسالة تلو اخرى ، موجها رسائله في الحقيقة الى الملكة ، راجيا ان تفهمه هي قبل اي سواها ، لأن الملك كان على هامش الحساب ، وهذا ما لاحظه حالا ، فدوّن في مفكرته يقول : « ليس للملك سوى رجل واحد ، هو امرأته . وامرأته لا شيء يضمن بقاءها بأمان غير إعادة السلطة الملكية الى سابق قوّتها . انني احب ان أعتقد بأنها لا تطمع في استمرار الحياة دون التاج ، ولكنني متأكد من انها لن تستطيع المحافظة على حياتها اذا لم تحافظ على تاجها . لذلك يترتب عليها ان تقدّر خطورة الموقف ، وأن تعتقد بأنها لا تستطيع الخروج من ازمة غير عادية بمساعدة المصادفات وبواسطة رجال عاديين ووسائل عاديّة . »

ومن الواضح ان الرجل الفذ غير العادي الذي يقترحه ميرابو بطريقة شفّافة ، هو ميرابو نفسه . فهو يأمل ، بواسطة مهارته الخطابية ذات الشعاب المتعدّدة ، تهدئة اليمّ الهائج بالسهولة ذاتها التي هيّجه بها . وهو منذ الآن

أصبح يرى نفسه بسبب كبريائه وغلوائه رئيس الجمعية الوطنية والوزير الاول للملك والملكة . ولكنه كان يمنّي نفسه بالاوهام ، إذ ان ماري انطوانيت لم تفكر مرة ان تسلم السلطة لهذا « العنصر الرديء » . فالكائن الشيطاني يوحي دائما للكائن العادي بالحذر الفريزي ، وهكذا فلم تكن ماري انطوانيت تفهم مبررا لأخلاق هذا الرجل العبقري المتفسّخة ، وهو اول وآخر من التقت به في حياتها . ولشد ما كانت تزعجها جراة هذا « الشيطان » الشَبِق الذي كان يخيفها ولا يستثير إعجابها . لذلك فقد كانت تضمر في سرها ان تتخلص بسرعة من هذا الكائن العنيف ، الغريب ، المتطرف ، الممتلىء بالمفاجآت ، وان تبعده حال الانتهاء من الحاجة اليه .

وسرعان ما انتهى شهر العسل ، شهر الحماسة الاولى . فلاحظ ميرابو ان رسائله لا تفعل شيئا سوى ان تملأ سلة الاوراق الملكية المهملة ، بدل ان تضرم نوعا من النار الروحية في قلب الملكة . ولكنه ثابر ، إما عن ادعاء او عن نهم لتحصيل المزيد من المال ، على مد القصر برسائله ونصائحه . وعندما عرف ان اقتراحاته المكتوبة لا تثمر ثمرا ، التجأ الى حيلة اخيرة . فهو يعلم ، بخبرته السياسية ، ولمغامراته مع النساء ، ان قوته الحقيقية لا تقوم على الكتابة بل على الكلام ، ، وان قوة مغناطيسية تصدر عن شخصه . لذلك فقد اخذ يضغط على الوسيط ، الكونت دي لامارك ، لكي يهيّىء له مقابلة مع الملكة ، لأنه اذا ما التقى بها ساعة واحدة ، فلا شك في ان حذرها منه سينقلب الى إعجاب ، تماما كما كان يحصل دائما مع النساء الاخريات . ولكن ماري انطوانيت امتنعت عنه وقتا طويلا ، الا انها عادت ورضخت للأمر، فأعلنت انها مستعدة لاستقباله بتاريخ الثالث من شهر تموز (يوليو) ، في قصر « سان كلو » . ومن الطبيعي ان تجري هذه المقابلة بسرّية تامة ، وذلك في غابة من غابات قصر « سان كلو » التي تحتوي على مخابىء عديدة . ولقد اكتشف هذه المخابىء هانس اكسل دي فرسن الذي أخذ منذ هذا الصيف يتردّد عليها للالتقاء بالملكة . وكموعد للمقابلة عيِّن نهار الاحد ، الساعة الثامنة صباحا ، وهي الساعة التي يكون فيها جماعة القصر والحرس نائمين . وكان على ميرابو ان يقضي الليل عند شقيقته في «باسي » ، وفي الصبيحة الباكرة نقلته عربة الى « سان كلو » ، وبرفقته أحد أقاربه متنكرا بزي حوذي . ولقد ترك العربة في مكان بعيد عن الانظار ، ثم ارخى قبّعته على عينيه ، ورفع قبّة معطفه كأنه أحد المتآمرين ، ودخل الى الغابة من باب جانبي كان قد ترك مفتوحا عن قصد . وبعد قليل سمع ميرابو وقع اقدام خفيفة على الحصى ، ثم ظهرت الملكة التي كانت وحيدة . وكان ميرابو على وشك ان ينحني امامها ،

ولكنها لم تكد ترى وجهه المجدّر المقروض بالشهوة والذي يحيط به شعر مشوّش ، ولم تكد تلمح سحنته الغليظة والعنيفة في آن واحد ، حتى انتابتها قشعريرة واضحة انتبه لها ميرابو الذي كان يعلم أي خوف يوحي منظره . فجميع النساء ، ومن بينهن « صوفي دي مونيه » الرقيقة ، كنّ يتراجعن الى الوراء بطريقة عفوية عند رؤيتهنّ إياه في المرة الاولى ، ولكنه كثيرا ما كان يحوّل هذا الشعور بالرعب الى تعجّب ، فإلى إعجاب به ، واحيانا الى هوىً جامح .

اما ما جرى بين الملكة وميرابو من احاديث فقد ظل سريا ، لأن المقابلة بينهما كانت دون شهود . ولكننا نعرف شيئا واحدا : لم يسيطر ميرابو على الملكة ولكنها هي التي سيطرت عليه . ذلك ان نبلها الوراثي ، بالاضافة الى الهالة الملكية التي تحيط بها ، والى جلالها الطبيعي وحيوية فكرها التي تظهر ماري انطوانيت انها اكثر ذكاء ونشاطا وتصميما مما هي عليه في الواقع ، كل ذلك إثّر تأثيرا شديدا على طبيعة ميرابو المضطرمة . ولم يكد يخرج من الحديقة حتى أمسك بذراع قريبة وقال له بفورانه العادي : « لشد ما هي عظيمة ونبيلة وشقيّة ، ولكنني سأنقذها » . وهكذا فقد جعلت ماري انطوانيت في ساعة واحدة ، من هذا الرجل المتقلب رجلا عازما يكتب الى دي لامارك قائلا : « لن يوقفني شيء ، وإنني افضّل الهلاك على ان انقض عهودي ! »

ولم تكتب الملكة في رسائلها كلمة واحدة تدل على هذه المقابلة ، كما أنه لم تخرج من شفتيها عبارة واحدة تدل على الثقة او عرفان الجميل . وهي بعد ذلك الحين لم تعد تريد رؤية ميرابو مرة اخرى ، كما انها لم تكتب له سطرا واحدا . وكان جلّ امرها في هذه المقابلة انها تقبّلت منه عهده على الاخلاص لقضيتها . وهكذا راح ميرابو كلاعب على الحبال يظهر بمظهر المخلص للملك والشعب في آن واحد . ولشد ما كان يوزع ضرباته بسرعة ، ويدير سيفه بمهارة فائقة ، حتى ان احدا لم يعد يعرف من المقصود حقيقة ، أهو الملك ام الشعب ، أهو النظام القديم ام النظام الجديد . ولعلّه هو نفسه في ساعاته الحماسية لم يكن ليعرف حقيقة ذلك . ولكن لا بد لمثل هذه لازدواجية من ان تنكشف . وفي الواقع فقد أخذت الظنون تحوم حول ميرابو ، فيتهمه « مارا » بأنه مبيع ، ويهدّده « فويرون » بتسليط النور على خيانته ، ويصرخ بعض اعضاء الجمعية الوطنية في وجهه قائلين : « هات لنا فضيلة إكثر ، وموهبة اقل ! » اما هو وقد اثمله الثراء المستحدث فقد راح دونما خوف او اضطراب يبذّر الاموال الطائلة ، بينما كانت باريس بأجمعها

تعرف عن ديونه أشياء كثيرة . فما الذي يهمّه ان يتعجّب الناس ، وان يهمسوا متسائلين من اين تأتيه الوسائل التي تسمح له بين ليل وضحاه بأن يفتح بيتا كبيوت الامراء ، وبأن يولم الولائم الفخمة ، وبأن يشتري مكتبة « بيفّون » ، وبأنْ يقذف الماس على مغنّيات دار الاوبرا ، على الفانيات ! فهو كجوبيتير يسير مقداما تحت العاصفة ، لاقتناعه بأنه سيّد جميع العواصف . وهو إذا ما هوجم فسوف يسحق الفلسطينيين ، كشمشون آخر ، بفأس الغضب وصاعقة السخرية . وها هو ذا الآن ، وقد فغرت الهاوية شدقها أمامه ، وقد أحاطت به الشبهات من كل صوب ، يشعر بقوّته الجبارة تكتشف عنصرها الاصيل . وها هوذا في أيامه الحاسمة ، قبل ان ينطفي ، تتحول طاقته الى لهيب واحد ذي وهج رهيب . فقد أعطي هذا الرجل أخيرا مهمة تتفق مع عبقريته : انه يريد الآن منع ما لا يُردّ بل ايقاف القدر . لذلك فقد اندفع بكل قوته الى مجرى الاحداث ، محاولا ، وحيدا ضد الف ، أن يعيد الى الوراء عجلة الثورة التي سيّرها بنفسه . ولكن هذه الجراة العجيبة ، جراة القتال على جبهتين ، وهذا الموقف المزدوج كانا يفوقان فهم ماري انطوانيت السياسي ، بسبب طبيعتها المستقيمة . وكانت هذه المراة الايجابية البسيطة بروحها تزداد هلعا ، كلما ازدادت تقارير ميرابو جراة ، وكلما أصبحت نصائحه شيطانية اكثر . أما فكرة ميرابو فقد تقوم على طرد الشر بشر أقوى ، وعلى تهديم الثورة بواسطة الفوضى . ولما كان تحسين الحالة مستحيلا ، فمن الواجب تسميمها وتضريمها لكي تسوء أكثر ، تماما كما يفعل الطبيب الذي يستعجل شفاء المريض بإعطائه منبها يثير نوبته المرضية . فلا يجب اذن صد الحركة الشعبية ، بل يجب تقنيتها في أقنيتها الطبيعية ، ولا يجب محاربة الجمعية الوطنية وجها لوجه ، بل يجب إثارة الشعب بوسائل مستترة لكي يطردها هو نفسه ، ومن ثم يجب اليأس من عودة الهدوء والسلام ، بل يجب دفع الظلم الاجتماعي والنقمة الشعبية في البلاد الى الدرجة القصوى ، حتى تستيقظ في الامة حاجتها الى النظام ، النظام القديم، شرط الا يكون هناك تراجع حتى وان ادى الامر الى حرب اهلية لا تبقي ولا تذر .

هذه كانت اقتراحات ميرابو الفاسدة ، ومنها قوله حرفيا : « لنوجّه ضد الشعب اربعة أعداء في آن واحد : زيادة الضرائب ، وافلاس الخزينة ، والجيش ، والشتاء القارس » . ولا شك أنها اقتراحات جريئة ، ولكنها جعلت قلب الملكة يخفق خفقانا عنيفا ، فاذا بها تصف هذا المشروع بأنه « جنوني من الفه الى يائه » .

وعندما راى ميرابو أن البلاط لا يستمع اليه ، اخذ حنقه على هذا التخاذل يمتزج بنوع من الازدراء « للقطيع الملكي » الذي ينتظر صابرا وصول الجزّار اليه . ومنذ وقت طويل أصبح ميرابو يعلم انه انما يكافح بلا جدوى من أجل هذا البلاط الغامضة نواياه الحسنة ، والمعدومة قدرته على العمل انعداما تاما . ولكن الكفاح عنصر طبيعته . وهو كرجل ضائع ، انما يقاتل من أجل قضية خاسرة ، ومع ذلك فها هو ذا يرسل للملك والملكة هذه النبوّة الاخيرة اليائسة :

« أيها الملك الطيّب الضعيف ، ويا أيتها الملكة المنكودة الحظ ! دونكما اللجّة المرعبة حيث ألقى بكما تقلبكما بين الثقة العمياء والحذر المتطرّف . ان جهدا أخيرا ينتظركما ، فاذا تقاعستما عنه او اذا اصابه الفشل فان ستارا جنائزيا سيمتد على هذه الامبراطورية . فماذا ترى سيكون مصيرها ؟ وأين ترى سيلقى بهذه السفينة التي أصابتها الصاعقة ، وعصفت بها العاصفة ! انني اجهل كل شيء . ولكن اذا ادركني الخلاص من هذا الغرق العام الذي ستتعرض له الامة ، فسوف أقول دائما بشموخ وأنا في خلوتي : « لطالما عرضت نفسي للهلاك من أجل انقاذهما ، ولكنهما لم يريدا الخلاص » .

أجل لم يريدا الخلاص . ذلك ان الثورة قد منعت منذ القديم قرن الثور والحصان الى محراث واحد . وهنا لم يستطع روح البلاط المحافظ الثقيل الخطى ، ان يسير مع طبيعة المعلم الكبير ، هذه الطبيعة الملتهبة العنيفة.

ولم تستطع ماري انطوانيت ، وهي امرأة من العالم القديم ، فهم طبيعة ميرابو الثورية ، اذ أنها لا تفهم الا الاشياء المستقيمة ، لا الاعيب هذا المغامر السياسي الجريئة . غير أن ميرابو لم يكف عن القتال حتى الساعة الاخيرة ، مدفوعا بحبّه للقتال وبغطرسته المتهورة . وها هو ذا الآن ، وقد أصبح موضع شبهة بالنسبة للشعب ، وللبلاط ، وللجمعية الوطنية ، مع الجميع وضدهم في آن واحد . وها هو ذا الآن ، بجسمه المنهوك ، ودمه المقروض بالحمّى ، يتحامل على نفسه في الحلبة ليفرض ارادته على أعضاء الجمعية الوطنية البالغ عددهم ألفا ومائتي عضوا . ومن ثم ، في شهر آذار (مارس) ١٧٩١ ، بعد ان خدم الملك والثورة معا طوال ثمانية أشهر ، أنقض الموت عليه . ففي هذا النهار لفظ خطابا ، وحرّر الكتبة حتى المساء كعادتهم ما كان يمليه عليهم ، ثم قضى ليلته الاخيرة مع مغنيتين ، واخيرا اذا بقوة هذا الكائن الفائق القدرة تتحطم فجأة . وسرعان ما رصّت الجماهير صفوفها أمام بيته لتعلم ما اذا كان قلب الثورة ما يزال يخفق أيضا . وبعد موته سار ثلثماية ألف شخص خلف نعشه . وللمرة الاولى فتح « البانتيون » أبوابه ليستريح فيه الميت راحته الابدية .

ولكن ما أوهى كلمة « أبدية » في زمن كانت الاحداث فيه يدفع بعضها مناكب البعض الآخر بسرعة فائقة ! فبعد سنتين ، اذ اكتشفت علاقات ميرابو بالملك ، صدر مرسوم جديد يقضي باخراج الجثة التي لم تتحول بعد الى تراب من « البانتيون » ، ليلقى بها في مكان مخصص للأقذار والنفايات .

وعند موت ميرابو ظل البلاط وحده صامتا ، وهو يعلم لماذا ، واننا لنستطيع دون تردد ان ننحي رواية حمقاء جاء فيها على لسان مدام «كامبان» أن دمعة لمعت في عين ماري انطوانيت عندما بلغها نعي ميرابو . فالرواية تدعو الى الشك ، وكل ماجريات الاحداث انما تدفع الى الاعتقاد بأن الملكة استقبلت هذا النبأ بتنهد يدل على الارتياح . فهذا الرجل كان عظيما ، فلا يمكنه أن يخدم ، وجسورا ، فلا يمكنه أن يطيع . والبلاط قد خشي جانبه وهو حيّ ، وما زال يخيفه ميتا . وكان ميرابو ما يزال ينازع نزاعه الاخير ، عندما ارسل الى بيته مبعوث سري ليستولي ضرورة على الرسائل المعرضة للخطر التي كانت في ادراج مكتبه ، لكي يبقى طي الكتمان هذا التحالف الذي يخجل منه الطرفان : ميرابو لأنه كان يخدم البلاط ، والملكة لأنها كانت تستخدمه لاغراضها السياسية . ولربما كان ميرابو آخر رجل يستطيع ان يلعب دور الوسيط بين الملكية والشعب . ولكنه عندما انتهى اصبحت ماري انطوانيت وجها لوجه مع الثورة !

٢٤ ـ الاعداد للهرب

لقد فقدت الملكية بفقدان ميرابو حليفها الوحيد في معركتها ضد الثورة . فأصبح البلاط من جديد وحيدا ، امام احد امرين : القتال او التسليم . ولكنه اختار اشد الحلول تعاسة ، اي انه التجأ الى الحل الوسط : الهرب .

وكان ميرابو قد فكر منذ امد طويل، بأن على الملك، لكي يستعيد سلطته، أن يتخلص قبل كل شيء من الوصاية المفروضة عليه في باريس ، لأن السجين لا يستطيع خوض المعركة ، ولأن القتال يفرض على المرء أن يكون حر اليدين ، وان يشعر بأن الارض صلبة تحت قدميه . ولكن ميرابو كان يريد أن يهرب الملك متخفيا ، لأن الهرب مناقض لجلاله . ولقد كان يقول : « الملك لا يهرب امام شعبه » ، ثم يضيف باصرار قائلا : « لا يمضي الملك الا في وضح النهار ، اذا ما اراد أن يكون ملكا » . ولقد اقترح على لويس السادس عشر أن يقوم بنزهة في مركبته الى ضواحي المدينة ، حيث يكون بانتظاره كتيبة من جنود الخيالة المخلصين ، وعندئذ يستطيع في وضح النهار ان يصل جيشه وسط كتيبته ، ومن هناك يمكنه أن يفاوض الجمعية الوطنية كرجل حر ، ولكن تبنّي هذه الخطة يقتضيه أن يكون رجلا ، لا أن يكون مترددا فاقد الجرأة .

وعندما توفي ميرابو عادت ماري انطوانيت الى تبنّي فكرته بعزم وطيد . فأصبحت فكرة الهرب لا تخفيها الآن ، ولكنها مرتبطة بكرامتها كملكة ، وهي لا تخشى الا أن يَمس جانب كرامتها . ولكن تأزم الحالة يوما بعد يوم لم يترك لها حرية الاختيار . وها نحن نسمعها تكتب الى « مرسي » قائلة :

« انني أشعر شعورا كاملا بجميع المخاطر التي تحيق بنا ، وبجميع مزالق المصير التي نتعرض لها الآن . وانني لأرى حولنا أشياء مرعبة ، تجعلنا نفضل الهلاك ونحن نبحث عن وسيلة للخلاص ، على أن نقعد واجمين لكي تسحقنا الاحداث سحقا تاما » .

ولما ظل « مرسي » السفير الحذر المحترز ، يبدي تردده في بروكسل ، كتبت له رسالة ثانية أشد حيوية وأكثر تبصّرا ، وهي تظهر بأي صفاء ذهني غدت هذه المرأة ، التي كانت في القديم خفيفة ، تنظر الى سقوط عرشها المرتقب . وللقارىء بعض ما جاء في هذه الرسالة :

« لقد أضحى وضعنا مرعبا ، فلا يستطيع الذين لا يرونه عن كثب ان يكونوا عنه فكرة صائبة . ولم يبق لنا هنا الا أحد أمرين : فاما أن نحقّق بطريقة عمياء كل ما يتطلبه العصاة منا . واما أن نهلك بالسيف المسلّط دائما فوق رؤوسنا . ثق انني لا اجسّم المخاطر المحيقة بنا ، فأنت تعلم ان رايي كان دائما الاعتماد على اللين والزمن والراي العام ، أما اليوم فقد تغيّر كل شيء ، وبتنا أمام أمرين : الهلاك أو استعمال الوسيلة الوحيدة التي بقيت لنا . وهذه الوسيلة نفسها هي مليئة بالمخاطر ، ولكن اذا هلكنا فيها ، فسيكون هلاكنا على الاقل مجيدا ، اذ نكون فعلنا ما في وسعنا من أجل واجباتنا وشرفنا والدين . وانني أعتقد أن الاقاليم أقل فسادا من العاصمة ، ولكن باريس هي التي تفرض اتجاهاتها على المملكة . لأن النوادي السياسية ، والجمعيات هي التي تقود فرنسا من جميع نواحيها . أما الشرفاء والمستاءون، بالرغم من عددهم الكبير ، فقد هربوا من بلادهم ، أو اختبأوا لأنهم ليسوا الاقوياء ، ولأن نقطة الالتقاء بينهم مفقودة . فاذا استطاع الملك أن يظهر بحرية في مدينة قوية ، عندئذ يظهر المستاءون الذين يُذهل عددهم ، من مخابئهم حيث ما زالوا يئنّون صامتيْن . ولكن التأخير يفقدنا جميع انصارنا ، لأن روح الجمهورية تزداد كل يوم انتشارا في جميع الطبقات ، وحتى في قوى الجيش التي سيصبح من العسير الاعتماد عليها » .

ولكن خطرا آخر غير الثورة كان يهدد الملك والملكة . فقد كان الكونت «دارتوا » والامير « كونديه » والمهاجرون الآخرون ، وكلهم أبطال هزيلون ، يقيمون عند الحدود صاخبين ، ومصلصلين بسيوفهم التي يتركونها حذرا

في اغمدتها . ولقد شرعوا يزورون بلاطات أوروبا متآمرين ، ومحاولين ، لكي يبرروا هربهم ، أن يظهروا بمظهر الابطال ، ما دام الخطر بعيدا عنهم . ولقد كانوا ينتقلون من بلاط الى بلاط محرضين على فرنسا الاباطرةَ والملوك ، دون أن يسألوا ما اذا كانت مباحثاتهم الفارغة لن تزيد الخطر المميت الذي يحيط بالملك والملكة .

ولقد حاولت الملكة جهدها لكي تردعهم عن حماقاتهم المهلكة . ذلك انه كان يتحتّم أيضا شل أيدي هؤلاء عن العمل . ولكن يترتب على الملك أن يكون حرا لكي يقمع اعمال الثائرين المتطرفين ، والرجعيين المتطرفين ، اي متطرّفي باريس ، ومتطرّفي الحدود على حد سواء . ولكي يكون الملك حرا يجب اللجوء الى أصعب وسيلة : الهرب .

واخذت الملكة على عاتقها مهمة تنفيذ المشروع ، وكان من الطبيعي أن تعهد بأمر اعداداته المادية الى الرجل الذي لا تخفي عنه شيئا : اي الى فرسن. فالى هذا الرجل الذي قال لها يوما : « انني لا أحيا الا من أجل خدمتك » ، عهدت بهذه المهمة التي ستستنفد قواه بل ستعرض حياته للخطر الجسيم . اما المشاق فهي أكثر من أن تُحصى . اذ يقتضي اخذ احتياطات خاصة للخروج من القصر الذي يراقبه جنود الحرس الوطني ، وحيث كل خادم هو بمثابة جاسوس على الاسرة الملكية . كما انه يقتضي الاحتراس عند اجتياز المدينة المعروفة بروحها العدائية المناوئة . أما الانتقال داخل البلاد فانه يقتضي التفاهم مع الجنرال « بوّيه » ، قائد الجيش الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه . وكانت الخطة أن يرسل الجنرال بوّيه حتى منتصف الطريق المؤدية الى قلعة « مونمادي » ، اي حتى مدينة « شالون » تقريبا ، كوكبات من الخيالة لكي تحمي المركبة الملكية في حال اكتشاف أمرها أو مطاردتها . هنا برزت عقبة جديدة : هذه الحركة العسكرية على مقربة من الحدود ستنكشف حالا ، ومن الواجب اذن تبريرها ، فتعمد الحكومة النمساوية الى حشد عساكرها عند الحدود ، لكي يتسنّى للجنرال بوّيه اجراء تحركاته العسكرية دون أن يثير عليه الظنون . وكان يتطلب تحضير هذه الاجراءات سرية تامة ، ومراسلات عديدة حذرة ، لأن اكثر الرسائل تفتحها أيدي الجواسيس ، ولأن اقل شبهة تحوم فوق المشروع ، كما يقول فرسن ذاته ، تطيح بكل شيء .

ولكن هناك ايضا عقبة اخرى : فالهرب يتطلب كميات كبيرة من المال ، والملك والملكة هما الآن على الحضيض تماما . ولقد فشلت جميع المحاولات للحصول على بضعة ملايين من شقيق الملكة ، أو من أمراء آخرين في انكلترا

واسبانيا ونابولي ، أو من صراف القصر . ولقد أخذ فرسن يهتم بهذا الموضوع كغيره من المواضيع ، لأن هذا الشاب السويدي كان يستمد قوته من غرامه للملكة ، بل قد كان يعمل كعشرة رجال ، بقلب منزه عن كل غرض ، فيبحث مع الملكة جميع التفاصيل ، طيلة ساعات بكاملها ، اذ يندس الى حجرتها في الليل أو بعد الظهيرة ، سالكا طريقا سرية . وكان فرسن هو الذي يتصل كتابة بأمراء الخارج ، وبالجنرال بو"يه ، ويختار شبانا امناء يتنكرون بألبسة سعاة البريد ، لكي يرافقوا المركبة الملكية ، او ينقلوا الرسائل السرية بين باريس والحدود . كما انه هو الذي أوصى بصنع المركبة باسمه ، واهتم بأمر الجوازات المزورة، وحضّر المال مستدينا ثلاثمائة ألف ليرة من سيدة روسية، وكمية مماثلة من سيدة سويدية ، مقدما ثروته الخاصة كتأمين لهذه المبالغ الكبيرة . ولقد استدان أيضا ثلاثة آلاف ليرة من بوابه . وهكذا فقد ظل ليلا ونهارا ، واسبوعا بعد آخر ، يكتب ، ويفاوض ، ويضع التصاميم ، ويسافر ، مجترحا كل هذه الامور بتيقظ شديد دائم ، ومعرضا حياته في كل لحظة . فاذا انفصمت حلقة واحدة من هذه الشبكة التي كانت ممدودة على فرنسا بكاملها ، أو خان واحد فقط من المشتركين في هذا المشروع ، او فوجئت كلمة واحدة وضبطت رسالة من رسائله ، فان حياته ستكون الثمن . ولكنه كان يؤدي واجبه كاملا بصفاء ذهن وجراة نادرين ، دون أن يكل أو يهن ، لأن الحب كان دافعه الوحيد الى العمل . وكان شأنه شأن بطل متواضع يلعب دورا ثانويا في احدى مآسي التاريخ الكبيرة .

اما الملك فقد كان يتردد ايضا ، راجيا ان يحين حادث مؤات يجنّبه جهد هذا الهرب الذي يشعر بصعوبته . ولكن رجاءه كان يذهب أدراج الرياح .

وبعد ان تمت جميع الاعدادات الضرورية كان ينقص شيء واحد : حجّة رسمية تكون بمثابة تغطية معنوية لهذا الهرب الذي لا ينطوي ، بالرغم من الحاجة اليه ، على صفات الفروسية . فمن الواجب إذن ايجاد تعليل يظهر للملأ بوضوح ان الملك والملكة لم يهربا بدافع الخوف فقط ، وانما بدافع من الاحداث المرعبة التي ارغمتها على الهرب . ولخلق هذه الحجة المبررة فقد اعلن الملك في الجمعية الوطنية وفي دار البلدية انه سيقضي اسبوع عيد الفصح في قصر سان كلو . وفي اليوم التالي أخذت الصحف تصيح وتولول وتصخب ، قائلة ان الملك يتخذ انتقاله مجرد ذريعة للهرب مع اسرته . ولقد ادت حملة الصحافة خدمتها التي كان يرجوها القصر . ففي ١٩ نيسان (ابريل) عندما كان الملك يتهيأ للصعود الى مركبته التي أعدت له جهارا ، ازدحم حول قصر التويلري جمهور غفير مؤلف من قوات « مارا » والنوادي

السياسية الذين اقبلوا مسرعين لمعارضة انتقال الملك بالقوة .

هذا الضجيج الشعبي هو جل ما كانت تتمناه ماري انطوانيت ومستشاروها ، إذ بهذه الطريقة سيظهر للعالم بأسره ان لويس السادس عشر هو الرجل الوحيد في فرنسا الذي لم يبق له حرية الانتقال في مركبته فرسخا واحد عن باريس لاستنشاق الهواء . وكذلك فقد جلست الاسرة الملكية بكامل افرادها في العربة متأهبة للسير . ولكن الجمهور مع رجال الحرس الوطني اجتمعوا على أبواب الاسطبل فسدوها . وأخيرا وصل « لافايت » « المنقذ السرمدي » ، وبوصفه رئيسا للحرس الوطني أمر ان يترك للملك حرية المرور . ولكن احدا لم يطعه . وعندما طلب من حاكم المدينة ان ينشر العلم الاحمر دلالة على الانذار ، اخذ الحاكم يسخر منه وجها لوجه . عندئذ أراد « لافايت » أن يخاطب الشعب ، ولكن صوته اختنق امام الزمجرة الهادرة . وبينما كان القائد الحزين يتوسل الى جنوده ان يطيعوه ، ولكن عبثا ، كان الملك والملكة ومدام اليزابيت جالسين باطمئنان في المركبة ، بين صرخات الجماهير الصاخبة . ولم تكن ماري انطوانيت لتتأثر بهذه الاحتجاجات والشتائم الغليظة ، بل لقد كانت تنظر بلذة خفية الى لافايت ، رسول الحرية الذي نال رضى الشعب ، كيف أنه يرتجف الآن امام الجماهير الهائجة . ولم تتدخل الملكة بين هاتين القوتين المتخاصمتين ، اذ كانت تزدريهما كلتيهما معا . ومن ثم فقد ظلت في مقعدها هادئة ، صافية الذهن ، تاركة الجلبة والصراخ يشتدان حولها ، لأنهما سيحملان للعالم برهانا ساطعا على ان قيادة الحرس الوطني ضعيفة ، وعلى ان الانقسام والفوضى يعمان فرنسا ، وعلى ان اوباش الشعب يستطيعون دون اي مبرر إهانة الأسرة الملكية ، وبالنتيجة على ان الملك من الناحية المعنوية هو في حالة تدعوه الى الهرب .

ولقد ترك الملك والملكة الامور تجري حولهما طيلة ساعتين ، عندئذ أمر لويس السادس عشر بادخال المركبات الى الاسطبل ، وأعلن انه يصرف النظر عن اتمام نزهته . هنا ، كما يحدث دائما عند الانتصار ، اخذت الجماهير تهتف للزوجين الملكيين بحماسة مفاجئة ، بينما كانت منذ لحظات تصب سخطها عليها . ولو نفذ مشروع الهرب في هذه الليلة بالذات ، ليلة ٢٠ نيسان (ابريل) ، لكانت تكفي مركبتان خفيفتان عاديتان ، واحدة للملك وابنه ، والثانية للملكة وابنتها ومدام اليزابيت ، لايصال الاسرة الملكية الى الحدود دونما ضجيج يثير الانتباه . ولكن الاسرة الملكية ، حتى عندما تكون على بعد إصبع من الموت ، لا تتخلى عن سننها البيتية المقدسة ، وتحرص في اخطر سفر تقوم به ، على الاتخرق قاعدة واحدة من قواعد السلوك الملكي الخالدة ،

وهذا ما أدى الى ارتكاب اغلاط كثيرة . الغلطة الاولى : تقرر ان يصعد الى المركبة خمسة اشخاص ، اي الاسرة الملكية بكاملها . ومن ثم فقد ذكّرت مدام « تورزيل » بقسمها الذي يمنعها من ترك ولدي الملك لحظة واحدة ، فكان من الواجب إذن اصطحابها شخصا سادسا ، وهذه كانت الغلطة الثانية .

الغلطة الثالثة : لم يكن احد يتصور ان الملكة تستطيع خدمة نفسها بنفسها ، فكان من الواجب إذن اصطحاب وصيفتين في عربة ثانية ، وهذا ما جعل عدد الاشخاص يرتفع الى ثمانية . ولما كان من الواجب ان يشغل مراكز الحوذي ، والسائس ، وخادم الخيل ، والحاجب ، رجال أمناء من طبقة الاشراف ، حتى ولو كانوا يجهلون الطريق ، فقد بلغ العدد اثني عشر شخصا . وإذا اضفنا اليهم فرسن وحوذيه ، فان العدد يصبح أربعة عشر شخصا ، ولا شك انه عدد كبير بالنسبة لسفر سرّي .

وكان هناك أيضا غلطة رابعة وخامسة وسادسة وسابعة : إذ كان من الواجب اخذ البزّات الرسمية ، لكي يستطيع الملك والملكة في « مونميدي » خلع ثياب السفر ، وإبدالها بالثياب الانيقة . لذلك فقد حُملت العربة ببعض الحقائب الجديدة المليئة بالمتاع ، مما أدى بالامر الى تأخير جديد ، والى وسيلة جديدة للفت الانظار . وهكذا اخذ هذا الهرب المستتر يتحول رويدا رويدا الى حملة فخمة .

اما الغلطة الكبيرة فهي ان الملك والملكة لا يستطيعان القيام بسفر يدوم فقط أربعا وعشرين ساعة ، هربا من الجحيم ، دون ان تتوفّر لهما وسائل الراحة التامة . فيجب اذن صنع مركبة كبيرة ، ثرية المنظر تتصاعد منها رائحة الدهان الجديد . ولما كان فرسن يريد للملكة أجمل الاشياء ، وافخمها، وأكثرها بذخا ، فقد اخذ على عاتقه صنع آلة ضخمة ، هي شبه مركبة حربية ذات اربع عجلات ، تستطيع نقل اشخاص الاسرة الملكية الخمسة مع الحاضنة والحوذي والخدم ، وتحتوي جميع وسائل الراحة التي يمكن للمرء أن يتصورها : الآنية الفضية ، وخزانة للثياب ، وأصنافا من الاطعمة ، وكراسي خاصة . ولقد جُهزت هذه العربة ايضا بما يشبه قبو الخمور ، لأن حنجرة الملك تظل ظمأى للنبيذ . وهكذا فقد كانت هذه المركبة الضخمة بحاجة الى ثمانية جياد لجرها ، واحيانا الى اثني عشر جوادا . ولما كانت العربة الصغيرة ذات الجوادين لا تحتاج ، لتغيير خيلها في المحطات ، الى اكثر من خمس دقائق ، فقد كانت هذه المركبة بحاجة الى نصف ساعة مما يؤدي الى خسارة اربع أو خمس ساعات من مسيرة كان ربع الساعة منها كافيا لتقرير حياة العاهلين أو موتهما . ولكن كان هناك مبرر لهذه التصرفات الحمقاء البطيئة ،

ذلك ان سِفرَ قواعد السلوك الملكي كان خاليا من شيء واحد : فهو يحتوي الف تفصيل عن كيفية ذهاب الملك او الملكة الى حفلة معمودية ، او الى حفلة تتويج ، او الى المسرح والصيد ، كما أنه يحتوي شتى الاوصاف للملابس والاحذية والبكل التي يجب ارتداؤها في الاستقبالات الصغيرة او الكبيرة ، ولكنه لا يحتوي قاعدة واحدة تشرح كيف يتوجب على الملك والملكة أن يهربا متنكرين من قصر أجدادهما .

واخيرا بعد التأجيلات التي لا نهاية لها ، عيّن نهار ١٩ حزيران (جوان) موعدا للهرب . ولكن اذا بمقالة لـ « مارا » تعلن عن إعداد مؤامرة لخطف الملك ، فتكون بمثابة ضربة سوط صفرت فجأة بين همسات ومحادثات القصر السرية . ولقد جاء في مقالة « مارا » العنيفة ما يلي : « يريدون نقله بالقوة الى هولاندا ، بحجة ان قضيته هي ايضا قضية جميع ملوك أوروبا . لكم تكونون اغبياء أيها الباريسيون اذا لم تقفوا في وجه هرب الاسرة الملكية . ايه أيها الباريسيون الحمقى ، لقد تعبت من الترداد لكم ان احتفظوا بالملك وولي عهده بين جدرانكم ، وضيّقوا الخناق على النمساوية ، وشقيقة الملك ، وبقية اعضاء الاسرة . وإن إضاعة يوم واحد قد تكون مشؤومة على الامة ، لأنها قد تحفر قبورا لثلاثة آلاف من الفرنسيين ! »

يا لهذه النبوءة الغريبة التي تصدر عن هذا الرجل البصير ، القابع خلف نظارتين مريضتي الحذر ! ولكن « إضاعة هذا اليوم الواحد » لم تكن مشؤومة على الامة ، بل على الملك والملكة . وكان فرسن قد أرهق نفسه ليكون كل شيء جاهزا في ١٩ حزيران ، ولكن دونما طائل ، إذ ان الملكة ارجأت السفر في اللحظة الاخيرة ، لأنها اشتبهت باحدى وصيفاتها التي كانت عشيقة رجل من رجال الثورة . ولقد ارجىء السفر الى اليوم التالي ، اي الى ٢٠ حزيران ، حيث تكون الوصيفة المذكورة متغيبة عن القصر . وكان من جراء هذا التأخير الجديد أربعا وعشرين ساعة ، إصدار امر معاكس للجنرال المنتظر ، وإصدار الامر باراحة الخيل ، واحداث تأزم شديد لفرسن الذي أصبح واهنا ، ولماري انطوانيت التي أصبحت تسيطر بصعوبة على اضطرابها النفسي . ولكن اخيرا انقضى هذا النهار ايضا . ولكي تبدد الملكة جميع الظنون فقد قادت بعد الظهر ولديها وشقيقة زوجها الاميرة اليزابيت الى نزهة في تيفولي . وعند عودتها ، بجلالها وثقتها بنفسها اللذين كانت تظهر بهما عادة ، أصدرت لقائد البلاط الاوامر المتعلقة بنهار الغد ، وفي المساء عند الساعة الثامنة صرفت ماري انطوانيت وصيفاتها ، وانسحبت الى حجراتها ، حيث أشرفت على اضجاع ولديها . وبعد العشاء اجتمعت الاسرة الملكية كعادتها في الردهة

الكبيرة ، متظاهرة باللامبالاة التامة ، ولكن مراقبا ذكيا كان باستطاعته ان يلاحظ شيئا واحدا : ان الملكة كانت تقوم احيانا وتنظر الى ساعتها ، كانها متعبة . ولكنها في الواقع لم تكن ابدا اشد تنبها ، واكثر يقظة ، واقوى تصميما على مجابهة القدر منها في هذه الليلة !

٢٥ ـ الهرب من فارين

لم يكن أشد المراقبين حذرا يستطيع ان يلاحظ في مساء العشرين من حزيران (١٧٩١) شيئا يثير الشبهة في قصر التويلري : فجنود الحرس الوطني يحتلون مراكزهم كعادتهم ، وانسحب الحجّاب والوصيفات بعد العشاء ، كما كانوا يفعلون كل مساء ، وكالعادة أيضا جلس الملك وشقيقه الكونت دي بروفانس وبقية افراد الاسرة الملكية في الردهة الكبيرة ، مجتمعين حول طاولة للزهر ، أو غارقين في محادثة هائئة . فهل هناك ما يثير العجب ان تنهض الملكة نحو الساعة العاشرة ، أثناء الحديث ، لكي تغيب بضع دقائق ؟ فلعلّها تريد ان تعطي امرا ما ، أو ان تكتب رسالة ، لذلك لم يتبعها أي خادم ، وعندما خرجت الى المشى رات انه خاو تماما . هنا توقفت ماري انطوانيت برهة ، فحبست انفاسها ، واخذت تستمع بأذن صاغية الى وقع أقدام الحراس الثقيلة . ثم صعدت مسرعة الى غرفة ابنتها ونقرت على الباب نقرا رقيقا . فأفاقت الاميرة الصغيرة مذعورة ، ونادت حاضنتها الثانية ، مدام « برونيه » . وعندما اقبلت هذه ، أبدت تعجبها من أمر الملكة لها ان تسارع الى الباس الفتاة ثيابها ، ولكنها لم تجرؤ على المقاومة . وأثناء ذلك ايقظت الملكة ايضا ولي العهد ، اذ رفعت ستائر سريره الموشّاة ، وتمتمت في اذنه قائلة بحنان : « انهض ، فاننا سنمضي الى ساحة حرب مليئة بالجنود ! » فتلعثم الامير الصغير الذي ما زال النعاس يثقل جفنيه ، ثم طلب سيفه وبزته العسكرية ما دام سيمضي الى ملاقاة الجنود . اما ماري انطوانيت فقد قالت : « هيا لنمضي بسرعة ! » موجهة كلامها للحاضنة الاولى مدام دي تورزيل التي كانت على علم بالامر منذ وقت طويل ، والتي البست ولي العهد ثياب فتاة ، قائلة له بأنهم ماضون الى حفلة رقص مقنعة . عندئذ أنزل الولدان الى حجرات الملكة حيث كانت تنتظرهما مفاجأة مسلية : فعندما فتحت ماري انطوانيت خزانة في الجدار خرج منها ضابط من ضباط الحرس ، هو « دين مالدين » الذي اتى به الى حجرات الملكة فرسن الذي لا يكل ابدا . ومن هناك توجّه الاربعة نحو الباب الذي لا حرس عليه ، والذي يفتح على باحة القصر

الغارقة في شبه ظلام دامس . وكانت العربات في هذه الباحة واقفة في صف طويل ، وقد راح بعض الحوذيين والخدم ، الذين لا يشغلهم اي شاغل ، يسيرون ذهابا وايابا ، او يتحدثون مع جنود الحرس الوطني الذين وضعوا بنادقهم الثقيلة على الارض . وفتحت الملكة الباب بيدها ، ونظرت الى الخارج وهي رابطة الجأش ، فاذا برجل متنكر بثياب حوذي يخرج من ظل العربات ، ويمسك دون ان يفوه بكلمة واحدة ، يد ولي العهد : انه فرسن الذي بذل منذ الصباح جهدا مرهقا لكي يضع كل شيء في موضعه . وها هو الآن يعرض بحياته لخطر الموت ، وهو يأخذ يد ولي عهد فرنسا ، ولا يطلب اية مكافأة غير نظرة تعبر عن عرفان الجميل من الملكة التي عهدت اليه وحده بولديها الصغيرين .

وسرعان ما اختفت الظلال الاربعة في الظلام ، فأغلقت الملكة عندئذ الباب ، ثم عادت بقدم خفيفة لامبالية ، دون ان يثير أية شبهة حولها ، الى الردهة حيث راحت تستأنف محادثتها بشكل طبيعي ، بينما كان فرسن يجتاز بولديها الساحة العامة ، لكي يضعهما في عربة قديمة حيث عاد الكرى فهيمن على جفونهما . وفي الوقت نفسه كانت عربة ثانية تنقل وصيفتي الملكة الى « كلاي » حيث ستنتظران المركبة الملكية . وها هي الآن الساعة الحادية عشرة ، وهي الساعة الحاسمة ، فغادر القصر الكونت دي بروفانس وعقيلته اللذان سيهربان هما ايضا في هذه الليلة . عندئذ قامت الملكة ومدام اليزابيت شقيقة الملك ، فدخلتا حجرتيهما ، ولكي لا تثير الملكة الظنون ، فقد خلعت ثيابها كعادتها على يد وصيفتها ، كما انها طلبت إعداد العربات التي ستنقلها غدا الى النزهة . وعند الساعة الحادية عشرة ونصف أمرت باطفاء الانوار ، دلالة على ان الوقت قد حان لتنسحب الوصيفات الى الغرف الخاصة بهن . ولم يكد الباب ينغلق على الوصيفات ، حتى قامت الملكة فلبست ثيابها بسرعة، مرتدية فستانا كامد اللون ، من الحرير الرمادي ، وقبعة سوداء ذات ملاءة نحيفة تخفي قسمات الوجه . ولم يبق عليها الا ان تنحدر على السلّم الصغير لكي تصل الى الباب ، حيث ينتظرها رجل موثوق به لكي يجتاز معها ساحة « الكرّوسيل » ، وهي الساحة التي تمتد بين « التويلري » و « اللوفر » . ولكن قدرا غاشما أراد في هذه اللحظة بالذات ان تقترب من القصر أنوار عربة يسير امامها حملة المشاعل : انها عربة الجنرال لافايت الذي يأتي كعادته ليتأكد من ان كل شيء يسير سيرا منتظما . فانسلّت الملكة تحت سقيفة مظلمة ، حتى ان العربة كادت أن تلمسها بعجلاتها . ولكن احدا لم ينتبه لوجودها تحت السقيفة . عندئذ خطت الملكة بعض خطوات ، حتى وصلت الى العربة

التي تحتوي اعز ما تملك في العالم ، أي فرسن وولديها .

أما الملك فقد كان يعترض هربه عقبات اكثر صعوبة . فقد كان عليه اولا ان يستقبل زيارة الجنرال لافايت اليومية ، وهذه الزيارة إستطالت هذه الليلة حتى كاد لويس السادس عشر أن يفقد هدوءه . لذلك فقد نهض عدة مرات ، وراح يقترب من النافذة كأنه يريد أن ينظر الى السماء . واخيرا عند الساعة الحادية عشرة والنصف ، انصرف القائد المزعج . فدخل لويس السادس عشر الى حجرته لكي يبدأ معركته الاخيرة مع شكليات التقاليد الموروثة المتطرفة . ذلك ان تقليدا قديما كان يفرض ان ينام خادم الحجرة الملكية في الغرفة ذاتها التي ينام فيها الملك . وكان الخادم ينام ومعصمه مربوط بأنشوطة ، فلا يحتاج العاهل الا ان يشدها اذا ما اراد ان يوقظه من نومه . فقد كان يترتب اذن على لويس السادس عشر ، لكي يهرب من حجرته ، ان يتخلص قبل كل شيء من وجود خادمه . وهكذا فقد راح الملك بهدوء تام يخلع ثيابه كعادته على يدي وصيفه ، ثم صعد الى سريره وانزل ستائره متهيئا للنوم . ولكنه في الواقع كان ينتظر اللحظة التي يدخل فيها الوصيف الى الحجرة المجاورة لخلع ثيابه ، وفي هذ البرهة القصيرة انسل الملك من سريره ، حافي القدمين ، وهو يرتدي قميص النوم ، ودخل الى غرفة ابنه ، حيث أعدت له بذلة غليظة المظهر ، وقبعة خادم من الخدم (يا للاتضاع الجديد !) ، وفي غضون ذلك عاد الوصيف حابسا انفاسه بخوف ، كيلا يوقظ مليكه الحبيب الذي ينام خلف الستائر ، وعقد الانشوطة حول معصمه ، كما كان يفعل كل مساء . اما لويس السادس عشر خَلَفَ ووريث القديس لويس ملك فرنسا ونافار ، فقد انسل بسرعة الى الطابق الاسفل ، وهو يرتدي قميص النوم ، ويحمل على ذراعه بذلته الرمادية وشعره المستعار وقبعته . وهناك في الطابق الاسفل كان ينتظره « دي مالدين » ضابط الحرس الملكي الذي كان مختبئا في الخزانة ، والذي كان عليه ان يقوده الى العربة المنتظرة ، حيث اجتمعت الآن الاسرة الملكية بأجمعها . وكانت الساعة قد بلغت منتصف الليل ، عندما صعد فرسن ، المتنكر بثياب حوذي ، الى مركز القيادة ، وراح يجري داخل باريس بالعربة التي تقلّ (الملك ـ الحاجب) وعائلته .

ولشدّ ما كانت فكرة اجتياز باريس فكرة مشؤومة ، لأن فرسن كان معتادا ان يجتازها بواسطة الحوذيين ، لا ان يجتازها وهو يقود عربة ، إذ انه كان يجهل شبكة الشوارع المعقدة التي تتفرع في كل مكان من العاصمة . وفضلا عن ذلك فقد كان مصرا على المرور في شارع « ماتينيون » زيادة في الاحتراز ، لكي يتأكد من سير المركبة الكبيرة . وهكذا فقد كان عليه ان يبدد

ساعتين من الوقت ، فاذا به لا يجتاز بوابة المدينة الا في الساعة الثانية بعد منتصف الليل . وكان على المركبة الضخمة ان تكون بالانتظار بعد البوابة الكبيرة ، وفي جوارها . ولكنها لم تكن هناك : يا للمفاجأة الاولى ! فاضطر فرسن الى تبديد بعض الوقت ايضا حتى اكتشفها اخيرا . ولقد كان مشدودا اليها أربعة جياد ، وكانت محتوية على قناديل شاحبة . فتقدم عندئذ فرسن بعربته الى محاذاتها لكي تنتقل الاسرة الملكية اليها دون ان تتعرض الى تلطيخ أحذيتها بالوحل أو الغبار . وكانت الساعة الثانية والنصف فجرا عندما بدأت الجياد انطلاقها ، عندئذ شرع فرسن يلهب ظهور الخيل بسوطه ، حتى وصلوا في غضون نصف ساعة الى « بوندي » ، حيث كان بانتظارهم ضابط من ضباط الحرس الملكي ، مع ثمانية جياد من جياد التبديل المستريحة . هنا كان مقضيا على فرسن ان ينفصل عن الاسرة الملكية . ولشد ما كان هذا الانفصال قاسيا على ماري انطوانيت التي آلمها كثيرا ان يبتعد عنها الكائن الوحيد الذي تستطيع الاعتماد عليه ، ولكن الملك اعلن بصراحة بأنه لا يرغب في استمرار مواكبة فرسن لهم ، أما السبب فما يزال مجهولا !.. عندئذ اقترب فرسن مرة اخيرة من المركبة الملكية ، وهو على صهوة جواده ، وقال متعمدا رفع صوته لكي يبعد ظنون ساسة الخيل الاغراب : « الى اللقاء يا مدام دي كورف » .

وبطبيعة الحال كانت ثمانية جياد تشد اكثر من اربعة ، فراحت المركبة الضخمة تتهادى فرحة في الطريق الرمادية . وكان الانشراح مهيمنا على الجميع ، فالولدان ناما وشبعا نوما ، وكان الملك فرحا أكثر منه في أي وقت آخر . ولقد راح الجميع يتندرون حول الاسماء المستعارة التي تلبسوها : فمدام تورزيل هي السيدة العالية المقام ، وهي تدعى مدام دي كورف ، والملكة هي حاضنة الولدين ، وهي تدعى مدام روشيه ، والملك بقبعته التي هي قبعة خادم يقوم بدور وكيل المنزل ، وهو يسمى السيد ديزان ، ومدام اليزابيت شقيقة الملك هي الآن الوصيفة ، اما ولي العهد فهو يرتدي زي فتاة. وبالاجمال فان الاسرة الملكية كانت تجد نفسها في هذه المركبة المريحة أكثر حرية مما كانت عليه في القصر الذي كان يحرسه مائة حاجب وست مائة جندي . وفي الحال أحس لويس السادس عشر بوجود صديقه الامين الذي لا يفارقه ابدا ، وهو شهيّته للطعام . ففتحت عندئذ صناديق الاطعمة ، وتروّقت الاسرة الملكية ترويقة دسمة في الآنية الفضية ، ثم اخذت عظام الفراريج والقناني الفارغة تتطاير من نوافذ المركبة . وبعد الطعام أراد الملك ان يستفيد من هذه الفرصة الذهبية ليتعرف الى مملكته ، فأخرج خارطة

ومضى يتتبع عليها أسماء الاماكن التي يمرون فيها ، قرية قرية ، ودسكرة دسكرة . وعندما مروا حوالي الساعة السادسة في أول محطة ، كان الناس ما يزالون نائمين في أسرّتهم ، لذلك فلم يسأل احد عن جوازات البارونة دي كورف . وكان يكفي ان تجتاز الاسرة الملكية ، دون حادث ، مدينة شالون الكبيرة لكي تخرج من اللعب منتصرة ، اذ ان كتيبة أولى من الخيالة ، بقيادة الدوق دي شوازول الشاب ، ستكون بانتظار الهاربين .

واخيرا وصل الهاربون الى مدينة شالون عند الساعة الرابعة بعد الظهر . فاجتمع في المحطة عدد من الناس دون ان يكون لديهم نوايا خبيثة . وكان من عادتهم ، كلما وصلت عربة ، ان يجتمعوا حولها ، ليسألوا الحوذيين عن آخر انباء باريس ، أو لكي يعهدوا اليهم برسالة أو رزمة يريدون ارسالها للمحطة القادمة ، أو لمجرد التفكه والحديث في مثل هذا النهار الحارّ من الصيف . ولقد كان البعض منهم ذوي خبرة ، فشرعوا يتفحصون المركبة ، ملاحظين اولا باحترام ، انها جديدة ، وانيقة تلفت النظر ، وانها مزينة بستائر من الحرير الدمشقي الثمين ، ومنجدة المقاعد تنجيدا فاخرا ، ومجهزة بمتاع رائع . لا شك انها أسرة نبيلة مهاجرة . وكان هؤلاء المتجمهرون يشعرون في أعماقهم بفضول لرؤية هذه الاسرة وللتحدث مع أفرادها . ولكن يا للظاهرة الغريبة ! لماذا يعتصم هؤلاء الاشخاص الستة في مركبتهم بعد هذا السفر الطويل ، بدل ان ينزلوا قليلا لتحريك ارجلهم المتخدرة ، أو لشرب كأس من النبيذ وهم يتحدثون ؟ ولماذا يبدي الخدم مثل هذه العجرفة كأنهم من طينة تسمو على الآخرين ؟ ولقد أخذ البعض يتهامسون همسا مريبا ، حتى ان أحدهم اقترب من رئيس المحطة ، وهمس شيئا في اذنه ، فبدا عليه انه متعجب مذهول !.. ولكن الامر لم يتعدّ هذا الحد من التعجب والذهول ، فسمح رئيس المحطة للمركبة بأن تستأنف سيرها بأمان . ولكن لم تكد تنقضي نصف ساعة حتى راح الناس يروون في المدينة ، ان الملك وأسرته هم الذين اجتازوا شالون .

الا ان الاسرة الملكية كانت لا تشك بشيء ، وبالعكس فقد كان جميع أفرادها مسرورين رغم التعب الذي ألم بهم . وما دام شوازول بانتظارهم مع خيالته في المحطة القادمة ، فسوف تنتهي إذن مظاهر التخفي والتنكر ، وسوف يمزقون جوازاتهم المزورة ، وسوف يسمعون من جديد هتافات « يحي الملك وتحي الملكة » التي انقطعت منذ وقت طويل . وكانت مدام اليزابيت لا تكف عن النظر من النافذة بفروغ صبر ، لتكون أول من يحيي شوازول . أما سعاة البريد الذين كانوا يتقدمون المركبة الملكية : فقد شرعوا

يرفعون أيديهم على جباههم ، أمام شمس المغيب ، لكي يبصروا سيوف الخيالة التي يلمع شررها تحت الاشعة الغاربة . ولكنهم لم يبصروا شيئا على الاطلاق . الا انهم شاهدوا أخيرا فارسا كان وحيدا . انه ضابط من ضباط الحرس الملكي لم يلبث ان راح يتقدم المركبة ، فصرخوا له قائلين :

ــ شوازول ؟

ــ لقد ذهب !

ــ وأين جنود الخيالة ؟

ــ لم يبق منهم رجل واحد .

فانقطعت فجأة حالة الانشراح التي كانت سائدة ، ذلك ان الامور لا تسير سيرها الطبيعي . ومن ثم فقد هبط الليل ، وأخذ الظلام يلفّ كل شيء، ولا شك ان السير قدما نحو المجهول لا يدعو أبدا الى الاطمئنان . ولكن لا عودة الى الوراء ، ولا وقوف في عرض الطريق . ولم يبق أمام الهاربين غير منفذ واحد ، هو متابعة السير الى الامام . عندئذ أخذت الملكة تشجع الآخرين قائلة : اذا لم نجد جنود الخيالة هنا فلسوف نجدهم في مدينة « سانت مانهولد » التي لا تبعد الا مسافة ساعتين . وكانت هاتان الساعتان طويلتين. أطول من النهار بكامله . ثم يا للمفاجأة الجديدة ! فلم يكن في «سانت مانهولد» أي جند لمواكبة الملك . وعندما وصلت المركبة الفخمة الى هذه المدينة ، ومن خلفها العربة الصغيرة ، تجمع الناس ينظرون اليها دهشين ، ولشد ما لفت نظرهم تحية ضابط المركز لهؤلاء الضيوف الغرباء تحية احترام وتبجيل ، بل تحية خضوع لهم ، لأنه طيلة تحدثه اليهم كان يبقي يده على خوذته بشكل تحية رسمية . وهذا ما حدا برئيس المحطة « درويه » ، وهو عضو في نادي اليعقوبيين وجمهوري عنيف ، ان يراقب الامر بنظرة حادة ، قائلا في نفسه : « يجب ان يكون هؤلاء القوم من الارستقراطيين المهاجرين ، أناسا من طبقة الاشراف الرعناء ، من الذين يستحقون أن تصفّد أيديهم بالاغلال » . ولكنه لم يلبث ان أمر بأن تسير المركبه سيرها العادي .

ولم تمض عشر دقائق حتى انتشر فجأة خبر في المدينة مؤدّاه ان العربة تضم الاسرة الملكية . (ترى هل جاء الخبر من شالون حيث حكمت غريزة الناس حكمها الصائب ؟) ، واذا بالهياج العنيف يعم المدينة ، واذا برئيس المحطة « درويه » ، وهو فارس ماهر ، لأنه كان من الذين مارسوا الحرب ، يمتطي صهوة جواد ، وينطلق مع رفيق له نحو « فارين » مارا في الدروب القصيرة لكي يسبق العربة الثقيلة . ولقد كان « درويه » مصمما على اجراء محادثة رصينة مع هؤلاء المسافرين المشبوهين ، فاذا كان الملك بينهم فالويل

له ولتاجه ! وهكذا فقد كان عمل رجل واحد جازم كافيا هذه المرة ايضا لتغيير مجرى التاريخ !

وفي اثناء هذه المدة الطويلة كانت المركبة الملكية الضخمة تنحدر في الطريق المتعرجة التي تؤدي الى فارين . ولا شك في ان هذا السير الذي دام أربعا وعشرين ساعة ، قد اضنى هؤلاء المسافرين الحاشرين انفسهم جنبا الى جنب تحت سقف الهبته اشعة الشمس المحرقة ، فنام الولدان منذ وقت طويل ، وطوى الملك خارطته ، ولاذت الملكة بالصمت . وعندما أصبحت المركبة بجيادها المتعبة أمام أبواب المدينة ، رات الاسرة الملكية مفاجأة مذهلة تنتظرها هناك ، اذ وجدت ، بدلا من الحراس الذين سيواكبونها ، جماعة من الرجال يعترضون سيرها ، ويأمرونها بالوقوف . ثم اذا بجمهرة من الشبان يلتفون حولها ، اذ ان « درويه » الذي سبق وصول العربة بعشر دقائق ، مضى مع بعض اتباعه ، فجمعوا من الاسرّة أو من المقاهي جميع شبان فارين الثوريين. عندئذ كانت كل مقاومة من قِبَل الاسرة الملكية لا تجدي فتيلا ، فاقتيدت الى نزل يدعى « نزل العاهل الكبير ». (يا لسخرية التاريخ !)

وهناك في هذا النزل كان النائب العام ، وهو بقّال بمهنته ، بانتظار المسافرين الغرباء ، فطلب اليهم إبراز جوازاتهم . ولما كان البقال الصغير مخلصا للملك في سره ، ويخشى أن يتورط في قضية شريرة . فقد قلّب بسرعة الاوراق التي قدمت اليه ، وقال : « هذه الجوازات لا غبار عليها ابدا » الا ان « درويه » الشاب الذي لا يريد أن تفلت الفريسة من يديه ، ضرب على الطاولة بقبضته ، وصاح قائلا : « انني متأكد الآن من أن هذا الرجل هو الملك وأسرته ، فاذا تركتهم يجتازون الحدود الى الخارج ، فلسوف تكون متهما بجريمة الخيانة العظمى ! » وهذا التهديد جدير بأن يُرجف ربّ اسرة كهذا البقال المسكين . وفي اللحظة عينها سُمع طنين جرس كان يقرعه رفاق « درويه » . فأضيئت جميع النوافذ وعمّ الهياج المدينة ، واخذ الناس يتجمهرون أكثر فأكثر حول المركبة . عندئذ ، ولكي ينقذ النائب العام البقال موقفه ، دعا البارونة دي كورف واسرتها الى قضاء الليلة في بيته . فاضطر الملك مرغما الى قبول هذه الدعوة ، قائلا في نفسه انه لا بد من وصول كتائب الخيالة بعد قليل . لذلك فقد دخل لويس السادس عشر الى بيت مضيفه باطمئنان ، وكان أول عمل ملكي قام به انه طلب قنينة نبيذ وقطعة جبن . اما القرويون فقد راحوا يتمتمون مع العجائز اللواتي اقبلن من انحاء المدينة قائلين : هل هو الملك ؟ هل هي الملكة ؟ ذلك ان هذه المدينة الفرنسية الصغيرة كانت بعيدة عن القصر الى درجة ان احدا من رجالها لم يكن يرى الملك الا

مصورا على قطع النقود . لذلك فقد كان من الضروري إرسال رسول يستدعي أحد النبلاء لكي يرى فيما اذا كان هذا المسافر المجهول هو خادم البارونة دي كورف ، أو اذا كان بالحقيقة لويس السادس عشر ملك فرنسا ونافار .

٢٦ ـ الليل في فارين

في ٢١ حزيران (جوان) ١٧٩٠ دخلت ماري انطوانيت ، البالغة من العمر سبعا وثلاثين ، والتي كانت ملكة منذ سبع عشرة سنة الى بيت بورجوازي صغير لأول مرة . ولقد كانت هذه الاستضافة الفاصل الوحيد في حياتها بين القصور والسجون . وكان على الاسرة الملكية ان تمر اولا في حانوت البقال الذي تنبعث منه رائحة كريهة ، هي رائحة الزيت والمقانق الجافة والافاويه . ثم صعد الملك ، أو بالاحرى الرجل المجهول ذو الشعر المستعار ، والملكة ، أو حاضنة البارونة دي كورف ، أحدهما خلف الآخر الى الطابق الاول ، وذلك على سلّم ضيقة أخذت تقضقض تحت أقدامهما . ولقد كان هذا الطابق يتألف من غرفتين ، غرفة للطعام ، وغرفة للنوم ، وسرعان ما شاهدا أمام الباب قرويين واقفين وفي يد كل منهما مذراة : انهما حارسان من نوع جديد ، ولا شك في انهما يختلفان عن حرس فرساي الملكي ذي الابهة الباهرة . وفي هذا المكان الضيق اضطر أن ينحشر ثمانية أشخاص : الملك والملكة ومدام اليزابيت والولدان والحاضنة والوصيفتان . ولقد مكث هؤلاء جميعا صامتين واجمين ، ما عدا الملك الذي جلس الى الطاولة ومضى يأكل بنهم قطعا دسمة من الجبن.

وفجأة سمع صوت حوافر خيل تقرع الشارع ، ثم انبجس من ألف صدر صراخ عنيف هتف قائلا : « الخيالة ! الخيالة ! » انه شوازول الذي وصل اخيرا مع كتيبته . وبعد ان شق لنفسه طريقا ببعض ضربات من سيفه، جمع جنوده حول البيت ، ثم تسلق السلّم مسرعا وعرض على الملك ان يضع تحت تصرفه سبعة جياد لكي يمتطيها الملك والملكة وحاشيتهما ، مسارعين الى ترك المدينة وسط عساكره قبل ان تتوافد قوات الحرس الوطني من الجوار . ولم يلبث ان انحنى الضابط وقال : « يا مولاي ، انني انتظر اوامر جلالتك . » ولكن اصدار الاوامر ، واخذ القرارات السريعة لم يكونا من شيمة لويس السادس عشر ، الذي أخذ يجادل ليعرف ما اذا كان شوازول يستطيع ان يضمن له ، اذا تصرّف مثل هذا التصرف ، الا تصيب رصاصة ما امرأته

أو شقيقته أو احد ولديه . كما انه راح يسأل ما اذا لم يكن من الافضل اولا جمع جنود الخيالة المبددين في شتى الفنادق الصغيرة : تاركا أثمن الدقائق تهدر هدرا مشؤوما . وهكذا كانت الاسرة الملكية تنتظر وهي جالسة على مقاعد القش في الغرفة الصغيرة المظلمة ، وهكذا ايضا كان العهد القديم ينتظر، يتردد ، ويجادل ، أما الثورة الفتيّة فلم تكن لتنتظر ابدا ، اذ قد سمع الثوار طنين الجرس فاقبلوا مسرعين ، واذ اجتمع الحرس الوطني بعدد كبير ، فانزل المدفع القديم عن الاسوار ، وسُدّت الطرقات بالحواجز . وسرعان ما تآخى الجند مع الشعب ، فراحوا يتقبّلون النبيذ المقدّم لهم بطيبة خاطر . ولم يطل الوقت حتى ازدحمت الشوارع بالناس من الفلاحين والقرويين والرعاة والعمال الذين اقبلوا الى فارين من كل صوب ، وكأنهم احسّوا بغريزتهم اللاواعية بأنهم يعيشون ساعات حاسمة . وحتى العجائز أقبلن بدافع الفضول على عكازاتهن لكي يشاهدن الملك الذي حُتّم عليه الآن ان يرفع القناع عن وجهه . وكان الجميع قد عزموا على إبقاء الملك بين جدرانهم فراحوا يصرخون صراخا عنيفا قائلين : « ليعد الملك الى باريس او نصرعه بالرصاص في مركبته ! » .

وبعد قليل صار الجرس يقرع من جديد : انه نفير ثان يمزّق كبد هذا الليل الدارمائي. واذا بعربة تصل فجأة ، وهي تقلّ اثنين من اعضاء الجمعية الوطنية الذين توزّعوا في شتى الانحاء لايقاف الملك الهارب . فاستقبلت هتافات الجماهير ممثلي المجلس بفرح غامر ، ثم اقتيد الرسولان الى بيت البقال المسكين الذي استضاف الملك واسرته . وكان الليل المخيف قد شرع ينقض رويدا رويدا ، حتى بلغت الساعة السادسة والنصف صباحا . أما رسولا الجمعية الوطنية فقد كان احدهما ، وهو يدعى « راموف » يميل بعاطفته الى الملك والملكة ، الا ان القدر وضع برفقته رجلا طموحا مخلصا للثورة يدعى « بايون » ، كان يراقب جميع حركات رفيقه ويضغط عليه ضغطا شديدا ، فاضطر راموف ان يقدّم للملكة ، وهو خجل خائف ، مرسوم الجمعية الوطنية المشؤوم الذي يأمر بتوقيف الاسرة الملكية . ولكن ماري انطوانيت لم تستطع إخفاء دهشتها ، فهتفت براموف قائلة : « ماذا ، هوذا انت ! لا أستطيع ان اصدق ما أرى ! » فاستبدّت الحيرة براموف الذي شرع يقول متلعثما : ان باريس هائجة ولا شك ان مصلحة الدولة انما تقتضي عودة الملك . فنفد عندئذ صبر الملكة وادارت ظهرها للمبعوثين . اما الملك فطلب المرسوم اليه وقرأ فيه ان الجمعية الوطنية قد جرّدته من سلطاته ، وأنه يتوجب على كل من يصادف الاسرة الملكية ان يمنعها بكافة الوسائل عن متابعة

سفرها . وعندما انتهى من قراءة المرسوم ، مد يده ووضعه على السرير الذي ينام فيه ولداه المتعبان . ولكن ماري انطوانيت انتصبت فجأة ، وتناولت مرسوم الجمعية الوطنية التي تسمح لنفسها بأن تتصرّف كما تشاء بها وبأسرتها ، فدعكته بيدها ، ورمته على الارض باحتقار قائلة : « لا اريد ان يدنّس ولديّ » .

فارتجف المبعوثان لدى مشاهدتهما هذا التحدّي السافر ، الا ان شوازول ، لكي يتجنب ما لا تحمد عقباه ، أسرع فالتقط الورقة المطبوعة . وقد استبدّت الحيرة بجميع الذين كانوا في الغرفة ، كما ان الملك لم يكتم تعجّبه من جراة امراته . الا انه قدّم اخيرا للمبعوثين عرضا يدل في ظاهره على الخضوع للأمر الواقع ، وينطوي في باطنه على فكرة ذكية بارعة . فقد طلب الملك من المبعوثين ان يدعوه يستريح طيلة ساعتين او ثلاث ساعات يستأنف بعدها العودة الى باريس ، لأنه يتوجب عليهما ان يقدّرا ضنك الولدين اللذين يحتاجان الى راحة بعد هذا السفر الطويل الشاق الذي دام نهارين وليلتين . ففهم راموف فكرة الملك وما يقصد اليه ، فهو يريد تأخير عودته ساعتين لكي يصل خيّالة القائد « بويّه » ، ومن خلفهم جنود المشاة والمدافع ، لذلك فلم يُبدِ اعتراضا على اقتراح الملك . ولكن سرعان ما فهم المبعوث الآخر « بايون » هذه اللعبة الصغيرة ، فقرّر ان يردّ على الحيلة بالحيلة،متظاهرا بأنه هو أيضا يوافق على الاقتراح.ثم اذا به ينزل الى الشارع كمن لا حرج عليه ، فالتفّت جمهرة الناس حوله لكي تسأله عن القرار الذي اتخذ ، فتنهد بخبث قائلا « لا يريدون العودة ... انهم ينتظرون وصول بوييه الذي يقترب من هذه المدينة . » فكانت هذه الكلمات القليلة بمثابة زيت سُكب على النار فاضطرمت واشتد سعيرها . كلا ! لن يخدع الملك الشعب ! فالى باريس، اذن، والى باريس ! ولما اخذ الضجيج يُرجف النوافذ، تقدّم اعضاء البلدية ، وخاصة البقال البائس « سوس » صاحب الدار ، وشرعوا يصرّون على الملك ان يعود لانهم لن يستطيعوا ان يدرأوا عن حياته الخطر . ولكن الملك والملكة اخذا يماطلان لعلهما يكسبان قليلا من الوقت ، حتى ان ماري انطوانيت نفسها ، وهي المرة الاولى التي تستجدي فيها عطف احد ، التجأت الى زوجة البقال متوسلة اليها ان تساعدها ، الا ان الزوجة المسكينة كانت تخاف على زوجها ، فقالت والدموع في عينيها انها تأسف لاضطرارها الى حجب الضيافة عن ملك وملكة فرنسا ، لأنها ، هي ايضا ، لها اولاد ، وتخشى ان يكون راس زوجها هو الثمن . وفي الواقع لم تخطىء مخاوفها ، اذ ان حياة زوجها البقال المسكين كانت ضحية مساعدته الملك ،

في هذه الليلة ، على إحراق بعض اوراق سرية .

وبعد مماطلات مضحكة تنهد الملك ، واخذ في الطليعة يهبط على السلم الضيقة . ثم تبعته ماري انطوانيت وهي مطبقة الشفتين ، وقد امسكت بذراع شوازول . وها هي الآن تفكر مسبقا بالمشقات ، وبأشكال الاتضاع التي تنتظرهم اثناء عودتهم . ولكنها وسط همومها الخاصة كانت لا تزال تفكر «بالصديق الحبيب» الذي سألت عنه قبل كل شيء عند وصول شوازول قائلة : « اتظن ان فرسن نجا بنفسه ! » فلو كان هذا الرجل الحقيقي الى جانبها ، لهان عليها هذا السفر الجهنمي ، ولكنه من الصعب على المرء ان يحافظ على كامل شجاعته عندما يكون محاطا بأناس ضعفاء تنقصهم الارادة. ولم تلبث الاسرة الملكية ان صعدت الى المركبة الجاهزة بخيلها المشدودة اليها ، وكان الجميع يأملون ان يطلّ بوييّه ، بين لحظة وأخرى ، مع خيالته ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، ما عدا جلبة الجماهير التي كانت تتصاعد صاخبة من كل مكان . واخيرا مشت المركبة الضخمة ، ومن حولها ستة آلاف رجل تحوّل غضبهم وخوفهم الى صراخ منتصر . وهكذا ، وسط الاناشيد الثورية، وبمواكبة جيش من الشعب ، تركت سفينة الملكية التعسة الصخرة التي اصطدمت فيها .

٢٧ ـ العودة

تتقدّم السفينة في البحر الساكن اكثر منها في البحر الهائج المتلاطم الموج . فالمركبة اتمت سفرها من باريس الى فارين خلال عشرين ساعة ، اما العودة فستدوم ثلاثة ايام . وكان مقدّرا للملك والملكة ان يشربا كأس الضعة قطرةً قطرة حتى الثمالة . وها هي الاسرة الملكية الآن بأشخاصها الستة محشورة في هذه المركبة التي هي اشبه ما يكون بأتون حقيقي ، ولقد ارهقها السهر المستمر طيلة ليلتين قاسيتين ، كما ان احدا من افرادها لم يبدّل ثيابه منذ قدومهم من باريس ، حتى ان قميص الملك كانت ملطخة بالعرق الى درجة اضطرّ معها ان يستعير قميصا من احد الجنود . وكانت شمس حزيران (جوان) تصبّ اشعتها المحرقة دون شفقة على سطح المركبة الملتهب ، وكان للهواء طعم غبار متأجج . وكانت جمهرة لا ينفكّ عددها يتصاعد رويدا رويدا ، تواكب المنهزمين وهي تقهقه ساخرة ، او تهتف لهم بكلمات مشينة ، مستمرئة لذة الخجل الذي تورثه هؤلاء السجناء ، حتى ان السفر بين فرساي وباريس ، قد بدا الى جانب هذه العودة المخجلة وكأنه

شيء من الفردوس. فمن الافضل اذن إغلاق زجاج النوافذ، وإسدال الستائر عليها ، وتحمل الحر المحرق والعطش داخل هذا الفرن النقّال ، على احتمال رؤية الانظار الهازئة النافذة من الخارج، والشتائم الصادرة عن الجمع الغفير.

ولكن عندما توقفت المركبة في احدى محطات الخيل ، لكي يُعطى الهاربون ما يسدّون به رمقهم ، راحت جمهرة الناس تصرخ طالبة رفع الستائر ، حتى كادت مدام اليزابيت ان ترضخ للأمر ، الا ان الملكة التي كانت وحدها في مثل هذه اللحظات تحافظ على كرامتها ، ابت بعزم وطيد ، ومكثت جالسة بهدوء ، تاركة الناس من حولها يصرخون ويعربدون . فقط بعد ربع ساعة ، عندما لم يعد يُحسب عليها انها اطاعت طاعة من يخضع للأمر ، قامت بنفسها فرفعت الستائر ، ورمت عظام الفراريج من النافذة وهي تقول : « يجب ان نكون حازمين حتى النهاية » .

واخيرا لمعت بارقة أمل ، إذ سوف تستريح الاسرة الملكية في شالون . وفي هذه المدينة كان المواطنون ينتظرون خلف قوس النصر الحجري الذي رُفع ، ويا لسخرية التاريخ ، منذ عشرين سنة تكريما لماري انطوانيت ، يوم قدمت من النمسا في مركبة فاخرة ، وبين هتافات الشعب المرحبة ، للقاء زوجها العتيد . وكانت بلاطة قوس النصر تحمل هذه الكلمات المحفورة : « ليكن هذا النصب التذكاري خالدا كحبنا الخالد . » ولكن الحب اقصر عمرا من الرخام والحجر المنحوت . وها هي ماري انطوانيت تتذكر الآن وكأنها تحلم كيف استقبلها رعيل النبلاء ببزاتهم الفاخرة تحت هذا القوس بالذات ، وكيف كانت الطريق مزروعة بالانوار والجماهير المصفقة ، وكيف جرى الخمر يومئذ كالينابيع على شرفها . اما اليوم فها هي تعود في الطريق ذاتها ، ولكن بين هتافات الناس الساخطة المعادية ، حتى ان احد النبلاء عندما تجرأ على تحيتها ، احاطت به الجماهير ، واطاحت به عن حصانه ، ثم قتلته بالمسدسات والمدى . ولقد فهم الملك والملكة الآن ان باريس لم تسقط وحدها في « خطل » الثورة ، اذ ان البذور الجديدة قد نمت ونضجت في حقول المملكة جميعها .

وكان التعب قد اخذ منهما كل مأخذ ، فباتا مرهقين ، لا مبالين بالمصير الذي ينتظرهما . ولكن ها ثلاثة فرسان يصلون معلنين عن قدوم ثلاثة اعضاء من الجمعية الوطنية لحماية الملك والملكة اللذين اطمئنا الآن الى انهما سيصلان سالمين الى باريس . فتوقفت المركبة في عرض الطريق ، وتقدم منها المبعوثون الثلاثة ، وهم : موبورغ الملكي ، وبارناف المحامي البورجوازي ، وباتيون اليعقوبي . ففتحت ماري انطوانيت نفسها باب العربة ، وقالت بانفعال

عصبي وهي تمد بسرعة يدهل لكل منهم : « ايها السادة ، ارفعوا الاذى عن مرافقينا ، ولا تجعلوهم من الضحايا ! واحترسوا من ان تمس حياتهم بشر ! » ان حسّها الذي لا يخطىء في مثل هذه الظروف العصيبة ، هو الذي جعلها تقول دونما تردّد ما يلزم : فالملكة لم تطلب الحماية لنفسها ، ولكنها تطلبها فقط للذين خدموها باخلاص وامانة .

فأثّر نبل الملكة الصارم على المبعوثين تأثيرا عميقا ، حتى ان باتيون اليعقوبي لم يستطع ان يمنع نفسه عن الاعتراف في مذكراته ، بأن كلمات الملكة العازمة نفذت الى صميمه . لذلك فقد أمر حالا المتظاهرين ان يصمتوا ، كما انه اقترح على الملك ان يضع الى جانبه اثنين من مبعوثي الجمعية الوطنية، لكي يحمي وجودهما في المركبة الاسرة الملكية من كل خطر مداهم . ولكي تتسع المركبة ، تستطيع مدام دي تورزيل ومدام اليزابيت ان تصعدا الى العربة الثانية . ولكن الملك اجاب ان تدانيهم بعضهم من بعض يسمح ببقاء الجميع في المركبة . لذلك فقد اخذوا مقاعدهم بسرعة على النسق الآتي : جلس بارناف بين الملك والملكة التي وضعت ولي العهد على ركبتيها ، واستقر باتيون بين مدام دي تورزيل ومدام اليزابيت التي حملت الاميرة الصغيرة في حجرها . فأصبح في المركبة الواحدة ثمانية اشخاص بدل ستة ، أي ان ممثلي الملكية وممثلي الشعب قد ازدحموا الآن بعضهم الى جانب بعض ، والساق قرب الساق . ولعلنا نستطيع القول ان الاسرة الملكية ونواب الجمعية الوطنية لم يكونوا مرة أدنى بعضهم من بعض مما هم عليه الآن .

اما ما جرى في هذه المركبة فقد كان طبيعيا وغير منتظر في آن واحد ، اذ ان شعورا غير ودّي ساد بادىء الامر ، بين الطرفين ، بين افراد الاسرة الملكية الخمسة وعضوي الجمعية الوطنية ، أي بين السجناء وسجّانيهم . فماري انطوانيت التي رات نفسها تحت حماية الرجلين اللذين تعتبرهما من « العصاة الوطنيين » ، اخذت تتجنّب بعناد النظر اليهما ، ولم تفتح فمها بكلمة واحدة ، لئلا يظنّا انها تستجدي عطفهما . كما ان المبعوثين من جهتهما اظهرا انهما يزيدان التمييز بين المعاملة اللائقة والمجاملة المفرطة ، لأنه يترتب عليهما ان يظهرا للملك ، اثناء هذه المسيرة ، ان رجالا احرارا شرفاء يستطيعون رفع جبينهم اكثر من رجال الحاشية الخاضعين المتملقين . فمن الواجب اذن ان يحافظ الجانبان على المسافات الفاصلة بينهما .

هذه الروح هي التي دفعت باتيون اليعقوبي ان ينتقل الى صعيد الهجوم المكشوف . ولقد اراد منذ البدء ان يلقن الملكة المتغطرسة درسا صغيرا يجعلها تفقد ثقتها بنفسها . فأعلن قائلا انه يعلم علم اليقين ان الاسرة الملكية صعدت

من مكان لا يبعد كثيرا عن القصر في عربة عادية يقودها رجل سويدي يدعى... رجل سويدي يدعى... هنا شرع باتيون يتردّد، ثم توقف كأنه لا يستطيع ان يتذكر اسم الرجل، طالبا الى الملكة ان تساعده. ولا شك انها طعنة سيف مسمومة وجّهها الى ماري انطوانيت اذ راح يسألها عن عشيقها أمام زوجها. ولكنها عرفت كيف تردّ الطعنة بعنف، فقالت: «لم اعتد ان اعرف اسماء الحوذيين المستأجرين» — هذه المناوشة قوّت شعور العداء بين الجانبين. ولكن حادثا طفيفا عاد بالانفراج الى هذا الجو المتوتر: فقد نزل الامير الصغير عن ركبتي أمه، ودنا من الرجلين المجهولين اللذين استرعيا انتباهه كثيرا، ثم أمسك بأصابعه الصغيرة زرا نحاسيا في بزة بارناف، واخذ يتهجى بصعوبة العبارة المكتوبة عليه: «الحرية او الموت». ولا شك ان المبعوثين سرّهما هذا المشهد، مشهد ملك فرنسا المقبل الذي كان يتعلم بهذه الطريقة مبادىء الثورة الاساسية. وسرعان ما تبدّل الجو بين الطرفين، إذ ان رجلي الثورة شاهدا بأم عينهما ان هؤلاء «الطغاة» هم أناس عاديّون، لهم مشاعرهم الانسانية الطبيعية. كما ان الملكة لمست من جهتها ان «سفاحي» الجمعية الوطنية هذين انما هما من الناس المحبّبين الدمثين، وان أحاديثهما تفوق ذكاء احاديث الكونت دارتوا ورفاقه.

وكان اليوم الاخير من السفر أقسى الايام الثلاثة، واشدها هولا. فالسماء ذاتها كانت منحازة لجانب الامة ضد الملك، اذ كانت الشمس منذ الصباح حتى المساء تضرم النار دون شفقة، في هذا الفرن ذي العجلات الاربع، دون ان تبسط غمامة ما ظلّها على المركبة الملتهبة طيلة دقيقة واحدة. واخيرا توقف الركب عند ابواب باريس، فاذا بجموع غفيرة اقبلت لتشاهد عودة الملك، لذلك فقد فرض على الاسرة الملكية الا تدخل مباشرة الى القصر من باب «سان دنيز»، بل ان تقوم بدورة طويلة مارّة في الجادات التي لا تنتهي. ولم يرتفع طوال هذ المسيرة هتاف واحد يحيّي الاسرة او يوجّه لها الشتيمة، لأن اعلانات على الجدران كانت تعرض محيّي الملك للنقمة العامة، كما انها كانت تنذر بالجلد جميع الذين يشتمون سجناء الامة. الا ان هتافات حارة كانت تستقبل العربة التي تتبع مركبة الملك، ففي هذه العربة كان يجلس منتفخا بالكبرياء الرجل الذي حقق للشعب هذا الانتصار، أي درويه رئيس محطة الخيل، والقناص الجريء الذي استطاع بحيلته وعزمه أن يقبض على الطريدة الملكية.

وكان اللحظة الاخيرة من السفر، اي الامتار القليلة التي تفصل العربة عن مدخل التويلري، هي الاشد خطرا. ولما كانت الاسرة الملكية موضوعة

تحت حماية النواب ، ولما كان الشعب بحاجة الى ضحايا الأنه يريد أن يروي غلّة غضبه ، فقد ارتمى على رجال الحرس الملكي الثلاثة البريئين الذين ساعدوا الملك على الهرب ، وانتزعهم من مقاعدهم ، ولقد خيّل طوال لحظات أن الملكة سترى ايضا هامات دامية تتداح على اسنة الحراب . ولكن جنود الحرس الوطني تدخلوا بسرعة فانقذوا الرجال الثلاثة ، وشقوا طريقا برؤوس حرابهم . عندئذ فُتح باب المركبة ، فنزل الملك أولا بخطى ثقيلة ، وهو قذر المظهر ، يسيل العرق منه نقطا كبيرة . ثم نزلت الملكة ، فارتفع ضجيج صَلخب يهدّد « النمساوية » بالويل والثبور . غير انها اجتازت بسرعة مع ولديها المسافة الضيقة التي تفصل المركبة عن مدخل القصر : وهكذا انتهت هذه السفرة القاسية .

٢٨ ــ اللقاء بفرسن لآخر مرة

لم تكن ساعات ماري أنطوانيت الاخيرة ، الفاجعة حقا ، ساعات عواصف كبيرة هوجاء ، ولكنها كانت أيام صحو خادع كتلك الايام أو الساعات التي تظهر بين عاصفتين . فلو اندفعت الثورة كسيل عارم ساحقة الملكية دفعة واحدة ، ولو أنها اشتعلت فجأة دون أن تترك مجالا للتفكير والأمل والمقاومة ، لما كان لها هذا التأثير على أعصاب الملكة ، تأثيرا هو أقرب الى النزاع البطيء . ولكن هدوءا موقتا كان يسود بين حين وحين ، ولطالما ظن الملك والملكة خمس مرات بل عشر مرات أثناء الثورة ، أن السلام عاد عودة نهائية ، وأن القتال انتهى الى حيث لا رجعة . الا أن الثورة لسوء حظهما هي كالبحر قوة من قوى الطبيعة . فمدّ البحر الصاعد الى الارض لا يغطي الساحل بوثبة واحدة ، فالموجة بعد كل اندفاع نشيط تتراجع كأنها واهنة ، ولكنها في الحقيقة تتحفز لتستأنف سيرها المكتسح . ولا يعرف أبدا من يهدده خطرها ، اذا كان لن يتبع الموجة الاخيرة موجة أقوى وأجل خطرا .

ولقد بدا للملك والملكة ، بعد قبولهما الدستور الذي فرض عليهما فرضا ، أنهما تغلبا على الازمة ، ذلك أن الدستور اعترف بشرعية الثورة التي تبلور حصادُها . وأصبح الجميع يشعرون طيلة أيام واسابيع برغد وهمي ، وبانشراح خادع . ولقد ملأ الفرح الشوارع ، والحماسة جو الجمعية الوطنية ، وأصبح التصفيق الحاد يهدر في المسارح . ولكن ماري انطوانيت فقدت منذ زمن بعيد ثقة شبابها الساذجة الفطرية ، وها هي الآن تقول لحاضنة ولديها وهي عائدة من المدينة المنوّرة : « من المؤسف الا يترك هذا الجمال في قلوبنا

الا شعورا بالحزن والقلق ! »

أجل لقد خاب املها مرارا ، وهي لا تريد أن تنخدع بعد الآن بوهم من الاوهام . لذلك فهي تكتب الى فرسن ، صديق قلبها ، قائلة :

« كل شيء هادىء الآن ، ولكنه هدوء يشده خيط رقيق ، والشعب ما زال كعادته مستعدا لارتكاب الفظائع . يقولون ان الشعب لنا ، ولكنني لا أصدّق شيئا مما يقولون ، لأنني اعرف الثمن الذي يقتضيه ، فهو لا يحبّنا الا بقدر تحقيق ما يطلبه منا . ولقد بات من المستحيل علينا الحياة بهذا الشكل وقتا طويلا ، لأنه لم يعد في باريس أمان كسابق عهدها ، بل ان الحال تزداد سوءا أكثر فأكثر ، لأن الشعب قد اعتاد ان يرانا متّضعين » .

وفي الواقع فقد كانت الجمعية الوطنية الجديدة مطابقة لراي الملكة فيها ، اي انها « أسوا ألف مرة من سابقتها » . فقد كان احد مراسيمها الاولى ينص على تجريد الملك من لقب « جلالة » ، وبعد بضعة أسابيع انتقلت قيادة « الجمعية » الى ايدي الجيرونديين الذين يميلون علنا الى الجمهورية ، فاذا بقوس قزح التفاهم والاتفاق يغيب بسرعة وراء الغيوم الجديدة المتراكمة ، واذا بالمعركة تبدأ من جديد .

ولكن تدهور الحال بمثل هذه السرعة لم يكن مردّه للملك والملكة ، بل لأفراد عائلتهما ، كشقيق الملك الكونت دي بروفانس والكونت دارتوا اللذين أقاما مركزهما الحربي في الخارج ، وأخذا يعلنان حربا شعواء مكشوفة على قصر التويلري ، مدفوعين بأغراضهما الشخصية ، وبطمعهما بالوصول الى الحكم .

أما فرسن فقد أصبح يشعر ، من بعيد ، بوضوح اكثر ، أن شخصا واحدا يستطيع الآن ان يمد للملكة يد المساعدة ، شخصا ينال ثقتها ، ويكون غير زوجها ، وغير شقيقها ، وغير اقاربها : أي هو فرسن ذاته الذي ارسلت له سرا وبواسطة الكونت استرهازي رسالة حب مقدسة جاء فيها هذا القول : « اذا كتبت له رسالة قل له فيها : لا تستطيع الامكنة العديدة والبلاد الشاسعة ان تفصل ابدا ما بين قلبينا . وكل يوم يزيدني شعورا بهذه الحقيقة » . وتهتف مرة ثانية قائلة : « لا اعرف اين هو الآن ، وهذا عذاب مرعب ان نجهل اخبار من نحبهم ، والا نعرف الامكنة التي يقطنون فيها » .

اما هذه الكلمات الاخيرة الملتهبة بالحب فقد ارسلت الى فرسن ، مرفقة بهدية : خاتم ذهبي صغير ، نقشت عليه ثلاث زنابق ، وكتبت عليه هذه العبارة : « جبانا تكون اذا تركتني » . ولقد كتبت ماري انطوانيت الى استرهازي قائلة انها صنعت هذا الخاتم على قياس اصبعها ، ولبسته ، قبل

ارساله ، طيلة يومين لكي تنتقل حرارة دمها الى معدنه الذهبي البارد . ولبس فرسن خاتم الحبيبة ، ولقد اصبح هذا الخاتم مع كتابته نداء يوميا يستحث ضميره ، ودعوة لتقحم كل شيء في سبيل هذه المراة . ولقد شعر امامنبرات اليأس الحادّة التي تنبجس من رسائلها ، وامام الاضطراب العنيف الذي يمزق نفس هذه المراة التي احست بتخلي الجميع عنها ، انه مدفوع الى عمل بطولي ، اذ ينتقل الى جانبها في باريس حيث يعتبرونه خارجا على القانون ، وحيث ينتظره الموت المحتّم في حال ظهوره .

ولقد خافت ماري انطوانيت كثيرا عندما علمت بالامر . كلا ، كلا ، لن تقبل بهذه التضحية العظيمة . ولما كانت تحبه حبا عميقا ، فهي تفضّل حياة صاحبها على حياتها الخاصة ، وتفضلها ايضا على الهدوء والسعادة اللذين يسبغهما عليها حضوره . لذلك فقد سارعت الى الكتابة اليه في ٧كانون الثاني (دسمبر) قائلة : « لشدّ ما يستحيل قدومك الى هنا في هذه الظروف العصيبة ، لأن هذايهدد سعادتنا بالخطر الجسيم ! »

ولكن فرسن لم يتخلّ عن فكرته ، لانه يريد مهما كلف الامر ان ينقذها من اليأس الذي تتخبط فيه . وفي اول شهر شباط (فبراير) قرر ان ينتقل الى فرنسا بدل ان يضيع الوقت بالانتظار الطويل . وكان هذا القرار بمثابة انتحار حقيقي ، لأن مائة احتمال ، ضد احتمال واحد ، كانت تدل على انه لن يعود من هذا السفر المجازف ، لأن راسه كان مطلوبا في باريس اكثر من سواه ، ولأن اسمه كان ملفوظا بحقد لا مثيل له . وكانت اوصافه وعلاماته الفارقة موزعة على الجميع ، فيكفي ان يعرفه شخص واحد في الطريق او في باريس لكي ينداح جسمه أشلاء على بلاط الشوارع . ومن ثم لم يكن يريد الذهاب الى باريس ليختبىء فيها ، بل ليذهب مباشرة ، وهذا ما يزيد بطولته الف مرة ، الى المكان الذي يستحيل الدخول اليه ، اي الى قصر التويلري الذي كان يحرسه ليل نهار الف ومائتا جندي من الحرس الوطني ، وحيث كان يعرفه كلُ خادم ، وكل امراة ، وكل حوذي معرفة شخصية . ولكنها الفرصة الوحيدة التي يستطيع فيها هذا الرجل النبيل ان يفي بعهده الذي قطعه على نفسه يوم قال لحبيبته : « لن احيا الا لكي اخدمك » .

وفي الحادي عشر من شباط (فبراير) وضع فرسن عهده هذا موضع التنفيذ ، اذ انه قام بأجرأ مغامرة حدثت في تاريخ الثورة . فقد تنكر خلف شعر مستعار ، وجهز نفسه بجواز مزوّر قلّد فيه بجراة امضاء ملك السويد ، ثم سافر مصحوبا بخادمه الذي تنكر هو ايضا ببذلة ضابط مساعد ، ولقد ادّعى الاثنان انهما متجهان الى لشبونة في مهمة دبلوماسية . وبعجيبة ما لم

يدقق بأوراق فرسن وصاحبه ، ولا بشخصيهما ، فوصلا الى باريس في الثالث عشر من شباط (فبراير) ، عند الساعة الخامسة والنصف مساء . وبالرغم من انه كان لفرسن في باريس صديقة امينة ، بل عشيقة بامكانها ان تعرّض بحياتها في سبيل اخفائه ، فقد توجه عند نزوله من العربة مباشرة نحو قصر التويلري ، ذلك ان الليل في فصل الشتاء يقبل بسرعة حاميا الرجل المغامر تحت جناحه الرفيق . ومن حسن حظه ان الباب السري الذي كان يملك مفتاحه،لم يكن محروسا،فدخل فيه المحب بعد ثمانية اشهر من الانفصال القاسي ، لملاقاة الحبيب . وها هو ذا فرسن للمرة الاخيرة يوجد الى جانب ماري انطوانيت . وفيما يلي بعض ما كتبه فرسن في دفتره الخاص عن هذه الزيارة : « ذهبت اليها ، ومررت في الطريق التي كان من عادتي ان اسلكها خوفا من مصادفة الحرس ، ولقد بلغت منزلها دون عائق » .

فهو يقول « ذهبت اليها » ولا يقول « ذهبت لزيارتهما في القصر » اي الملك والملكة . ومن ثم فهناك كلمتان تليان هذين السطرين من مفكرة فرسن ، وقد شطبت عليهما بالحبر يد الخلف من سلالته الحيّية . ولكننا لحسن الطالع ُوفقنا الى الكشف عنهما ، ووجدنا ان هاتين الكلمتين الكبيرتي المعنى هما الآتيتان : « مكثت عندها » . فهاتان الكلمتان توضحان الموقف تماما : لم ير فرسن في هذا المساء العاهلين معا ، ولكنه رأى فقط ماري انطوانيت وحدها . ومما لا شك فيه انه قضى الليل في جناح الملكة ، لأن خروجه من القصر ، ثم عودته اليه ، ثم خروجه منه مرة ثانية ، كان من شأنها مضاعفة الخطر بشكل لا مبرر له ، ذلك ان جنود الحرس الوطني كانوا يملأون ليلا ونهارا ممرات القصر . ونحن نعلم ان جناح ماري انطوانيت الذي يقع في الطابق الارضي ، يتألف فقط من غرفة نوم ، ومن حجرة صغيرة للتزيين ، فهناك اذن تفسير واحد ممكن ، وهو لا شك صعب الوقع على حُماة الفضيلة ، فقد مكث فرسن الليل والنهار حتى منتصف الليل الثاني في غرفة النوم الخاصة بالملكة ، وهي الغرفة الوحيدة في القصر التي كانت في منجى من مراقبة جنود الحرس الوطني ، وانظار الخدم . ولقد اغفل فرسن في مفكرته الخاصة الحديث عن هذه الخلوة مع الملكة . وبالطبع فنحن لا نمنع أحدا من ان يظن بأن هذه الليلة كُرست فقط للعبادة الرومنطيقية ، وللمحادثات السياسية . ولكن الذي يشعر بقلبه وحواسه ، والذي يؤمن بقوة الدم كقانون خالد ، يتأكد من ان فرسن ، وإن لم يكن عشيقا لماري انطوانيت منذ وقت طويل ، قد اصبح ذلك في هذه الليلة الاخيرة القدرية التي حصل عليها بأجمل شجاعة بشرية .

ولقد خُصصت الليلة الاولى بكاملها للعشيقين ، اما السياسة فلقد خصص لها مساء اليوم الثاني ، الساعة السادسة ، اي تماما بعد اربع وعشرين ساعة من وصول فرسن ، اذ دخل الزوج الكتوم الى جناح الملكة ليجري محادثاته مع الرسول البطل . ولقد رفض لويس السادس عشر مشروع الهرب الذي عرضه فرسن عليه ، لاعتقاده اولا بأنه صعب التحقيق ، ثم لأنه عاهد الجمعية الوطنية علنا بأن يبقى في باريس ، وهو لا يريد النكوث بعهده ، (هنا يسجل فرسن في مفكرته باحترام بالغ قائلا : لأنه كان رجلا شريفا . . .) ومكث فرسن في القصر حتى منتصف الليل . وبعد ان انهى جميع محادثاته ، اقبلت لحظة الفراق ، وهي أقسى لحظة من الثلاثين ساعة التي قضاها في القصر . ولقد اصبح فرسن والملكة يشعران الآن شعورا داخليا لا يقبل الشك، بأنهما لن يلتقيا أبدا مرة ثانية . ولكن فرسن ، لكي يهوّن على الصديقة المزلزلة القوى ، مضى يعدها بأنه سيعود لزيارتها حال تمكنه من ذلك . فرافقته الملكة حتى الباب ، مارَّين في الممشى المظلم الخالي من كل شيء . وقبل ان يفوه الاثنان بكلمة الوداع ، وقبل ان يتبادلا القبل الاخيرة ، سمعا وقع خطى مجهولة تقترب منهما : فالسرعة ، السرعة اذن ، لأن حياة فرسن مهددة بالخطر ! فانزلق فرسن الى الخارج ، وهو متلفع بمعطفه ، ومعتمر الرأس بشعره المستعار . اما ماري انطوانيت فقد دخلت متخفية الى غرفتها . وهكذا رأى العشيقان احدهما الآخر للمرة الاخيرة .

٢٩ ـ اللواذ بالحرب

علاج قديم قدم العالم ! حينما لا يعود بمقدور الدول والحكومات السيطرة على الازمات الداخلية فانها تبحث عن إلهاء خارجي للشعب ، وطبقا لهذا القانون الازلي فان حملة اعلام الثورة يطلبون منذ اشهر عدة اعلان الحرب على النمسا ، وذلك تجنبا لوقوع حرب داخلية . ولويس السادس عشر بقبوله الدستور قد حد من سلطاته ، ولكنه اراد تثبيتها ، وكان ذوو العقول الساذجة ، من امثال لافايت يعتقدون بأن الثورة غدت على وشك الانتهاء ، ولكن حزب الجيرونديين الذي يقود المجلس الجديد ، هو جمهوري بالقلب ويريد الغاء الملكية ، وليس هناك من وسيلة خير من الحرب ، التي ستضع الاسرة الملكية دون شك في نزاع مع الشعب ، فأخوا الملك المشاغبان في طليعة الجيوش الاجنبية ، والقيادات العدوة انما هي تابعة لأخي الملكة .

الا ان ماري انطوانيت تعرف ان الحرب لا يمكن الا ان تضر بها ، وانها

ابعد من ان تعود على قضيتها بالفائدة ، وانه كائنا ما كانت النتيجة ، فهي ليست سوى خسران لها . فاذا ما احرزت جيوش الثورة النصر على المهاجرين ، وعلى الاباطرة والملوك ، فمن المؤكد ان فرنسا لن تتابع تحمل الطاغية ، ومن جهة اخرى فانه اذا ما هزمت الجيوش الفرنسية امام اقارب الملك والملكة ، فان الشعب الباريسي الثائر ، والمحرض من قبل اناس محرضين ، سيعتبر ولا ريب جيشي التويلري مسؤولين عن ذلك ، واذا ما انتصرت فرنسا منيا بخسارة العرش ، وان انتصرت القوات الاجنبية فلسوف يخسران حياتهما . ولذلك فقد استحلفت ماري انطوانيت برسائل متعددة المهاجرين واخاها ليوپولد بلزوم الهدوء .

اما هذا الحذر المتردد الذي يحسب ببرودة ، فقد كان في اعماقه عدوا للحرب . وقد رفض الاستماع الى صليل سيوف الامراء والمهاجرين بذات الوقت الذي كان يتجنب فيه كل ما يمت الى التحرش بصلة .

ولكن نجم ماري انطوانيت كان قد اظلم منذ امد طويل، وظلت المفاجآت التي يخبئها لها القدر تقلب لها ظهر المجن ، ففي واحد آذار (مارس) اختطف الموت فجأة اخاها ليوبولد حامي السلام ، وبعد ذلك بخمسة عشر يوما قتل خير مدافع عن الفكرة الملكية في اوروبا برصاصة متآمر ، غستاف ملك السويد، واضحت الحرب حتمية الوقوع ، لأن خليفة غستاف الثالث لم يعد يهتم بقضية الملكية ، وفرنسوا الثاني لا يهتم بخالته ، وانما بمصالحه الشخصية فقط ، فهذا الامبراطور ذو الاربعة والعشرين عاما ، المحدود والبارد ، وعديم الاحساس تماما ، لا تنطوي نفسه على اية بارقة من شخصية ماري تيريز ، ولا تجد ماري انطوانيت لديه التفهم ، ولا الرغبة في التفهم : انه يستقبل رسلها ببرودة ، ورسائلها بعدم الاكتراث ، ولا يهتم بأن تكون خالته رهينة اهول الالغاز .

لقد احرز الجيروندبون الآن الكفة الراجحة ، ففي العشرين من نيسان (ابريل) بعد مقاومة طويلة ، رأى لويس السادس عشر نفسه ، والدموع في عينيه ، مجبرا على اعلان الحرب على ملك هنغاريا ! وبدات الجيوش بالتحرك، ويأخذ هنا القدر مجراه .

ترى في اية جهة هو قلب الملكة من هذه الحرب ؟ اهو مع وطنها القديم ام الجديد ؟ امع الجيوش الاجنبية ام الفرنسية ؟ لقد دار المؤرخون والملكيون الذين يدافعون عنها دون تحفظ بحذر حول هذه المسألة الاساسية ، بل ذهبوا الى حد تزييف مقاطع كاملة من مذكراتها ورسائلها ، طمسا للواقع الواضح والبدهي ، وهو ان ماري انطوانيت قد تمنت في هذه الحرب بكل

روحها انتصار الامراء المتحالفين وخذلان الجيوش الفرنسية . ومن الظاهر انها اتخذت موقفها في هذا الاتجاه ، فالسكوت عن الواقع تزييف له ، وانكار ذلك ضرب من الكذب . وفضلا عن هذا فان ماري انطوانيت تشعر قبل كل شيء بأنها ملكة ، واما انها ملكة فرنسا فهذا يأتي في الدرجة الثانية ، وهي لا تكتفي بأن تكون ضد هؤلاء الذين حدوا من سلطانها الملكي ، والى جانب اولئك الذين يريدون دعمها من وجهة النظر الملكية ، بل انها تصنع كل ما تستطيعه لخذلان الجيوش الفرنسية ، وتحقيق النصر للأجنبي . « فليشأ الله ان ينتقم يوما من كل هذه التحرشات التي اتتنا من هذا البلد » . هذا ما كتبته الى فرسن ، وعلى الرغم من انها نسيت لغتها الام منذ امد بعيد الى درجة كانت فيها مضطرة الى ترجمة كل رسائلها الالمانية ، فكتبت تقول : « انني اشعر اكثر من اي وقت مضى بأنني فخورة بكوني ولدت المانية » . وقبل اعلان الحرب بأربعة ايام ، اخذت تنقل ، وبالاحرى تفشي خطة معارك الجيوش الثورية ، قدر اطلاعها عليها ، الى سفير النمسا . فسلوكها واضح تماما ، لقد كانت الاعلام النمساوية والبروسية اعلاما صديقة بالنسبة لماري انطوانيت ، واما راية فرنسا المثلثة الالوان فهي راية العدو .

ان هذا ولا شك خيانة مفضوحة ، ولكن يجب الا يغرب عنا ان فكرة الامة ، فكرة الوطن ، لم تكن قد وجدت بعد في القرن الثامن عشر . والثورة الفرنسية فقط هي التي أخذت باعطاء هذه الفكرة كيانها في اوروبا ، فالقرن الثامن عشر الذي رسخت ماري انطوانيت بصلابة في افكاره لا يعرف بعد سوى وجهة النظر السلالية الصافية وحسب : فالبلاد تنتمي الى الملك ، والحق بجانب الملك أنى كان ، فالذي يقاتل من اجل الملك والملكية وانما هو يناضل بعصمة في سبيل القضية الصالحة ، وأما الذي ينتصب ضد الملكية فهو متمرد مارق ، حتى ولو كان يدافع عن بلاده . ولكون فكرة الوطن لا تزال بحالة جنينية ، فقد حدث في هذه الحرب الشيء المفاجىء ، فهناك في الجهة المقابلة للحدود الفرنسية تبنّى خيرة الالمان سلوكا عاطفيا ضد اوطانهم متمنين خذلان الجيوش الالمانية حبا بفكرة الحرية ، تلك الجيوش التي لم تصبح بعد جيوشا وطنية ، بل جيوشا للطغيان . إنهم يغتبطون لتراجع القوى البروسية بينما كان الملك والملكة في فرنسا يحيّيان خذلان جيشهما كنصر شخص . ولم تكن القضية في كلا الجانبين قضية مصالح البلاد ، فالصراع هو من اجل فكرة ، فكرة السلالة ، أو فكرة الحرية . ولا شيء يمثل الفرق بين مفهومي القرن القديم والجديد خير من هذه الحادثة : قبل اعلان الحرب بشهر واحد ، كان الدوق دي برونزفيك ما يزال يسائل نفسه جديا فيما اذا كان من الخير

له تسلم قيادة الجيوش الفرنسية او الالمانية ! وكما نرى ، فان فكرة الوطن والامة ليست واضحة بعد في سنة ١٧٩١ .

وفي غمار هذه الحروب الطاحنة ما بين الشعوب الشقيقة التي خلقت الجيوش الوطنية ذات الشعور الوطني ، ولدت الفكرة الوطنية التي ورثها القرن التالي . وفي باريس لم يكن هناك ما يثبت خيانة ماري انطوانيت أو رغبتها في انتصار الجيوش الاجنبية . ولكن الشعب كمجموعة ، وان لم يكن يفكر مطلقا بصورة منطقية متسلسلة فقد كانت حاسة الشم لديه اكثر بدائية واشد حيوانية منها لدى الفرد ، وعوضا عن ان يتصرف بتروٍ كان يتصرف بالغريزة ، وهذه الغريزة تكاد ان تكون معصومة أبدا : فمنذ البداية احس الشعب بكوامن عداء التويلري له ، وتنسم خيانة ماري انطوانيت العسكرية الفعلية تجاه جيشها . وفي الجمعية الوطنية ، وعلى بعد مائة خطوة عن القصر الملكي ، اطلق فارنيو أحد الجيرمنديين ، هذا الاتهام : « اننا لنلحظ من هذا المنبر كيف يضلل مستشارو القصر الفاسدون ، ويخدعون الملك الذي منحنا اياه الدستور ، وكيف يصنعون السلاسل التي يريدون تقييدنا بها ، مبيّتين المؤامرات لتسليمنا الى البيت النمساوي . انني اشاهد نوافذ القصر حيث تحاك الثورة على الثورة ، وحيث يتدبرون الطرق لاعادة اغراقنا في فظائع الاستعباد . »

ولكي يدرك المستمعون ان ماري انطوانيت هي المحرضة الحقيقية على هذه المؤامرات ، يضيف مهددا : « ليعلم جميع الذين ما يزالون يسكنون القصر ان دستورنا لا يمنح الحصانة الا للملك ، وليعلموا بأن القانون سيطال المذنبين فيه دون تمييز ، ولن يستطيع رأس واحد ، توفرت البينات على اجرامه ، الافلات من سيف الجلاء . » وهكذا بدأت الثورة تفهم انها لن تتمكن من قهر العدو الخارجي الا بتخلصها من العدو الداخلي ، ولكي تستطيع ربح هذه الجولة امام العالم كان عليها ان تبيد النفوذ الذي يهيمن على الملك ، فكل الثوريين الحقيقيين ينجذبون الآن بحمية نحو الكفاح . ومن جديد أخذت الجرائد تطالب بعزل الملك ، ولايقاظ الحقد القديم ظهرت في الشوارع طبعات جديدة للطقطوقة الشهيرة : « حياة ماري انطوانيت الفاضحة » . وفي الجمعية الوطنية قدمت ملتمسات بأمل حمل الملك على استعمال حق الفيتو ، والحّ عليه بطرد القسس غير المخلصين . ومن المعروف ان الملك ككاثوليكي متديّن لا يستطيع التسليم بذلك . وبالاختصار فقد كانوا يهدفون الى القطيعة الرسمية . وفي الواقع فقد رفض لويس السادس عشر للمرة الاولى تلك المطالب ، مجابها اصحابها بالفيتو . وها هو الملك الذي لم يستعمل اي حق

من حقوقه ايام سطوته ، يحاول الآن البرهان على شجاعته في لحظات البؤس هذه ، وهو على قيد اصبعين من نهايته . ولكن الشعب لم يكن مستعدا لتقبل اعتراضات هذه الدمية ، وكان هذا الفيتو آخر كلمة اعتراض جابه الملك بها شعبه .

ولاعطاء درس جيّد للملكة ، واكثر من ذلك للنمساوية المتكبرة الصعبة المراس ، اختار اليعاقبة ، وهم قوة الثورة الهجومية ، يوما رمزيا هو العشرون من حزيران (جوان) . ففي العشرين من حزيران قبل ثلاث سنوات كان ممثلو الشعب قد اجتمعوا للمرة الاولى في قاعة الالعاب واقسموا فيها اليمين بألا يخضعوا لقوة الحراب، وانهم لن يتفرقوا قبل ان يمنحوا فرنسا دستورا. كما انه في العشرين من حزيران أيضا لعام خلا كان الملك قد انزلق متنكرا خارجا من قصره ليلا بسلم الخدم ، هاربا من دكتاتورية الشعب . ففي يوم الذكرى هذا سيُذكر الى الابد بأنه ليس شيئا ، وإن الشعب هو كل شيء . وسرعان ما اعدّ الهجوم على التويلري بدقة ، كما أعدّ من قبل على فرساي عام ١٧٨٩ . ولكن قبل ثلاث سنوات وجب تجهيز جيش من النساء سرّا ، وبصورة غير شرعية ،وتحت جناح الليل . أما اليوم فقد تقدم في وضح النهار وعلى صوت النفير ، وتحت اعين البلدية خمسة عشر الف رجل مشرعي الاعلام ، يقودهم صاحب المقهى « سانتير » ، ففتحت لهم الجمعية الوطنية ابوابها بينما تظاهر العمدة المكلف بحفظ الامن بأنه لا يرى ولا يسمع شيئا لكي يكون اذلال الملك كاملا .

وتحرك الطابور الثوري في البدء كموكب عادي امام مقر الجمعية الوطنية ، في صفوف متراصة ، وتقدم هؤلاء الخمسة عشر الف رجل يحملون لوحات كبيرة كتب عليها : « الحرية أو الموت ! » « ليسقط الفيتو ! » متجهين نحو الحلبة حيث تنعقد الجمعية . وفي الساعة الثالثة والنصف بدا ان كل شيء قد انتهى . ولكن المظاهرة الحقيقية قد بدات في ذلك الوقت بالذات ، وعوضا عن الانسحاب بهدوء أسرعت الكتلة الشعبية الضخمة ، وكأن يدا خفية تقودها نحو مدخل القصر . وكان الحرس الوطني ورجال الامن هناك ، مشرعي الحراب ، ولكن البلاط غير المستقر على راي كعادته ، لم يصدر أي أمر بالرغم من انه كان من السهل توقع ما يحدث . ولم يبد الجنود أية مقاومة ، ودخل الشعب بدفقة واحدة من فتحة الباب الضيقة ، وكان ضغط الجمهور قويا لدرجة بدا فيها المتظاهرون وكأنهم محمولون الى الطابق الاول ، ولم يكن من وسيلة لايقافهم ، فكسروا الابواب وحطموا الاقفال . وقبل اتخاذ اي اجراء لحماية الملك وجد المتظاهرون انفسهم وجها لوجه امامه ،

بحيث لم تستطع كوكبة من الحرس الوطني انقاذه من الهلاك الا بشق النفس. وها هو لويس السادس عشر محمول على استعراض شعبه الثائر في منزله بالذات ، وجموده البليد وحده هو الذي حال دون وقوع اصطدام عنيف ، اذ انه ظل يرد بصبر مؤدب على كل التحرشات ، واعتمر مطواعا القبعة الحمراء التي وضعها على رأسه احد الثائرين ، ولقد احتمل خلال ثلاث ساعات ونصف ، وفي حرارة خانقة ، ودون احتجاج او هياج فضول وسخرية هؤلاء الزوار المعادين .

وفي الوقت نفسه دخلت مجموعة من الثوار جناح الملكة ، وبدا ان حادثة ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) المريعة ستكرر ، ولكن الضباط اسرعوا بدعوة جنودهم ودفعوا ماري انطوانيت الى زاوية ، ووضعوا امامها منضدة تجعلها في مأمن من العنف . وفضلا عن ذلك فقد اصطف ثلاثة صفوف من الحرس الوطني امام هذه المنضدة للحيلولة دون الوصول الى ماري انطوانيت. ولكن الرجال والنساء الذين دخلوا صائحين قد اقتربوا منها بصورة كافية كي يتفحصوا « الوحش » بصورة تحرشية ، وتقدموا على مقربة منها لكي تسمع بوضوح تهديداتهم واهاناتهم ، وكان سانتير يستهدف اهانة الملكة الى اقصى حد ممكن مع تجنب اعمال العنف الحقيقي ، ولذا فقد أمر الحراس بالابتعاد كي يحقق الشعب ارادته ، ولكي يتمكن بشخصه من التفرس بضحيته : الملكة المغلوبة . ولكنه في الوقت ذاته كان ينشد تطمين ماري انطوانيت ، فقال موجها لها الخطاب : « سيدتي إنك مخدوعة ، فالشعب لا يريد ايذاءك ، ولو شئت لما كان هناك من احد إلا واحبك كما يحبك هذا الطفل (وأشار الى ولي العهد الذي التصق بأمه خائفا مرتجفا) وعلى كل فلا تخشي، انك في مأمن من الاذى . » ولكن ماري انطوانيت كعادتها أبدا كلما حاول أحد المتمردين تقديم حمايته لها أجابت شامخة بكبرياء : « انني لست مخدوعة ولا خائفة » ثم اضافت بصلابة : « لا يخاف المرء مطلقا لدى وجوده بين أناس طيبين » . ولقد جابهت الملكة اشد النظرات عداوة ، وأوقع الكلمات واهانة ، ببرود وكبرياء . ومع ذلك فعندما ارادوا حملها على وضع القبعة الحمراء على رأس طفلها استدارت قائلة للضباط : « إن هذا لكثير ، ويتعدى طاقة الصبر البشري . » بيد أنها تماسكت دون ان تبدي أي خوف او تضعضع بالثقة . وعندما تبين أنه لم يعد من خطر فعلا ، ظهر العمدة باتيون وطلب من المهاجمين العودة الى بيوتهم كي لا يعطوا لأحد فرصة تجريم نواياهم الحسنة . ولكن لم يكن بالمستطاع إخلاء القصر قبل ساعة متأخرة ، وعندئذ فقط ادركت الملكة ، المرأة المهانة ، بالم عجزها الكلي ، وعرفت الآن ان كل شيء

قد انتهى بالنسبة اليها . لذلك فقد كتبت مسرعة الى هانس اكسل دي فرسن ، موضع ثقتها ، قائلة : « إنني ما زلت حية ، ولكن بمعجزة . لقد كان يوم ٢٠ حزيران يوما هائلا ! »

٣٠ ــ الصرخات الاخيرة

عرفت ماري انطوانيت منذ احسّت بزفرة الحقد تلفح وجهها ، ومنذ ان شاهدت حراب الثورة في غرفتها الخاصة ، وأدركت عجز الجمعية الوطنية وسوء نية عمدة باريس ، عرفت انها وأسرتها ضائعون بصورة لا ينجع معها اي دواء دون نجدة سريعة من الخارج . ذلـك ان انتصار النمساويين والبروسيين الخاطف ، يستطيع وحده انقاذهم ، مع انه ما زال حتى الساعة الاخيرة اصدقاء قدامى وجدد يهتمون بتدبير هرب جديد . فالجنرال لافايت مثلا قد اقترح اختطاف الملك واسرته على راس فرقة من الفرسان ، وذلك يوم ١٤ تموز ، وفي غمرة احتفالات ساحة « الشان دي مارس » وإيصالهم الى خارج المدينة بحماية السيوف المشرعة . ولكن ماري انطوانيت التي كانت ما تزال ترى في شخص لافايت المسبب لكل هذه الآلام كانت تفضل الهلاك على ان تعهد بأطفالها وزوجها وشخصها الى هذا الرجل المندفع دون تبصر . كما انها رفضت لأسباب أنبل من ذلك اقتراح اميرة « هيس دارفشتارت » بخطفها وحيدة من القصر باعتبارها مهددة اكثر من الجميع . وقد أجابتها ماري انطوانيت قائلة : « كلا يا اميرتي ، انني لا استطيع قبول عروضك مع شعوري بقيمتها ، فأنا قد نذرت الحياة كلها الى واجباتي ، والى الاشخاص الاعزاء الذين اشاركهم آلامهم ... فلتسمح مشيئة الله ان تكون كل آلامنا واعمالنا سببا من اسباب سعادة اطفالنا . الوداع يا أميرتي » .

هذه واحدة من اولى الرسائل التي كتبتها ماري انطوانيت للأجيال القادمة ، وليس لنفسها . انها تعلم منذ الآن وفي قرارة نفسها ، انه لم يعد بالمستطاع ايقاف الكارثة ،ولذا لم تعد تفكر الا باملاء آخر واجباتها : « الموت بكرامة والرأس مرفوع » ، ولربما تمنت دون وعي منها موتا سريعا وبطوليا عوضا عن هذا الاختناق البطيء ، وهذا التردي الى الدرك الاسفل من ساعة الى ساعة . وقد رفضت في ١٤ تموز ، عندما كان عليها ان تحضر للمرة الاولى الاحتفال التذكاري لسقوط الباستيل في ساحة « الشان دي مارس » ، رفضت ارتداء درع من الزرد من قبيل الاحتياط كما فعل زوجها . وكانت تنام وحيدة في الليل ، بالرغم من ان شخصا مشبوها قد تسلل ذات مرة الى

غرفتها . ولم تكن تغادر القصر مطلقا ، ومنذ امد بعيد لم تخرج مرة الى حديقتها الا وكانت تسمع الشعب ينشد :

لقد وعدتْ مدام فيتو
بذبح باريس كلها ...

وفي رسائل الملكة الى صديقها الوفي فرسن كان ينعكس نفاد الصبر ، والرعب ، والهول ، طيلة ايام الترقب هذه . ولم تكن هذه الرسائل في الواقع الا صرخات ونداءات مذعورة مشحونة بالالم ، كصرخات كائن اطبق عليه وبوشر بخنقه . ولم يعد بالمستطاع اخراج بعض الانباء سرا من التويلري الا بحذر شديد ، وبوسائل جريئة ، لأن الخدم لم يعودوا موضع ثقة . وكانت رسائل ماري انطوانيت المخبأة في علب الحلوى أو تحت بطانة القبعات ، والمكتوبة بالحبر اللامرئي وبالشيفرة لا تتحدث في ظاهرها الا عن اشياء عامة ، بحيث انها تبدو بريئة اذا ما اكتشف امرها . وكانت تعبر بصيغة الغائب عن كل ما تريده حقيقة . ولقد اخذت هذه النداءات اليائسة تتتالى بسرعة متزايدة : « يعتقد اصدقاؤكم ان استعادة ثروتهم امر مستحيل ، او على الاقل بعيد المنال ، امنحوهم اذا تمكنتم بعض المؤاساة ، وان موقفهم ليبدو يوما فيوما اشد هولا . » هذا ما كتبته الملكة قبل العشرين من حزيران (جوان) . وتتابع الحمى الارتفاع اكثر فاكثر ، حتى تبلغ ذروتها يوم واحد آب الذي كتبت الملكة فيه قائلة : « ان حياة الملك هي بالطبع مهددة منذ امد بعيد ، وكذلك حياة الملكة ، فوصول ما يقرب من ٦٠٠ شخص من مرسيليا وعدد آخر من جميع نوادي اليعقوبيين ليزيد مخاوفنا جدا . ولقد اتخذت كل ضروب الاحتياطات من اجل سلامة صاحبي الجلالة ، ولكن القتلة يحومون باستمرار حول القصر ، ويحرضون الشعب ، كما ان قسما من الحرس الوطني اخذ يكشف عن نوايا سيئة ، بينما تبدي الاقسام الاخرى ضعفا وجبنا ... وفي الوقت الحاضر يجب التفكير باجتناب الخناجر واكتشاف المتآمرين الذين يدبون حول العرش المشرف على الانهيار . وليس هناك من سبيل لانقاذ العائلة المالكة سوى العناية الالهية ... »

وكان العشيق يتلقى هذه الرسائل في بروكسيل ، ومن المستطاع تصور يأسه ، فهو يناضل من الصباح حتى المساء ضد تباطىء وتردد الملوك ، وقادة الجيوش والسفراء ، فكان يكتب الرسالة تلو الاخرى ، ويقوم بالخطوة بعد الخطوة ، بحيوية يضاعفها اليأس من اجل عمل عسكري سريع . ولكن الدوق دي برونزفيغ كان جنديا ينتمي الى المدرسة القديمة التي تظن انها مضطرة لأن تحسب مسبقا ولعدة اشهر يوم بدء الهجوم . فكان يعدّ جيوشه ببطء

ودقة وترتيب تبعا لفن الحرب الذي مضى عهده منذ أمد بعيد، والذي كان قد تعلمه عن فريدريك الثاني، وكان بكبريائه الابدي كجنرال لا يدع احدا يحيد قيد انملة عن خطط التعبئة المكتوبة، إن من قبل الساسة او من قبل الآخرين. وكان يصرح انه لا يستطيع تخطي الحدود قبل منتصف شهر آب (اوغسطس). ولكنه يعد من جهة اخرى بأن يتقدم دفعة واحدة نحو باريس، وكانت النزهة العسكرية دائما حلم قادة الجيوش.

ولكن فرسن الذي كانت تهزه صرخات اليأس المنبعثة من قصر التويلري يعلم بأنه لم يعد من وقت كاف للانتظار حتى ذلك الحين، وانه يجب المبادرة بعمل اي شيء لانقاذ الملكة حالا. وقد ارتكب هذا الصديق في ثورة عواطفه ذات الخطأ الذي سيؤدي الى هلاك حبيبته، لأن التدابير التي يجب ان توقف الهجوم على التويلري هي نفسها التي تعجّل بهذا الهجوم.

وكانت ماري انطوانيت قد طلبت منذ أمد بعيد الى الحلفاء اصدار بيان، وكان تقديرها (الصحيح جدا) بأنه يجب التفريق بجلاء في هذا البيان، ما بين قضية الجمهوريين واليعقوبيين من جهة، وقضية الامة الفرنسية من جهة اخرى، وذلك تشجيعا للعناصر الحسنة التفكير من وجهة نظرها، وتخويفا «للرعاع». وكانت ترغب بألا يتدخل البيان في شؤون فرنسا الداخلية، ويتجنب الكلام كثيرا عن الملك، والايحاء بأنهم ينوون دعم الملك. لقد كانت تحلم ببيان يكون بذات الوقت اعلان صداقة الى الشعب الفرنسي، وتهديدا للارهابيين، ولكن فرسن المسكين الذي كان يعلم بأن دهرا كاملا سوف يمر قبل ان يستطاع اعتماد مساعدة عسكرية فعلية من الحلفاء، طلب صياغة هذا البيان بأشد الالفاظ، وكتب بنفسه تصميما له، وقدمه بواسطة صديق، ولسوء الطالع فقد قبلت هذه الصيغة للبيان الذي يتحدث بشكل آمر كما لو ان جيوش الحلفاء قد ظفرت بالنصر سلفا. وقد اتهم فيه الجمعية الوطنية بالاستيلاء على مقاليد الحكم بصورة غير شرعية، ودعا الجنود الفرنسيين الى الخضوع حالا للملك، عاهلهم الشرعي، وهدد مدينة باريس في حالة الاستيلاء على التويلري بانتقام نموذجي يكون عبرة للأبد، وبتهديم المدينة تهديما كاملا، فهنا جنرال قاسي القلب يعبر قبل اطلاقه اول رصاصة عن افكار تيمورلنك.

لقد أدى هذا البيان الى نتائج رهيبة، اذ انقلب فجأة حتى اولئك الذين كانوا يدافعون مخلصين عن الملك الى جمهوريين. ذلك انهم ادركوا اية معزة يحملها أعداء فرنسا لملكهم. وأن انتصار الجيوش الاجنبية سوف يسحق كل ما حققته الثورة، ويجرد سقوط الباستيل من مضمونه، ويجعل

من قسَم قاعة الالعاب كلمات جوفاء ، ومن المواثيق التي اقسم عليها مئات الالوف من الفرنسيين صفرا . وكان هذا التهديد السخيف الذي خرج من يد فرسن ، يد الحبيب ، قنبلة فجرت غضب عشرين مليونا من الناس .

ولقد اذيع نص هذا البيان المشؤوم الى شعب باريس خلال الايام الاخيرة من تموز . واعتبر الشعب تهديد الحلفاء بتدمير باريس غب الهجوم على التويلري كتخد حقيقي ، وكتحريض على الهجوم . وبدأت الاستعدادات حالا ، وان لم تكن المعركة قد بدأت ، ذلك لأنهم كانوا ينتظرون فيلقا ممتازا ، هو فيلق الـ (٦٠٠) جمهوري من مرسيليا . وفي ٦ آب وصل هؤلاء الرجال الذين لوحتهم شمس الجنوب ، والمتدفقون حماسة وحيوية . انهم يسيرون على ايقاع نشيد جديد سوف يطغى لحنه في بضعة اسابيع على كل البلاد ، انه المارسييز ، نشيد الثورة الذي هبط به الوحي ذات يوم مبارك على ضابط مجهول تماما . وكان كل شيء جاهزا الآن لتسديد الضربة القاضية الى الملكية الطعينة ، واضحى البدء بالهجوم ممكنا : « الا هبوا يا أبناء الوطن ! »

٣١ ـ العاشر من اب

لقد بدأ ليل ٩ ـ ١٠ آب يعلن عن نهار حار ، فلا يمرّ في السماء حيث تلمع الوف النجوم ، غمامة واحدة ، ولا تنفخ هناك نسمة صغيرة . وكانت الشوارع هادئة هدوءً تاما ، والسطوح متألقة بالضياء الابيض الذي يسكبه عليها القمر الصيفي . ولكن هذا الهدوء كان لا يخدع أحدا . ولم يكن خلو الشوارع مثل هذا الخلو العجيب إلا نذيرا بأن شيئا غريبا سيحدث ، ذلك أن الثورة لم تنم ، فاجتمع قادتها في الاقسام المختلفة ، أو في النوادي السياسية ، أو في بيوتهم ، وكان رسل صامتون مشبوهون ينتقلون من ناحية الى ناحية حاملين معهم الاوامر الصادرة عن قادة الاحزاب امثال دانتون وروبسبيير والجيرونديين ، الذين كانوا رغم تسترّهم يُعدّون الجيش « اللاشرعي » المؤلف من شعب باريس الثائر ، إيذانا ببدء الهجوم .

وفي القصر ايضا لم يكن احد نائما ، لأن الجميع كانوا ينتظرون منذ زمن طويل انتفاضة عامة ، ويعلمون أن قدوم الثائرين من مرسيليا الى باريس لن يكون باطلا ، بل ان الانباء الاخيرة تجعلهم يخشون وقوع الهجوم على القصر في صباح الغد . وكانت النوافذ مشرعة في هذا الليل الخانق من الصيف ، والملكة ومدام اليزابيت تصيخان بسمعهما للخارج ، فلا تسمعان شيئا ، لأن الهدوء التام كان يسيطر على حديقة التويلري المغلقة . ولم يكن يسمع الا

وقع خطى جنود الحرس الملكي الموزعين في باحات القصر ، وأحيانا صلصلة سيف ، أو قرع حصان بحافره على الارض ، ذلك ان أكثر من الفي جندي كانوا معسكرين في القصر الذي امتلأت قاعته بالضباط والرجال المسلحين .

وأخيرا ، عند الساعة الواحدة إلا ربعا من الصباح الباكر ، اندفع الجميع الى النوافذ ، لأن جرسا أخذ يقرع في ضاحية من ضواحي المدينة ، ولم يلبث ان تلاه ثان وثالث فرابع . ثم إذا بطبل راح يقرع في البعيد البعيد : لا شك أن الثائرين هم الآن ماضون في تجميع صفوفهم ، ولن تمضي بضع ساعات إلا ويكونون قد انطلقوا من مواقعهم . وكانت الملكة ، وهي مضطربة ، لا تنفك تتراكض نحو النافذة لترى ما إذا كان الخطر المداهم آخذا بالاتضاح . ولم ينم أحد في هذه الليلة، وعند الساعة الرابعة اشرقت الشمس الدامية المتأججة في سماء خالية من الغيوم : لا شك ان النهار سيكون ملتهبا .

وكانت جميع الاحتياطات قد اتخذت في القصر . وكانت الفرقة السويسرية المخلصة للتاج والتي تعدّ تسعماية رجل ، قد وصلت منذ حين . وكانت هذه الفرقة تضم رجالا اشداء عازمين ، يخضعون لنظام حديدي ، ويخلصون للملك إخلاصا شديدا . كما أن اثني عشر فوجا من نخبة الحرس الوطني والخيّالة كانوا منذ الساعة السادسة مساء يحرسون قصر التويلري، بعد ان أنزلت الجسور المتحرّكة ، وضوعف عدد الخفراء ثلاث مرات ، وسُدّ مدخل القصر بما يقرب من اثني عشر مدفعا فعرت جميعها فوهاتها الصامتة المهدّدة . ولقد أخذ « ماندا » وهو قائد شجاع نشيط ، على عاتقه أمر تنظيم هذه القوى ، مقررا الا يتراجع امام اي تهديد ، ولكن الثائرين علموا بقراره هذا ، فبعثوا عند الساعة الرابعة صباحا من يستدعيه الى دار البلدية (أوتيل دي فيل) ، فترك له الملك ببلادته المعهودة حرية الذهاب ، فقبل ماندا الدعوة رغم علمه بالخطر الذي يتهدّده وينتظره . فاستقبله مجلس العموم الثوري الذي اتخذ دار البلدية « أوتيل دي فيل » مقرّا له . ولم تمض ساعتان حتى كان ماندا مقتولا ، فسحقت جمجمته ، وطفت جثته على صفحة نهر السين .

فأمست حامية القصر محرومة من قائدها ، ذلك ان الملك لا يعتبر قائدا ، إذ انه كان لا يعرف ماذا يفعل ، فظل يتوه من غرفة الى أخرى بقميص نومه البنفسجي ، وشعره المستعار المائل على راسه ، وبنظره الفارغ : منتظرا ما يستطيع ان يفعله القدر ... وحتى عشيّة الامس كان مقررا حماية التويلري الى آخر نقطة من الدم ، لذلك فقد حوّل الجنود هذا القصر بنشاط وجراة الى قلعة منيعة ، بل الى معسكر محصن ، ولكن قبل ان يظهر العدو

أخذ البلاط يتردّد ، وكان لويس السادس عشر مصدر هذا التردد . فهذا الرجل الذي لم يكن جبانا ، كان يخشى المسؤولية ، ويشعر بالمرض كلما أراد أن يتخذ قرارا أو أن يصمم تصميما . فكيف يمكن والحالة هذه استثارة شجاعة الجنود ، ما داموا يرون قائدهم يرتجف ؟ وكان الفوج السويسري الذي يقوده ضباط ذوو صلابة ، يقف موقفا راسخا ، ولكن بوادر تحمل على القلق أخذت تظهر في صفوف جنود الحرس الوطني ، منذ ان اخذوا يسمعون هذا السؤال يتردّد حولهم : « أيقاتلون ؟ ام لا يقاتلون ؟ »

ولقد بلغ الامر بالملكة درجة لم تعد تستطيع معها إخفاء حنقها أمام تردد زوجها ، فهي تريد أن يتخذ قرارا حاسما لأن أعصابها المتعبة لم تعد تستطيع احتمال هذا التوتر الابدي ، ولأن كبرياءها قد ملّت هذه التهديدات الدائمة ، وهذا الاتضاع الذي لا يليق بها . ولقد علمتها الاحداث طيلة سنتين ان بوادر الخضوع والضعف لا تخفّف من متطلبات الثورة ، ولكنها تزيدها تحدّيا . وها هي الملكية واقفة الآن على أدنى درجة من درجات السلم التي ستقودها الى الهاوية ، ويكفي خطوة واحدة لكي تطوّح الرياح بكل شيء ، حتى بالشرف . هنا شعرت هذه المرأة المرتعشة الكبرياء أن باستطاعتها النزول الى صفوف الحرس الملكي المتخاذلين لكي تنفخ فيهم روح الصلابة وتعيدهم الى التمسك بواجبهم ، ولعل ذكرى والدتها استيقظت في نفسها بطريقة لا شعورية : ففي إحدى الساعات العصبية ، تقدّمت ماري تيريز وهي تحمل وريث العرش بين يديها ، من نبلاء الهنغاريّين ، المتردّدين هم أيضا ، فجعلتهم بحركتها هذه يعودون الى قضيّتها متحمسين . ولكن ماري انطوانيت كانت تعلم أن المرأة في مثل هذه الظروف لا تحلّ محل الزوج ، ولا الملكة محلّ الملك . لذلك فقد دفعت لويس السادس عشر الى استعراض قواته مرة أخيرة قبل المعركة ، والى الخطابة فيهم خطابا قصيرا يرفع من معنوياتهم .

انها فكرة جيدة ، ولم تكن غريزة ماري انطوانيت لتخطىء ابدا . إذ كانت بعض الكلمات الملتهبة ، كتلك التي كان نابليون سيقتلعها من أعمق أعماقه في الساعات الحرجة ، أو حركة جازمة مقنعة كالقسم على الموت مع جنوده ، كافية لكي تنقلب هذه الافواج المتردّدة الى جدار فولاذي مرصوص. ولكن لويس السادس عشر ، هذا الرجل المنتفخ الجثة ، والذي لا يرى على بعد مترين من انفه ، ولايملك شيئا من صفات الجنود ، راح ينزل متعثر الخطى على الدرج الكبير ، ثم أخذ يتمتم وقبعته تحت ذراعه ، بعض عبارات متقطعة لا وقع لها مطلقا . ومما قاله الملك : « قيل انهم سيصلون ... إن قضيتي هي قضية جميع المواطنين الصالحين ... سوف نقاتل بشجاعة ،

اليس كذلك ؟ » فهذه اللهجة المتردّدة ، وموقف الرجل الحائر زادا من تردّد الجنود بدلا من ان يقضيا عليه . وعوضا عن ان يهتف الجنود متحمسين : « ليحي الملك » صمتوا أولا ، ثم هتفوا بهذه الصرخة ذات المعنيين : « لتحي الامة ! » . وعندما تقدّم الملك نحو الحاجز حيث أخذ الجنود يتآخون مع أبناء الشعب ، سمع صرخات تجهر بالثورة قائلة : « ليسقط الفيتو ! ليسقط الخنزير المنتفخ ! » فأحاط به عندئذ أعوانه ووزراؤه المذعورون وعادوا به الى القصر . ولقد سُمع وزير البحرية يصيح في الطابق الاول قائلا : « يا الله ! انهم يحقرون الملك ! » أما ماري انطوانيت ، بعد ان رات هذا المشهد المحزن ، فقد استدارت وعيناها محمرّتان من الدموع والسهر المتصل ، وقالت لوصيفتها بمرارة وإعياء : « لقد انتهى كل شيء . لأن هذا الاستعراض أثمر شرا لا خيرا . » وفي الواقع فقد انتهت المعركة قبل ان تبدأ .

وفي صباح المعركة الحاسمة بين الملكية والجمهورية ، كان يوجد بين الناس المجتمعين عند مدخل التويلري ضابط كورسيكي شاب بلا عمل برتبة ملازم ، هو نابليون بونابرت الذي كان ولا شك سيتهم بالجنون شخصا يقول له إنه سيقطن يوما ما هذا القصر ، وأنه سيخلف لويس السادس عشر . وكان هذا الضابط يقيس بنظر الجندي الثاقب إمكانات الهجوم والدفاع ، قائلا في نفسه : « تكفي بعض طلقات مدفع ، وهجوم عنيف سريع للقضاء قضاء مبرما على هؤلاء الرعاع » (بهذا اللقب سيدعو وهو في جزيرة القديسة هيلانة قوات الضواحي الشعبية) . ولو كان الملك يملك بين يديه ضابط المدفعية هذا الصغير ، لكان استطاع الصمود في وجه باريس بأجمعها . ولكن القصر كان لا يضم ضابطا واحدا له نفاذ بصيرته وحيويته . لذلك فلم يتلق الجنود غير الامر التالي : « لا تطلقوا النار إلا اذا أطلقوا النار عليكم ! » إنه أمر مبتور كما ترى ينطوي على هزيمة كاملة .

ولقد كانت الساعة السابعة صباحا ، عندما أخذت طلائع الثائرين تدنو من القصر ، شعثاء الصفوف ، مسلحة على أسوء ما يكون ، ولكنها مخيفة ، لا بإمكانياتها الحربية ، بل بإرادتها التي لا تُقهر . حتى ان بعضها قد اجتمع أمام الجسر المتحرّك ، فكان من الواجب إذن أخذ قرار في الحال . عندئذ شعر « رودراير » النائب العام بمسؤوليته ، وكان منذ ساعة قد نصح الملك بأن يذهب الى الجمعية الوطنية ليضع نفسه تحت حمايتها ، الا ان ماري انطوانيت كانت قد وثبت قائلة : « لدينا قوات هنا يا سيّدي ، ولقد حان الوقت لكي نعرف أي الجانبين سينتصر ، اهو الملك والدستور أم هو العصيان » . ولكن الملك لم يجد كلمة جازمة يقولها ، فظل جالسا في أريكته ،

مشتّت النظرات ، يتنفّس تنفسا صعبا ، كأنه ينتظر شيئا لا يعلمه . وها هو « رودير » يعود من جديد ممنطقا بوشاحه الذي يفتح في وجهه جميع الابواب ، ويرافقه بعض مستشاري البلدية ، ولم يكد يصل الى مكتب الملك حتى قال بلهجة جازمة : « لم يبق يا مولاي لجلالتكم خمس دقائق للضياع ، ولن تجدوا الامان الا في الجمعية الوطنية » . فأجاب لويس السادس عشر خائفا ، ومحاولا فقط أن يربح الوقت : « ولكنني لم أر عددا كبيرا من الناس في ساحة الكاروسيل . » (وهي الساحة الممتدّة بين التويلري واللوفر) . فقال رودرير : « يوجد اثنا عشر مدفعا يا مولاي ، وان عددا ضخما من الثائرين يوشك ان يصل من الضواحي . »

فسند رودير مستشار بلدي من مرافقيه ، كان تاجر دنتيل ، وكانت الملكة قديما من أحسن زبائنه . إلا أن ماري انطوانيت قاطعته قائلة : « أصمت أيها السيّد ، ودع النائب العام يتكلم » . (فالغضب كان يستولي عليها كل مرة يتقدّم لحمايتها شخص لا تحترمه) ثم تابعت ماري انطوانيت تقول لرودرير : « ولكن قوّاتنا كثيرة يا سيّدي » . فأجاب رودرير قائلا : « باريس بأجمعها يا مولاتي تسير الى القصر ، فكل عمل لا يجدي نفعا ، وكل مقاومة مستحيلة . » فلم تستطع ماري انطوانيت كبت شعورها ، فصعد الدم الى وجهها ، الا انها ضغطت على نفسها لئلا تنفجر أمام هؤلاء الرجال الفاقدي الرجولة . ولكن المسؤولية ساحقة ، ولا تستطيع امرأة ان تعطي امرا عندما يكون الملك موجودا . لذلك فقد أخذت تنتظر قرار المتردد الابدي ، الذي رفع أخيرا رأسه الثقيل ، وحدّق برودرير بضع ثوان ، ثم تنهّد وقال وكأنه سعيد ان يقرر : « هيا بنا ! »

عندئذ مرّ لويس السادس عشر أمام حاجز النبلاء الذين أخذوا ينظرون اليه دون احترام ، والى جانب الجنود السويسريين الذين لم يصدر اليهم أمر بالقتال أو بعدمه ، ومضى يشق صفوف الجماهير المتزايدي العدد ، والذين كانوا يشتمونه مع امرأته وآخر أتباعه المخلصين ، حتى ترك ، دون قتال ودون أقل مقاومة ، القصر الذي بناه أجداده ، وحيث لن يضع أبدا أقدامه مرة ثانية . واجتاز هذا الموكب الصغير الحديقة ، وكان الملك ورودرير يسيران في المقدّمة ، فتتبعهما الملكة متعلقة بذراع وزير البحرية ، وممسكة بيد ابنها الصغير . ثم لم يلبثوا ان اتجهوا بسرعة وضعة الى ميدان الخيل المغطى حيث كان البلاط يحضر قديما بمرح ولامبالاة سباقات الخيل وألعابها المختلفة ، وحيث جاء الملك الآن خائفا يطلب المأوى لدى الجمعية الوطنية . وتقدّر المسافة التي اجتازها العاهل وامرأته بمائتي خطوة ، ولكن

هذه الخطوات القليلة كانت تدل على سقوط لويس السادس عشر وماري انطوانيت سقوطا لا قيام من بعده ، وهذا يعني انتهاء الملكية .

اما الجمعية الوطنية بمختلف اعضائها فقد راحت تنظر بمشاعر مختلفة الى سيد الامس الذي جاء يطلب اليها الضيافة ، والذي كانت دائما مرتبطة به بالقسم والشرف . وبأريحيّة اللحظة الاولى أعلن « فرجينو » رئيس الجمعية الوطنية قائلا : « يمكنك يا مولاي ان تعتمد على صلابة الجمعية الوطنية التي أقسم أعضاؤها على ان يموتوا دفاعا عن حقوق الشعب ، وعن السلطات التي يضمنها الدستور . » إنه وعد قاطع ، لأن الملك ما زال وفقا للدستور احدى السلطتين الشرعيتين القائمتين ، وتكون الجمعية الوطنية من هذه الناحية قد تصرفت في غمار الفوضى ، كأن النظام الشرعي ما زال سائدا . ولما كان الدستور يمنع حضور الملك مناقشات الجمعية الوطنية ، ولما كانت هذه المناقشات مستمرّة ، فقد اعطى الملك كملجأ الغرفة التي يشغلها عادة مسجلو الجلسات ، وهي غرفة منخفضة لا يستطيع المرء ان يقف فيها مستقيم القامة ، وكان في مقدمتها بضعة كراسي ، وفي قعرها مقعد من القش ، وكانت شبكة من الشريط الحديدي تفصلها عن قاعة المناقشات . وسرعان ما أقبل النواب فنزعوا بواسطة المبارد والمطارق هذه الشبكة ، لأنهم كانوا يخشون دائما ان يحاول الشعب اختطاف الاسرة الملكية . ففي هذا القفص الذي تلهبه حرارة آب الخانقة ، كان على لويس السادس عشر وماري أنطوانيت ان يقضيا ثماني عشرة ساعة مع ولديهما ، معرّضين هكذا لأنظار المجلس المتأسية ، او الفضولية ، او المعادية . وإن ما يزيدهما اتضاعا هو عدم اكتراث الجمعية الوطنية بهما ، وتجاهلها لهما طيلة الثماني عشرة ساعة من المناقشات ، وكأنها تعتبرهما من الجنود او المتفرجين الذين يجلسون عادة في المنصات الخاصة بهم ، إذ لم يقف نائب واحد لتحيتهما ، ولم يفكر أحد بأن يجعل اقامتهما في هذا الوكر الضيق أكثر احتمالا . كما انه لم يكن مسموحا لهما بغير الاستماع فقط ، وبغير الشعور بأن المتكلمين في المجلس يتجاهلون وجودهما تجاهلا تاما : انها صورة امرىء يشاهد من نافذة ما عملية دفنه .

وفجأة حلّت رجفة على الجمعية الوطنية ، فقفز بعض النواب من مقاعدهم واعاروا انتباههم صامتين ، لأنهم سمعوا طلقات البنادق صاعدة من التويلري . ثم اذا بهدير أصم يهزُّ النوافذ : انه مدفع قاصف . ذلك ان الثائرين ، عند دخولهم الى القصر ، كانوا قد اصطدموا بالحرس السويسري ، فالملك ، عند ذهابه المسرع الذي يستثير الشفقة ، كان قد نسي ان يصدر تعليماته لجنود الحرس ، او بالاحرى لم يتمالك قواه لاعلان موقف صريح

جازم ، فظل الجنود امينين للأمر الاول الذي صدر اليهم بأن يقفوا موقف الدفاع عن انفسهم ، وراحوا يدافعون عن « قفص » الملكية الخالي ، مطلقين بأمر من ضباطهم بعض رشقات نارية . ولم يطل بهم الامر حتى اخلوا القصر من المهاجمين ، واستولوا على مدافع العصاة ، مبرهنين على ان ملكا صارما كان باستطاعته الدفاع عن نفسه دفاعا شريفا وسط قواته .

عندئذ تذكر العاهل الذي لا راس له ، والذي سيفقد راسه فعلا بعد قليل ، واجبه الذي يقتضيه بألا يطلب من الآخرين الشجاعة والتضحية بحياتهم ساعة تنقصه العزيمة ، فأرسل للسويسريين امرا بالتخلّي عن الدفاع عن القصر ، ولكن ، ويا للقدر المشؤوم ، بعد فوات الاوان ! لأن تردّد الملك وإهماله قد كلفا حياة اكثر من الف رجل ، إذ ان جمهرة الثائرين الهائجة عادت الى مهاجمة القصر الذي خلا من الدفاع ، فأخذ قنديل الثورة الدامي يلمع من جديد ، وأخذت رؤوس الملكيّين تنداح فوق الحراب ، ولم تنته هذه المذبحة الا في الساعة الحادية عشرة من هذا النهار اذ لم تعد تسقط رؤوس جديدة ، ولكن تاجا تدحرج على الارض .

اما الاسرة الملكية ، المحشورة في حجرة المجلس الخانقة ، فقد كان عليها ان تشاهد مرغمة كل ما اخذ يجري في الجمعية الوطنية ، دون ان يكون لها حق التفوّه بشيء . ولقد أبصرت اولا جنودها السويسريّين الامناء يندفعون الى القاعة ، مسودّين من البارود ، ونازفي الدماء ، وقد طردهم الثائرون المنتصرون الذين عدوا في إثرهم لانتزاعهم من حماية النواب . ثم ابصرت متاع القصر المنهوب الذي وضع على طاولة رئيس المجلس : من آنية فضية ، وحلى ، ورسائل ، وصناديق ، وأوراق نقدية . وكان على ماري انطوانيت ان تستمع الى مديح قادة العصيان ، دون ان تستطيع الاحتجاج ، وكان محكوما عليها أيضا بالاصغاء ، وهي صامتة مستضعفة ، الى مبعوثي مختلف القطاعات الذين اقبلوا الى الجمعية الوطنية ليطلبوا بعناد واصرار خلع الملك. والذين راحوا يزوّرون اكثر الوقائع وضوحا ، مدّعين بأن القصر هو الذي اعطى الامر بقرع الاجراس ، وهو الذي اعتدى على الامة لا الامة ، على القصر. ولقد استطاعت ماري انطوانيت ان ترى بأم عينها واقعا ثابتا أبديا : ذلك ان السياسيين يميلون مع الريح ، ويصبحون جبناء . ففرجينو نفسه الذي وعد منذ ساعتين باسم الجمعية الوطنية ، بأن يموت قبل ان تمس حقوق السلطات الدستورية ، تراجع الآن بسرعة ، وقدم اقتراحا يطلب فيه الغاء الفيتو مباشرة ، ونقل الاسرة الملكية ثانية الى قصر لوكسمبورغ ، لتكون تحت حماية الامة والقانون ، وهذا يعني سجنها . ولكي يقع الامر موقعا خفيفا على النواب

الملكيين فقد اقترح ، شكليا ، تعيين مربٍ لولي العهد ، ولكن احداً لم يعد في الواقع يهتم بالتاج اوبالملك الذي نزع منه الآن حق الفيتو ، وهو امتيازه الوحيد .

ولقد انقضى على الجلسة حتى الآن أربع عشرة ساعة ، كان خلالها الاشخاص الخمسة مكوّمين في الحجرة الضيقة ، دون ان يناموا طيلة هذه الليلة المفزعة الرهيبة ، وكأنهم عاشوا أبدية بكاملها . ولكن الولدين المرهقين اللذين لا يفهمان شيئا مما يجري حولهما ، قد تخدرا وناما . وكان العرق يجري على جبين الملك والملكة التي بللت منديلها مرات عديدة لترطب وجهها ، والتي شربت مرة أو مرتين كوب ماء بارد قدمته اليها يد محسنة . وكانت الملكة المرهقة والمتيقظة في آن واحد ، تنظر بعينيها الملتهبتين الى هذه الحجرة المشتعلة التي يقرر فيها منذ ساعات مصير الاسرة الملكية ، ولم تكن لتمد يدها الى شيء من الطعام ، بعكس لويس السادس عشر الذي طلب الطعام مرات عديدة ، والذي راح يحرك ببطء ، دون ان يهتم بالناس ، فكيه الثقيلين ، وذلك برضى وارتياح في النفس ، كأنه جالس الى طاولته في فرساي ، حيث كان يقدم له الطعام في آنية فضية . وكانت الشهية والنعاس ، حتى في أشد ساعات الخطر ، لا يتركان هذا الجسم الذي لا يملك الا القليل من سيماء الملكية ، لذلك فقد أخذت جفون لويس السادس عشر الثقيلة تنطبق رويدا رويدا ، الى ان نام طيلة ساعة في قلب هذه المعركة التي ستكلفه تاجه . عندئذ ابتعدت ماري انطوانيت عنه ، وتراجعت الى الظل الذي يغرق فيه قعر الحجرة ، لأنها كانت دائما في مثل هذه اللحظات تخجل من ضعف زوجها الذي يهتم بمعدته أكثر من اهتمامه بشرفه وكرامته ، والذي يستطيع ، حتى في أسفل دركات الاتضاع ، ان يحشو بطنه بالطعام وينام .

ولكي لا تخونها مرارة نفسها ، فقد أشاحت بوجهها عنه ، كما انها أشاحت بوجهها عن الجمعية الوطنية ، وكانت ترغب أن تسد أذنيها براحتيها ، لأنها وحدها تعلم مدى الذل الذي لحق بأسرتها في هذا النهار ، وتشعر الآن بطعم السم الزعاف في حنجرتها المنقبضة . ولكنها كانت دائما عظيمة في ساعات التحدّي ، فلا تفقد السيطرة على نفسها لحظة واحدة . اما اولئك الثائرون المتمردون فلن يروا لها دمعة واحدة ، ولن يسمعوها تلفظ آهة واحدة ! الا انها ظلت تتوغل في ظلمة الحجرة الرتيبة . واخيرا ، بعد ان قضى الملك والملكة ثماني عشرة ساعة في هذا القفص المحرق ، سُمح لهما بالذهاب الى دير « الفويان » القديم ، حيث نصب لهما بسرعة سرير في احدى الغرف الفارغة المهجورة . ولقد أعارت بعض النساء المجهولات ملكة فرنسا قميصا

وبعض قطع الغسيل ، ولما كانت الملكة قد نسيت او اضاعت نقودها ، فقد اقترضت بعض ليرات ذهبية من خادمتها . والآن ، بعد ان اصبحت وحيدة ، تناولت قليلا من الطعام .

ولكن الهدوء لم يستتب في الخارج ، فظل الهياج يعم المدينة ، وظلت جماعات صاخبة تمر دون انقطاع تحت نوافذ الدير المشبكة ، بينما كان يسمع من جهة التويلري وقع عجلات العربات التي كانت تنقل جثث الف من القتلى . ذلك ان الليل كان قد انتظر لاجراء هذا العمل المرعب ، اما جثة الملكية فلسوف ترمى في وضح النهار .

وفي يوم الغدواليوم الذي يليه ، كان على الاسرة الملكية ان تحضر ، وهي في حجرتها الوضيعة مناقشات الجمعية الوطنية . وكان باستطاعة الملك والملكة ان يريا الى سلطتهما تذوب ساعة بعد ساعة في هذا الاتون الملهب . فبالامس كان النواب ما يزالون يتكلمون عن الملك ، أما اليوم فقد أصبح دانتون يتكلم عن « ظالمي الشعب » ، وقد أصبح نواب آخرون يطالبون صراحة بسجن الملك في دير قديم محصن يدعى « الهيكل » . وحتى الساعة الثانية من صباح اليوم التالي ظلت مطحنة الكلام تدور في الجمعية الوطنية ، ولكن دون ان تلفظ كلمة واحدة لصالح البؤساء الذين كانوا منحنين في ظلمة الحجرة الضيقة ، وكأنهم منحنون في ظل القدر . وأخيرا في ١٣ آب (اغسطس) كان سجن « الهيكل » على أتم استعداده ، ولكن طريقا شاسعة قطعت في هذه الايام الثلاثة ، لأن الانتقال من الملكية المطلقة الى الجمعية الوطنية اقتضى انقضاء قرون عديدة ، والانتقال من الجمعية الوطنية الى الدستور اقتضى انقضاء سنتين ، ومن الدستور الى مهاجمة التويلري بضعة أشهر ، ومن مهاجمة التويلري الى الاسر ثلاثة ايام فقط . ولم يتبق الآن سوى بضعة اشهر للانتقال الى المقصلة ، اما النزول الى القبر فستكفيه هزة صغيرة .

في ١٣ آب الساعة السادسة مساء ، نقلت الاسرة الملكية الى سجن « الهيكل » ، تحت قيادة باتيون . ولقد اختير هذا الوقت قبل انتشار الغسق لكي يرى الشعب المنتصر سيده القديم ، وخاصة الملكة المتغطرسة ، وهما سائران الى السجن . وهكذا ظلت العربة طوال ساعتين تجتاز ببطء مقصود نصف المدينة ، ثم عرّج بها ايضا عن قصد الى ساحة « فاندوم » ليتسنى للويس السادس عشر مشاهدة تمثال سلفه لويس الرابع عشر الذي حطم ونزع عن قاعدته بأمر من الجمعية الوطنية ، وليتسنى له ان يعلم ان الذي انتهى ليس عهده فقط ، انما عهد سلالته بأجمعها .

وفي ذات اليوم الذي غادر فيه سيد فرنسا القديم قصر أجداده منتقلا

الى السجن ، غيّر سيد باريس الجديد هو ايضا موضع إقامته . ففي ليلة ١٣ آب نقلت المقصلة مــن باحة سجن « الكونسيارجري » الى ساحة الكاروسل ، حيث تصبت مهددة منذرة . وكان على فرنسا ان تعلم أن حاكمها لم يعد لويس السادس عشر ، ولكن هو الارهاب !

٣٢ ـ سجن الهيكل

كان الليل قد ارخى سدوله عندما وصلت الاسرة الملكية الى قصر الهيكل . فأخذت قناديل كثيرة تنير نوافذ البناء الرئيسي . أوليس هذا عيدا شعبيا ؟ وكانت ماري انطوانيت تعرف هذا القصر الصغير ، حيث كان يسكن، طوال سنوات السعادة والعبث ، الكونت دارتوا مراقصها ورفيق لهوها ، فالى هذا القصر أتت منذ اربع عشرة سنة ، في أحد ايام الشتاء ، مرتدية الفراء الثمين، وفي عربة غنية الزينة تقرع جلاجلها ، لتناول العشاء بسرعة عند شقيق زوجها . اما اليوم فقد دعاها أسياد آخرون اقل توددا لها لتقيم في هذا المكان إقامة دائمة ، بحراسة رجال الحرس الوطني ، ونفر من رجال الدرك اليقظين : واننا نعرف القاعة الكبيرة التي يقدم فيها الطعام للسجناء من لوحة مشهورة تدعى « حفلة شاي في منزل الامير كونتي » ، أما الصبي الصغير والبنت الصغيرة اللذين راحا يعزفان امام حفل رفيع المقام فقد كانا موزارت الصغير البالغ من العمر ثماني سنوات ، وشقيقته . وفي الواقع فقد رجّعت الموسيقى والمسرّة أصداءهما طويلا في غرف هذا القصر الذي كان آخر سكانه أسياد نبلاء ، يستمرئون بفرح متع العيش .

إلا أن هذا القصر الانيق الذي ربما كانت أخشابه المذهبة ما تزال ترجع ترجيعا خفيفا موسيقى موزارت المجنحة الفضية ، لم يعد لاقامة ماري انطوانيت ولويس السادس عشر ، بل البرجان القديمان المستديران الحادا الرأس ، المرتفعان الى جانب القصر ، واللذان بناهما فرسان « الهيكل » الرهبان ، منذ القرون الوسطى ، ليكونا بمثابة قلعة محصّنة . وكان هذان البرجان المبنيان بحجارة رمادية أو قاتمة يثيران في النفس شعورا حزينا ، ويعيدان الى الذكرى ، بأبوابهما الثقيلة المصفحة بالحديد ، وبنوافذهما المنخفضة ، وباحاتهما المظلمة ، قصائد الماضي الخرافية المنسية ، والمحاكم السرية ، وديوان التفتيش ، كهوف السحرة ، واقبية التعذيب . وكان الباريسيون يلقون نظرات خفيّة مشوبة بالخوف على هذه الآثار المتبقية من العهود الظالمة ، والتي يلفها الغموض الى درجة انها ظلت مهجورة وسط حيّ

يملأه حركة صفار البورجوازيين : ولشدّ ما كان هذا الرمز بليغا ، أي سَجن الملكية الساقطة المندثرة بين تلك الجدران القديمة المندثرة .

ولجعل هذا السجن الفسيح أكثر أمنا ، فقد عَمد الى اجراءات استمر إعدادها عدة أسابيع ، إذ هدمت سلسلة من البيوت الصغيرة التي تحيط بالبرجين ، وقطعت أشجار الباحة لتسهيل المراقبة ، وفصلت الساحتان العاريتان المستديرتان حول البرجين عن الابنية الاخرى بجدار حجري ، حتى أصبح من الواجب اجتياز ثلاثة أسوار قبل الوصول الى القلعة ذاتها . وفضلا عن ذلك فقد بُنيت مراقب عند جميع المخارج ، واقيمت مراكز حراسة عند جميع الابواب الداخلية الموصلة الى ممرات كل طابق ، لارغام جميع الداخلين أو الخارجين على الخضوع لمراقبة سبعة أو ثمانية من الحراس . وكان المجلس البلدي المسؤول عن السجناء ، يعين كل يوم بالقرعة اربعة مفوضين مكلفين بمراقبة الغرف ليلا ونهارا ، وبجمع مفاتيحها كل مساء . ولم يكن أحد ، ما عدا هؤلاء المفوضين ومستشاري البلدية ، يملك حق الدخول الى سجن الهيكل دون إذن خاص من البلدية . وهكذا فقد أصبح من المستحيل على أي فرسن ، وعلى أي صديق مجامل ، الاقتراب من الاسرة الملكية ، كما انه أصبح من المستحيل ايضا تبادل الرسائل مع الخارج.

ولقد جرى تحفظ آخر كان أشد وقعا على الاسرة الملكية . ففي ليلة ١٩ آب (اغسطس) اقبل موظفان من مجلس العموم ومعهما أمر بنقل الاشخاص الذين لا ينتسبون الى أسرة الملك . وكم كان تألم الملكة شديدا عندما رات نفسها مضطرة الى الانفصال عن مدام دي لامبال التي عادت من لندن بمحض اختيارها لتبرهن للملكة عن تعلقها بها في ساعة الخطر . ولقد شعرت الاثنتان بأنهما لن يلتقيا فيما بعد ابدا ، ولا شك في ان ماري انطوانيت، أثناء هذا الوداع الذي لم يشهده أحد ، قد منحت صديقتها ، كعربون اخير لصداقتها ، تلك الخصلة المبيضة من شعرها ، والمفروزة في خاتم يحمل الكتابة المؤلمة التالية : « مبيضة من الشقاء » والذي وجد فيما بعد على جسد الاميرة الممزق إربا إربا . ولقد نقلت ايضا مدام دي تورزيل وابنتها ايضا الى سجن « القوة » مع تابعي الملك الذي لم يترك له الا حاجب واحد يقوم بخدمته . وهكذا هدمت آخر مظاهر الحياة الخاصة بالبلاط ، فوجدت الاسرة الملكية (أي لويس السادس عشر ، وماري انطوانيت ، وولداهما ، ومدام اليزابيت) وحيدة مع نفسها . ولما كان الخوف من وقوع الاحداث ، عادة ، اشد وقعا على النفس من الاحداث ذاتها ، فقد كان أسر الملك والملكة ، رغم ضعته ، يوفر لهما شيئا من الامان . ولا شك ان الجدران السميكة التي تحيط بهما ،

والساحات المغلقة إغلاقا تاما ، والخفراء ببنادقهم المحشوة دائما ، تحول دون كل محاولة للهرب ، ولكن هذه الامور جميعها كانت في الوقت نفسه تدرأ عنهم كل اعتداء قد يقع عليهم . وفي الواقع فلم تعد الاسرة الملكية بحاجة الى إرهاف السمع ، كما كانت تفعل في التويلري ، لتعلم ما اذا كان نفير الاجراس والطبول يدق إنذارا بالهجوم . ومن ثم فقد عمل مجلس العموم ، في باديء الامر ، كل ما في وسعه ليحقق للسجناء الملكيين الرغد المادي . ذلك ان الثورة التي لا تشفق اثناء القتال ، كانت ما تزال في أعماقها انسانية . وانها بعد كل تقدم حثيث لتتوقف قليلا ، وهي لا تشك أبدا في ان فترات التوقف والاستراحة هذه من شأنها ان تجعل الانهزام اكثر وقعا على المنهزمين . لذلك فقد عَمد في الايام الاولى التي أعقبت انتقال المعتقلين الى سجن « الهيكل » الى جعل الحياة أقل قسوة عليهم ، ففرش البرج الكبير بالسجاد والاثاث ، وأعدّ طابق بأكمله مؤلف من اربع غرف للملك ، وأربع غرف أخرى للملكة ومدام اليزابيت والولدين . كما انه سَمح للسجناء متى شاءوا بمغادرة البرج الحزين الذي تتصاعد منه رائحة العفن ، وبالنزول الى الحديقة طلبا للنزهة . ولكن مجلس العموم اخذ يجهد قبل كل شيء لكي يُعدّ لهم طعاما دسما غزيرا ، وهذا هو شيء أساسي بالنسة للملك ، حتى ان تكاليف المطبخ ارتفعت خلال ثلاثة اشهر ونصف الى خمسة وثلاثين الف ليرة . وبالاضافة الى ذلك فقد ُوفر للاسرة الملكية كثير من « البياض » والالبسة وكل ما تحتاج اليه في حياتها الداخلية ، لأن لويس السادس عشر لم يكن يعتبر حتى الآن مجرما .

ولقد أعطي الملك ، وفقا لطلبه ، مكتبة تحتوي مائتين وسبعة وخمسين مجلدا ، معظمها لكلاسيكيي اللاتينية ، لكي تساعده على تزجية أوقات فراغه. لذلك فلم يتخذ أسر الاسرة الملكية في مرحلته الاولى القصيرة ، طابع التعذيب، ولولا الالم النفسي لكان الملك والملكة يستطيعان ان يقضيا في هذا المكان حياة هادئة وآمنة تقريبا . ففي الصباح كانت ماري انطوانيت تأمر بإحضار ولديها، فتعلمهما او تلعب معهما ، وعند الظهيرة كان الجميع يتناولون الطعام معا ، ثم يلعبون بطاولة النرد أو بالشطرنج . وبينما كان الملك ينزه في الحديقة ولي العهد وينهمك واياه بصنع طائرات الورق ، كانت الملكة تأنف النزهة وهي محاطة بعيون الحرس ، فتمكث في حجرتها منصرفة بإرادتها الى اشغال الابرة . وعند المساء كانت تضجع ولديها بنفسها ، ثم يتحدثون أو يلعبون بالورق ، وفي بعض الاحيان كانت تعزف على بيان قديم أو تغني قليلا كما كانت تفعل قديما ، ولكنها وهي بعيدة عن الناس وعن صديقاتها ، كان ينقصها

خفة القلب التي فقدتها الى الابد ، لذلك فقد كانت تتكلم قليلا ، وتفضّل البقاء وحيدة ، أو مع ولديها . ولكن ، خلافا لزوجها وشقيقته ، فقد كانت روحها تنطلق من تلك الجدران لمعانقة العالم ، لان نفسها المعتادة على الانتصار كانت ترفض الاستسلام ، ولأن الامل كان ما يزال كامنا في قلبها . اما الآخرون الذين يعيشون معها ، فقد كانوا لا يشعرون بوطأة أسرهم الا قليلا ، ولولا المراقبة والخوف الابدي من الغد لكان البورجوازي الصغير لويس السادس عشر ، وشقيقته الراهبة اليزابيت يجدان انهما بلغا الهدف الذي كانا يصبوان اليه في لاوعيهما منذ سنوات عديدة : اي العيش دون أية مسؤولية ودون أي اكتراث .

الا ان الحرس كانوا هناك دائما ، مذكرين الاسرى بأن سلطة جديدة تتصرف بمصيرهم . ومن ثم فقد علق مجلس العموم في غرفة الطعام نص « اعلان حقوق الانسان » مطبوعا على ورق ذي قطع كبير ، ذلك الاعلان الذي يحمل هذا التاريخ الذي يصعب وقعه على الملك : « السنة الاولى لمولد الجمهورية » . وكان الملك يقرأ على صفيح وجاقه هذه الكلمات : « حرية ، مساواة ، إخاء » . وعند اوقات الطعام كان يظهر قائد البرج أو أحد المفوضين، فيقطعان الخبز تقطيعا ، بأيديهم الغريبة ، ويفحصانه لئلا تكون رسالة ما مدسوسة فيه . ومن ثم فلم تكن صحيفة واحدة تدخل الى هذا السجن ، وكان الحرس يفتشون بعناية فائقة جميع الاشخاص الذين يدخلون البرج او يخرجون منه ، وذلك بحثا عن الاوراق السرية . وفضلا عن ذلك فقد كانت ابواب الغرف التي يقطنونها تغلق من الخارج . ولم يكن الملك والملكة يقومان بحركة واحدة ، دون ان ينزلق خلفهما شبح حارس يحمل بندقيته على كتفه ، ولم يتحدثا مرة الا أمام أعين الحراس ، ولم يقرآا مطبوعة واحدة الا بعد مرورها على الرقابة . وبكلمة واحدة فلم يكونا يعرفان سعادة الخلوة ولذتها الا عندما ينسحبان الى حجر النوم .

هنا يعترض سؤال : هل الثورة عاملت الملك المغلوب على امره معاملة سيئة وضيعة عن دراية وقصد ؟ ان فكرة الثورة فكرة واسعة وتحتوي سلما من ضروب التفاوت تتنوع بين المثالية السامية والفظاظة الدانية ، بين العظمة والشراسة ، بين الروحانية الدقيقة والعنف الغليظ ، وهي تتحول وتتبدل وفقا للناس والظروف . كذلك الامر في الثورة الفرنسية ، فهي تضم نموذجين مختلفين يبرزان بوضوح : نموذج الثوريين الذين تقودهم المثالية ، ونموذج الثائرين الذين يقودهم الحقد . فأصحاب النموذج الاول ، المحظوظون اكثر من العامة ، يريدون ان يرفعوا العامة اليهم لكي تبلغ مستواهم وثقافتهم

واشكال حياتهم والحرية التي يتمتعون بها . واصحاب النموذج الثاني الذين قضوا تعساء حياة طويلة ، يريدون الانتقام من الذين كانوا أسعد منهم ، ويريدون بسط سلطانهم على أسياد الامس . وهذه الحالة الروحية ما زالت سائدة في يومنا هذا ، لأنها قائمة على ازدواج الطبيعة البشرية . اما في الثورة الفرنسية فالمثالية هي التي تغلبت أولا : اذ ان الجمعية الوطنية المؤلفة من النبلاء والبورجوازيين والوجهاء ارادت أن تساعد الشعب وان تحرر الجماعات ، ولكن الجماعات المتحررة الهائجة المثارة انقلبت فورا ضد المحررين . وهكذا تغلبت في المرحلة الثانية العناصر المتطرفة ، أي الثائرون بسبب الحقد . وكان الحكم ، بالنسبة لهؤلاء ، شيئا جديدا ، فانطلقوا على سجيتهم ليتمتعوا به تمتعا كاملا . وكان من جراء ذلك ان استلم الدفة رجال محدودو الذكاء ، برزوا من ظروف قاسية ، فكان مطمعهم خفض الثورة الى مستواهم الرتيب .

وكان « هيبر » الذي عهد اليه بحراسة الاسرة الملكية ، الممثل النموذجي المنفر للثائرين عن حقد . وسرعان ما عرف أكثر أشخاص الثورة نبلا ، روبسبيير وكاميل دي مولان وسان جوست ، ان هذا الكويتب القذر ، وهذا المتشدق الهائج انما هو دمّل من دمامل الثورة . لذلك فسوف يقتلعه روبسبيير بالحديد المحمّى . وان كان ذلك بعد فوات الاوان . ذلك ان هيبير هذا كان ذا ماض مريب . ولقد اتهم علنا بسرقة الدراهم من صندوق احد المسارح . ولما كان بلا مكانة ولا ضمير فقد قفز الى الثورة كما تقفز طريدة ملاحقة الى النهر ، ولكن مجرى الاحداث حمله معه . لأنه كما يقول عنه سان جوست ، « يتلون وفقا للروح السائدة والاخطار كما تتلون الافعى التي تزحف في اشعة الشمس » . وكانت ريشته ، كلما تلطخت الجمهورية بالدم ، تقطر احمرارا ، وذلك في صحيفته الـ « بير دوشين » التي كانت احط وريقة بين صحف الثورة ، والتي كانت كما يقول كاميل دي لامون « تشبه قاذورة في باريس مفتوحة على نهر السين » . ففي هذه الصحيفة راح هيبير يصب جام سخطه على الملك والملكة السجينين بين يديه ، مطالبا ان تقطع « الموسى الوطنية عنق السكير وامرأته » . ولا شك ان الخفراء والحراس كانوا يتأثرون بضغط هيبير عليهم فيشددون الحراسة على الأسرة الملكية . ولكن شعورا مناقضا كان يولد في نفوسهم ، اذ بينما كانوا يقرأون في الـ « بير دوشين » عن الطاغية الدموي والنمساوية العاهرة المبذرة ، كانوا يشاهدون رجلا كبير الجثة ، خاليا من المكر ، يتنزه ممسكا بيد ابنه ويقيس معه عدد الاقدام المربعة التي تحتويها ساحة البرج . كما انهم كانوا يرونه يأكل بكثرة وينام

او ينهمك بالقراءة في كتبه . ولم يطل بهم الزمن حتى اقتنعوا ان أب العائلة هذا الغافل هو ابعد من ان يسيء الى ذبابة ، كما انهم اعجبوا بنفسية ماري انطوانيت المترفعة والتي لا يصدر عنها امامهم اي تذمّر واي ضعف . فولدت في نفوسهم عواطف المودة للأسرة الملكية ، وكانوا يودون ان يتحدثوا مع افرادها ، وان يمزحوا مع الملك ، او يلعبوا معه بالورق ، ولكن عين هيبير كانت تخيفهم ، فيحولون عطفهم الداخلي الى قسوة ظاهرة ، وهذا ما يشرح محاولات الهرب التي تتحدث عنها بعض المصادر التاريخية .

ولكن الزمن لا يتوقف ابدا ، وإذا كان يمرّ في هذا المكان المحاط بالجدران دون ان يشعر به احد ، فهو في الخارج يطير بجناحين عملاقين . ذلك ان اخبارا سيئة وصلت من الحدود ، فالبروسيّون والنمساويون بدأوا سيرهم اخيرا ، وعند اول اصطدام هزموا في طريقهم القوات الثورية . فثار الفلاحون عندئذ في ولاية « فانديه » ، وبدأت الحرب الاهلية ، واستدعت الحكومة الانكليزية سفيرها ، كما ان لافايت ترك الجيش ، مشمئزا من تطرف ثورة كان هو نفسه مسببها . واذا بالقوت يصبح قليلا ، فيتحرك الشعب . واذا بأخطر الكلمات ، كلمة الخيانة التي تلي عادة كل انهزام ، تنبجس من كل مكان ، فتنشرها الوف الاصوات معكرة بها جو العاصمة ، في هذه الساعة العصيبة قام دانتون أشد رجال الثورة عزيمة واقلهم وازعا ضميريا ، فقبض على علم الارهاب الدامي ، ووافق على قرار سري يقضي بذبح جميع المشبوهين في السجن . فكانت الاميرة دي لامبال صديقة الملكة ، بين الوف الضحايا .

وكانت الاسرة الملكية في سجن « الهيكل » تجهل جميع هذه الاحداث الرهيبة ، لأنها كانت تعيش معزولة عن عالم الاحياء والكلمة المطبوعة . الا انها كانت تسمع نفير الاجراس الذي اخذ يقرع فجأة ، وكانت ماري انطوانيت تعلم اي شؤم يحمل دائما هذا العصفور المصنوع من البرونز ، والذي يكون طيرانه فوق المدينة نذيرا بنكبة او بشقاء . هنا اخذ الاسرى يتهامسون فيما بينهم باضطراب قائلين : ترى هل أصبح الدوق دي برونشفيك مع قواته على ابواب باريس ؟ أم ترى انفجرت ثورة ضد الثورة ؟ وكان الحراس ومفوضو البلدية ، عند باب السجن المغلق ، يتجادلون فيما بينهم باضطراب بالغ ، اذ ان رسلا مسرعين اخبروهم منذ قليل بأن جمهرة غفيرة كانت تتقدم من الضواحي ، حاملة على حربة راس الاميرة دي لامبال المشوّه المنتثر الشعر في الفضاء ، وجارّة جسدها العاري الممزّق المقطع ، وانه لمن المؤكد ان هذا القطيع المفترس ، الثمل من الدم والنبيذ ، سيتلذّذ بأن يعرض على ماري انطوانيت راس صديقتها الكامد ، وجسدها العاري المدنس ، فأسرع الحرس

الى طلب النجدة ، لأنهم لن يستطيعوا وحدهم الصمود في وجه تلك الكتل البشرية الهائجة ، ولكن النجدة لم تصل ، واذا بالجموع الفقيرة الصاخبة تزمجر امام المدخل الرئيسي حاملة شعارها المرعب . ولكي لا يزيد القائد من حنقها وهياجها ، ولكي يتجنب هجومها الذي سيكون مشؤوما بالنسبة للأسرة الملكية ، فقد حاول اولا ان يسترضيها ، تاركا لها حرية الدخول الى الساحة الخارجية من سجن « الهيكل » ، فاذا بها تندفع الى هذه الساحة كسيل جارف موحل . وكان اثنان من اكلة اللحوم هؤلاء يجران الجسد العاري من الساقين ، وكان آخر يهزّ بقبضته الاحشاء المدمّاة ، وكان رابع يحمل على حربة الراس الشاحب المخضر . وسرعان ما اعلنوا انهم يريدون الصعود الى البرج ليرغموا الملكة على تقبيل رأس صديقتها البلهاء . ولا شك ان القوة كانت لا تجدي نفعا مع هؤلاء المتمردين المهووسين ، فحاول احد المفوضين ان يلجأ الى الحيلة ، اذ تمنطق بشارته الرسمية ، وطلب ان يُصغى اليه ، ثم راح يخطب في الجماعة المكتظة حوله ، مبتدئا بتهنئته اياها على جرأتها ، ثم شرع ينصحها ان تنزّه الرأس في مدينة باريس لكي يستطيع الشعب بكامله مشاهدة هذا « الرمز » الذي هو « آية من آيات الانتصار » . فانطلت الحيلة على جمهرة الثائرين الذين اندفعوا بين الصراخ البربري متجهين نحو القصر الملكي وهم يجرّون خلفهم الجثة الممزقة .

في هذه الاثناء كان الاسرى يسمعون بفارغ صبر صراخا غامضاً مختلطا ينِدُّ عن جمهور غاضب ، دون ان يفهموا ماذا يريد هذا الجمهور او ماذا يطلب . ولكنهم كانوا يعرفون هذا الضجيج القاتم منذ الهجوم على فرساي والتويلري ، كما انهم اخذوا يلاحظون حركة الجنود واضطرابهم وشحوب وجوههم ، وهم يستقرون في مراكزهم دفعا للخطر . عندئذ استبد القلق بالملك ، فاستطلع حارسا وطنيا عن حقيقة الامر ، فأجابه هذا قائلا : « ما دمت يا سيدي تريد ان تعرف ، فاعلم انهم يريدون ان يعرضوا عليكم راس مدام دي لامبل . واني انصحك الا تظهر اذا اردت الا يصعد الشعب الى هنا » . عند هذه الكلمات سمعت صرخة صمّاء : انها صرخة ماري انطوانيت التي اغمي عليها . ولسوف تكتب ابنتها في المستقبل قائلة : « انها اللحظة الوحيدة التي فقدت فيها ثباتها » .

وبعد ثلاثة اسابيع ، اي في ٢١ ايلول (سبتمبر) ، تصاعد ضجيج آخر من الشارع ، فأصاخ السجناء ايضا بسمعهم قلقين . ولكنهم سمعوا هذه المرة فرح الشعب المنفجر لا غضبه ، وسمعوا باعة الصحف يرفعون صوتهم عن عمد معلنين ان مجلس الثورة قد الغى الملكية . وفي اليوم الثاني جاء بعض

المفوّضين فبلغوا الملك ، الذي لم يعد ملكا ، وثيقة عزله . فتقبلها لويس السادس عشر لامباليا ، وكذلك ماري انطوانيت ، لأنهما شعرا بأنهما تحرّرا من كل مسؤولية تتعلق بمصيرهما أو بمصير الدولة ، ولم يعودا يهتمّان بشيء الا بقبس الحياة المتبقّي لهما . ولقد أصبحت ماري انطوانيت تجد فرحها في الاشياء الانسانية الصغيرة ، كمساعدة ابنتها في أشغال الابرة او العزف على البيان ، ومساعدة ابنها على تصليح فروضه . واخذت ايامهما تمر رتيبة ، فكانا يبحثان عن حل الحزازير في العدد الاخير من صحيفة « المركور دي فرانس » ، وينزلان الى الحديقة ثم يصعدان منها ، ويتتبعان سير عقرب الساعة القديمة الذي يسير ببطء فوق المدفأة ، وينظران الى الدخان المتموّج فوق السطوح البعيدة ، ويريان غيوم الخريف القادمة بالشتاء معها . ولقد كانا يحاولان خاصة نسيان الماضي ، والتفكير بما سيأتي ، او بما هو آت ولا محالة .

ولكم يبدو الآن ان الثورة بلغت غايتها ، اذ خلع الملك الذي تنازل عن عرشه دون اي احتجاج ، وظل يسكن هادئا في برجه مع امرأته وولديه ، ولكن كل ثورة هي جلمود صخر حطه السيل من علٍ ، ويظل يتدحرج دائما الى الامام ، فيتوجب على الذي يقودها ويريد ان يملك زمامها ، ان يركض معها دون توقف . وكان كل حزب يعرف هذا الامر ، ويخشى ان يتقاعس فيسبقه سواه . وكان انصار اليمين يخافون المعتدلين ، والمعتدلون يخافون اليسار ، واليسار يخشى جناحه اليساري ، والجيرونديون جزب مارا . كما ان القادة كانوا يرهبون الشعب ، والقواد الجنود ، ومجلس الثورة مجلس العموم ، ومجلس العموم القطاعات . وهذا الخوف المبدي الذي كانت تضمره كل فئة للفئات الاخرى هو الذي كان يدفعها في سباقها الجنوني . وكانت كل الاحزاب تخاف من ان تتهم بالاعتدال ، وهذا الخوف وحده هو الذي اعطى الثورة الفرنسية ذلك الاندفاع الجارف الذي تجاوز بها هدفها الحقيقي ، كأنما كتب لها ان تجتاز جميع نقاط التوقف التي رسمتها لذاتها ، وان تتعدى دائما الاهداف التي كانت تنالها .

ولقد ظنت الثورة بادىء الامر انها انجزت مهمتها عندما تجاهلت الملك ، ثم عندما خلعته . ولكن هذا الرجل المسكين الذي فقد تاجه ، والذي لا يؤذي احدا ، كان ما يزال رمزا ، ولما كانت الجمهورية تنبش من القبور بقايا رفات الملوك الذين ماتوا منذ قرون وقرون ، لتحرق ما لم يكن غير رماد وهباء ، فكيف يمكنها ان تحتمل ظل ملك حي ؟ لذلك فقد اعتقد القادة بأن من واجبهم ان يتمّموا موت لويس السادس عشر السياسي بموته الجسماني ، ليتأكدوا

من ان الملكية لن تعود . لأن بناء الجمهورية لا يمكنه ان يستمر ، بالنسبة لجمهوري متطرف ، الا اذا ُوصل ما بين حجارته بدم ملكي . ولم يلبث المعتدلون ان وافقوا على هذا الراي لكي لا يخسروا التأييد الشعبي ، فعيّنت محاكمة لويس الاخير الذي لقب عن ازدراء بلويس كابيه ، في شهر كانون الاول (دسمبر) .

اما معتقلو سجن « الهيكل » فقد علموا بهذا القرار المقلق عندما ظهرت لجنة بشكل مفاجىء ، طالبة ان تسلم اليها جميع الادوات الحادّة : السكاكين، والمقصّات ، والشوك ، فالمعتقل الذي كان تحت المراقبة فقط ، اصبح الآن متهما . وبالاضافة الى ذلك فقد فُصل لويس السادس عشر عن أسرته ، فلم يعد له الحق ابتداءا من هذا اليوم برؤية امرأته وولديه ، بالرغم من انهم يسكنون الطابق الذي يقع فوق طابقه مباشرة . ولم تستطع بعدئذ امرأته ، طيلة تلك الاسابيع المشؤومة ان تتحدث اليه مرة واحدة ، كما انه لم يكن يسمح لها بأن تعرف كيف تجري المحاكمة وكيف ستنتهي ، وبأن تقرأ صحيفة ما ، او بأن تستوضح المدافعين عن زوجها ، مرغمة هكذا على قضاء تلك الساعات المؤلمة تحت جناح القلق المرعب . ولقد كانت تسمع فوق راسها خطى زوجها المتثاقلة ، دون ان تستطيع رؤيته او التكلم معه .

وعندما دخل على ماري انطوانيت ، في ٢٠ كانون الثاني احد موظفي البلدية ، واخبرها بصوته المكدّر انه يسمح لها في هذا اليوم ، بظرف استثنائي بالنزول مع أسرتها الى الطابق الاسفل ، فهمت حالا اي حادث رهيب يكمن وراء ذلك : لقد حكم على لويس السادس عشر بالموت ، وانها سترى زوجها للمرة الاخيرة ، كما ان ولديها لن يريا بعدئذ والدهما . ولما كانت هذه اللحظة محزنة ، ولما لم يعد من خطر وراء الذي سيشنق غدا ، ترك ، في هذا الاجتماع العائلي الاخير ،الزوج والزوجة والاخت والولدان وحدهم في الغرفة . ولم يحضر احد هذا اللقاء المؤثر ، لذلك فكل ما كتب حول هذا الموضوع فهو محض اختراع خيالي . ولا شك ان وداع ماري انطوانيت لأبي ولديها كان من أشد اللحظات تألما في حياتها لأنها وان لم تحبّ زوجها حبا غراميا ، وان اعطت قلبها منذ وقت طويل لرجل آخر ، فهي مع ذلك قد عاشت معه طيلة عشرين سنة، وولدت منه اربعة اولاد، ولم تعرفه طوال هذه المرحلة المضطربة الا طيبا معها ، مخلصا لها . وان هذين الكائنين اللذين تزوّجا فقط لسبب يتعلق بالدولة قد اصبحا الآن اوثق اتحادا مما كانا عليه في اجمل سنوات عمريهما ، لأن الشقاء الغامر الذي تحمّلاه مشتركين خلال الساعات القاتمة التي قضياها معا في سجن الهيكل قد قرّب ما بينهما . ومن ثم فان الملكة

لتعلم بأنها لن تلبث ان تتبع زوجها قريبا ، متسلقة بدورها الدرجة القصوى من سلم حياتها .

اما لويس السادس عشر فقد اظهر في هذه الساعات الاخيرة شيئا من العظمة الروحية ، فلم يخامره خوف ولا تأثر . ولم يسمعه المفوّضون الاربعة المنتظرون في الغرفة المجاورة نهاية الوداع ، لم يسمعوه مرة واحدة يرفع صوته او يجهش باكيا . اذ ان هذا الرجل الضعيف وهذا الملك الذي لا جلال له ، اصبح يُظهر الآن ، وهو يترك الى الابد اسرته ، حزما وجلالا لم يعرفهما في حياته كلها . فنهض عند الساعة العاشرة وهو هادىء كعادته في كل مساء واشار لأسرته إشارة الفراق ، ولم تجرؤ ماري انطوانيت على الاحتجاج امام هذه الارادة المعبّرة عن نفسها بوضوح ، لا سيما وانه وعدها ، بكذبة ورعة ، بأن يصعد الى غرفتها في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي .

وكانت الملكة وحيدة في حجرتها ، وبعد ان قضت ليلة طويلة دون ما كرى ، اطلقت اخيرا اول خيوط الصباح الذي ابتدات معه جلبة الاعدادات المشؤومة . فسمعت عربة تصل بعجلاتها الثقيلة ، واناسا يصعدون وينزلون على الدرج بلا انقطاع : ترى هل هو الكاهن المعرّف ، ام مفوضو البلدية ، ام الجلاد ذاته ؟ وكانت طبول الفرق وهي سائرة تقرع بعيدا ، ثم اتضح الضياء اكثر فأكثر ، وطلع النهار ، واقتربت الساعة التي ستحرم الولدين اباهما ، والتي ستنتزع الزوج عن رفيقته . ولما كانت ماري انطوانيت اسيرة في حجرتها التي وقف امام بابها حراس اشداء فلم يكن لها الحق بأن تنزل الدرجات القليلة التي تفصلها عن زوجها ، ولا ان ترى وتسمع ما الذي يجري ، ولا شك ان الاشياء التي اخذت تتمثلها في فكرها كانت الف مرة اشد هولا من الواقع . واخيرا ساد صمت مخيف في الطابق السفلي ، لأن الملك غادر سجن « الهيكل » في عربة ثقيلة كانت تقله الى التعذيب . وبعد ساعة فقط اعطت المقصلة ماري انطوانيت التي دعيت فيما مضى ارشدوقة النمسا ، ثم ولية العهد ، ثم اخيرا ملكة فرنسا ، اعطتها لقبا جديدا هو : ارملة كابيه .

٣٣ ـ وحيدة

لقد ساد صمت مختلط بعد سقوط شفرة المقصلة التي لا ترحم على عنق الملك . وكان مجلس الثورة يريد بحزه عنق لويس السادس عشر ان يقيم خطا دمويا فاصلا بين الملكية والجمهورية . ولم يكن يفكر واحد من

النواب الذين لم تدفع غالبيتهم هذا الرجل الضعيف الساذج الى المقصلة الا بأسف داخلي ، بأن يضع في الوقت الحاضر ماري انطوانيت موضع الاتهام. اما مجلس العموم فقد منح الارملة ثياب الحداد التي طلبتها ، دون اي نقاش، كما ان المراقبة عليها خفت بوضوح ، واذا كان قادة الثورة ما يزالون يعتقلون النمساوية وولديها في سجن « الهيكل » ، فذلك لاعتقادهم بأنها رهينة ثمينة يمكنها ان تؤثر على النمسا .

ولكن هذا الاعتقاد كان مغلوطا ، لأن مجلس الثورة كان يقدّر اكثر من اللزوم شعور آل هابسبورغ العائلي . فالامبراطور فرنسوا المعدم الحس ، والجشع الذي لا يملك اي سمو خلقي ، لم يكن في نيته ابدا ان يبيع حجرا واحدا من الكنز الامبراطوري ، ليشتري به حرية عمته . واكثر من هذا فان حزب العسكريين النمساويين كان يعمل كل ما في وسعه لتنتهي المفاوضات الى الفشل . ولا شك ان فيينا قد اعلنت باديء الامر جهارا انها تدخل الحرب من اجل فكرة ، لا من اجل التوسع والغنائم ، ولكن من طبيعة كل حرب ان تصبح حربا توسعية ، حرب فتوحات جديدة ، لأن الجنرالات لا يحبون ان يزعجهم احد عندما ينتابهم هوس الحرب ، وانهم ليعتقدون بأن الشعوب لا تعطيهم الا فيما ندر هذه الفرص الذهبية ، لذلك فهم يريدون ان يتمتعوا بها اطول وقت ممكن . اما محاولات السفير مرسي العجوز الذي كان فرسن يدفعه بلا هوادة ، والذي شرع يذكر بلاط فيينا بأن ماري انطوانيت ، منذ ان نزع منها لقب ملكة فرنسا ، قد اصبحت بطبيعة الحال ارشيدوقة النمسا ، وعضوا من الاسرة الامبراطورية ، وبأن من واجب الامبراطور ان يطلب عودتها الى النمسا ، اما جميع هذه المحاولات فقد باءت الى الفشل : لأنه ماذا يضير ان تكون امرأة اسيرة في حرب عالمية ؟! وهل من قيمة لحياة فرد في لعبة السياسة المتصلبة التي لا ترحم ؟ لذلك فقد ظلت جميع القلوب باردة ، وجميع الابواب مغلقة ، ولقد كان جميع الملوك والاباطرة يؤكدون بأن وضع ماري انطوانيت يمسّهم في الصميم ، ولكن واحدا منهم لم يكن ليتحرك ، وكان بإمكان الملكة السابقة ان تقول كما قال زوجها مرة لفرسن : « لقد تخلى عني جميع الناس ! »

اجل لقد تخلى الجميع عن ماري انطوانيت التي امست تشعر بذلك وهي في عزلتها المغلقة . ولكن ارادة الحياة كانت قوية كاملة لدى هذه المرأة ومن هذه الارادة وُلد عزمها على مساعدة نفسها . لقد استطاعت الثورة ان تنزع تاجها منها ، ولكنها بقيت محافظة ، بالرغم من وجهها المتعب الذي دبّت اليه آثار الشيخوخة ، على مقدرتها الساحرة بأن تربح اليها الذين

يحيطون بها ، حتى ان تدابير الحذر التي كان يفرضها هيبير والبلدية ظهرت بلا جدوى امام قوتها العجيبة المغنطيسية التي كانت تشع من شخصها كملكة قديمة على جميع اولئك الناس الصفار القائمين على حراستها . وكانت بعض اسابيع كافية لان تربح اليها اكثرية الجنود الذين عينتهم الثورة لمراقبتها ، فثقبوا لها الجدار المستتر الذي يفصلها عن العالم ، فأصبحت تصل اليها من هذا الثقب ، بواسطة الحراس الذين ربحتهم الى قضيتها ، الرسائل والاخبار مكتوبة على اوراق صغيرة بعصير ليمون الحامض او الحبر اللامرئي . وأصبحت هذه الرسائل تنتقل باستمرار منها او اليها بسددات القوارير ، او تنزل عليها من المداخن . ولقد ابتكر الحراس لغة خاصة لافهام ماري انطوانيت بالايدي والاشارات ، رغم سهر مفوضي البلدية ويقظتهم ، الاحداث اليومية المتعلقة بالسياسة والحرب . كما انهم دفعوا لاحد باعة الصحف لكي ينادي بصوت عال امام باب السجن على الاخبار الهامة .

وسرعان ما اخذت تتسع حلقة هؤلاء المتعاونين معا من أجل ماري انطوانيت التي أصبحت بعد ان تركها زوجها الذي كان يشلّ كل أعمالها بتردده الازلي ، وبعد ان تخلى الجميع عنها ، تجرؤ على العمل بنفسها لنيل حريتها . وكان الخطر يفعل في فرنسا فعل حامض كيماوي ، فاصلا بوضوح بين ما يكون مختلطا في اوقات الهدوء العادية ، كالجراة والجبن مثلا ، إذ ان جبناء العهد القديم ، وأنانيي طبقة النبلاء ، قد هاجروا جميعهم يوم نقل الملك الى باريس ، ولم يمكث فيها الا الامناء المخلصون الذين يمكن وضع الثقة فيهم لانهم لم يهربوا يوم كان بقاؤهم يهدد بخطر الموت . وكان الجنرال السابق « جارجاي » الذي كانت امراته وصيفة الشرف لدى ماري انطوانيت، يبرز في طليعة هؤلاء الرجال الشجعان ، ولقد عاد عن عمد من « كوبلانس » حيث كان يعيش بأمان،ليضع نفسه تحت تصرف ماري انطوانيت،ولقد جعلها تعلم انه مستعد لكل تضحية . وفي ٢ شباط (فبراير) سنة ١٧٩٣ بعد مرور خمسة عشر يوما على تنفيذ حكم الاعدام بالملك ، وصل الى بيت جارجاي رجل لا يعرفه جارجاي أبدا ، وعرض عليه مفاجأة العمل على تهريب الملكة من سجنها . فألقى جارجاي نظرة حذر على هذا المجهول الذي تدل هيأته على أنه من اقحاح رجال الثورة ، ظانا انه جاسوس جاء للايقاع به . ولكن الرجل قدم اليه بطاقة صغيرة كتب عليها بخط ماري انطوانيت ما يلي : « يمكنك ان تثق بالرجل الذي سيكلمك نيابة عني واضعا بين يديك هذه البطاقة . انني أعرف مشاعره التي لم تتغير منذ خمسة أشهر . »

اما الرجل فانه يدعى تولان ، وهو احد حراس سجن « الهيكل »

الدائمين . ومما يدعو الى الاستغراب ان هذا الرجل ، عندما كان الامر يتعلق بتحطيم الملكية ، كان أول الفدائيين الذين هاجموا قصر التويلري في ١٠ آب (أغسطس) ، ولقد نال مكافأة على جراته مدالية كانت تزين صدره باعتزاز . ولما كان تولان مخلصا من حيث معتقداته الجمهورية فقد كلفه المجلس البلدي بحراسة ماري انطوانيت ، ولكن سرعان ما حل شاوول محل بولس ، اذ انه تأثر بتعاسة المرأة التي أوكل اليه امر حراستها ، فأصبح اخلص صديق لها بعد ان حمل السلاح ضدها ، الى درجة ان ماري انطوانيت لم تكن تدعوه في رسائلها الهربية الا « الامين » .

عندئذ وثق جارجاي بالرجل المجهول ، ولكن ثقته لم تكن مطلقة ، لانه من الممكن ان تكون هذه الرسالة رسالة مزوّرة ، لأن كل مراسلة كانت خطرة . لذلك فقد طلب جارجاي من تولان ان يسهل له امر الدخول الى « الهيكل » ليبحث بنفسه كل شيء مع ماري انطوانيت . ولقد ظهر للوهلة الاولى أنه من المستحيل إدخال غريب الى هذا البرج المراقب مراقبة دقيقة ضيقة . ولكن الاسيرة كانت قد أغرت بالمال حراسا آخرين ، فأصبحوا يعملون معها ، حتى ان تولان حمل لجارجاي بعد بضعة ايام البطاقة التالية : « اذا كنت عازما على الدخول الى هنا فمن الافضل ان يكون حالا وسريعا . ولكن بالله عليك ، خذ حذرك لئلا يعرفك أحد ، وخاصة المرأة المسجونة معنا في البرج . »

كانت هذه المرأة تدعى تيزون ، ولم يخدع الملكة حدسها عندما حزرت انها جاسوسة سيؤدّي انتباهها الى فشل المؤامرة . ولكن كل شيء كان ناجحا حتى الآن : وان الطريقة التي ادخل جارجاي بها الى الهيكل تجعلنا نفكر بمهزلة بوليسية . فقد كان منير المصابيح يدخل كل مساء الى السجن ، بأمر من البلدية كان يقضي بإنارة جميع المصابيح ، لأن من شأن الظلمة انها تساعد على الهرب . فجعل تولان منير المصابيح يعتقد بأن احد أصدقائه انما يتمنى ان يرى داخل سجن « الهيكل » ، وتوصّل الى ان جعله يعيره ثيابه وعدّته لليلة واحدة . فقهقه منير المصابيح ، ومضى يشرب بعض كؤوس بالدراهم التي اعطيت له . اما جارجاي فقد ارتدى ثياب الرجل وافلح في الوصول الى الملكة حيث أعدّ معها مشروع فرار جريء . تتنكر ماري انطوانيت ومدام اليزابيت بثياب مفوّضي مجلس العموم الثوري ، وتغادران البرج مزوّدين بأوراق مسروقة كأنهما انهيا جولة تفتيشية . الا ان الامر بدا اكثر صعوبة بالنسبة للولدين ، ولكن الصدفة الحسنة جعلت منير المصابيح يستصحب غالبا معه بعض اولاده ، فرُتب الامر إذن على الشكل التالي : يأخذ رجل نشيط وظيفة منير المصابيح ، وبعد ان يُنهي عمله المسخّر يخرج مع

ولدي الملكة المرتديين ثيابا فقيرة ، مار ّا امام كشك المراقبة بشكل طبيعي . وبالقرب من « الهيكل » تكون ثلاث عربات خفيفة منتظرة : واحدة للملكة وابنها وجارجاي ، والثانية لابنتها والمتآمر الثاني لوبيتر ، والثالثة لمدام اليزابيت وتولان ، وان من شأن هذه العربات الخفيفة ان تجعل الاسرة الملكية في مأمن من الملاحقة فيما اذا اكتشف امر فرارها بعد خمس ساعات فقط .

ولم تثر جراة المشروع خوف الملكة ، فوافقت عليه ، وطلبت من جارجاي ان يفاوض « لوبيتر » الذي كان يغريه المال . وكان لوبيتر هذا معلما قديما ، قصير القامة ، ثرثارا وأعرج ، وبصفته عضوا في البلدية فقد هيأ الجوازات المزو ّرة . ولكن سرعان ما فقد شجاعته عندما انتشر خبر مؤد ّاه ان حدود باريس ستغلق ، وان جميع العربات ستفتش تفتيشا دقيقا . ولعله ايضا لاحظ بطريقة ما ان الجاسوسة تيزون كانت تترص ّد ما يجري ، لذلك فقد رفض تقديم خدماته ، واصبح من العسير بل من المستحيل إخراج الاشخاص الاربعة من سجن « الهيكل » دفعة واحدة . ولكن كان بالامكان إنقاذ الملكة . فحاول جارجاي وتولان إقناعها بالهرب ، الا انها رفضت بعاطفة نبيلة حقيقية الهرب وحيدة ، مفضلة البقاء على ترك ولديها . وها هي في احدى رسائلها تشرح لجارجاي بعاطفة مؤثرة سبب تشبثها برأيها الاخير : « لقد كان جل ّ امرنا اننا حلمنا حلما رائعا ، حلما ربحنا به شيئا كثيرا ، اذ وجدت في هذه المناسبة الجديدة البرهان الساطع على اخلاصك الكامل لي ، ان ثقتي بك ليست ذات حدود ، وانك لتجدني في جميع الفرص ذات إرادة وشجاعة ، ولكن مصلحة ولدي هي الوحيدة التي تقودني ، ومهما كانت السعادة التي قد أجنيها خارج هذا المكان عظيمة ، فانني لا أرضى بالانفصال عنه ، لأنني لا استطيع ان اتمتع بشيء بعيدا عن ولدي ّ . وانني لأتخلّى عن هذه الفكرة دون اي أسف . »

لقد قام جارجاي بواجبه كنبيل تجاه ماري انطوانيت ، ولم يعد باستطاعته الآن ان يسدي لها اي عون . ولكنه يستطيع ان يخدمها خدمة واحدة : فهي تستطيع بواسطته ان تبعث الى الخارج علامة اخيرة تدل على الحياة والود . وكان لويس السادس عشر قبل موته بقليل ، قد اراد ان يرسل الى عائلته ، بواسطة حاجبه خاتما وخصلة من الشعر ، ولكن مفوضي مجلس العموم لم يستطيعوا ان يروا في هذه العطية الاخيرة من رجل محكوم عليه بالموت ، الا شيئا غامضا قد يهدف الى مؤامرة ما ، فقبضوا على هذه الذخائر وختموا عليها ختما رسميا . ولكن تولان الجريء نزع الاختام عن هذا التذكار وجلبه لماري انطوانيت . الا انها شعرت بأنه لن يكون في مأمن

لديها ، فصممت على ان ترسل هذا التذكار مع رسولها الامين الى شقيقي الملك . ولكن جارجاي اخذ يتردد في مغادرة باريس ، آملا ان ينفع ماري انطوانيت بشيء . الا ان بقاءه كان يعرضه لخطر لا مبرر له . وقبل رحيله بقليل استلم منها الكلمة الاخيرة التالية : « الوداع ! اعتقد بأنك اذا صممت على الرحيل من الافضل ان تسرع . يا لله ! كما انا حزينة على امرأتك المسكينة ! ولشدّ ما أكون سعيدة لو استطعنا ان نلتقي جميعنا بعد حين ! انّي مهما فعلت لن استطيع ان احفظ لك من الجميل قدر ما فعلت من اجلنا : الوداع ! ما اقسى هذه الكلمة ! »

لقد شعرت ماري انطوانيت ، بل انها متأكدة الآن ، من انها تستطيع للمرة الاخيرة ان ترسل رسالة خاصة الى الخارج . ولكن الم يكن لديها شخص آخر ترسل له كلمة حب غير شقيقي الملك ؟ الم يكن لديها من تحيّة تبعث بها الى اعز من كانت تملك في العالم خلا ولديها ، اي الى فرسن الذي قالت عنه انها لا تستطيع العيش دون اخبار منه ، والذي ارسلت له من جحيم التويلري الذي كان محاصرا ، ذلك الخاتم الشهير لكي يتذكرها الى الابد ؟ الم يكن من الطبيعي ان تفتح له قلبها في هذه السانحة الاخيرة ؟ ولكن كلا ! ان مذكرات « غوغلا » التي تدون سفر جارجاي ناشرة الرسائل التي ذكرناها آنفا ، لا تذكر كلمة واحدة عن فرسن ، ولا تنوه عنه أقل تنويه . وهذا ما خيب شعورنا المبني على اقتناع نفسي عميق ، والذي كان ينتظر وجود رسالة اخيرة من الحبيبة الى الحبيب .

ولكن الحق ينتهي دائما بجانب الشعور ، لان ماري انطوانيت في الواقع لم تنس حبيبها في ساعات عزلتها الاخيرة . الا ان مؤامرة الصمت حول علاقة فرسن بالملكة أخذت تذرّ قرنها منذ عام ١٨٢٣ وهو تاريخ ظهور مذكرات غوغلا ، ففي هذه المذكرات حذفت يد بيزنطية أهم مقطع من الرسالة المذكورة، ولم يظهر هذا المقطع الا بعد قرن بكامله ، وانه ليدل على ان غرام الملكة لم يكن ابدا اقوى مما كان عليه في ايامها الاخيرة . ولكي تحافظ ماري انطوانيت في نفسها على ذكرى الحبيب المؤاسية كانت قد اوصت على خاتم حُفرت عليه اسلحة فرسن بدل الزنبقة الملكية ، فكما كان يحمل هو في اصبعه شعار الملكة ، كانت تحمل هي في إصبعها شعار اسلحة الشاب السويدي ، لكي تذكرها كل نظرة تلقيها على يدها بالغائب . اما الآن وقد حانت الفرصة المؤاتية لاعطائه شهادة اخيرة عن حبها له ، فقد ارادت ان تظهر له أنها ما زالت محافظة ، الى جانب هذا الخاتم ، على شعورها الذي نذرته له . لذلك فقد طبعت في الشمع الرمز والكتابة المحفورين على طبعة الخاتم ، وأرسلت

هذا الخاتم الى فرسن بواسطة جارجاي دون ان تكون بحاجة الى اضافة اي كتابة أخرى الى هذا الرمز الذي يعبر عن كل شيء .

ولكن ماذا تراها تقول الكتابة المطبوعة على طبعة الخاتم ، والتي أوصت ماري انطوانيت على صنعها بطريقة مقصودة ؟ وبأي شيء تراه يفصح هذا الخاتم الذي امرت ملكة فرنسا بأن تحفر عليه اسلحة نبيل سويدي ، والذي ما زالت تضعه في اصبعها وهي اسيرة في السجن بعد ان تخلت عن حلاها الكثيرة الماضية ؟ يتألف الشعار الذي يحمله الخاتم من خمس كلمات ايطالية ، لم يكن شيء اكثر صدقا منها ، في هذه الساعة التي كانت فيها الملكة على بعد اصبعين من الموت ، وهذه ترجمة هذه الكلمات : « كل شيء يقودني اليك » :

انها آخر صرخة غرامية تند عن امراة نذرت للموت ، ولن يطول بها العهد حتى يحور جسدها الى غبار : هذا ما تعبر عنه هذه الرسالة شبه الصامتة تعبيرا قويا . ولسوف يعلم الصديق ان قلب هذه المراة قد خفق بحبه حتى النهاية . ولشد ما يبعث هذا الوداع في الذهن فكرة الخلود ، وازلية الشعور وسط الاحداث السريعة الزوال . ولقد قيلت الآن الكلمة الاخيرة من هذه المسرحية الغرامية العظيمة التي لا مثيل لها ، لقد قيلت في ظل المقصلة : ومن الممكن الآن للستار ان ينسدل ...

٣٤ ـ العزلة الاخيرة

فترة استراحة : فقد قيلت الكلمة الاخيرة ، وقدر للشعور ان يفيض بحرية هذه المرة ايضا . ولقد اضحى سهلا الآن على ماري انطوانيت ان تنتظر الحوادث بهدوء ، وأن تستسلم لمشيئة اقدارها ، اذ انها ودعت العالم الوداع الاخير ، ولم تعد ترجو شيئا او تحاول شيئا . كما انها لم تعد تعتمد على بلاط فيينا ، ولا على انتصار القوات الفرنسية ، وبعد ان تركها جارجاي وتولان الامين الذي عزل من منصبه بأمر من مجلس العموم ، لم يبق في باريس شخص يستطيع انقاذها . ومن ثم فان المعلومات المتوفرة بواسطة الجاسوسة تيزون قد زادت البلدية حذرا ، واذا كانت محاولة الفرار من الاسر محاولة خطرة بالامس ، فقد اصبحت اليوم جنونية ومضارعة للانتحار .

ولكن هناك طبائع يجذبها الخطر اليه بما يشبه السحر ، وهناك اناس يحبون الرهان على حياتهم ، ولا يشعرون بعظمة قواهم الا عندما يجابهون المستحيل، فتكون المغامرة الجريئة الشكل الوحيد الذي يرضى عنه وجودهم .

وأمثال هؤلاء الناس لا يستطيعون التنفس في الاحوال العادية ، لأن الحياة تظهر لهم رتيبة ، ولأن كل عمل إنما يبدو لهم بائسا متقاعسا ، فتحتاج روح المجازفة لديهم الى مهمات جريئة ، والى اهداف غريبة هوجاء ، كأن شغفهم الاكبر في تحقيق ما لا يمكن تحقيقه . وكان آنئذ يعيش في باريس رجل من هذا النوع يدعى البارون دي باز . وكان هذا النبيل الفني ، طوال بقاء الملكية في عزها ، يعيش بكبرياء على انفراد ، فهل هو بحاجة الى ان يحني عموده الفقري طمعا بمنصب او بوظيفة شرفية مأجورة ؟ ولكن روح المغامرة استيقظت في نفسه إبّان الخطر ، عندما حكم الجميع على الملك بأنه انتهى ، اذ ألقى دون كيشوت هذا بنفسه في المعركة ، بشجاعة جنونية ، محاولا انقاذ الملك . ولقد مكث هذا الرأس الحار طيلة الثورة في أخطر مكان ، فكان يتسمى بأسماء مختلفة ، ويتخفى في باريس ليقاتل وحده ضد النظام الجديد . ولقد ضحى بثروته في مغامرات عديدة ، كان اكثرها جنونا ان يلقي بنفسه فجأة ، يوم سوق لويس السادس عشر الى المقصلة ، بين اربعة وثمانين الف رجل مسلح ، فيلوّح بسيفه ويهتف صارخا : « الينا ايها الاصدقاء الذين يريدون انقاذ الملك ! » ولكن أحدا لم يتبعه ، لأنه لم يقم في فرنسا كلها شخص غيره يحاول بجسارته الغريبة انتزاع رجل من ايدي مدينة برمتها ، وجيش بكامله. لذلك فقد اندسّ البارون دي باز بين الجماهير واختفى من جديد قبل ان يصحو رجال الحرس من الذهول الذي سيطر عليهم . ولكن هذا الفشل لم يثبط من عزيمته ، بل بالعكس فقد أعد تصميما ذا جرأة خيالية لانقاذ ماري انطوانيت .

لقد رأى البارون دي باز بعينه النافذة الخبيرة ، نقطة الضعف التي أخذت تظهر في الثورة ، والسم الذي بدا يندسّ فيها خفية ، هذا السم الذي حاول روبسبيير القضاء عليه بقبضة شديدة ، اي الفساد الذي أخذ يذرّ قرنه . فالثائرون ، مع الحكم الذي استولوا عليه ، قد حصلوا ايضا على الوظائف الرسمية ، وكان المال ممزوجا بجميع هذه الوظائف ، المال ، هذا القارض الخطر الذي يؤثر على النفوس كما يؤثر الصدأ على الفولاذ . ذلك ان رجالا من البروليتاريا ، ورجالا من صغار الناس الذين لم يروا ابدا كثيرا من المال بين ايديهم ، واصحاب صناعات ، وصحفيين ، ومحرضين سياسيين لا حرفة لهم ، قد راوا انفسهم بين يوم وآخر مدعوين الى التصرف، دونما رقابة ، بكميات وفيرة من المال ناتجة عن الاستيلاء على مؤن الجيش ، وعن المصادرات ، وعن بيع ممتلكات المهاجرين . فالذين كانوا يملكون نزاهة « كاتون » الروماني كانوا قلة ، لكي يستطيعوا مقاومة مثل هذا الاغراء ، ومن

جراء هذا فان صلات عكرة نشأت بين المبادىء والاعمال ، فانبرى عدد غفير من أشد الثائرين تعصبا ، ومن الذين افادوا كثيرا من الجمهورية ، انبروا يطلبون الغنى على حسابها .

وسرعان ما رمى البارون دي باز بسنارته في هذا المستنقع الآسن ، وهو يتمتم كلمة سحرية ما زال لها وقع مسكر حتى اليوم : أدفع مليونا للذين يتعاضدون على انتزاع ماري انطوانيت من سجن الهيكل . ولا شك انه يمكن بمثل هذا المبلغ فتح ثغرة في اكثر جدران السجن سماكة ، لا سيما وآن البارون دي باز لا يعمل ، شأن جارجاي ، مع شركاء ثانويين كمنيري المصابيح ، وبعض الجنود المنعزلين . إنه يذهب مباشرة الى هدفه ، بجرأة وتصميم ، فيشتري لا صغار الموظفين بل رؤساء المراقبة ، ابتداء من « ميشوني » ، صاحب المقهى القديم ، والذي هو الآن اكثر أعضاء مجلس العموم نفوذا ، والذي عهد اليه أمر التفتيش على السجون ، ومن بينها سجن « الهيكل » . وكان شريكه الثاني « كورتاي » قائد احدى الفصائل . بمعنى أن البارون دي باز ، هذا الملكي الذي يبحث عنه البوليس والمحاكم العرفية ليلا ونهارا ، كان يقبض بيديه على ادارة سجن « الهيكل » المدنية ، وعلى السلطة العسكرية ، وكان باستطاعته ان يباشر العمل بهدوء بينما كان الصراخ يعلو ضده في مجلس العموم ، وفي لجنة الامن العام .

وفضلا عن ذلك فقد كان هذا المتآمر الفذ ، وهو الحاسب البارد ، وهذا المفسد الماهر ، شخصا ذا شجاعة عجيبة ، فاذا به يدخل جنديا بسيطا في حرس السجن ، بينما كان مئات الارصاد والجواسيس يبحثون عنه في طول البلاد وعرضها يائسين ، لان التقارير كانت ترد الى لجنة الامن بأن هذا الرجل ماض في اعداد الخطة تلو الخطة للايقاع بالجمهورية . ولقد دخل في حرس السجن باسم « فورغيه » ليتسنى له استكشاف الارض بنفسه . فشرع هذا الارستقراطي الغني ذو الملايين ، المعتاد على الحياة الناعمة ، يقوم بمهمات الجنود القاسية ، وبندقيته على كتفه ، مرتديا بزة الحرس الوطني القذرة الرثة . واننا لنجهل اذا كان البارون دي باز قد أفلح في الدخول الى حجرة ماري انطوانيت ، وهذا على كل حال كان غير ضروري بالنسبة للمشروع المذكور ، لانه من المؤكد ان ميشوني الذي كان سيقبض حصة كبيرة من المليون ، هو الذي أخبر الاسيرة بنفسه عن الامر .

وفي الوقت ذاته فقد أدخِل سرا بين الحرس ، بواسطة القائد العسكري المرتشي كورتيه ، عدد متزايد من شركاء البارون المتآمرين معه ، حتى أنه قد حصل شيء مذهل يكاد لا يصدق : ففي أحد الايام الجميلة من سنة ١٧٩٣ ،

وفي قلب باريس الثورية ، أصبح سجن « القلعة » محروسا فقط بواسطة أعداء الجمهورية ، أي بواسطة مفرزة من الملكيين المتنكرين ، تحت امرة البارون دي باز الذي يلاحقه مجلس الثورة ولجنة الامن العام ، والذي صدر بحقه عشرون مذكرة توقيف : أجل لم يستطع كاتب روائي ولا كاتب درامي ان يبتكرا مثل هذا الانقلاب الفريب الجريء !

واخيرا فكر البارون دي باز بأن ساعة العمل الحاسم قد حانت واذا ما نجح فسيصبح هذا اليوم من اهم ايام التاريخ ، لانه سينتزع من أيدي الثورة ليس ماري انطوانيت وحدها ، بل ايضا لويس السابع عشر ملك فرنسا المقبل . وهكذا فقد كان البارون دي باز والقدر سيقرران مصير الجمهورية . وعندما حل المساء ، وهبطت سدل الظلام كان كل شيء جاهزا ، كل شيء حتى ادق التفاصيل . فقد دخل « كورتاي » الى ساحة السجن مع مفرزته ، يرافقه رئيس المؤامرة ، ولقد وزع رجاله بطريقة تجعل المنافذ الرئيسية محروسة بواسطة جنود ملكيين فقط . وفي الوقت ذاته بدأ ميشوني عمله داخل الحجر وهيأ معاطف لماري انطوانيت ومدام اليزابيت ولابنة الملكة ، لكي يخرج الثلاثة عند منتصف الليل وهن متنكرات بثياب عسكرية ، والبنادق على اكتافهن ، برفقة جنود آخرين متنكرين يخرجون جميعا من سجن الهيكل في شبه مفرزة عادية تسير تحت امرة كورتاري ، مع ولي العهد الذي يسير في وسط المفرزة . وكان يحق لكورتاري ، بصفته قائدا للحرس ، أن يأمر بفتح ابواب سجن « الهيكل » في وجه مفارزه في اية لحظة يشاء ، لذلك فقد كان مطمئنا بان مفرزته في هذه الليلة ستصل الى الشارع دون اي ضجيج او اية عقبة . عندئذ كان البارون دي باز سيأخذ على عاتقه تنفيذ ما تبقى من المغامرة ، اذ انه كان يملك بيتا ريفيا باسمه المستعار يقع في ضاحية من ضواحي باريس . ففي هذا البيت الذي لم تصل اليه أعين رجال البوليس ، كان ينوي البارون اخفاء الاسرة الملكية عدة اسابيع لكي تهرب بعدها خلال الحدود في أول فرصة مؤاتية . وبالاضافة الى ذلك فقد تمركز في الشارع عدة شبان ملكيين بواسل ذؤي عزم ، وهم مسلحون بمسدسات في جيوبهم ليصدوا المطاردين في حالة الاستنفار الذي يتبع اكتشاف الامر .

وكانت الساعة قد قاربت الحادية عشرة عندما غدت ماري انطوانيت واسرتها مستعدين لاتباع محرريهم . اية لحظة من اللحظات . ولقد كانوا يسمعون اقدام الجنود تقع ثقيلة على ارض ساحة السجن ، الا أن هذه المراقبة لم تكن لتخيفهم لانهم كانوا يعلمون ان وراء تلك الثياب العسكرية كانت تخفق قلوب صديقة . وكان ميشوني ينتظر اشارة واحدة تصدر اليه

من البارون دي باز ، ولكن فجأة هلع قلب الجميع خوفا ! ترى ماذا جرى ؟ ان ضربات عنيفة أخذت تقرع على باب السجن . ولابعاد كل شبهة فقد سمح للقادم بالدخول حالا . انه الاسكافي سيمون ، الذي اصبح الآن عضوا في مجلس العموم ، والذي كان ثائرا شريفا لا يمكن افساده ، ولقد اسرع متأثرا الى سجن « الهيكل » ليرى ما اذا كانت ماري انطوانيت لم تخطف بعد . ذلك ان دركيا أتاه ببطاقةذكر فيها ان ميشوني سيقوم بخيانة في هذه الليلة بالذات ، فبلغ سيمون الامر حالا الى مجلس العموم الذي لم يرد تصديق رواية خيالية كهذه . ألم يكن يستلم كل يوم مئات من الاتهامات المماثلة ؟ ومن ثم كيف يكون الامر ممكنا ، ما دام مائتان وثمانون رجلا يحرسون السجن ، وما دام يراقبه اوفر المفوضين اخلاصا ؟ ومهما يكن من امر ذلك فقد وكل سيمون هذه الليلة بمراقبة السجن بدل ميشوني . ولم يكد كورتاري يبصره حتى علم ان كل شيء قد انتهى . ومن حسن الطالع ان سيمون لم يكن يشتبه به ، فقال له بلهجة صديق الى صديقه : « لو لم أرك هنا ، لما كنت مطمئنا » ثم صعد الى البرج ليلتحق بميشوني .

وراح البارون دي باز ، الذي رأى مشروعه يفشل بسبب رجل واحد ، يتساءل طيلة ثانية اذا ما كان عليه ان يندفع وراء سيمون لكي يحرق له دماغه بطلقة من مسدسه . ولكنه لم يجد معنى لهذا العمل ، لان ضجة الطلق الناري ستجمّع حوله جميع رجال الحرس الآخرين ، وهكذا فقد اصبح اذن هرب السجينة مستحيلا ، وان كل عمل عنيف سيعرض حياته للخطر . لذلك فقد اصبح من الضروري الآن العمل من اجل الذين تسللوا الى السجن داخل ثياب عسكرية مستعارة ، لكي يخرجوا منه سالمين . فكان من شأن كورتاي الذي أحس بالخطر المداهم ، انه ألف مفرزة من شركائه ، ومن بينهم البارون دي باز ، ثم خرج بهم بهدوء تام الى الشارع . وهكذا نجا المتآمرون متخلين عن ماري انطوانيت .

اما سيمون فقد مضى يستجوب ميشوني حانقا ، مرغما اياه ان يمضي في الحال الى مجلس العموم ليقدم الشرح الكافي عن التهمة التي نسبت اليه. وكان ميشوني الخائن قد اخفى بسرعة ثياب التنكر ، فلم يبد عليه أي تأثر ، بل لقد تبع دون ما احتجاج هذا الرجل الخطر الى المحكمة المخيفة . ولكن ، وهذا ما يدعو الى الاستهجان ، فقد صرف مجلس العموم سيمون ببرودة ظاهرة . صحيح انهم مدحوا وطنيته وارادته الحسنة ويقظته ، ولكنهم أسمعوه انه رجل تخيلات ، مظهرين ان مجلس العموم لم يلتفت بجد الى هذه المؤامرة .

غير ان اعضاء البلدية في الواقع ، وهذا ما يسمح لنا بالقاء نظرة على دروب السياسة الملتوية ، قد أخذوا بعين الاعتبار محاولة الاختطاف هذه ، واهتموا لها اهتماما شديدا ، ولكنهم لم يشاؤوا ان تثار ضجة كبيرة حولها . والدليل على ذلك القرار المستغرب الذي طلبت فيه لجنة السلامة العامة من المدعي العام ، اثناء محاكمة ماري انطوانيت ، ان يلقى جناح الصمت على تفاصيل خطة الهرب الشهيرة التي اكتشفها سيمون . ولم يكن من الجائز التحدث الا عن الحدث الاساسي ، لان مجلس العموم كان يخشى من ان اذاعة التفاصيل بحذافيرها ، ستظهر للملأ الى اية درجة استشرى الفساد فسمّم خيرة ممثليه ، وهكذا فقد حفظ طيّ الكتمان ، طوال سنوات عديدة ، موضوع مسرحي من أشد مواضيع التاريخ غرابة .

ولكن اذا كان مجلس العموم قد أرعبه فساد اعضائه ، الشديدي الامانة كما كان يظن ، ولم يجرؤ على تقديم شركاء البارون دي باز الى المحاكمة ، فقد عزم على مضاعفة صرامته ، لكي يحول دون محاولات مماثلة من هذه المرأة الجسورة التي ما برحت تكافح بعناد لا يقهر من اجل استرداد حريتها . وكان اول أعماله انه عزل المفوضين المشبوهين تولان ولوبيتر من وظيفتيهما ، وأمر بمراقبة ماري انطوانيت كمتهمة ، فجاء عند الساعة الحادية عشرة ليلا ــ هوبير وهو أشد أعضاء المجلس وقاحة ، الى حجرتي ماري انطوانيت ومدام اليزابيت اللتين كانتا نائمتين منذ ساعة مبكرة دون ان تشكا بشيء ، واستغلّ استغلالا واسعا أمر مجلس العموم الصادر اليه بتفتيش الحجرات والاشخاص . واستمر التنقيب حتى الساعة الرابعة صباحا ، التنقيب في الغرف والثياب والاثاث والادراج . الا ان نتيجة هذه الابحاث كانت مخيبة للآمال ولا تدل على شيء : فقد وجدوا حقيبة جلدية حمراء مع بعض العناوين التي لا أهمية لها ، وغطاء قلم رصاص ، وقطعة من الشمع الذي يستعمل للاختتام ، وشخصين صغيرين ، وبعض تذكارات أخرى ، وقبعة قديمة للويس السادس عشر . ولقد تكرر البحث ولكن دون جدوى ، فماري انطوانيت ــ لكي لا تعرض اصدقاءها وشركاءها الى ما لا طائل تحته ــ استمرت طوال الثورة تحرق كل مستند كتابي ، غير تاركة أقل ذريعة للاتهام . ولشد ما اغتاظ مجلس العموم لعدم ضبطه هذه المكافحة الباردة في حالة جرم مشهود، وهو الذي كان مقتنعا بأنها لن تتخلى عن محاولاتها المستترة المستمرة ، لذلك فقد قرر ان يضربها في اكبر نقطة حساسة بالنسبة اليها : في عاطفتها الوالدية، موجها الضربة مباشرة الى قلبها . ففي اول شهر تموز ، بعد اكتشاف المؤامرة بأيام قليلة ، اصدرت لجنة السلامة العامة باسم مجلس العموم ، مرسوما

يقضي بفصل الفتى لويس كابيه عن والدته فصلا قاطعا لا يمكنه معه من اي اتصال بها ، « وبوضعه في آمن حجرة من سجن « الهيكل » ، محتفظة بحق تعيين مربٍ له ، ومعبرة عن ميلها الى الاسكافي سيمون الثائر الامين المجرب ، الذي لا يؤثر عليه المال ولا سبيل لاستدرار الشفقة لديه . اما هذا الاختيار فانه تعبير عن عرفان الجميل ليقظته الدائمة . وكان سيمون رجلا بسيطا من الشعب ، خشنا غليظا ، وبروليتاريا حقيقيا ، ولم يكن ذلك السكير الدنيء ، والمفترس السادي الذي يصوره الملكيون ، ولكن يا للحقد الكامن وراء اختياره مربّيا لولي العهد ! اذ ان هذا الرجل لم يقرأ في حياته كتابا واحدا ، وان رسالة وحيدة نعرفها من مخلفاته ، تدلنا على انه يجهل حتى قواعد الاملاء الاولى . ولكنه ثائر مخلص، ويبدو ان هذه الصنعة كانت كافية في سنة ١٧٩٣ لكي يكون المرء اهلا لان يمارس اية وظيفة كانت . ولا شك في ان مستوى الثورة الفكري قد انخفض فجأة منذ ستة اشهر ، اي منذ بُحث في الجمعية الوطنية أمر تعيين « كوندورسيه » المؤلف المرموق لكتاب « تقدم الفكر البشري » ، مربيا لولي العهد . ان الفرق مريع . ولكن وان كان الشعار « حرية ، مساواة ، إخاء » ما زال قائما ، فان لفظي « حرية وإخاء » ، منذ ان اخذت لجنة السلامة العامة والمقصلة يعملان ، قد فقدا مدلولهما كما فقدت قيمتها الاوراق النقدية التي كانت سائدة في العهد الملكي وظلت فكرة المساواة وحدها ، اي فكرة خفض المستويات بالقوة ، هي السائدة في المرحلة الاخيرة ، المرحلة الفظة الراديكالية من الثورة . وان اختيار الاسكافي سيمون مربيا لولي العهد هو اعتراف بأن قادة الثورة لا يريدون ان يصنعوا من الفتى رجلا مهذبا او مثقفا ، بل فردا عاديا عليه ان يعيش في ادنى واجهل طبقة من المجتمع ، لان من الواجب عليه ان ينسى تماما اصوله ، جاعلا الآخرين ينسون ذلك بسهولة .

وكانت ماري انطوانيت لا تشك بان مجلس الثورة قد عزم على ابعاد ابنها عن عنايتها الوالدية ، عندما جاء ستة مبعوثين ، فقرعوا على باب سجن « الهيكل » : انها طريقة هيبير المفضلة ، طريقة المفاجآت القاسية ، حين يقوم بدوراته التفتيشية دون ان يعلن عنها مسبقا ، فيظهر هكذا ظهورا طارئا اثناء الليل . وكان الصبي نائما منذ وقت مبكر جدا ، الا ان امه ومدام اليزابيت كانتا مستيقظتين . وعندما دخل رجال البلدية ، وقفت ماري انطوانيت حذرة ، لانها تعلم ان كل زيارة من تلك الزيارات الليلية كانت تأتيها بضروب اتضاع جديدة او بأنباء سيئة . اما هذه المرة فقد كان مفوضو البلدية مرتبكين

هم انفسهم ، لان اكثرهم كانوا آباء ، وهم يشعرون بقسوة واجبهم عندما يبلغون أماً ان لجنةِ السلامة العامة تأمرها بأن تسلم ابنها الوحيد في الحال والى الابد ، الى ايد غريبة ، دون اسباب ظاهرة ، ودون ان يترك لها المجال الكافي لتوديعه .

واننا لا نملك رواية عما جرى في هذه الليلة بين الام المتألمة المغتاظة والمفوضين ، غير رواية ابنة ماري انطوانيت الشاهدة العيانية الوحيدة ، وهي رواية لا يمكن اخذها بعين الاعتبار . فهل صحيح ، كما تروي دوقة أنغوليم المستقبلة ، ان ماري انطوانيت قد ترجت باكية هؤلاء الرجال الذين لم يكونوا سوى موظفين ينفذون قرارا ، بأن يتركوا لها ولدها ؟ وانها صرخت بهم ان يقتلوها قبل ان يسلبوها ابنها ؟ وان المفوضين قد هدّدوها (وهذا ما لا يصدق لان سلطتهم لم تكن تصل الى هذا الحد) بأنهم سيقتلون الصبي وشقيقته الاميرة ، اذا امعنت في مقاومتهم وقتا طويلا ؟ وان هؤلاء المفوضين ، بعد معركة عنيفة دامت عدة ساعات ، قد اقتادوا اخيرا ، بفظاظة بالغة ، ولي العهد وهو يجهش باكيا ؟ ان التقرير الرسمي لا يذكر شيئا من هذا ، كما ان المفوضين يزينون المشهد قائلين : « لقد تم الانفصال مع العاطفة المنتظرة في مثل هذا الظرف ، حيث وفق ممثلو الشعب بين مراعاة الموقف وصرامة السلطات الموكلة اليهم . »

هنا فريقان مختلفان ، وطريقتان متناقضتان في عرض الحوادث ، لان التحيز مسيطر على الفريقين ، وانه لمن النادر ان تنطق الحقيقة حيث يكون التحيز . ولكن هناك شيء لا يرقى اليه الشك : ان هذا الانفصال القاسي الشرس لا مبرر له كان حادثا قاسيا في حياة ماري انطوانيت ، ولعله كان اقسى حادث في حياتها على الاطلاق ، لان الام كانت متعلقة بنوع خاص بهذا الصغير الاشقر ، الفائض الحيوية ، المبكر النضج ، ولان هذا الصبي الذي كانت تريد ان تصنع منه ملكا ، كان وحده يساعدها ، بمرحه وجذله وفضوله المتيقظ دائما ، على تحمل ساعات العزلة في البرج . لقد كان هذا الصبي ولا شك اقرب الى قلبها من ابنتها ذات الطبيعة القاتمة ، والوجه العابس ، والروح الكسول التي لا تحب ، والمزايا التافهة ، والتي كانت ابعد من ان توفر لحنان ماري انطوانيت الابدي الحيوية ، الغبطة التي كان يوفرها لها هذا الولد اللطيف الرقيق ، الذي جاؤوا ينتزعونه منها بطريقة فظة حقود .

وبالرغم من ان ولي العهد ظل يسكن في سجن « الهيكل » ، على بعد بضعة امتار فقط من برج ماري انطوانيت ، فقد قضى تعلق مجلس العموم بالشكليات تعلقا مفرطا لا يغتفر ، على الام بألا تبادل ابنها كلمة واحدة . وحتى

عندما علمت بأنه مريض مُنعت من رؤيته ، وظلت معزولة عنه كأنها مصابة بوباء الطاعون . كما انه منع عنها حق التكلم مع مربيه العجيب سيمون الاسكافي ، ورُفض اعطاؤها اية معلومات عن ابنها الوحيد . وهكذا كانت الام المنبوذة المرغمة على الصمت تعلم ان ابنها قريب منها ، ولكنها لا تستطيع الاتصال به الا بالفكر والقلب ، وهذا ما لا يقدر مرسوم على حرمانها منه .

واخيرا ــ ويا للتعزية الصغيرة البائسة ! ــ اكتشفت ماري انطوانيت انه بالامكان رؤية قسم من الساحة التي يأتي اليها ولي العهد احيانا ليلعب فيها ، وذلك من الطابق الثالث ، من نافذة صغيرة في سلم البرج ، فأخذت هذه المرأة الحزينة التي كانت تبسط سلطانها على المملكة بأسرها تتمركز هناك طيلة ساعات بكاملها ، واحيانا دون جدوى ، لعلها تلمح خفية شبح ابنها العزيز . اما الصبي الذي كان يجهل ان امه تراقبه من كوة ذات شباك والدموع تملأ عينيها ، وهي تتبعه في حركاته وسكناته ، فقد كان يلعب بحماسة وفرح ، اذ ماذا يعرف عن معنى المصير ولد في الثامنة من عمره ؟

وسرعان ما انسجم الصبي الصغير بمحيطه الجديد ، ناسيا بلامبالاته المرحة اصله ودمه الملكي واسمه . ولقد اصبح يغني بملء حنجرته الاناشيد التي كان سيمون ورفاقه يلقنونه اياها ، ولكنه لم يكن يفقه معناها . كما أنه كان يتسلى بارتداء قبعة الثورة الحمراء ، ويمزح مع الجنود الذين يحرسون امه ، أمه التي اصبح يفصله عنها لا جدار من الحجارة فحسب ، وانما عالم بأسره . وبالرغم من هذا ، فقد ظل قلب الام يخفق خفقانا شديدا ، كلما ابصرت ابنها الذي لا تستطيع ان تقبله الا بنظرتها ، لاعبا لاهيا بلا مبالاة تامة . ولكن اي مستقبل ينتظر هذا الصغير البائس ؟

ألم يكتب هيبير الذي وضع مجلس الثورة الصبي ، بلا شفقة ، بين يديه الحقيرتين ، ألم يكتب في جريدته الدنيئة الـ « بيردوشين » هذه الكلمات المهددة : « ايتها الامة المسكينة ! سيكون هذا الغلام الصغير شؤما عليك عاجلا ام آجلا . وإنه كلما بدا لك مضحكا سيكون مخيفا . فليُلق بهذا الافعوان الصغير وبأخته في جزيرة قاحلة ، لانه يجب التخلص منهما بأي ثمن كان . ومن ثم ما هي قيمة صبي عندما يتعلق الامر بسلامة الجمهورية ؟ »

ما هي قيمة صبي ؟ لقد أدركت الام ان لا قيمة له مطلقا بالنسبة لهيبير، لذلك فقد كانت تقشعر عندما لا ترى ابنها الحبيب يلعب في الساحة . ولذلك أيضا كانت ترتجف من الحنق العاجز كلما دخل حجرتها عدو قلبها الذي كان سببا في انتزاع ابنها منها ، والذي ارتكب أحقر جريمة خلقية : أي القسوة التي لا مبرر لها حيال امرأة مغلوبة على امرها . اما ان تضع الثورة مصير

ماري انطوانيت بين يدي هيبير ، الرجل الجبان الدعي ، فهذه صفحة قاتمة من تاريخها ، ومن الافضل لها ان تطوى . لان كل فكرة مهما بلغ نقاؤها ، إنما تصبح وضيعة عندما تمد أناسا هزيلين بسلطة تجعلهم يفقدون إنسانيتهم باسمهـــا .

وها هي الساعات تصبح طويلة الآن ، وها هي غرف البرج تبدو أكثر اربدادا ، منذ أن كف عن إنارتها ضحك الصبي . ولم يعد يصل من الخارج اي نبأ ، واية ضجة ، لان آخر الانصار قد اختفوا ، ولان الاصدقاء كانوا بعيدين يمكن الاتصال بهم . وكانت ثلاث نساء مجتمعات هناك يوما بعد يوم : ماري انطوانيت وابنتها ومدام اليزابيت ، ولقد انتهى منذ وقت طويل كل حديث بينهن ، وفقدن الامل ، ولربما الخوف ايضا ، وكففن عن النزول الى الحديقة الا فيما ندر ، وبالرغم من أن الوقت كان ربيعا بات يدنو من الصيف، فإن تعبا شديدا كان يخدر أعضاءهن . أما ماري انطوانيت فقد انطفأ شيء من وجهها خلال الايام الاخيرة من محنتها ، واذا ما تفحصنا رسما لها اخيرا ، من صنع رسام مجهول يرجع عهده الى ذلك التاريخ ، فإننا لا نعرف الا بصعوبة الملكة القديمة ، ملكة تمثيليات الغرام الريفي ، وإلهة الفنون التزيينية التي انتشرت في عهد لويس السادس عشر ، ومكافحة قصر التويلري التي كانت ما تزال ذات شموخ وعزم . ففي هذه اللوحة القاسية الحواشي ، تظهر ماري انطوانيت ، بمنديلها كأرملة ، وبشعرها المبيض من العذاب ، امرأة عجوزا بالرغم من ان سنها لم تتعد الثمانية والثلاثين ، ولقد اختفى الالق والحياة من عينيها اللتين كانتا قديما مشتعلتين بحيوية دافقة ، واصبحت الآن عيية وقد سقطت يداها التعبتان مستسلمتين ، وكأنها أصبحت الآن مستعدة لتلبي بطاعة عمياء كل نداء ، حتى وإن كان النداء الاخير . اما وجهها فقد حل فيه الحزن المتجلد محل الوسامة القديمة ، واللاإكتراث محل الاضطراب الذي كان يملأ كيانها . حتى أن هذا الرسم اذا ما شوهد من بعيد ، ليظن بأنه رسم راهبة ، أو رئيسة دير ، أو امرأة فقدت جميع رغائبها وشواغلها الارضية ، واصبحت تعيش في عالم آخر . ولم يعد الناظر اليه يشعر بسمات الجمال والشجاعة والقوة ، بل بعياء شديد عميق . فالملكة قد تنازلت عن عرشها ، والمرأة قد تخلت عن انوثتها ، ولم يبق منها سوى سيدة موقرة تعبة ، تسمو بنظرها الازرق الصافي الذي لم يعد يذهله شيء ، او يخيفه شيء .

كذلك ماري انطوانيت لم تخف عندما قرع على بابها بفظاظة ، بعد أيام قليلة ، في تمام الساعة الثانية صباحا . فبماذا يستطيع العالم ان يخيفها الآن

بعد ان سلب منها زوجها وابنها وحبيبها وتاجها وشرفها ؟ وهكذا فقد نهضت بهدوء ، وارتدت ثيابها ، ثم سمحت للمفوّضين بالدخول ، فقرأوا على مسمعها مرسوم مجلس الثورة ، الذي يقضي بنقل الارملة كابيه المتهمة الى سجن الكونسيرجري . فأصغت ماري انطوانيت بهدوء دون ان تجيب ، لعلمها ان تهمة محكمة الثورة معادلة للحكم بالموت ، وان سجن الكونسيرجري انما هو بالنسبة اليها كهف الاموات . ولكنها لم تتوسل ابدا ، ولم تجادل ابدا ، ولم تطلب إعطاءها مهلة ما . كما انها لم تفه بكلمة واحدة الى هؤلاء الرجال الذين أقبلوا وسط الليل ليفاجئوها بهذا الخبر ، وكأنهم جماعة من السفاحين . وعندما أرادوا تفتيش ثيابها استسلمت دون ما اكتراث ، فأخذوا كل ما عليها ، ولم يتركوا لها غير منديل وزجاجة ملح . وها هي الآن مضطرة الى توديع اقرب الناس اليها : اي ابنتها ومدام اليزابيت شقيقة زوجها . وهي تعلم انه الوداع الاخير ، ولكنها اعتادت ان ترى الانفصال شيئا عاديا .

عندئذ اتجهت ماري انطوانيت ، بثبات وقامة مستقيمة ، ودون أن تلتفت الى الوراء ، اتجهت نحو باب حجرتها ، واخذت تنزل على الدرج بسرعة ، رافضة كل مساعدة . ولقد كان ترك زجاجة الملح لها بلا فائدة ، لانها لن تخور ، بسبب قوّتها الداخلية التي تشدّد من عزمها . فهي قد تحملت منذ زمن طويل أقسى الاشياء ، ولا شيء يمكنه أن يفوق مضاضة الحياة التي قاستها في الاشهر الاخيرة ولا شك في أن ما ينتظرها هو أخفّ وطأة عليها ، اذ ان الذي ينتظرها هو الموت . وها هي تندفع اليه ، متمنية بفارغ صبر ان تخرج من هذا البرج المليء ذكريات مرعبة ، ولما كانت لا تفكر بإحناء قامتها (ولعل الدموع أيضا كانت تحجب بصرها) فقد اصطدم جبينها بخشبة من اخشاب السلم . فتراكض المفوّضون يسألونها ما اذا كانت قد أصيبت بألم ، ولكنها أجابت بهدوء : « كلا ! لا شيء يؤلمني بعد الآن ! »

٣٥ ـ سجن الكونسيرجري

في تلك الليلة أوقظت أيضا امرأة أخرى هي مدام ميشار زوجة حارس السجن ، وقد طلب اليها فجأة وفي ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم ، ان تهيىء زنزانة خاصة لماري انطوانيت . ان ماري انطوانيت نفسها ، ملكة فرنسا ، ستأتي الى كهف الاموات ، بعد ان سبقها اليه الدوقيّة والامراء والكونتية ورجال الدين والبرجوازيون والضحايا من مختلف الانواع .

فارتعدت مدام ميشار لهذا الخبر ، ذلك ان كلمة « ملكة » عند امرأة من عامة الشعب ، كانت ما تزال ترن ّرنين جرس ضخم موحية بالاحترام .

ملكة ! الملكة تحت سقفها ! واسرعت مدام ميشار تبحث عن الاغطية الاكثر بياضا ونعومة ، واجبر الجنرال « كوستين » قائد معركة مايانس المنتصر ، والذي كان بدوره ينتظر المقصلة ، على ان يترك غرفته المقفلة الابواب والنوافذ بالحديد ، لكي تعطى للزائرة الجديدة . وبسرعة رُتبت حاجيات الملكة البسيطة : سرير مشدود بسيور الجلد، وفراشان، وكرسيّان، ووسادة ، وغطاء رقيق ، ووعاء ، وبساط عتيق يُغطى به الجدار الرطب : هذا كل ما تستطيع الحارسة أن توفره للملكة . وها قد أصبحت هذه الاشياء منتظرة في هذا البناء الحجري القابع نصفه تحت الارض .

وعند الساعة الثالثة صباحا سُمع صوت عربة ، ثم دخل في الدهليز المظلم الدركيون أولا وبأيديهم المشاعل ، ودخل وراءهم ميشوني الذي استطاع بدهائه ان يتخلص من قضية البارون دي باز، وان يحافظ على مركزه كمفتش عام للسجون . وظهرت وراءه من خلال الضوء المرتعش ماري انطوانيت متبوعة بكلبها الصغير ، الكائن الحيّ الوحيد الذي سُمح لها بأخذه معها الى السجن . وأدخلت ماري انطوانيت الى زنزانتها ، وقد اعفيت من الشكليات البيروقراطية المتبعة عادة في السجون ، ذلك ان الوقت كان متأخرا ، ولكي لا يظهر كتمثيلية مضحكة ان تعامل الملكة كما لو ان من في الكونسيرجري لا يعرفون من هي ماري انطوانيت . ثم إن خادمة السجن « روزالي لامورلير » ـ الفتاة الريفية المسكينة التي تجهل الكتابة ، والتي نحن مدينون لها مع ذلك بأكثر الروايات صحة وتأثيرا عن تلك الايام السبعة والسبعين الاخيرة من حياة ماري انطوانيت ـ تبعث بشيء من الرهبة تلك المرأة الشاحبة ، المتشحة بالسواد ، تريد مساعدتها على نزع ثيابها . الا ان ماري انطوانيت اجابتها قائلة : « شكرا يا بنتي ، فأنا اقوم بخدمة نفسي منذ لم يبق لي احد » . وبدات بتعليق ساعتها على الحائط ليتسنّى لها معرفة الوقت القصير جدا ، واللامتناهي الذي بقي لها ان تعيش ، ثم نزعت عنها ثيابها واستلقت على السرير . هنا دخل دركي يحمل بندقيته المحشوّة ، فأغلق الباب ، ليبدأ آخر مشهد من تلك المأساة الكبيرة .

ومن المعروف في باريس والعالم اجمع ان الكونسيرجري هو السجن المخصص للمجرمين السياسيين الخطرين جدا ، وأن مجرّد ادراج اسم في سجل الدخول اليه يعتبر وثيقة وفاة . اذ يمكن للسجين ان يخرج حيا من سجن لازار ، أو الكارم ،او الابيّي ، ومن كل السجون ، اما من الكونسيرجري

فان هذا من المحال الا في حالات نادرة تماما . وتعلم ماري انطوانيت ، والناس جميعا يعلمون علما قاطعا ، ان الانتقال الى كهف الموت هو عبارة عن أول خطوة من رقصة الموت التي ستجري . ولكن مجلس الثورة لم يكن في الواقع ليستعجل محاكمة هـذه الرهينة الثمينة ، لان سجن مـاري انطوانيت الاستفزازي لم يكن سوى لسعة السوط التي من شأنها أن تسرع بالمفاوضات الجارية مع النمسا ، والتي كانت تطول مع الزمن ، انه حركة تهديد تعني « أسرعوا » ، وبعبارة موجزة كان ذلك بمثابة ضغط سياسي ــ وفي الواقع فان الاتهام الذي نودي به في المجلس علنا ، تُرك الآن ينام نوما هادئا .

وبعد ثلاثة أسابيع من هذا الانتقال المؤلم ، الذي أحدث بطبيعة الحال صرخة فزع في الصحف الاجنبية (وهذا ما كانت ترجوه بالفعل لجنة السلامة العامة) لم يكن بعد لدى المدعي العام « فوكيه تنفيل » أي مستند للمحاكمة . وبعد ان أعلنت دقة النفير الكبرى لم تعد قضية ماري انطوانيت موضع أي نقاش عام لا في مجلس الثورة ولا في مجلس العموم . الا أن هيبير كلب الثورة المقيت ، كان ما يزال ينبح هنا وهناك في صحيفة الـ « بير دي شين » قائلا : « يجب أيضا أن تجرب انشوطة المشنقة على عنق العاهرة ... وعلى الجلاد أن يلعب لعبة الكرة برأس الذئبة » . ولكن لجنة السلامة العامة التي تنظر الى أبعد من ذلك ، كانت تتركه بهدوء يدلي بحججه قائلا : « أيُبحث عن الظهر في الساعة الرابعة عشرة لمحاكمة النمرة النمساوية ، وتطلب من المستندات للحكم عليها في حين انها لو انصفت لقطع جسمها إربا إربا ، جزاء الدماء التي اريقت بسببها ! »

كل هذه الصرخات ، وهذا السباب لم تؤثر في شيء على الخطط السرية للجنة السلامة العامة التي لم تكن لتهتم الا بسير الحرب . إن أيام تموز كانت سيئة الطالع على الجيش الفرنسي ، وقد يكون بقاء الملكة على قيد الحياة ذا فائدة جليلة ، لان الحلفاء كانوا على أهبة الزحف على باريس . ليصرخ اذن هيبير وليغضب ما طاب له أن يفعل ! إن موقفه هذا على كل حال من شأنه أن يمهد لفكرة اعدام قريب : ذلك أن مصير ماري انطوانيت قد بات في الواقع معلقا ، فلا يُطلق سراحها ، ولا ينفذ حكم الاعدام بها ، وإنما يسلط السيف فوق رأسها ، ويظهر من وقت لآخر بريق حدّه ، لان من المؤمل ان يهاب آل هابسبورغ فيرغموا على التفاوض . ولكن نبأ وضع ماري انطوانيت في سجن الكونسيرجري لم يؤثر مع الاسف في عائلتها . وبنظر « كونيتز » لم تكن ماري انطوانيت ذات أهمية بالنسبة لسياسة آل هابسبورغ ، الا مدة بقائها ملكة لفرنسا . أما فيما بعد فلم تثر هذ الملكة المعزولة التي أصبحت مجرد

امرأة عادية اهتمام الوزراء والجنرالات والاباطرة اطلاقا : فالدبلوماسية فوق العاطفة ! ولم يكن هناك سوى واحد أصابه النبأ في صميمه،ولكنه كان غير قادر على اتيان اي شيء مطلقا ، انه فرسن الذي كتب بيأس الى شقيقته قائلا : « عزيزتي صوفيا ، يا صديقتي الوحيدة ، لا بد وأنك تعلمين الآن مصيبتنا الكبرى بنقل الملكة الى سجن الكونسيرجري ، وبقرار ذلك المجلس البغيض الذي سلمها الى محكمة الثورة توطئة لمحاكمتها . منذ تلك الهنيهة وأنا لا أحيا الا حياة كدر وعذاب . آه لو كان باستطاعتي أن أعمل شيئا لنجاتها ، اذن لكان عذابي أخف مما هو عليه الآن ! انك الكائن الوحيد الذي بمستطاعه مشاطرتي شعوري ، فقد انتهى كل شيء بالنسبة لي ، بيد أن احزاني لا نهاية لها ، والموت وحده يمكنه ان ينسيني اياها . كم أود ان افتدي خلاصها بحياتي ، ولكن هذا محال . إن أقصى سعادتي هي أن اموت لأجلها ولأجل خلاصها » . وبعد عدة أيام كتب لها أيضا يقول : « انني غالبا ما أوبخ نفسي حتى على الهواء الذي اتنشقه عندما افكر بأنها سجينة في سجن بغيض . ان هذه الفكرة لتمزق قلبي وتسمم حياتي . وانني دوما فريسة الالم والغضب» .

ولكن من تراه يكون فرسن المسكين بنظر هيئة الاركان ذات الحول والطول ؟ وما شأنه بنظر السياسة الكبرى الحكيمة السامية ؟ لذلك لم يكن له أي قدرة سوى التعبير بتوسلات غير مجدية عن غضبه واشمئزازه ويأسه ، وعن الثورة الجهنمية المستعرة في أعماقه ، وسوى السعي الى ردهات الانتظار ، راجيا العسكريين ورجال الدولة والامراء والمهاجرين الواحد بعد الآخر ، الا يشهدوا بلا مبالاة إذلال ومقتل ملكة فرنسية واميرة من آل هابسبورغ . الا انه ، اينما ذهب ، كان يُستقبل ببرودة ناعمة ، حتى ان مرسي المخلص نفسه كان يبقى كالثلج تجاهه ، ويرفض باحترام ، ولكن بصورة قاطعة ، كل تدخل من قبل فرسن ، متأثرا مع الاسف بحقد شخصي ، لان السفير القديم لم يكن ليغفر أبدا لفرسن انه كان مع الملكة حميم العلاقة بشكل هو اكثر مما كانت آداب البلاط تسمح به . وعندما رأى فرسن أن مرسي يرفض استقباله ، توجه الى صديق مخلص للأسرة الملكية هو الكونت دى لامارك الذي رأيناه فيما سلف يقود المفاوضات مع ميرابو . فلاقى هنا تفهما اكثر انسانية ، اذ توجه الكونت الى مرسي الشيخ مذكرا اياه بالوعد الذي قطعه لماري تيريز منذ ربع قرن ، بأن يسهر على ابنتها حتى اللحظة الاخيرة . فكتب الاثنان على طاولة مرسي نفسه ، للامير « دي كوبورغ » القائد العام للقوات النمساوية ، كتابا حازما ورد فيه قوله : « لقد امكننا السكوت حين لم تكن حياة الملكة مهدّدة بالخطر ، خيفة إيقاظ غضب البرابرة المحيطين بها ،

اما اليوم وقد سلمت الملكة الى محكمة دموية ، فان كل خطوة توحي بأمل انقاذها ستكون عليك بمثابة واجب » .

وطلب مرسي بايعاز من لامارك تقدّما فوريا وسريعا نحو باريس ، تقدما من شأنه أن يلقي الذعر فيها ، موعزا باهمال كل عملية حربية أخرى غير هذه العملية التي ترتدي طابع الاهمية القصوى . ويقول مرسي في رسالته : « دعني فقط أكلمك عن الاسف الذي سنشعر به يوما ببقائنا مكتوفي الايدي في مثل هذا الظرف . أمن الممكن للاجيال المقبلة ان تصدّق ان جريمة كهذه قد ارتكبت على مسافة قريبة من جيوش النمسا وبريطانيا الظافرة ، دون ان تقوم هذه الجيوش بأي جهد للحؤول دونها ؟ » ولكن هذا النداء في سبيل انقاذ ماري انطوانيت في الوقت المناسب قد ُوجّه مع الاسف الى رجل ضعيف وبليد بشكل مريع ، فأجاب هذا الامير المعروف بعدم جدارته قائلا : « انه اذا ما ارتكب أي عنف ضد شخص جلالة الملكة ، فان السلطة النمساوية ستعدم فورا مفوضي مجلس الثورة الاربعة الذين أوقفتهم منذ عهد قريب » . فذعر مرسي ولامارك المعروفان بذكائهما وثقافتهما عندما علما بهذه البلاهة ، وتحققا من ان المفاوضات مع ابله كهذا لا يمكن ان تفضي الى نتيجة . لذلك عاد لامارك فألحّ على مرسي بأن يكتب في الحال الى بلاط فيينا ، قائلا له : « ابعث فورا برسالة اخرى الى البلاط الذي عليه ان يشعر بالخطر الذي يتهدد حياة ماري انطوانيت ... كم سيكون معيبا بالنسبة للحكومة الامبراطورية ان يقول التاريخ يوما : « لقد قتلت ابنة ماري تيريز العظيمة على المقصلة ، وعلى بعد اربعين فرسخا من جيوش نمساوية عظيمة ومظفرة دون ان يقام بأية محاولة لانقاذها . انها ستكون لطخة عار لا تمحى في عهد امبراطورنا » .

ولكي يثير لامارك همة الشيخ مرسي المتواني ، فقد ضمّ الى رسالته له تحذيرا شخصيا . فحزم الشيخ مرسي امره اخيرا وكتب الى فيينا قائلا : « اني لأتساءل اذا كان من شرف الامبراطور ، ومن مصلحته ان يقف متفرجا على مصير عمته العظيمة، دون ان يتحرك لدفع الاذى عنها. أليس للامبراطور في هذه الظروف ما يستطيع ان يؤدي به واجبا ضروريا ؟ يجب الا يغيب عن بالنا أن سلوك حكومتنا الذي تتخذه في هذه الحالة سيحكم عليه يوما من الايام بأنه موقف انهزامي . أولا يُخشى اذن من قسوة هذا الحكم اذا ثبت ان ملكة فرنسا كانت في موقف الخطر هذا دون ان يقوم صاحب الجلالة بأية محاولة او تضحية لانقاذها ؟ »

ولكن حظ هذه الرسالة الجريئة كان تعيسا ، لانها وضعت ببرودة في ملف من ملفات مكاتب الامبراطورية ليعلوها الغبار دونما اجابة عليها . ولم

يبد الامبراطور فرنسوا اية محاولة للقيام بما جاء فيها ، ولم يرفع اصبعه ليحاول انقاذ عمته . فظل يتنزه بهدوء في « شو نبرون » وظل كوبورغ ينتظر دون حراك في مقرّه الشتوي ، حيث كان يأمر بتدريب جنده تدريبا عنيفا انزل بهم من الضحايا إكثر من اية معركة دموية . اما السادة الباقون فقد ظلوا هادئين دون اكتراث أو مبالاة . فماذا يهم بيت آل هابسبورغ التليد او يضره اذا ما اضيف الى مآثره او انقص منها نزر يسير ؟ وهكذا لم يتحرك احد لانقاذ ماري انطوانيت ، فكتب مرسي في ثورة من الغضب المفاجىء ، وبحرقة مريرة قائلا : « ما كانوا لينقذوها حتى وان شاهدوها بأم أعينهم صاعدة الى المقصلة » .

وعندما انقطع الامل من الاعتماد على كوبورغ ، وعلى النمسا والامراء والمهاجرين والعائلة المالكة ، لجأ مرسي وفرسن الى الوسيلة الاخيرة : الرشوة. فأرسلت الدراهم بوحي منهما الى باريس بواسطة معلم الرقص « نوفير » وصراف آخر غير امين . ولكن احدا لم يعلم شيئا عن الايدي التي استلمتها . فقد جرت المحاولة بادىء الامر للاتصال بدانتون الذي يعرف الجميع حبه للمال . وانه لشيء مدهش ان تصل محاولة الشراء الى هيبير بالرغم من ان هذا الاتهام يفتقر الى البراهين، كما هي الحال غالبا في جميع مسائل الرشوة. ومما يثير العجب حقا ان هذا المتشدّق الذي لم يكن منذ شهور يكفّ عن الثرثرة لكي يسقط راس « العاهرة » ، اخذ يطالب فجأة بإرجاع ماري انطوانيت الى سجن الهيكل . ولكن من يستطيع التكهن الى اي مدى وصلت تلك المساومات الخفية ؟ جل ما نعرفه ان العمل جاء متأخرا بالرغم من وجود الذهب . وفيما كان اصدقاء ماري انطوانيت النابهون ، يحاولون انقاذها ، كان شخص آخر يدفع بها الى الهاوية بتصرفه الاخرق ، فكان من شأن اصدقائها ان يكونوا مرة اخرى ، كما حدث ذلك مرارا في حياتها ، اكثر شؤما عليها من أعدائها .

٣٦ ــ المحاولة الاخيرة

بين جميع سجون الثورة ، كان سجن الكونسيرجري ــ الكهف المعد لانتظار الموت ــ يخضع لاقسى الانظمة . ان هذا النبأ القديم من الحجر ، بجدرانه التي لا تخرق ، وابوابه الصفيقة المصفحة بالحديد ، ومعابره المسدودة بالمتاريس ، ونوافذه المشبكة ، والمحاط بالخفراء من كل صوب ، يصحّ ان يحمل فوق عتبته عبارة دانتي المحفورة على باب الجحيم : « لا أمل

بالخروج منه » ، لان نظاما صارما جُرب فيه طيلة سنين وشدّد بعد حملة الاعتقالات بالجملة التي جرت في عهد الارهاب ، كان يجعل كل اتصال بالعالم الخارجي أمرا مستحيلا ، فلا يمكن لاية رسالة ان تنقل الى الخارج ، ولا يُسمح فيه للزيارات الغريبة أو القريبة ، لان فصيلة الحراسة هنا لا تتألف من حراس هواة ، كما كانت عليه الحال في سجن الهيكل ، بل من سجانين ممتهنين متيقظين لكل حيلة ، فضلا عن الجواسيس والوشاة المحترفين المندسين بين السجناء ، والذين يعلمون السلطات مسبقا بكل محاولة فرار. ولكن التعزية الذاتية في مثل هذه الحال ، هي ان الفرد الحازم الصلب قد ينتهي دائما على وجه التقريب ، حيال كل قوة جماعية ، الى التغلب على أي نظام ، فالكائن الانساني ، اذا ما رسخت ارادته ، قد يظهر على جميع الانظمة. وكذا كان شأن ماري انطوانيت ، فبعد مضي أيام قلائل ، صبح كل اولئك المنوط بهم أمر مراقبتها ، بفضل ذلك السحر الغريب الذي يصدر عن اسمها ونبل موقفها ، اصبحوا اصدقاء لها وخدما وشركاء . فامرأة حارس السجن التي لم تكن مكلفة بأكثر من كنس غرفتها ، وإعداد طعام عادي لها ، كانت تخصها بأحسن الاطعمة ، وتقوم على تزيينها ، وتأتيها كل يوم من طرف المدينة القصيّ بالماء الذي تفضله . وكانت خادمة السجن تنتهز كل فرصة سانحة لكي تنسلّ الى قرب السجينة مقدمة لها خدماتها . أما رجال الدرك ، ذوو الشوارب المعقوفة بصلابة ، والسيوف العريضة المصلصلة ، والبنادق المحشوّة دائما ، والذين كان عليهم منع كل تساهل مع السجينة ، فماذا تراهم كانوا يعملون ؟ لقد كانوا معظم الايام يشترون بخالص أموالهم زهورا يقدمونها الى ماري انطوانيت لكي تزين بها حجرتها الحزينة . والحق ان الاشفاق الكبير على هذه المراة ، التي كانت مكروهة في عز أيامها السعيدة ، كان يؤثر في الشعب الذي يقدر معنى الشقاء أكثر من تأثيره في البورجوازية . فنساء السوق عندما كن يعلمن من مدام ريشار أنها تريد دجاجة أو بقولا « للملكة » كن يخترن لها باعتناء أجود الاصناف . حتى ان « فركييه تانفيل » حُمل على الاستنتاج ، بكثير من الدهش ، بأن حياة ماري انطوانيت هي أوفر رغدا في سجن الكونسيرجري مما كانت عليه في سجن الهيكل . ذلك أنه حيثما يسيطر الموت بقساوة أشد ، تنمو لدى الانسان ــ كدفاع لاشعوري عن النفس ــ مشاعره الانسانية ، أكثر فأكثر .

وقد يلوح عجيبا لاول وهلة ان تجري مراقبة سجينة دولة ، خطيرة كماري انطوانيت ، بقليل من الدقة والحذر بعد محاولاتها السابقة للفرار . على أننا قد ندرك أشياء كثيرة حالما نتذكر ان مفتش السجن الرئيسي كان

بائع « الليموناضة » القديم ميشوني ، شريك مؤامرة سجن الهيكل : فالبريق الخلاب لملايين « البارون دي باز » كان يشعّ حتى من خلال جدران « الكونسيرجري » ، وكان ميشوني لا يزال يلعب بجراة دوره المزدوج ، فيتردد كل يوم ، دقيقا وامينا لواجبه ، الى زنزانة ماري انطوانيت ، ويهز قضبان الحديد، ويتفحص الابواب، ثم يقدم للادارة تقريرا مسهبا عن زيارته. لكنه كان في الواقع ينتظر انصراف الدركي لكي يتحدث بمحبة الى السجينة ، ناقلا اليها الاخبار المشوقة عن ولديها . وكان من وقت الى آخر ، أثناء قيامه بتفتيش السجن ، يُدخل خلسة ، اما طمعا بالمال واما عن طيبة قلب ، شخصا فضوليا يرغب في رؤية الملكة : انكليزيا مثلا ، أو انكليزية كتلك السيدة الغريبة أتكنس ، أو الكاهن غير المحلف الذي تقبّل اعتراف السجينة الاخير ، أو ذلك الرسام الذي ندين له بصورة المتحف كرنفاليه ، واخيرا ذلك الرجل الارعن الجريء الذي قضى باندفاعه المفرط على كل تلك الحريات والامتيازات بضربة واحدة .

ان تلك القضية الشهيرة « قضية القرنفلة » التي أمدت الكسندر ديماس فيما بعد بحبكة رواية طويلة ، هي قصة غامضة قد لا ننجح ابدا في أن نكشف عن حقيقتها كشفا تاما . لان ما تقوله اوراق المحضر لا يكفي لانارة ابصارنا ، ولان ما يرويه بطل القصة انما هو ضرب من الهذيان . واذا ما رحنا نصدق المجلس البلدي أو مفتش السجون ميشوني ، لغدت القصة مجرد حادث عرضي لا أهمية له . فقد ادعى ميشوني انه أثناء حديثه عن ماري انطوانيت في عشاء عند احد الاصدقاء ، ناشده رجل يجهله وألح عليه بأن يرافقه يوما الى السجن . ولما وطن ميشوني نفسه على هذا العمل لم يرَ ضرورة في استيضاح أمر الرجل ، فاصطحبه معه في احدى دوراته التفتيشية ، بعد ان وعده طبعا بألا يوجه اية عبارة الى ماري انطوانيت .

ولكن هل كان ميشوني ــ موضع ثقة البارون دي باز ــ بسيطا الى هذه الدرجة ، كما يريد ان يظهر ؟ الم يحاول حقا معرفة ذلك الرجل المجهول الذي سيدخله خلسة الى « الكونسيرجري » ؟ لو أراد ميشوني لعرف دون كبير جهد ان ذلك الرجل هو صديق ماري انطوانيت ، الفارس روجفيل ، أحد الاشراف الذين عرضوا بحياتهم دفاعا عنها في العشرين من حزيران (جوان) . ولكن شريك البارون دي باز في مؤامرته السابقة كان يملك مبررات حقيقية كي لا يذهب بعيدا في سؤاله عن نوايا الرجل المجهول . ومما لا شك فيه ان التآمر السري لانقاذ الملكة كان قد بلغ شأوا بعيدا ، يتعدى كافة الوقائع المعروفة .

ومهما يكن من الامر، فقد دمدمت في الثامن والعشرين من آب (اغسطس) كتلة من المفاتيح على باب السجينة ، فهبّ الدركي وماري انطوانيت التي كانت تخاف كل مرة يُفتح فيها باب السجن بفتة ، لانها كانت تتوقع اخبارا مشؤومة عند كل زيارة غير منتظرة من قبل السلطات لها . غير ان القادم لم يكن غير ميشوني ، الصديق السري ، يصحبه اليوم رجل مجهول لم تعره أي اهتمام . عندها أحست ماري انطوانيت بشيء من الراحة ، واخذت تتحدث الى المفتش وتسأله عن ولديها اللذين كانا دائما محط آمالها . وكان ميشوني يجيبها بتحبب ، وهي في حالة اشراق تقريبا ، لان تلك الدقائق القلائل التي كان يُحطم فيها السكون الكئيب ، وتستطيع أثناءها ان تلفظ أمام احد ما اسمي ولديها ، كانت دائما تبعث في نفسها نوعا من السعادة .

وبغتة علا الشحوب وجه ماري انطوانيت لمدة ثانية ، ثم عاد الدم فطفر الى وجهها، وأخذت ترتجف، وهي لا تكاد ان تتمالك نفسها . فالمفاجأة كبيرة : لقد عرفت روجفيل الرجل الذي كان دائما الى جانبها في القصر ، والذي يستطيع سرا الاقدام على أية مغامرة جريئة . فما يعني ــ والوقت جد قصير لكي تشتط في تخيلها ــ حضور هذا الصديق المتفاني الى زنزانتها ؟ أيريد انقاذها ؟ وان يقول لها أو يعطيها شيئا ؟ انها لم تجرؤ على ان تكلم روجفيل ، ولم تجرؤ حتى على اطالة النظر اليه خوفا من الدركي وامرأة السجان . ومع ذلك فقد أبصرت انه لا ينفك يشير اليها دون انقطاع اشارات لم تفهم فحواها. انها سعيدة ومنقبضة في ذات الوقت ، اذ ان رسولا يأتيها بشيء بعد شهور طويلة ، ولكنها لا تدركْ معنى رسالته . وازداد قلق المرأة التعيسة ، كما ازداد خوفها من ان تخونها مشاعرها . وقد يكون ميشوني قد لاحظ ارتباكها ، وتذكر بأن عليه ان يكشف على زنزانات أخرى ، فترك فجأة المكان مع صاحبه المجهول ، مصرحا بأنه سوف يعود ثانية .

وعندما أصبحت ماري انطوانيت وحيدة جلست وركبتاها مصطكتان ، جاهدة ان تستجمع أفكارها المشتتة ، ولقد قررت ان تكون حال رجوعهما أكثر ثباتا وانتباها ، وبأن تلحظ جيدا كل حركة أو اشارة . وبالفعل فقد عادا ، وقلقلت المفاتيح ثانية ، ودخل ميشوني مع روجفيل . وكانت ماري انطوانيت هذه المرة تملك أعصابها تماما ، فترقب روجفيل بكثير من الهدوء ، وهي تتحدث الى المفتش ، وبكثير من اليقظة والانتباه . وبغتة ، لاحظت إثر إشارة سريعة ، ان روجفيل قد رمى شيئا خلف « الوجاق » . فأخذ قلبها يدق ، متشوقة الى قراءة الرسالة . وما ان ترك الزائران المكان حتى صرفت الدركي بحجة ما ، وهمت بالتقاط الشيء المرمى . ولكنها ماذا وجدت ؟ لا شيء غير قرنفلة ! بلى ، هناك ورقة مطوية داخل القرنفلة . ففتحتها وقرأت :

« حاميتي ، انا لن انساك أبدا ، وانني ابحث جاهدا عن الوسيلة التي تمكنني من اظهار تعلقي بشخصك . واذا كنت بحاجة الى ثلثماية أو أربعماية ليرة ذهبية لهؤلاء الذين يحيطون بك فسوف أحضرها لك يوم الجمعة القادم . »

لنتصور الآن في اية حالة ُوجدت المراة التعيسة أمام هذا الامل العجيب . لقد انشقت مرة أخرى ، تلك القبة الكالحة أمام ناظريها ، كأن الذي شقها سيف ملاك . فبالرغم من جميع المحاذير ، وجميع تدابير مجلس العموم ، استطاع فارس من خاصتها ، وصديق ملكي موثوق به ، ان يدخل كهف الاموات المخيف المنيع الموصد الابواب . ومن الواجب ان يكون الخلاص قريبا الآن . ان يدي فرسن بلا شك هما اللتان حاكتا هذا التآمر السري الذي يخفي وراءه شركاء قديرين مجهولين جدا ، والذي سينقذها بعد ان أصبحت قاب قوسين من الهوة . وفجأة اخذت الشجاعة وارادة الحياة تعصفان من جديد في خافق هذه المراة التي كانت قد اخلدت الى السكينة .

وكانت ماري انطوانيت في هذه اللحظة شجاعة واثقة من ذاتها ، ولكن شجاعتها وثقتها قد بلغتا مع الاسف درجة مفرطة ، ولقد أدركت على التو ان الثلثماية او الاربعماية ليرة ذهبية انما تكفي لتغري بها الدركي الذي يحرس زنزانتها ، اما ما تبقى فتكفل به اصدقاؤها . وبدأت حالا تعمل ، بعد تفاؤلها المفاجيء هذا ، فمزقت الورقة مزقا صغيرة وهيأت الجواب . ولكنها لم تكن تحوز على ريشة أو قلم أو دواة ، انما تحوز فقط على قصاصة من ورق ، فأخذتها – والحاجة أم الاختراع – وراحت تثقب بابرتها احرف الجواب المحفوظ تذكارا حتى اليوم ، وان أصبح غير مقروء بفعل ثقوب أخرى . ثم أعطت قصاصة الورق هذه الى الدركي جيلبير ، كي يسلمها الى الزائر المجهول عند عودته ، واعدة اياه بعطاء جزيل .

هنا تصبح القضية غامضة . ويظهر ان الدركي قد تردد في ذات نفسه ، فبريق ثلاثماية أو اربعماية ليرة ذهبية قد يغري شخصا ما ، ولكن ساطور المقصلة كان يلمع ايضا بشكل مريع . فالرجل كان يشفق على المراة التعيسة، ولكنه كان يخاف ايضا على وظيفته . فما العمل اذن ؟ أيقوم بالمهمة ، وفي ذلك خيانة للجمهورية ؟ اميشي بهذه التعيسة ، وفي ذلك عبث بثقتها به ؟ ويلجأ اخيرا الى حل وسط ، فيعترف الى السجانة مدام ريشار التي شاركته هي ايضا ارتباكه ، لانها لم تجرؤ على السكوت أو التكلم ، او الزج بنفسها في تآمر خطر كهذا . ولا ريب في ان طنين المليون ليرة الذهبية كان قد دوى في أذنيها ، الا ان مدام ريشار تصرفت كالدركي تماما ، فهي لم تش بماري انطوانيت ، ولكنها لم تصمت صمتا كاملا ، اذ القت بالمسؤولية على عاتق

شخص آخر ، مُسرّةً بقصة الورقة الغامضة لميشوني الذي شحب وجهه عند سماعه هذا النبأ . وهنا تتعقد القضية من جديد ، وتزداد ابهاما . فهل كان ميشوني يعلم مسبقا بأن روجفيل كان يعمل على اطلاق السجينة من محبسها ، أم انه لم يعلم بذلك الا الآن ؟ هل كان مطلعا على هذه الدسيسة أم ان روجفيل قد خدعه ؟ ومهما يكن من امر فقد ساءه ان تجري القضية على مرأى من شاهدين ، فأخذ الورقة من يد مدام ريشار بوجه صارم ودسها في جيبه ، وامر المرأة بأن تفوه بكلمة واحدة ، املا منه بأن يصلح بعمله هذا طيش ماري انطوانيت ، وبأن يوقف هذه القضية الخطيرة عند حد ، دون ان يقدم عنها بالطبع اي تقرير كتابي أو شفوي ، مكتفيا بأن يتنحي جانبا ، كشأنه في تآمره مع البارون دي باز ، وفي كل تآمر يشعر معه بأن شبهة ما بدأت تحوم حوله .

وهكذا يبدو ان القضية قد سُويت بشكل طبيعي ، ولكنها مع الاسف أخذت تشغل بال الدركي وتقلق راحته . ولا شك في ان قبضة من الليرات الذهبية كانت ترغمه على الصمت . ولكن ماري انطوانيت كانت خالية الوفاض من المال ، واصبح هو يخشى على هامته ان تتدحرج . فبعد ان صمت مدة خمسة ايام (وهذا ما يدعو الى الريبة والشبهة) انتهى في ٣٠ ايلول (سبتمبر) الى تقديم تقرير الى رؤسائه ، وبعد ساعتين فقط تراكض مفوضو مجلس العموم مضطربين الى سجن الكونسيرجوي ، وطفقوا يستجوبون جميع أصحاب العلاقة . فتذرعت ماري انطوانيت بالانكار ، واعلنت انها لم تتعرف الى أي شخص . وعندما سئلت ما اذا كانت لم تكتب بطاقة منذ بضعة أيام ، أجابت ببرودة بأنها لا تملك أية وسيلة من وسائل الكتابة . اما ميشوني فقد تظاهر بأنه بريء تماما ، معتمدا على صمت مدام ريشار المأجورة هي ايضا . ولما كانت هذه قد اعترفت بأنها وضعت الورقة بين يديه ، فقد كان مرغما على تسليم الورقة (ولكن بعد ان شوّه نصها بذكاء ، باضافة ثقوب جديدة عليها) . وفي اليوم الثاني عندما استجوبت ماري انطوانيت مرة ثانية تخلت عن خطة المقاومة والانكار ، واقرت بأنها عرفت ذلك الرجل في قصر التويلري ، وبأنها استلمت منه رسالة موضوعة داخل قرنفلة ، وأجابت عليها . الا انها لم تلفظ ، محافظة على الرجل الذي أراد تضحية نفسه في سبيلها ، اسم روجفيل ، مدعية بأنها لا تتذكر اسم ذلك الضابط من الحرس . وهكذا فقد حمت ميشوني بإباء منقذة حياته المعرضة للهلاك . ولكن بعد أربع وعشرين ساعة عرف المجلس الاداري ولجنة السلامة العامة اسم روجفيل ، فأخذ رجال البوليس ينقبون في جميع انحاء باريس ، ولكن دون جدوى ، عن الرجل الذي

أراد انقاذ الملكة ، والذي حث خطاها في الحقيقة الى نهايتها المشؤومة . ذلك ان هذه المؤامرة العسراء استعجلت بطريقة مخيفة ماري انطوانيت الى مصيرها . فبطلت في الحال المعاملة الحسنة التي كانت تسدى اليها في الخفاء ، وانتزعت منها آخر الاشياء المتبقية لديها : خواتمها ، وحتى ساعتها الذهبية الصغيرة التي جلبتها معها من النمسا تذكارا من والدتها ، والمدالية التي كانت تحفظ في داخلها ، بحنان جم ، خصلا من شعر ولديها . وبالطبع انتزعت منها ايضا الابر التي فكرت ان تكتب بوساطتها جوابا لروجفيل ، كما أنه منع عنها كل ضوء في المساء . ولقد أقيل ميشوني المتسامح من منصبه ، وكذلك مدام ريشار التي أبدلت بمدام بولت . وصدر مرسوم في ذات الوقت عن مجلس العموم بتاريخ ١١ ايلول (سبتمبر) ينص على نقل المتهمة ذات السوابق الى زنزانة آمن من زنزانتها الحالية . ولما كان سجن الكونسيرجري برمته لا يحتوي زنزانة يطمئن اليها المجلس الاداري الذي بات شديد الحذر ، فقد أعدت زنزانة خاصة أوصدت بباب حديدي مزدوج ، وسدت نافذتها بجدار يصل الى منتصف قضبانها الحديدية . اما الخفيران المقيمان تحت نافذة السجينة ، والدركيون الذين أصبحوا يتعاقبون ليل ونهار على حراستها ، فقد كان اي تغاض منهم يكلفهم حياتهم .

وها هي الآن ماري انطوانيت في أقصى عزلتها ، حيث لم يعد سجانوها الجدد وانفار الدرك يجرؤون على تبادل الحديث معها . وقد فقدت ساعتها الصغيرة التي كانت تقيس الوقت اللامتناهي بتكاتها الخافتة ، ومنعت من شغل الابرة ، ولم يعد باقيا لديها سوى كلبها الصغير . والآن ، في هذه العزلة التامة ، وبعد خمس وعشرين سنة ونيف ، تذكرت ماري انطوانيت احدى وصايا والدتها الدائمة ، فطلبت لاول مرة في حياتها كتبا للقراءة راحت تلتهمها كتابا بعد آخر بعينيها المتعبتين الملتهبتين . ولم تكن ما تطلبه مسرحيات او أقاصيص غرام عاطفية ، لان هذا يذكرها بالماضي الذي تريد ان تنساه ، وانما كتب مغامرات مثيرة : اسفار الكابتن كوك ، واقاصيص عن الغرقى ، والفتوحات الجريئة ، ومطالعات تأسر الخيال ، وتثير الاحاسيس ، وتحبس الانفاس ، وتحمل السجينة على نسيان الزمن والعالم ، وتملأ دنياها بأشخاص أحسن الخيال صنعهم ليكونوا رفقاءها الوحيدين في عزلتها الاخيرة. ولم يعد أي امرىء يأتي لرؤيتها ، ولم تعد تسمع طوال ايام سوى رنين اجراس الكنيسة المجاورة لها ، وسوى قلقلة المفاتيح في الاقفال ، وما عدا ذلك فقد كان يسود صمت جليدي في زنزانتها الرطبة المنخفضة الضيقة المعتمة التي هي أشبه شيء بنعش . وسرعان ما أضعفها فقدان الهواء والحركة ،

فأصبحت عرضة لنزف دموي شديد انهك قوتها ، حتى انها عندما دعيت الى منصة القضاء ، كانت عجوزا بيضاء الشعر تخرج من ذلك الليل الطويل ، وتتقدم في ضوء النهار الذي لم تسر فيه منذ زمن بعيد .

٣٧ ـ الفضيحة الكبرى

لم يبق في السلّم الا آخر درجة من درجاته ، وقاربت المحنة نهايتها . وتم اعظم واوضح تضادّ استطاع القدر تصوره . فالمراة التي ابصرت النور في قصر امبراطوري ، والتي كانت تتصرف في قصرها الملكي بمساكن عديدة تقيم الآن في حيّز ضيق مشبك النوافذ ، رطب ، نصفه كائن تحت الارض . والمراة التي كانت تهوى الترف وتحيط بها توابع الثراء المتعددة الثمينة لم تعد تملك لا خزانة ولا مرآة ولا أريكة ، وليس في متناول يدها الا الضروري : طاولة وكرسي وسرير من سيور الجلد . ان تلك التي كان في خدمتها : ناظرة ، ووصيفة ، وخادمة زينة ، وجارية نهارا ، واثنتان ليلا ، وقارىء ، وطبيب ، وجراح ، وأمين سر ، وحرس ، وغلمان ، وطهاة ، ومزينون ، لم يعد لديها أحد لتمشيط شعرها المبيضّ . وتلك التي كانت تحتاج الى ثلاثمائة فستان في السنة رات نفسها ملزمة ، رغم ضعف نظرها ، على رتق كفافة فستانها الحقير بنفسها . المراة التي كانت نشيطة فيما مضى قد أصبحت تعبة ، واضحت تلك التي كانت تتيه بذلك الجمال الرائع ، والتي طالما اشتهتها العيون ، اضحت امراة مسنّة شاحبة . وغدت المراة التي كانت تهوى حياة المجتمع من الظهر حتى منتصف الليل ، وبعد ذلك ايضا ، تنصرف وحدها الى التأمل وتترقب مسهّدة طوال الليل وراء القضبان الحديدية طلوع النهار . وكلما تصرمت ايام الصيف غدا محبسها وكأنه القبر ، فمنذ ان شددت المراقبة لم يعد من حق ماري انطوانيت ان تحصل على النور ، الا ان ضوء قنديل هزيل خافت وحده كان ينبعث من الرواق وينفذ من خلال كوة الى ظلمة محبسها الحقير . وقد اخذ المرء يشعر فيه بدنو الخريف ، وكانت البرودة تنبعث من البلاط العاري ، وكان ضباب نهر السين الرطب يخترق جدران السجن ، ويبلل كل شيء مصنوع من الخشب فيصبح اسفنجي الملمس ، وكانت تفوح فيه رائحة عفونة ونتن ينقلب على نحو متواصل الى رائحة شبيهة برائحة الموت . وخلِقت ثياب السجينة الداخلية وتهرات ، واخترق البرد الرطب جسمها حتى العظام وسبب لها آلاما عصبية مبرحة . وغزا العياء شيئا فشيئا هذه المخلوقة التي اخذت ترتجف من البرد ، والتي كانت

يوما ملكة فرنسا ، واسعد امرأة في هذه البلاد في طراز معيشتها . واشتد حولها الصمت ثقلا ، والوقت خواء . ولم يعد نداء الموت ليرهبها ، اذ انها مدفونة في هذا المحجر وهي ما تزال على قيد الحياة .

ولم يكن يدخل هذا القبر المأهول في وسط باريس أي ضجيج من العاصفة الهائلة التي كانت تجتاح العالم في هذا الخريف . ولم تكن الثورة الفرنسية مهددة شأنها في ذلك الحين . فقد سقطت اثنتان من قلاعها الجبارة : مايانس وفالانسيين ، في أيدي الاعداء . وهيمن الانكليز على أهم ميناء من موانئها الحربية ، وأعلنت ليون المدينة الثانية بين كبريات المدن في فرنسا العصيان : وضاعت المستعمرات ، واشتد الخلاف في الجمعية الوطنية ، وساد الجوع والخور في باريس : واصبحت الجمهورية على قاب قوسين أو أدنى من السقوط . لم يكن قادرا على انقاذها الا عمل جريء يائس ، مثير ، ولم يكن في وسع الجمهورية ان تتغلب على الرعب الا اذا أثارته هي .

لقد دوت هذه اللفظة الرهيبة دويا محزنا في قاعة الجمعية الوطنية ، ومن غير ان يحسب حساب لاي شيء كان ، وجاء العمل يؤكد التهديد . لقد اعتبر الجيرونديون خارجين على القانون ، واستدعي الدوق دورليان وكثيرون غيره الى المثول أمام محكمة الثورة . وكان الساطور جاهزا عندما وقف بينور فارين وأعلن :

« لقد أعطت الجمعية الوطنية مثلا عظيما في القساوة للخونة الذين يضمرون لبلادهم الدمار ، وقد بقي عليها ان تصدر مرسوما هاما . ان امرأة هي عار للانسانية ولبنات جنسها ، الارملة كابيه ، يجب ان تكفر على المقصلة عن جرائمها . لقد أشيع في كل مكان انها نقلت الى سجن « الهيكل » وانها حوكمت سرا ، وان محكمة الثورة قد برأت ساحتها ، كأن في استطاعة هيئة قضائية فرنسية ان تغفر آثام المرأة التي أجرت دماء عشرات الالوف من الفرنسيين ! انني أطلب من محكمة الثورة ان تقرر مصيرها هذا الاسبوع . »

وعلى الرغم من ان هذا الاقتراح لم يطالب بمحاكمة ماري انطوانيت فحسب ، بل باعدامها صراحة ، فقد قبل بالاجماع . ومن الغرابة ، مع هذا ، ان فوكييه تنفيل ، المدعي العام الذي اعتاد ان يعمل بلا انقطاع ، وبسرعة كالآلة ، كان لا يزال مترددا ، فلم يستدع ماري انطوانيت الى المحكمة ، لا في ذلك الاسبوع ولا في الاسبوع الذي تلاه ولا فيما بعده . فهل كان هناك شيء خفي يؤخره ، أو ان هذا الرجل ذا القلب المتحجر ، الذي اعتاد ان يحول الورق دما ، والدم ورقا بخفة المشعوذ ، لم يكن قد وجد بين يديه بعد وثائق مقنعة ؟ ومهما يكن الامر فانه كان يتردد ويكرر تأجيل اصدار وثيقة الاتهام .

وقد كتب الى هيئة السلامة العامة يسألها ان تبعث اليه بأوراق الدعوى . والامر المدهش ان الهيئة بدورها قد برهنت عن بطء غريب . ومع ذلك فقد انتهى به الامر الى جمع بعض الوثائق التي لا اهمية لها : الاستنطاق في قضية القرنفلة ، وقائمة باسماء شهود دعوى الملك واوراقها . ولكن فوكييه تنفيل كان مصرا على عدم القيام بأي عمل ، فقد كان يبدو عليه انه ينتظر شيئا ما ، إما أمرا سريا ببدء الدعوى ، وإما وثيقة مقنعة بنوع خاص ، أو واقعة واضحة تضفي على عمله الاتهامي ضجة سخط جماهيري وحرارته ، او خطأ منكرا مثيرا صادرا إما عن المراة أو عن الملكة . وكان الاتهام المنشود بكل ذلك التفخيم لا يزال مرتبكا ، عندما سلّم هيبرت الدّ أعداء ماري انطوانيت واعندهم الى فوكييه تنفيل وثيقة هي افظع واقبح وثيقة في الثورة الفرنسية . وكان هذا التحريض حاسما : وبذلك الدافع بدات المحاكمة .

فماذا حدث يا ترى ؟ لقد تلقى هيبرت فجأة في الثلاثين من شهر ايلول (سبتمبر) كتابا من سيمون الحذاء ، مربّي ولي العهد ، كتبت القسم الاول منه يد مجهولة بدون أخطاء املائية ، أما ما تبقى من الكتاب فقد خطته يد سيمون . ويدل إملاؤه الشديد الغرابة على درجة ثقافة المؤدب ، فأسرع هيبرت متحمسا نشيطا وبدون تردد الى بيت سيمون . وبدا له ما علمه هنالك مذهلا الى درجة انه ، وهو الرجل الذي حجّرت التجارب قلبه ، عدل عن التدخل شخصيا ، وفضّل ان يطلب عقد جلسة لهيئة المجلس الاداري برئاسة المحافظ توجهت الى السجن خلال ثلاث جلسات استنطاقية مخطوطة محفوظة حتى يومنا هذا ، اتهامات حاسمة ضد ماري انطوانيت .

اننا لنقترب الآن مما بدا خلال فترة طويلة من الزمن ، غير حقيقي وغير مفهوم من وجهة النظر النفسانية ، من هذا الحادث العرضي في حياة ماري انطوانيت الذي لا يفسره سوى نصف تفسير الا هيمان ذلك العصر المفرط ، وتسميم الراي العام التدريجي الذي تم خلال سنوات عديدة . كان ولي العهد ، ذلك الولد المفرط النمو ، المبكر النضوج ، قد جرح احدى خصيتيه وهو يلعب بعصا ، فاستدعي جراح فورا فأجرى له ضربا من التضميد الفتقي . وبدا هذا الحادث وكأنه قد طواه النسيان . ولكن حدث ان سيمون أو زوجته اكتشف ذات يوم ان الولد يتعاطى العادة السرية . وبالنظر الى انه كان قد فوجىء ، وهو يقوم بذلك ، فلم يسعه الانكار . وعندما لج عليه سيمون بالاسئلة اعلن او بالاحرى ، اجبر على القول بأن امه وعمته هما اللتان حثتاه على هذه العادة القبيحة . وتابع سيمون ــ الذي كان يعتقد ان هذه « النمرة » قادرة على القيام بكل الاعمال الشيطانية ــ القاء أسئلته موغلا

فيها الى درجة توصل معها الى زعم الولد بأن المرأتين كانتا قد أضجعتاه مرارا في فراشهما في سجن «الهيكل» ، وان امه قد تعاطت معه اعمالا فاحشة.

ان شهادة رهيبة الى هذه الدرجة يدلي بها ولد لم يكن قد بلغ التاسعة من عمره كانت ستثير الشك ولا ريب لدى انسان عاقل ، ولكن ، بسبب المنشورات الاتهامية العديدة التي طبعت خلال الثورة ، كان اليقين من خلاعة ماري انطوانيت راسخا كل ذلك الرسوخ في دماء الناس ، حتى أن هذا الاتهام العديم المعنى لم يوقظ لدى هيبرت ولدى سيمون اي نوع من الشك . وبالعكس فقد بدا الامر واضحا كل الوضوح ، ومنطقيا لدى هؤلاء الناس العمي الابصار . ألم تكن ماري انطوانيت هذه الزانية البابلية ، هذه الفاسقة المفضوحة ، قد اعتادت في التريانون أن تنهك يوميا عدة رجال وعدة نساء ؟ وقد استنتجوا من ذلك ، أن ذئبة كهذه ، محرومة من الاخدان ، قد تهافتت على ابنها الخاص ، هذا الولد الذي لم يستطع الدفاع عن نفسه لتروي شبقها الشيطاني .

ولم يضع هيبرت وأصحابه الاخساء وقد غشى الحقد أبصارهم ، هذه التهمة الكاذبة التي وجهها ولد الى امه موضع الشك لحظة واحدة . فوجب اذن انشاء محضر ضبط يشهّر بماري انطوانيت لتعلم فرنسا بأسرها الى اية درجة بلغت السفالة بهذه النمساوية التي لم تكن المقصلة الا عقوبة ضئيلة لها . لذلك جرت ثلاث جلسات استنطاقية : جلسة لولد هو دون التاسعة من عمره ، واخرى لفتاة في الخامسة عشرة ، وثالثة لمدام اليزابيت في مشاهد بلغت درجة من الفظاعة والدناءة لا يمكن معها التصديق ، لولا أن محاضر ، مصغرة ولا ريب ، ولكن يمكن قراءتها بسهولة ، تحمل توقيعي هذين الولدين عديمي الحذاقة ، ما زالت موجودة حتى اليوم في دار المحفوظات الوطنية في باريس .

ولقد حضر الجلسة الاستنطاقية الاولى التي عقدت في السادس من اكتوبر (تشرين الاول) المحافظ باش ، والنقيب شوميت ، وهيبرت وبعض مستشاري المديرية ، ووجد في الثانية ، يوم السابع من اكتوبر ، بين الموقعين ، رسام شهير هو في الوقت ذاته أحد رجال الثورة المجردين من الخلق الحميد، يدعى دافيد . فطلب الولد البالغ الثمانية والنصف من العمر كشاهد أساسي : وأخذوا يسألون عن احداث المعتقل الاخرى ، ففضح الولد الثرثار دون ان يدرك مدى افاداته ، شركاء آمه السريين وعلى رأسهم تولان . ثم جاء دور القضية الخطيرة ، فذكر في المحضر ما يلي :

« بالنظر الى ان سيمون وزوجته اللذين عهد اليهما المجلس الاداري

بالاهتمام بالامير الصغير قد باغتاه مرارا وهو يرتكب أعمالا قبيحة تضر بصحته ، فقد أكد لهما ان امه وعمته هما اللتان علمتاه هذه العادات المؤذية ، وانهما كانتا تلتذان غالبا بمشاهدته وهو يقوم بهذه الاعمال على مرأى منهما ، وانه كان يقوم بها في أكثر الاحيان عندما كان ينام بينهما ، وقد فهمنا من الطريقة التي عبر بها الولد ان امه قربته منها مرة فنتج عن ذلك سِفاد ، وتورّم خصيتيه التي تحمل تضميدا ، وقد أوصته امه ألا يذكر عنها لاحد شيئا ، وان هذا العمل قد كرر مرارا بعد ذلك ، واضاف ان خمسة اشخاص آخرين كانوا يسامرون أمه وعمته بدالة اكثر مما كان يفعله مفوضو المجلس الآخرون » .

لقد سجلت اذن هذه الفحشاء وجرت حبرا على ورق ، ودوّنت تحتها سبعة أو ثمانية تواقيع : أما صحة الحجة وحقيقة إقدام الولد المعمى بصره على الادلاء بهذه الافادة الفظيعة فلا يمكن قط نكرانهما ، وكل ما يمكن الاعتراض عليه هو ان العبارة التي تتضمن تهمة السفاح لم تكن موجودة في قلب النص بل قد أضيفت فيما بعد على الهامش . ولكن هنالك شيئا لا يمكن دحضه وهو امضاء « لويس شارل كابيه » الموقع بأحرف كبيرة صبيانية ، مصورة بصعوبة . ان الولد قد ادلى فعلا أمام هؤلاء الغرباء بأشنع الاتهامات ضد أمه .

ولم يكن هذا الضلال كافيا ، بل اراد المحققون ان يوغلوا في استنطاقهم . وبعد الفراغ من الولد البالغ أقل من تسع سنوات من العمر جاؤوا بأخته وكانت في الخامسة عشرة من عمرها فسألها شوفيت : اذا لم يكن اخوها يلامسها عندما كانت تلاعبه أو اذا ما كان ذلك غير جائز ، واذا لم تكن أمها وعمتها تضجعان اخاها بينهما .

فأجابت سلبا . وعندئذ ويا لشدة الفظاعة ، اجريت مقابلة بين الولدين ليتجادلا في شرف أمهما أمام المحققين . فأصر ولي العهد الصغير على تأكيداته، اما المراهقة التي اخجلها وجود هؤلاء الرجال الصارمين وازعجتها هذه الاسئلة غير اللائقة ، فلم تفتأ تجيب بأنها لم تعلم شيئا ولم ترَ شيئا من كل هذا . واستدعيت مدام اليزابيت وهي الشاهدة الثالثة ، ولم يكن استنطاق هذه الشابة النشيطة البالغة التاسعة والعشرين من عمرها في سهولة استنطاق ولدين ساذجين مذعورين . اذ انها حالما قدم لها محضر استنطاق ولي العهد تصاعد الدم الى وجهها ، ودفعت الورقة بعيدا عنها باشمئزاز ، معلنة ان سفالة كتلك احط بكثير من مقامها لتتنازل للاجابة عنها . ثم ــ المشهد الجديد الجهنمي ــ فقد أجروا مقابلة بينها وبين الولد . فأكد بشدة ووقاحة

بأنها وأمه قد دفعتاه الى هذه الاعمال . فلم يعد في وسع مدام اليزابيت أن تتمالك نفسها فصاحت غاضبة : « يا للمسخ ! » ولكن المفوضين سمعوا ما ارادوا ان يسمعوه. وقد وقع هذا المحضر ايضا بعناية ، وجاء هيبرت منتصرا بهذه الوثائق الثلاث الى قاضي التحقيق ، لانه أمّل ان يكون بهذا قد هتك القناع عن وجه ماري انطوانيت على مرأى من المعاصرين والاجيال الآتية وفضحها . وراح ـ وقد انتفخ خيلاء، وتظاهر بوطنية لا تفوقها اية وطنية ـ، يضع نفسه تحت تصرف المحكمة للادلاء بشهادته عن تعاطي ماري انطوانيت اعمال السفاح .

لقد كانت هذه الشهادة التي أدلى بها ولد ضد أمه ، لكونها فريدة ولا ريب في حوليات التاريخ ، لغزا كبيرا لمؤرخي سيرة ماري انطوانيت ، وقد لجأ المدافعون المتحمسون عن الملكة الى اشد التفسيرات التواء ، والى اغرب التشويهات ، تجنبا لهذا المزلق المؤلم ، فادعوا ان هيبرت وسيمون هذين الشيطانين المتجسدين ، قد تعاونا في استعمال الضغط الشديد على الولد التعيس لينتزعا منه هذه الافادة الفظيعة . وحملاه على ان يقول ما ارادا ـ أول رواية ملكية ـ تارة باغداقهما عليه الحلويات ، واحيانا بجلده بالسياط أو ـ رواية اخرى مجردة مثل الاولى من علم النفس ـ بتقديم المسكرات اليه ، وقد ادلى بشهادته وهو في حالة السكر ، وانطلاقا من هنا تكون شهادته عديمة القيمة . ان هذين التأكيدين المجردين من البراهين يتناقضان والتقرير الواضح الحيادي تماما الذي قدمه شاهد عيان هو الكاتب دوجون الذي انشأ محضر الاستنطاق الاخير اذ كتب : ان الامير الصغير كان جالسا على كرسي كبير يهز ساقيه الصغيرتين ، وقدماه لا تلمسان الارض . وعندما سئل عما اذا كان الكلام الذي يبحث موضوعه صحيحا كان رده ايجابا .

ان موقف ولي العهد كله كان يدل بالاحرى على وقاحة جريئة . وتبين جليا من المحضرين الآخرين ان الولد لم يستنطق ابدا تحت ضغط خارجي ، انه كرر بملء اختياره التهمة الموجهة الى عمته بتأثير عناد صبياني .

فكيف يفسر ذلك ؟ ان الامر ليس ذا صعوبة خاصة بالنسبة الى جيلنا المطلع على عادة الكذب عند الاطفال في موضوع جنسي اكثر من الاجيال السالفة ، والذي يتصدى لهذا الشذوذ بتفهم اكثر . يجب ان نستبعد دفعة واحدة الرواية العاطفية التي بموجبها يكون ولي العهد قد شعر بالاذلال الشديد اذ سُلّم الى سيمون الحذّاء ، وقد تألم كثيرا لفراق أمه ، ان الاولاد يعتادون بسرعة مذهلة على كل محيط جديد ، مهما بدا ذلك فظيعا ، وربما كان الولد قد ارتاح الى صحبة سيمون القاسي المرح اكثر من ارتياحه في

برج المعتقل الى هاتين المراتين الحزينتين اللتين لم يكد دمعهما يجف ، واللتين كانتا تجبرانه على التعلم ، وتسعيان دائما الى ان ترسّخا في ذهن ملك فرنسا المقبل مبادىء حسن الهيئة والوقار . وخلافا لذلك ، فان ولي العهد الصغير كان يتمتع بالحرية التامة بالقرب من سيمون ، ولا يعلم الا الله اذا كانوا لم يزعجوه ببعض الدروس ، كان في وسعه ان يلعب ما شاء من غير ان يكترث بشيء ، وربما استطاب انشاء اغاني الجنود اكثر من تلاوة صلوات المسابح مع مدام اليزابيت التقية المزعجة . اذ ان لدى كل ولد ميلا فطريا الى الانحطاط ، والى الامتناع عن الثقافة والاخلاق الحسنة التي تفرض عليه ، انه يشعر براحة اكثر بين اناس خشنين منها في ظل تربية قسرية . ان ما فيه من الفوضوية الحقيقية ليتفتح اكثر حيث تسود الحرية والسجية ، وحيث لا يطلب اي اعتدال . ان الرغبة في الارتقاء الاجتماعي لا تظهر الا مع يقظة الادراك — ولكن كل ولدمناسرة طيبة الى العاشرة من عمره وحتى الخامسة عشرة يحسد في الحقيقة رفاقه الصغار ابناء الشعب ، الذي يسمح لهم بكل ما تمنعه التربية المعتنى بها . فولي العهد الذين تتبدل لديه العواطف وتتكيف سريعا ، شأنها لدى جميع الاولاد — وهذه الملاحظة الكلية البداهة لم يشأ مؤرخو السير العاطفية التسليم بها على الاطلاق — يبدو انه قد انفصل بسرعة تامة عن محيط والدته الشديد الحزن واعتاد على محيط سيمون الحذاء الاكثر حرية والاشد تسلية ، وقد اعترفت اخته انه كان ينشد بصوت مرتفع جدا أناشيد الثورة ، وروى شاهد آخر جدير بالثقة كلاما تفوه به ولي العهد بحق امه وعمته هو من الخشونة الى درجة لا يجرؤ معها الانسان على اعادته، ثم هنالك شهادة لا تدحض تتعلق باستعداد الولد المسبق الفريد للكذب بالخيال وهي شهادة امه ذاتها التي كتبت وهي تتكلم عن الولد في سن الرابعة والنصف في التعليمات التي تصدرها الى مربيته : انه قليل الرصانة ، يردد بسهولة ما سمع الناس يقولونه ، ويضيف الى الكلام غالبا ما توهمه مخيلته برؤيتهبدون ان يعتزم الكذب . هذا هو نقصه الاكبر ، الذي يتوجب عليك ان تصلحيه جيدا . وقد اعطتنا ماري انطوانيت في هذه الصورة ، بيانا قيقاد سوف يعيننا على ان نرى بوضوح ما اشكل من الامر . نحن نعلم ان الاولاد اذا ما فوجئوا يرتكبون عملا محظورا عليهم ، يسعون دائما على وجه التقريب الى ان يرموا الخطأ على كاهل غيرهم وذلك بالتبرير الغريزي للدفاع عن النفس ، (اذ انهم يشعرون بأن الناس لا يحملون الولد مسؤولية باختيارهم) . لذا فقد اعلنت مدام اليزابيت في افادتها — وقد سُكت دائما سكوتا أبله عن هذه الحقيقة — ان ابن اخيها كان منصرفا منذ زمن بعيد الى هذه النقيصة ،

وانها تتذكر جيدا انها وزوجة أخيها قد وبختاه على ذلك غالبا . اذا لقد فاجأ الولد فيما مضى وهو يمارس هذا العمل ، أمه وعمته ، ولا شك في انه قد عوقب بشيء من القساوة او بكثير منها . وعندما سأله سيمون ممن تقبّل هذه العادة السيئة ، فقد ذكره بصورة طبيعية ، تسلسل افكاره بالعمل ذاته وبالمرة الاولى التي بوغت فيها وهو يقوم به ، ففكر وهو تحت تأثير مضايقة حقيقية بأولئك الذين عاقبوه على ذلك . فثأر لعقابه ، في اللاوعي ، ودل على الذين عاقبوه كأنهم هم الذين حرضوه ، غير مفكر في عواقب افادة ، مثل تلك الافادة ، أو اجاب بالايجاب على سؤال يوحي اليه بذلك تحت اعظم مظهر من الحقيقة . وهنا قد ترابط كل شيء . فالولد لم يستطع ان يتراجع بعد ان فوجىء بالكذب ، والاكثر من ذلك انه ما ان ابصر جليا ، كما في الحالة الراهنة، ان تأكيداته كانت تصدق بسهولة ، لا بل بسرور ، حتى شعر براحة تامة في كذبه وثابر بنشاط على الاعتراف بكل ما قاله له المفوضون . وتمسّك بروايته مدفوعا الى ذلك بغريزة الدفاع عن النفس ، ما دام قد علم انها تبعد عنه العقاب . لذا فقد كان يصعب على اساتذة في علم النفس اكثر فطنة من هؤلاء الحذّائين ، والممثلين السابقين ، والرسّامين ، وكتبة المحاكم الا يخطئوا في بادىء الامر ازاء افادة في هذه الدرجة من الوضوح وعدم الالتباس . وفضلا عن ذلك فقد كان المحققون ما يزالون تحت تأثير اقتراح اجماعي ، اذ كان اتهام الولد ، هذا الفظيع ، بالنسبة اليهم متوافقا وسلوك الام الجهنمي ، التي كانت منشورات خلاعية موزعة في فرنسا بأسرها تصورها كمثال للعواهر . ولم تكن اية جريمة مهما كانت غير معقولة تصدر عن ماري انطوانيت لتدهش هؤلاء الرجال الواقعين تحت تأثير الايحاء المغناطيسي . لذا فانهم لم يتعجبوا طويلا ، ولم يتبحروا في الامر ، بل وضعوا تواقيعهم ، بمثل ما فعل ولد في الثامنة والنصف من عمره بعدم مبالاة ، على اكبر فضيحة دبرت بحيلة ضد والدة .

ان وحشة المعتقل التي لا يمكن اختراقها قد حالت لحسن الحظ دون اطلاع ماري انطوانيت حالا على افادة ابنها الفظيعة . ولم يأتها صك الاتهام بهذا الاذلال الذي بلغ الغاية الا في الليلة التي سبقت ليلة اعدامها . لقد قاست ، خلال سنوات ، كل التهجمات التي وجهت الى شرفها ، واشنع الافتراءات ، دون أن تنبس ببنت شفة . ولكن هذا الالم الذي لا يتصوره العقل ، الذي احدثته لها رؤية ابنها يلصق بها تلك التهمة الرهيبة ، لا بد وان يكون قد زعزعها في اعماق النفس . لقد رافقتها هذه الفكرة المؤلمة الى القبر ، فكتبت ، وهي المراة التي اعتادت أن تستسلم لحكم القدر ، الى مدام

اليزابيت المتهمة معها ، قبل صعودها الى المقصلة بثلاث ساعات : « انني أعلم ان هذا الولد لا بد وان يكون قد سبّب لك الما . سامحيه يا أختي العزيزة ، وفكري في السن التي هو فيها ، وفي مقدار السهولة التي يمكن بها حمل ولد على ان يقول ما يراد منه قوله ، وحتى ما لا يدركه . آمل ان يأتي يوم يقدر فيه تقديرا أفضل قيمة لطفك وحنانك » .

ولكن هيبرت لم يفلح كما اراد ، وهو يطلق اتهامه الصاخب ، في ان يسربل ماري انطوانيت بالعار في نظر الناس ، بل على العكس من ذلك ، قد افلت من يده السلاح الذي حاول به خلال سير الدعوى ، وأصابه في قذاله . ولكنه توصل الى شيء واحد لا غير ، لقد جرح نفس هذه المرأة المسلمة الى الموت جرحا بليغا وسمّم آخر لحظات حياتها الاخيرة .

٣٨ ـ افتتاح الدعوى

ان المدعي العام ، وقد أصبح تحت تصرفه ما يكفي من الاسلحة ، يستطيع الآن مباشرة العمل . لقد استدعيت ماري انطوانيت الى قاعة الحكم الكبرى ليجري استنطاقها للمرة الاولى . فجلس قبالتها فوكييه تنفيل ومعاونه هِرمَن وبعض الكتبة ، ولم يجلس الى جانبيها احد . لا وكيل دفاع ولا معاون ، لا أحد سوى جندي من الدرك لحراستها . ولكن ماري انطوانيت قد استجمعت قواها خلال تلك الاسابيع المديدة من الوحدة ، فقد علّمها الخطر ان تركز افكارها ، وتحسن الكلام ، وعلمها اكثر من ذلك ان تسكت : فأجوبتها كلها على جانب مدهش من الدقة ، والحصافة والفطنة . لا تحيد عن هدوئها لحظة واحدة ، ولا تستطيع اشد الاسئلة سخافة وختلا ان تفقدها رباطة جأشها . لقد ادركت ماري انطوانيت في الدقيقة الاخيرة الدور المنوط بها ، وعلمت ان عليها ان تكون ملكة في هذه القاعة التي تكاد تكون معتمة ، والتي يجري استنطاقها فيها اكثر مما كانته في قاعات فرساي الفخمة . فهي لا تجيب على محام وضيع دفع به الجوع الى الثورة ، ويعتقد بأنه يقوم بعمل مدع عام ، ولا على هؤلاء الضباط الصغار ، والكتبة المتنكرين في زي قضاة ، ولكن على القاضي الوحيد الحقيقي الا وهو التاريخ . لقد كتبت اليها ماري تيريز يائسة قبل عشرين سنة تقول : « واخيرا متى تصبحين ذاتك ؟ » انها ، وقد اصبحت على قاب قوسين من الموت ، أخذت ، تكتسب في ذاتها هذه العظمة التي لم تكن تملكها الا ظاهريا . فعندما سئلت عن اسمها اجابت بصوت واضح مرتفع : « ماري انطوانيت النمساوية اللورينية ، ثمان وثلاثون

سنة ، أرملة ملك فرنسا » . سألها فركييه تنفيل مهتما بالمحافظة التامة على التمسك المفرط بشكليات المحاكمة ، ومتجاهلا ، عن المكان الذي كانت تسكنه عند توقيفها ، فأجابت ماري انطوانيت متهمَها بدون تهكم انها لم توقف ابدا ، بل جيء بها من الجمعية الوطنية الى سجن الهيكل . ثم جاء حسب التعبير الفخم للعصر دور الاستنطاق بالمعنى الصحيح ، فاتهمت بأنها انشأت علاقات سياسية مع « ملك بوهيميا وهنفاريا » قبل الثورة ، وبذّرت اموال فرنسا ، ثمرة عزق الشعب تبذيرا هائلا في سبيل ملاهيها ودسائسها بالاتفاق مع عدد من الوزراء المرذولين ، « واستوردت » الملايين للامبراطور ليستخدمها ضد الشعب الذي يقدّم لها طعامها . واتهمت أيضا انها ، منذ بدء الثورة ، قد تآمرت على فرنسا ، وتفاوضت مع عملاء اجانب ، ودفعت زوجها الملك الى استعمال حق النقض (الفيتو) . ففندت ماري انطوانيت هذه الاتهامات تفنيدا محسوسا قويا ، ولم تحتدم المحاورة الا عندما قال لها هِرمَن بخرق :

« أنتِ التي لقّنتِ لويس كابيه فن التصنع العميق الذي خدع به الشعب الفرنسي زمنا طويلا ، هذا الشعب الذي لم يكن ليشك في ان المكر وشر الاجرام يمكن ان يصلا الى تلك الدرجة » . فأجابت ماري انطوانيت بهدوء على هذه المقطوعة المسرحية الجوفاء :

ــ « أجل لقد خدع الشعب وخدع بقساوة ، ولكن ذلك لم يكن من فعلي أو فعل زوجي . »

ــ « من هو الذي خدع الشعب اذن ؟ »

ــ « اولئك الذين كان لهم في ذلك مصلحة ، ولم يكن من مصلحتنا نحن ان نخدعه » .

فتمسّك هِرمَن فورا بهذا الجواب المبهم مؤملا ان يستدرج ماري انطوانيت الى تصريح يمكن تفسيره تفسيرا معاديا للجمهورية ، وقال :

ــ « من هم ، حسب رأيكِ ، أولئك الذين كان لهم مصلحة في خداع الشعب ؟ »

فتجنبت ماري انطوانيت هذا السؤال بمهارة ، وقالت انها لا تعلم ، وان مصلحتها الخاصة تكمن في انارة الشعب لا في خداعه .

فشعر هِرمَن بسخرية هذا الجواب واستأنف بقسوة قائلا :

ــ « لم تجيبي مباشرة على سؤالي . »

ولكن المستنطقة حافظت على موقف الدفاع وقالت :

ــ « لو كنت اعرف اسماء الاشخاص لأجبت مباشرة . »

ورجعوا بعد هذه المجادلة الاولى الى الوقائع . فسألوها عن ظروف

الهرب الى فارين ، فاجابت بفطنة حامية جميع اصدقائها السريين الذين اراد المدعي العام ان تشملهم الدعوى . ولم تحتدّ من جديد الا للؤم الذي وجهه اليها هِرمَن فيما بعد بقوله :

ــ « لم تنفكي قط لحظة واحدة تريدين هدم الحرية ، كنت عازمة على ان تملكي مهما كان الثمن ، وان تصعدي ثانية الى العرش على اشلاء المواطنين » .

فأجابت ماري انطوانيت بأنفة وشدّة على هذا الخلط المجسّم بأنها وزوجها « لم يكونا بحاجة قط الى ارتقاء العرش ثانية ، وانهما كانا على العرش ، ولم يبتغيا قط سوى سعادة فرنسا ، وانه ليسرّهما أن تكون فرنسا سعيدة » .

عندئذ ازداد تهجّم هِرمَن ، فكلما شعر ان ماري انطوانيت لا تريد ان تحيد عن موقف الفطنة ، وانها لا تريد ان تقدّم أي مستند يمكن ان يصلح للدعوى ، كدّس لها الاتهامات وهو في سورة غضب شديد : « لقد أغويتِ كتائب الفلاندر ، وراسلت بلاطات اجنبية ، وحرّضتِ على الحرب ، واستعملت نفوذك في ميثاق بلنتز » فصححت ماري انطوانيت وفقا للوقائع بقولها ان الجمعية الوطنية هي التي قرّرت الحرب لا زوجها وانها لم تجتز القاعة سوى مرتين خلال المأدبة .

ولكن هِرمَن قد احتفظ للنهاية بالاسئلة الشائكة التي لا يسع الملكة الاجابة عليها الا بنكران عواطفها او بالتلفظ ضد الجمهورية ، فواجهت عددا من الاسئلة المتعلقة بالسياسة العليا :

ــ « ما هو اهتمامك بأسلحة الجمهورية ؟ »

ــ « ان سعادة فرنسا هي التي اتمناها قبل كل شيء » .

ــ « اتعتقدين ان الملوك ضروريون لسعادة الشعب ؟ »

ــ « لا يمكن للفرد ان يقرّر امرا مثل هذا » .

ــ « انك تأسفين ولا ريب لان يكون ابنك قد فقد عرشا كان في وسعه ان يعتليه لولا ان الشعب الذي افهم حقوقه اخيرا حطّم هذا العرش ؟ »

ــ « انني لا آسف على شيء لولدي عندما تكون بلاده سعيدة . »

من البيّن أن قاضي التحقيق لم يحالفه الحظ اذ انه لم يكن في وسع ماري انطوانيت أن تعبّر بدقة ومهارة اكثر مما فعلت عندما قالت انها لن تأسف على شيء لابنها ما دامت « بلاده » سعيدة ، فان ماري انطوانيت بمجرد استعمال هذه الصيغة الاضافية قد قالت امام قاضي الجمهورية من غير ان تعلن بوضوح انها لا تعترف بالجمهورية ، وانها ما زالت تعتبر فرنسا

« خاصّتها » بصفتها بلاد ابنها وملكه الشرعي ، وانها لم تفتأ حتى في قلب الخطر تدافع عن اقدس مقدساتها ، حق ابنها في التاج . بعد هذه المجادلة الاخيرة اختتم الاستنطاق سريعا . وسئلت ماري انطوانيت ما اذا كانت تريد تعيين محام ليوم الدعوى ، فأجابت انها لا تعرف احدا من المحامين ، وانها تقبل اي محام او محامين يعيّنهم القاضي . انها تعرف ، في الحقيقة ، ان ذلك عديم الاهمية ، لانه لا يوجد في البلاد بأسرها رجل واحد على مقدار كاف من الشجاعة للدفاع الجدّي عن ملكة فرنسا السابقة . وان من يجرؤ أن يلفظ كلمة واحدة صريحة لصالحها ينتقل فورا من مقعد الدفاع الى مقعد الاتهام .

والآن وقد اعطي التحقيق مظاهره القانونية ، اصبح في استطاعة فوكييه تنفيل المحنك المتمسك بافراط بالشكليات ان ينشىء صك الاتهام . فجرى قلمه رشيقا سريعا يلفق الاتهامات بالجملة ، واليد تعتاد بقوة المران . ومع ذلك فان محامي الولاية هذا قد اعتقد نفسه ملزما ، في هذه الحالة ، باستعمال بيان شاعريّ : فعند اتهام ملكة يجب ايجاد تعبير اكثر عظمة ، واللجوء الى تفخيم أشد من الاتهامات التي توجّه الى خياطة لمجرد انها هتفت : « يعيش الملك ! » لذا فقد كان مطلع قرار الاتهام مفخما :

« بعد تدقيق جميع الاوراق التي سلمها المدعي العام ، تبيّن ان ماري انطوانيت ارملة لويس كابيه ، على غرار ميسالين ، وبرونهو ، وفريديجوند ، ومديسيس اللواتي كن يلقبن سابقا بملكات لفرنسا ، واللواتي لن تمحى اسماؤهن البغيضة من سجلات التاريخ ، كانت منذ ان دخلت فرنسا نكبة على الفرنسيين ، وعلقة لامتصاص دمائهم . »

بعد هذه الفلطة التاريخية الصغيرة ـ اذ انه في عهد الفريديكوند والنرونهو لم يكن هنالك ما يدعى بمملكة فرنسا ـ جاء دور الاتهامات المعروفة : ان ماري انطوانيت قد انشأت علاقات سياسية مع رجل يدعى « ملك بوهيميا وهنغاريا » ، وسلمت الملايين الى الامبراطور ، وساهمت في اسكار الحرس الملكي ، وأثارت الحرب الاهلية ، وسببت ذبح المواطنين ، وسلمت الاجانب مخططات حربية . لقد كرّروا بشكل خفيف التقنيع اتهامات هيبرت التي بموجبها اعتبرت ماري انطوانيت :

... فاسدة ومؤانسة جميع الجرائم الى درجة انها قد تناست صفة الامومة والحدود التي رسمتها نواميس الطبيعة ولم تخش ان ترتكب مع ابنها لويس شارل كابيه ، حسب اقرار هذا الاخير ، افعالا مخالفة للآداب ، يرتجف الجسم هولا لمجرد التفكير بها والتلفظ بذكرها .

اما الشيء الجديد الوحيد المفاجيء فهو اتهامها التالي :

لقد بلغ المكر والرياء درجة انها طبعت ووزعت ... منشورات وصفت فيها اوصافا لا تعطي فكرة حسنة عنها ... لتخدع الدول الاجنبية وتقنعها بأن الفرنسيين يسيئون معاملتها . وحسب راي فوكييه تنفيل تكون ماري انطوانيت هي التي قامت بنفسها بتوزيع منشورات السيدة لاموت الداعرة وشركائها .

وفي الثالث من تشرين الاول (اكتوبر) سلمت هذه الوثيقة التي لا تعدّ بالضبط تحفة من وجهة النظر القضائية الى وكيل الدفاع توفور لاجارد الذي توجه توا لمقابلة ماري انطوانيت في مسكنها . فقرأ الوكيل والمتهمة معا صك الاتهام الذي لم تدهش وتهز لهجته الحاقدة سوى المحامي . اما ماري انطوانيت التي لم تكن لتتوقع بعد استنطاقها ، ما هو افضل من ذلك ، فقد ظلت محافظة على هدوئها التام . على ان اليأس اخذ يستحوذ على رجل القانون صاحب الضمير كلما أوغل في القراءة . كلا انه لا يستطيع ان يدقّق حشوا كهذا في ليلة واحدة ، ولكي يؤمّن دفاعا فعّالا يجب ان يستبين بوضوح هذا الركام المشوّش من الاوراق التي لا فائدة لها . واصرّ على المتهمة ان تطلب مهلة ثلاثة ايام يتسنى له خلالها دراسة الملف دراسة جيدة ، وتهيئة دفاعه تماما .

فسألت ماري انطوانيت : الى من يجب ان اتوجه بهذا الطلب ؟

— « الى الجمعية الوطنية » .

— « كلا ! كلا ! أبدا » .

فقال لها شونو — لاجارد مدفوعا بشعور أنفة لا فائدة منه : يجب الا تتخلي عما يؤول الى مصلحتك . وان من واجبك ان تحافظي على حياتك ، لا من اجلك فحسب ، وانما من اجل اولادك .

فرضخت ماري انطوانيت ، نظرا الى ان الامر يتعلق بأولادها ، وكتبت الى رئيس الجمعية الوطنية قائلة :

« أيها المواطن الرئيس ، ان المواطنين ترونصن وشوفر اللذين عينتهما المحكمة للدفاع عني قد أبديا لي ملاحظة مفادها أنهما لم يحاطا علما بمهتهما الا اليوم . يجب ان احاكم غدا ، وانه ليتعذر عليهما الاطلاع على اوراق الدعوى في مهلة قصيرة كهذه ، انني مدينة لاولادي بعدم اهمالي أية وسيلة ضرورية لتبرئة أمهما تبرئة كاملة . ان وكيليّ يطلبان مهلة ثلاثة ايام ، فآمل ان تمنحهما اياها الجمعية الوطنية » .

ان الدهشة لتتملك الانسان مرة اخرى عندما يقرأ هذه الوثيقة

المخطوطة ، للتبدّل العميق الذي طرأ على نفسية ماري انطوانيت . فتلك التي كانت طيلة حياتها كاتبة رسائل وديبلوماسية من النوع الرديء ، اخذت تكتب بطراز ملكيّ وتفكر تفكير انسان مسؤول . فلم تمنح الجمعية الوطنية ، حتى حين هددها الموت ، شرف التقدم اليها بطلب نهائي اضطرت الى ان تلجأ اليه . انها لا تطلب شيئا باسمها ــ فهي تؤثر الموت على ذلك ــ ولكنها تنقل طلب الغير : « ان وكيليّ يطلبان مهلة ثلاثة ايام ، آمل ان تمنحهما اياها الجمعية الوطنية » . ولكن الجمعية الوطنية لم تُجب ، اذ قد اقرّ موت ماري انطوانيت منذ زمن بعيد ، فما الفائدة من اطالة الشكليات القضائية ؟ وها هي الدعوى تفتتح في الساعة الثامنة من صباح الغد ، وقد عرف الجميع مقدما عما ستسفر .

٣٩ ــ المناقشات

لقد عرّضت ايام السجن السبعون ماري انطوانيت للمرض ، وحمّر البكاء وألهب عينيها اللتين فقدتا عادة النور فقدانا تاما ، واصفرّت شفتاها اصفرارا شديدا على اثر النزيف الذي اصابها خلال الاسابيع الاخيرة . وغالبا ما كانت مضطرّة لان تكافح الاعياء ، وقد اضطر الطبيب الى ان يصف لها مقويات اكثر من مرة . ولكنها كانت تعلم انها مستقبلة يوما تاريخيا . وانه غير مسموح لها بأن تكون تعبة مجهدة ، كيلا يتسنى لاحد في قاعة المحاكمات ان يسخر من ضعف الملكة ابنة الامبراطور . فكان عليها ان تتحامل على ذاتها مشدّدة كرة اخرى قوى جسمها المجهد المضني الذي سوف يخلد للراحة فيما بعد راحة مديدة نهائية . ولم يبق لماري انطوانيت في هذا العالم سوى شيئين : ان تدافع عن نفسها ببسالة ، وان تموت برباطة جأش . لذا فقد ارادت ، وهي ذات النفس الحازمة ، ان تجابه المحكمة بموقف جدير بالاكبار لكي يحس الشعب بأن المرأة التي تمثل اليوم امام المحكمة هي من سلالة آل هابسبورغ ، وانها ما تزال ملكة بالرغم من جميع المراسيم التي خلعتها . فصقلت بعناية شعرها الذي غزاه الشيب ، ولبست قبعة صغيرة بيضاء منشّاة ذات ثنايا تدلى منها برقع الحداد يمنة ويسرة ، لانها ارادت ان تقف امام محكمة الثورة بوصفها ارملة لويس السادس عشر آخر ملك لفرنسا.

اجتمع القضاة والمحلفون في قاعة المحاكمات في الساعة الثامنة ، وترأس المناقشات هِرمَن مواطن روبسبيير ، ومثل الادعاء العام فوكييه ــ تنفيل ، وتألفت هيئة المحكمة من ممثلين عن جميع الطبقات : مركيز سابق ، وجراح ،

وبائع « ليموناضة » ، وموسيقار ، وطباع ، وصانع شعور مستعارة ، وكاهن خلع ثوب الرهبنة،ونجار الخ . . . وجلس بعض اعضاء هيئة السلامة العامة الى جانب المدعي العام ليراقبوا سير المحاكمة . ولقد غصت القاعة بالنظارة ، اذ لم تكن تسنح في كل يوم فرصة لمشاهدة ملكة في كرسي الاتهام .

دخلت ماري انطوانيت هادئة كل الهدوء ، واتخذت لها مكانا ما ، اذ لم يخصص لها مقعد خاص ، كما خصص لزوجها ، ولم يوضع تحت تصرفهم الا مقعد خشبي بسيط ، ولم يكن القضاة مثلما كانوا في محاكمة لويس السادس عشر المهيبة من اعضاء الجمعية الوطنية ، بل هيئة عادية تقوم بمهمتها القاتمة كمهنة . وبحث النظارة في غير جدوى في وجه ماري انطوانيت المنهك ولكن غير المضطرب عن علامة خوف او انفعال ظاهرة ، الا انها كانت تنتظر بدورها بدء المحاكمة برباطة جأش ، وقوة فيستقر نظرها بهدوء تارة على القضاة ، وأحيانا على القاعة .

وكان فوكييه ــ تنفيل اول من وقف ، فتلا وثيقة الاتهام . وكادت الملكة الا تصغي لانها كانت تعرف كل المطاعن التي تروت بها كليا الليلة الفائتة مع محاميها . ولم ترفع رأسها مرة واحدة حتى امام افظع الاتهامات ، بل كانت تمر بأصابعها على مسند كرسيها ، كما لو كانت تفعل ذلك على أرغن . عندئذ بدأ عرض الواحد والاربعين شاهدا الذين اقسموا بأن « يتكلموا بدون كراهية وخوف وينطقوا بالحق كله ولا شيء غير الحق » . وبما ان الدعوى كانت قد هيئت على عجل ، فقد كان فوكييه ــ تنفيل فعلا ، منهمكا جدا في ذلك النهار ، ثم جاء دور الجيرونديين ، والسيدة رولاند ومائة آخرين ــ فأديت الشهادات الاشد تباينا في غير ما نظام ، وبدون اي تسلسل منطقي او تاريخي . فتكلم الشهود تارة عن احداث ٦ اكتوبر في فرساي ، وطورا عن حوادث عشرة آب (اغسطس) في باريس في وقائع جرت قبل الثورة او اثناءها . ولم يكن لاغلب هذه الشهادات اية اهمية حتى ان بعضها كان يستثير الهزء ، كشهادة الخادمة ميلر التي اكدت انها سمعت سنة ١٧٨٨ الدوق دي كوانبي يقول لاحد الناس : ان الملكة قد ارسلت الى اخيها مائتي مليون ، او كالشهادة الاشد سخفا من تلك ، والتي ذكرت ان ماري انطوانيت كانت تحمل دائما مسدسين لاغتيال الدوق دورليان . واقسم شاهدان انهما رأيا بأم العين الحوالات التي بعثت بها الملكة الى اخيها ، على ان النسخ الاصلية من هذه الوثائق لا يمكن تقديمها ، وهذا ما كان في امر كتاب قيل انها بعثت به الى قائد الحرس السويسري وقالت فيه : « هل يمكن الاعتماد الكلي على السويسريين ، هل يقاومون ببسالة اذ ما امروا بذلك ؟ » وقد تعذر الاتيان

بكلمة واحدة خطتها يد ماري انطوانيت ، ولم تحتو الرزمة المختومة التي تضم ما صودر من ماري انطوانيت اي اتهام ضدها . فخصل الشعر التي وجدت فيها كانت خصلا من شعر زوجها وولديها ، والصور المصغرة كانت صور السيدة دي لامبال واللاندجريف هيسيدارمستاد رفيقة حداثتها ، والاسمان المدوّنان في مفكرتها كانا اسمي طبيبها وغسّالتها . لذا فقد جهد المدعي العام ان يعود الى الاتهامات العامة ، فأجابت ماري انطوانيت المستعدة في هذه المرة ، باطمئنان ورباطة جأش ، اكثر مما فعلت في الاستنطاق البدائي وجرت المناقشات كما يلي :

ـ « من اين حصلت على المال الذي بنيت واثثت به التريانون الصغير حيث كنت تقيمين الحفلات وتظهرين فيها دائما كإلهة ؟ »

ـ « كان ذلك مالا مخصصا لهذه الغاية » .

ـ « لا شك في انه كان مالا طائلا ، اذ ان التريانون الصغير قد كلف ولا ريب مبالغ ضخمة » .

ـ « من المحتمل ان يكون التريانون قد كلف مبالغ ضخمة ، وربما اكثر مما كنت اريد ، لقد انحرفنا الى الانفاق شيئا فشيئا ، على انني ارغب اكثر من اي انسان آخرفي ان يكون ذلك لي درسا » .

ـ « أليس صحيحا انك في التريانون الصغير قد تعرفت لاول مرة على المرأة المدعوة « لاموت » ؟

ـ « لم أرها قط » .

ـ « ألم تكن ضحيتك في قضية العقد الشهيرة ؟ »

ـ « لم يكن ذلك ممكنا لانني لم اكن أعرفها » .

ـ « اتصرين اذا على انك لم تعرفيها ؟ »

ـ « ليس الانكار خطتي ، لقد قلت الحقيقة وسأثابر على قولها . »

لو كان هناك اقل أمل ، لحق لماري انطوانيت ان تستسلم اليه بواقع تغيب أغلب الشهود ، اذ لم يقدم أي واحد من الذين كانت تخشاهم على اتهامها ، ولذا فقد دافعت عن نفسها بشدة متزايدة . وعندما زعم المدعي العام انها حملت لويس السادس عشر بنفوذها على القيام بكل ما ارادت اجابت قائلة : ان الفرق لعظيم بين النصح باتيان أمر ما وبين التحريض على عمله .

وعندما أبدى الرئيس اخيرا ملاحظته بأن افادتها تناقض افادة ابنها قالت بازدراء :

« انه لمن السهل جدا حمل ولد في الثامنة من عمره على ان يقول ما

يراد منه قوله » .

وكان جوابها المليء فطنة على الاسئلة الخطرة : لا اذكر . لذلك فلم يفلح هِرمَن ولا مرة في امساكها متلبسة بجرم الكذب المشهود ، أو في ان يجعلها في موقف التناقص مع نفسها ، كما انها لم تثر قط في الجمهور المصغي بانتباه أي هتاف غضب ، او اية حركة حقد ، او اي رد فعل وطني . وتتابعت المناقشات طويلة وسخيفة ، وكان الارتباك سائدا في أغلب الاحيان . ولقد حان الوقت لبحث شهادة حاسمة ، ساحقة ، لتنعش الاتهام ، وظن هيبرت انه جاء بهذه الشهادة شيئا كبيرا ، ولذا تقدم متحمسا ، مقتنعا ، وكرّر بصوت جهوري وواضح تهمة السِّفاح الفظيعة . ولكنه لم يلبث ان شعر بأن هذه التهمة التي لا تصدق لم يهتم بها أحد اهتماما جديا ، وانه ما من أحد في القاعة ابدى بصيحات الاستنكار استفظاعه لهذه الام المرذولة ، الخارجة على سنة الطبيعة . لقد بدا الشحوب على وجوه الجميع ، وتملكتهم الحيرة عندئذ الفى القاضي المسكين نفسه مضطر الى ان يستخدم تفسيرا نفسانيا سياسيا بالغ الدقة ، فقال : « يمكننا الظن ان هذه المتعة الاجرامية لم تكن الشهوة هي الدافع اليها ، وانما الامل السياسي في انهاك صحة الولد الذي كانت تعتقده صائرا الى اعتلاء العرش ، والذي كانت تريد ان تؤمن بهذا العمل حق السيطرة عليه خلقيا .

ومن الغريب ان الحضور ظلوا محافظين على سكوتهم المؤثر امام هذه السخافة التاريخية . ولم تجب ماري انطوانيت ، بل اشاحت بوجهها عبر هيبرت بازدراء . ولقد لبثت بدون حراك ، ولم تبد اي اكتراث كما لو ان هذا الرجل العاثر الحظ المليء سخيمة كان قد تكلم اللغة الصينية . وقد تظاهر الرئيس هِرمَن أيضا بانه لم يسمع شهادة هيبرت . وتعمد نسيان السؤال من الام المتهمة اذا لم يكن لديها ما تجيب به ، لانه كان قد احس بمرارة الاثر الذي تركته تهمة السفاح هذه في الحضور بأسرهم ، ولا سيما النساء . ولكن هوذا احد اعضاء المحكمة ، لسوء الطالع ، يسمح لنفسه بسؤال الرئيس قائلا : « ايها المواطن الرئيس ، انني ادعوك ان تبدي ملاحظة للمتهمة بأنها لم تجب على الواقعة التي تحدث عنها هيبرت والمتعلقة بما جرى بينها وبين ابنها . »

فاضطر الرئيس رغما عنه الى ان يسأل ماري انطوانيت . فرفعت المتهمة رأسها بأنفة وعنف ، وقد بدت منفعلة انفعالا عميقا ، وأجابت بازدراء لا يوصف قائلة : « اذا كنت لم اجب فذلك لان الطبيعة تأبى ان تجيب على تهمة مثل هذه توجه الى ام . انني اتوجه بذلك الى جميع الامهات

الحاضرات هنا . »

فهز القاعة فعلا غليان شديد وهيجان عنيف ، اما نساء العامة من الشعب ، والعاملات ، وبائعات السمك ، فقد كتمن انفاسهن ، لانهن شعرن شعورا خفيا أن توجيه هذه التهمة الى ماري انطوانيت قد طعن جنسهن في الصميم . وسكت الرئيس ، وغض العضو القليل الرصانة طرفه ، وقد اثرت فيهم جميعا لهجة المرأة المتهمة الاليمة اللاهبة . وغادر هيبرت المحكمة دون ان ينبس ببنت شفة ، قليل الفخر بمأثرته . ولقد شعر الجميع ان هذه الشهادة قد اكسبت ماري انطوانيت نصرا معنويا في أشد ساعات الحرج ، لان ما كان مفروضا فيه ان يحط من قدرها قد رفعها .

ولم يستطع روبسبيير الذي علم بهذا الحادث في مساء اليوم نفسه ان يسيطر على غيظه من هيبرت . فأدرك ، وهو الفكر السياسي الوحيد بين هؤلاء المهيجين الصاخبين ، السخافة الجسيمة التي ارتكبت ، عندما ذكر امام المحكمة هذا الاتهام العديم المعنى ، الذي وجهه ولد في الثامنة من عمره الى امه ، وقد أملاه عليه خوفه وشعوره بالاجرام . فقال مغضبا ، « ان هيبرت هذا الابله ، كان يجب ان يزودها في آخر ساعة من حياتها بهذا النصر الذي يهتم له الجمهور » . لقد سئم روبسبيير منذ زمن بعيد هذا الرجل السخيف ، الذي لطخ قضية الثورة المقدسة بتراخيه المبتذل ، وسلوكه الفوضوي ، فقرر في نفسه ، في ذلك النهار ان يزيل هذه الفظاعة . وان الحجر الذي قذف به هيبرت ماري انطوانيت قد أصابه هو وجرحه جرحا مميتا . فكان عليه بعد بضعة اشهر أن يسلك ذات الطريق التي سلكتها ضحيته ، في العربة ذاتها ، ولكن ليس في شجاعة مثل شجاعتها ، ولسوف يبرهن عن قلة شجاعة الى درجة اضطرت رفيقه روبصان ان يصيح به « عندما كان العمل مطلوبا منك كنت تهذر ، فاعرف الآن كيف تموت . »

لقد أحست ماري انطوانيت بظفرها . ولكنها سمعت صوت متعجب بين الحضور يقول : « أرأيت ما أشد انفتها ! » فسألت وكيلها : « ألم اضمّن جوابي عظمة اكثرممايجب » ولكنه طمأنها بقوله : « كوني ذاتك يا سيدتي ، تكوني دائما على احسن ما يرام » . لقد توجب على ماري انطوانيت ان تكافح يوما آخر بكامله ، فالدعوى قد طالت طولا مضنيا انهك الحضور والقائمين بتمثيل الادوار معا ، ولكنها على الرغم من ان النزيف كان قد انهكها ، وانها لم تكن تأخذ سوى فنجان من المرق خلال تعليق الجلسة ، فان جلستها ظلت ثابتة معتدلة مثل عقلها . وقد كتب وكيلها في مذكراته فيما بعد : « ليتصور المرء ، اذا امكن ، كل رباطة الجاش التي كانت تحتاجها الملكة لتحمّل أتعاب

جلسة في مثل ذلك الطول ، وفي مثل تلك الفظاعة ، وانظار شعب بأسره تستهدفها ، وهي مضطرة الى ان تكافح وحوشا مولعة بالولوغ بالدماء ، وان تتقي كل الفخاخ التي كانوا ينصبونها لها ، وان تفند جميع اعتراضاتهم ، وتحافظ على جميع اللياقات ، وجميع المقاييس ، والا تتدنى عن مستواها .

لقد كافحت في اليوم الاول خلال خمس عشرة ساعة ، وفي اليوم الثاني اكثر من اثنتي عشرة ساعة عندما اعلن الرئيس اخيرا اختتام الاستنطاق ، وسأل المتهمة ما اذا كان لديها ما تضيفه دفاعا عن نفسها ، فأجابت ماري انطوانيت بأنفة :

« لم اكن أعرف الشهود أمس وكنت اجهل ما سيؤدونه من الشهادات ضدي ، ويسرني ان احدا منهم لم يتلفظ بأية واقعة ايجابية ضدي . انني اختم اقوالي ملاحظة بأنني لم أكن سوى زوجة لويس السادس عشر ، وانه كان علي ان امتثل لرغباته » .

فوقف فوكيه تنفيل عندئذ ولخص الاتهامات الرئيسية ، ثم أجاب وكيلا الدفاع بمرافعة فاترة : فقد تذكرا ، ولا ريب ، ان محامي لويس السادس عشر عوقب لانه تحيز للملك بشدة ، لذا فقد آثر اللجوء الى رأفة الشعب على الدفاع عن براءة ماري انطوانيت . واقتيدت المتهمة الى خارج القاعة قبل ان يسلم الرئيس هِرمَن الاسئلة الى هيئة المحلفين ، واختلى الرئيس بالمحلفين ، وقد تخلى عن كل تفخيم في اللفظ ، وتكلم بوضوح وايجابية ، وترك جانبا الاتهامات المتعددة المبهمة الجزئية ، واجمل كل المسائل في صيغة مختصرة . قال : « ان الشعب الفرنسي هو الذي يتهم ماري انطوانيت ، لان جميع الاحداث السياسية التي جرت منذ خمس سنوات تشهد ضدها . لذا فقد القى الاسئلة التالية :

أولا : هل ثبت وجود دسائس وتواطؤ مع الدول الاجنبية وغيرها من اعداء الجمهورية الخارجيين تهدف الى مدهم بالمساعدات المالية ، وتمكينهم من دخول الاراضي الفرنسية ، والمساعدة على تطوير اسلحتهم ؟

ثانيا : هل ثبت على ماري انطوانيت النمساوية ، أرملة لويس كابيه ، انها قد ساهمت في هذه الدسائس ، وانها قد تعهدت هذه المواطآت ؟

ثالثا : هل ثبت وجود تآمر سري ودسيسة يهدفان الى اضرام نار الحرب الاهلية داخل الجمهورية ؟

رابعا : هل ثبت على ماري انطوانيت النمساوية ، ارملة لويس كابيه انها اشتركت في هذا التآمر السري وفي هذه الدسيسة ؟

فوقف المحلفون في صمت وانسحبوا الى غرفة ملاصقة . كان الوقت

بعد منتصف الليل . وفي القاعة ذات التدفئة المفرطة حيث جرت المحاكمة منذ لحظات ، كان لهب الشموع يتذبذب ، وقلوب الحضور ترتجف فضولا وقلقـا .

سؤال عارض : كيف يتوجب على هيئة المحلفين أن يفصحوا عن افكارهم بكل عدالة ؟ لقد استبعد الرئيس في استنتاجاته الناحية السياسية من الدعوى وأعاد كل شيء بالنتيجة الى تهمة واحدة ، فلم يطلب الى المحلفين اذا ما كانوا يعتبرون ماري انطوانيت امراة مبذرة ، عديمة العواطف ، زانية ، مسافحة ، ولكن اذا كانت الملكة السابقة قد ارتكبت جريمة الاتصال بالاجنبي، وتمني الانتصار لجيوش الاعداء ، والتمهيد لها والعصيان داخل البلاد .

فهل ارتكبت ماري انطوانيت بالمعنى القانوني جريمة الخيانة ، وهل ثبتت عليها هذه الجريمة ؟ سؤال ذو حدين ، يتطلب جوابا مزدوجا . لقد كانت ولا ريب ــ وهنا كانت قوة الدعوى ــ مجرمة حقا من وجهة نظر الثورة. وكانت ، بصورة لا تقبل الجدل ، على علاقات مستمرة مع العدو مثلما نعرف ، وقد جعلت نفسها مجرمة فعلا بالخيانة العظمى عندما سلمت الى سفير النمسا خطط الهجوم العسكري الفرنسي ، وقد استخدمت وسهلت اية وسيلة شرعية كانت أو غير شرعية قمينة باعادة العرش والحرية الى زوجها .

فالاتهام اذا ثابت ــ ولكن نقطة الضعف في الدعوى ــ ان هذا الاتهام لم يقم عليه دليل مادي . فالوثائق التي تثبت ، دون اي التباس ممكن ، خيانة ماري انطوانيت العظمى للجمهورية قد طبعت اليوم واصبحت معلومة ، وهي موجودة في خزانة الآثار الوطنية في فيينا بين الاوراق التي خلفها فرسن . ولكن الدعوى جرت في باريس في السادس عشر من اكتوبر (تشرين الاول) سنة ١٧٩٣ ، وفي ذلك الوقت لم يكن في وسع المدعي العام الحصول على اي من هذه الاوراق . لم يكن بالامكان تقديم أي اثبات حسّي للخيانة المرتكبة امام اعين المحلفين .

وكان قمينا بهيئة محلفين شريفة وغير متحيزة ، ان تحتار في امرها ولا ريب . فاذا انقاد هؤلاء الجمهوريون الاثنا عشر الى غريزتهم كان من واجبهم ولا شك ان يحكموا على ماري انطوانيت لان كلا منهم كان مقتنعا بأن هذه المراة عدوة الجمهورية اللدود ، وانها قد قامت بكل ما تستطيعه ، تارة لاعادة السلطة الملكية الى زوجها ، وطورا للحفاظ عليها لابنها من غير ان تمس . ومع هذا ، فان الحق ، اذا ما نظر اليه حرفيا كان الى جانب المتهمة ، لان الدليل الحسي الراهن كان مفقودا . فمن حق هيئة الاتهام الجمهورية ان تعتبر

ماري انطوانيت مجرمة ، ولكن بوصف اعضائها محلفين اقسموا اليمين ، يتوجب عليهم التمسك بالقانون الذي لا يعترف بالخطأ غير المدعوم بدليل . ولقد تفادوا لحسن الحظ هذا النزاع الداخلي، لانهم كانوا يعلمون ان الجمعية الوطنية لا تتطلب منهم ابدا حكما عادلا. انها لم تنتدبهم ليقاضوا بل ليصدروا الحكم على امرأة عرضت امن الدولة للخطر . وعليهم اما ان يسلموا رأس ماري انطوانيت او ان يفرطوا برؤوسهم . ولم يكن المحلفون الاثنا عشر ليتناقشوا اذا الا شكليا ، واذا ما بدا عليهم وكأنهم يفكرون أكثر من دقيقة فما ذلك الا ليوهموا بوجود مناقشة حيث كان قد صدر الحكم ، في الحقيقة ، منذ زمن طويل .

وعاد المحلفون في الساعة الرابعة الى القاعة ، وكان ينتظر قرارهم صمت رهيب ، فأعلنوا بالاجماع ان ماري انطوانيت قد ارتكبت الجرائم التي نسبت اليها ، ودعا الرئيس هِرمَن الحضور – ولم يكن عددهم قد بقي كبيرا اذ ان التعب كان اقصى معظمهم – الىَ الامتناع عن اي هتاف ، عندئذ عادوا بماري انطوانيت (وكانت هي الوحيدة التي لا يحق لها أن تكون تعبة على الرغم من انها قد كافحت منذ الساعة الثامنة صباحا) فتلي عليها القرار . وطالب فوكييه تنفيل بعقوبة الاعدام فحصل عليها . وعندئذ سأل الرئيس المتهمة ما اذا كان لديها اي اعتراض تبديه .

أما ماري انطوانيت فقد أصغت دون ان تحرك ساكنا ، وبهدوء تام الى قرار المحلفين والى الحكم . فلم تبد عليها اية امارة خوف او غيظ او ضعف. ولم تجب على سؤال الرئيس بأية كلمة بل اكتفت بأن هزت رأسها سلبا . وخرجت من القاعة بدون ان تلتفت ، وبدون ان تنظر الى أحد وهبطت الدرج، وقد سئمت هذه الحياة ، وهؤلاء الناس ، مرتاحة في قرارة نفسها الى ان تشهد ختام هذه الاضطهادات الدنيئة ، عازمة في نفسها على ان تظل رابطة الجأش حتى اللحظة الاخيرة . وفجأة لم تعد عيناها المنهكتان تريان في المعبر المعتم ، ولم تعد قدمها تجد الدرجة فترددت وترنحت . فأسرع الملازم الاول للدرك دي بوسن ، الوحيد الذي تجاسر خلال المحاكمة على ان يقدم لها كوب ماء ، وقدم لها ذراعه ليسندها . فحمل عمله هذا ، بالاضافة الى امساكه قبعته بيده وهو يرافق المحكمة ، دركيا آخر الى شكايته فورا ، وكان جوابه في الدفاع عن نفسه :

« لقد لجأت الى هذا الاحتياط لاجنبها الوقوع ، ان اصحاب الذوق السليم لا يمكنهم ان يروا في ذلك اية مصلحة لانها اذا ما وقعت في الدرج ، لكانوا قد نادوا بالتآمر والخيانة . »

ولقد أوقف وكيلا ماري انطوانيت ايضا في نهاية المحاكمة ، وفتشا خشية ان تكون قد عهدت اليهما بنقل رسالة سرية . مساكين انتم ايها القضاة ! ما زلتم تخشون نشاط هذه المرأة الذي لا يقهر في حين انها قد اصبحت على قاب قوسين من القبر او ادنى . ولكن المخلوقة التي أثارت هذا الخوف وهذا القلق ، هذه المرأة المسكينة المصابة بفقر الدم ، المضناة ، كانت تجهل كل هذه الازعاجات الدنيئة ، وقد عادت الى سجنها هادئة مفوضة امرها لله . وبعد ساعات قلائل ستكون نهاية مطاف حياتها .

وكان هناك في غرفتها شمعتان موقدتان : انها آخر منةٍ تسدى اليها : اذ سمح لها بألا تقضي في الظلام تلك الساعات القلائل التي تسبق ليلتها الابدية . وبقي لها رجاء ، لم يكن يجرؤ السجّان المفرط الحذر ان يقاومه . لقد سألته ماري انطوانيت ورقا وحبرا لتكتب رسالة ، وقد أرادت ان توجه من اعماق وحدتها الفاجعة كلمة أخيرة الى أولئك الذين يهتمون بمصيرها . فأحضر لها السجان ما ارادته ، وعندئذ وقد اخذت اضواء الفجر الاولى تتسرب خلال نوافذ حجرتها المشبكة ، استجمعت قواها الاخيرة واخذت تكتب آخر رسالة لها .

قال جوته في مكان ما ، في موضوع الكلمات الاخيرة التي خطّتها قبل موتها ، هذه الكلمة الرائعة : « في نهاية الحياة تغدو الافكار العديمة الشكل سابقا ، واضحة في العقل ، فاذا بها عبقريات مباركة لامعة تحط على قمم الماضي . »

كانت شعلة خفية تضيء رسالة المحكومة هذه الاخيرة ، ولم يسبق لماري انطوانيت قط ان اجملت أفكارها بمثل هذه القوة ، وبمثل هذا الوضوح الا في هذا الوداع لمدام اليزابيت التي كانت تحرس آنئذ اولادها . ان الكلمات الرجولية الواردة في الكتاب الذي خطته على طاولة السجن الحقيرة لاقوى واشد وثوقا من كلمات جميع الرسائل التي صدرت عن مكتبها المذهب في التريانون : فلسفتها انقى ، والعاطفة فيها أكثر مبادهة . لكأن العاصفة الداخلية ، وقد أثارها الموت ، بددت كل الغيوم المزعجة التي طالما حجبت بصورة محتومة عن أنظار هذه المرأة المسكينة رؤية عمقها الذاتي . لقد كتبت ماري انطوانيت تقول :

« هذه رسالتي الاخيرة أكتبها اليك يا أختي . لقد حكم علي الآن ليس بموت مخزٍ ، كما يعتبره المجرمون ، ولكن بموت يلحقني بشقيقك . انني آمل ، وأنا البريئة مثله ، ان أبرهن عن رباطة الجأش ذاتها التي أبداها في لحظاته الاخيرة ، أشعر بالهدوء الذي يتمتع به أولئك الذين لا يجد ضميرهم

ما يؤنبهم عليه . ما أمرّ حسرتي لمغادرة اولادي المساكين ! تعلمين انني لم أكن أحيا الا لاجلهم وأجلك يا أختي الحنون . في اية حالة أتركك ، انت التي اهابت بك محبتك الى التضحية بكل شيء لتكوني معنا ؟ لقد علمت من مرافعات الدعوى ان ابنتي قد فصلت عنك . أواه ! يا للفتاة المسكينة ! انني لا أجسر على الكتابة اليها ، فهي لن تتلقى كتابي ، حتى انني لا أعلم اذا ما كان كتابي هذا سيصلك . تقبلي بركتي لكليهما ، آمل ان يتمكنا بعد ان يكبرا من الاجتماع بك والتمتع التام بلطفك الرقيق . ليفكرا كلاهما فيما لم انفك أوحيه اليهما : وهو ان المبادىء ، والقيام التام بالواجبات أساس الحياة الاول ، وان محبة الواحد منهما للآخر ، والثقة المتبادلة فيما بينهما تخلقان لهما السعادة . فلتشعر ابنتي ان عليها ، في سنها هذه ، ان تساعد أخاها دائما بالنصائح التي يلهمها اياها حبها له ، والتجارب التي اكتسبتها اكثر منه ، وليقدم ابني بدوره لشقيقته كل العناية والخدمات التي يمكن ان تلهمه اياها المحبة . وأخيرا ، فليشعر كلاهما ، انهما في اية حالة كانا ، لا يمكن ان يسعدا فعلا الا باتحادهما ! ليتخذا منا قدوة . فما أعظم العزاء الذي منحتنا اياه محبتنا في نكباتنا ! وليشعرا كذلك أن الانسان ليتمتع بالسعادة مضاعفة اذا ما شاطرها احد احبائه . وفي أي مكان يستطيع المرء ان يجد حبيبا أرق عاطفة واكثر اتفاقا في الراي معه أفضل من أسرته بالذات ؟ ليذكر ابني دائما كلمات أبيه الاخيرة التي أتعمد ترديدها هنا عليه : لا تحاول قط الثأر لموتنا .

علي ان أحدثك عن شيء يحزّ في قلبي . انني أعلم شدة الحزن التي لا بد ان يكون قد سببه لك الولد ، سامحيه يا أختي العزيزة ، فكّري في سنّه ، وفي مدى السهولة في حمل ولد على ان يقول ما يراد منه قوله ، وحتى ما لا يفهمه . أرجو ان يأتي يوم يشعر فيه شعورا أفضل بقيمة لطفك وحنانك نحو الاثنين .

بقي علي ان ابوح اليك بأفكاري الاخيرة . كنت أوثر ان أكتبها منذ ابتداء الثورة ، ولكن فضلا عن انهم لم يكونوا يدعونني اكتب ، كان سير الدعوى سريعا الى درجة انني لم أكن لاجد في الحقيقة وقتا للقيام بذلك .

أسأل الله غفرانا لجميع الآثام التي يمكن ان أكون قد اقترفتها منذ ان عاينت الوجود ، آمل ان يتقبل في لطفه أدعيتي الاخيرة ، والادعية التي أرفعها منذ زمن طويل ليتقبل نفسي في فسيح رحمته . اسأل جميع الذين أعرفهم ، وأسألك انت ايضا بنوع خاص ، مغفرة لكل الآلام التي أكون قد سببتها لهم . انني أغفر لاعدائي كل اساءاتهم الي . أودع عماتي وجميع اخوتي واخواتي . كان لي أصدقاء أشد حسرة من الحسرات التي أحملها

معي الى القبر فكرة الافتراق عنهم فراقا ابديا ، وآلامهم . فليعرفوا ، على الاقل ، انني ما برحت أفكر فيهم ، حتى اللحظة الاخيرة .

وداعا يا أختي اللطيفة الحنون ، عسى ان يصلك هذا الكتاب ! فكّري دائما فيّ . أعانقك والولدين المسكينين العزيزين من كل قلبي . رباه ! ما اقسى فراقهما الى الابد ! وداعا ، وداعا ! »

هنا توقفت الرسالة فجأة ، بدون صيغة ختامية وبدون توقيع . لا ريب في أن الاعياء يمكن ان يكون قد تغلب على ماري انطوانيت . أما الشمعتان فقد كانتا ما تزالان موقدتين ، وربما عاش لهيبهما المتذبذب أطول مما ستعيشه السجينة .

ولم يعلم بهذه الرسالة الصادرة عن الظلام أغلب الذين خصوا بها . فقد سلمتها ماري انطوانيت الى السجان « بولت » قبل وصول الجلاد ببرهة قصيرة ، ليعمل على ايصالها الى شقيقة زوجها . ان بولت هذا كان يملك قدرا كافيا من الانسانية حمله على اعطائها ورقا وريشة ، ولكنه لم يكن يملك الشجاعة الكافية لنقل هذه الوصية بدون ترخيص (فكلما رأى المرء رؤوسا تسقط حوله خاف على راسه من السقوط) لذا فقد سلم الرسالة ، وفقا للانظمة ، الى فوكييه تنفيل ، الذي وقع عليها امضاءه المختصر ، والذي لم يسلمها هو بدوره الى احد . وعندما ركب فوكييه تنفيل نفسه بعد مرور سنتين على ذلك ، في العربة التي طالما ارسلها الى المعتقل لكثيرين غيره ، اختفت الرسالة ، ولم يعلم بوجودها او يَرْتَبْ فيه أحد في العالم سوى رجل تافه كل التفاهة يدعى كورتوا . كان هذا النائب العديم الاهلية والشهرة قد تلقى أمرا من الجمعية الوطنية ، بعد توقيف روبسبيير ، بتخيّر الاوراق التي خلفها هذا الاخير وبنشرها . فقدّر ، صانع القباقيب القديم هذا ، السلطة التي يحوزها من يمتلك أوراق الدولة السرية : فأخذ عندئذ جميع النواب الفاسدين يدورون حول كورتوا القصير ، الذي كادوا لا يلقون عليه السلام في السابق ، ويقطعون له الوعود الجنونية ، اذا ما تمكن من ان يعيد اليهم الرسائل التي كانوا قد وجهوها الى روبسبيير . فقال كورتوا في نفسه لا بد ان يكون عملا ممتازا الاحتفاظ بأكبر كمية ممكنة من أوراق هؤلاء «الابطال» . واغتنم فرصة البلبلة العامة لينهب ملفات محكمة الثورة ويتاجر بها ، غير انه احتفظ برسالة ماري انطوانيت التي عثر عليها بهذه المناسبة ، وهو يقول : « من يدري ما هو الغنم الذي يمكن الحصول عليه ، اذا ما انقلبت الريح ، من وثيقة قيّمة كهذه ؟ وهكذا اخفى سرقته عشرين سنة . وبالفعل فقد انقلبت الريح ! لقد أعيدت الملكية ، واعتلى عرش فرنسا لويس الثامن عشر ، وأحس

قتلة الملوك القدماء بأعناقهم تحكّهم حكّا عنيفا . فقدّم كورتوا الى الملك الجديد ، بغية نيل حظوته ، رسالة ماري انطوانيت التي « أنقذها » ، ضمن رسالة مشحونة بالنفاق . ولكن حيلته الحقيرة لم تفلح ، فحكم عليه بالنفي مثل سائر الآخرين . وهكذا ابصرت هذه الرسالة النور ، بعد ان انقضى على ارسالها احدى وعشرون سنة . لقد جاء ذلك متأخرا جدا ! فجميع الذين توجهت اليهم ماري انطوانيت بالوداع ساعة الموت كانوا قد زالوا من سِفر الحياة : فالسيدة اليزابيت كانت قد لحقت بها الى المقصلة ، وابنها قد لقي حتفه في سجن الهيكل ، الا اذا كان قد تاه في أحد أرجاء الدنيا مجهولا وجاهلا نفسه . وفكرة الحب التي كانت في طريقها الى « فرسن » لم تبلغه ايضا . لم يكن في الرسالة أية كلمة تقصده ، ومع ذلك ، فالى اي امرىء آخر يمكن ان تكون قد وُجهت الاسطر التالية التي يهزّها التأثر العاطفي : « كان لي اصدقاء أشد حسرة من الحسرات التي أحملها معي الى القبر ، فكرة الافتراق عنهم فراقا أبديا ، وآلامهم » . كان الواجب يمنع ماري انطوانيت من ان تسمي للناس أعز شخص لديها على الارض ، ولكنها كانت تأمل ان يرى يوما هذه الاسطر ، فيعلم هذا العاشق ، من خلالها ، انها أحبته حتى النَفَس الاخير حبا لا يتزعزع . يا للتهاتف العاطفي الذي تكتنفه الاسرار ! كأن فرسن قد قدّر هذه الحاجة التي كانت تحس بها بأن تكون معه في الساعة الاخيرة من حياتها . وكأنه قد أجاب على نداء سحري اذ جاء في جريدته عند تلقي النبأ الفاجع : « ... ان أشد ألم من آلامه كان تفكيره في انها كانت وحدها في لحظاتها الاخيرة ، لا يعزيها وجود أحد بالقرب منها ، تستطيع التحدث اليه » .

لقد اتحدت نفساهما اللتان تفصلهما مئات الفراسخ ، واللتان تعجز الواحدة منهما عن رؤية الاخرى والوصول اليها ، في رغبة مشتركة ، في ذات الوقت . والتقت فكرتاهما في الفضاء الذي لا يدرك ، ما وراء الزمن مثلما تلتقي شفتان في قبلة . اما ماري انطوانيت فقد وضعت اليراع جانبا ، وقد أنجزت أشق عمل اذ ودّعت الجميع وكل شيء . واستلقت آنئذ لبضع دقائق تستجمع آخر قواها . ولم يبق لها شيء ذو بال تقوم به في هذه الدنيا، لم يبق لها الا ان تموت ميتة نبيلة .

٤٠ ـ الرحلة الاخيرة

في الساعة الخامسة صباحا ، وبينما كانت ماري انطوانيت ما تزال تتابع الكتابة ، ابتدأت طبول النداء تقرع في قطاعات باريس الثمانية والاربعين. وفي الساعة السابعة صباحا كانت القوى المسلحة وقوى المشاة بأجمعها على اهبة الاستعداد . وسدت الطرق الرئيسية والجسور بمدافع على اهبة الانطلاق . وفيما تمركزت قوى الفرسان متجمعة في صفين متقابلين ، كانت شراذم من الحرس تجتاز المدينة طولا وعرضا مشرعة السلاح . ولقد عبئت كل هذه القوى العسكرية لمجابهة امراة وحيدة ، ما كانت لترغب بشيء سوى الموت ! ان القوة أحيانا تخاف ضحيتها أكثر مما تخافها الضحية .

ودخلت خادمة السجن بهدوء ، الى زنزانة ماري انطوانيت ، في الساعة السابعة صباحا ، وكانت الشمعتان ما تزالان موقدتين على المنضدة . وكان ضابط الحرس جالسا في ركنه كشبح متيقظ . وذعرت هذه في البدء اذ لم تلحظ ماري انطوانيت ، ثم شاهدتها ممددة على سريرها ، دون ان تخلع عن جسمها ثوب الحداد الاسود ، ومفتحة العينين .

كانت الريفية الصغيرة تهتز شفقة على المحكوم عليها بالاعدام ، شفقة على الملكة .. فخاطبتها والتأثر يغلب عليها قائلة : سيدتي ! انك لم تأكلي شيئا البارحة ، فهل ترغبين بتناول شيء هذا الصباح ؟ فأجابتها ماري انطوانيت دون ان تتحرك من مكانها : ليست بي حاجة الى شيء يا بنيتي ، فقد انتهى كل شيء بالنسبة الي . ولكنها انتهت بالقبول بعد أن أصرت الخادمة بتصميم على جلب بعض الحساء ، الذي هيأته خصيصا لها . وتناولت منه عدة ملاعق ، ثم ساعدتها الفتاة على تغيير ثوبها الاسود ، وكانت قد أوصيت بخلع ثوب الحداد عنها عند التوجه الى المقصلة ، وذلك تجنبا لاستثارة الشعب . ولم تبد ماري انطوانيت أية مقاومة لهذه الرغبة اذ أصبح الامر سيان لديها ، وقبلت بارتداء ثوب خفيف أبيض .

ولكنهم كانوا قد أعدوا لها اذلالا مهينا أخيرا ، فانها كانت تنزف كثيرا من الدم ، وباستمرار ، خلال محيضها في الايام الاخيرة ، فأرادت حينئذ تغيير أرديتها الداخلية ، حتى تواجه الموت ــ وهذه رغبة طبيعية ــ وهي نظيفة ، ولكن السجان ، الذي كان قد تلقى الامر بعدم رفع النظر عنها دقيقة واحدة ، أعلن لها انه لا يستطيع مغادرة مركزه . وهكذا اضطرت ماري انطوانيت لان تجثو في الممر لتنضو عنها قميصها الداخلي . وتأثرت الخادمة فوقفت أمامها مشفقة .. لتحجب جسدها العاري . ولكن ما العمل بالقميص الملطخ بالدم

النسوي ؟ . . واحست كامرة بالخجل من ترك ردائها الداخلي المتسخ أمام انظار هذا الرجل الغريب ، ومعرضا لانظار الفضوليين الذين سوف يأتون بعد بضع ساعات لاقتسام أسمالها ، فكورته وجعلت منه حزمة صغيرة دستها في فجوة في الحائط خلف المدفأة .

وأخيرا ارتدت ماري انطوانيت ثيابها ، وأولت ذلك اهتماما خاصا ، لا لسبب البهرجة النسائية ، ولكنها أحست بمهابة هذه الساعة التاريخية ، وارادت ان تكون مرتدية ثيابا نظيفة ملائمة هذه المرحلة الاخيرة ، ولم تكن قد رات السماء أو وضعت قدمها في شارع منذ عام كامل . فركزت ثوبها على جسمها بعناية ، ولفت عنقها بوشاح من الموسلين الخفيف ، واختارت خير أحذيتها ، ثم وضعت على راسها قبعة ذات طرفين خبأت شعرها الابيض.

وقرع الباب في الساعة الثامنة ، ولكنه لم يكن الجلاد ، بل ذلك الذي يسبقه عادة ، اي القس الذي جاء ليتقبل اعترافها . ولكنه كان من هؤلاء القسس الذين اقسموا يمين الولاء للجمهورية . فاعتذرت اليه بأدب وصرحت له بأنها لا تعترف الا بالقسس غير المحلفين خدما لله . وأجابته عندما طلب منها مرافقتها الى ساحة الاعدام ان يفعل ما يشاء .

كان هذا الثبات الظاهري، الحاجز الوحيد الذي تحشد ماري انطوانيت وراءه قواها الاخيرة. فقد ارادت ان تبدي للملأ كيف تموت ابنة ماري تيريز ، وان تنقذ ما لم يعد بامكانها انقاذ سواه : شرفها . . فلم تبد أية مقاومة عندما جاء الجلاد العملاق (سامسون) لقص شعرها وتركته يعقل يديها خلف ظهرها .

وفتحت أخيرا ابواب السجن في الساعة الحادية عشرة ، ووقفت أمامها العربة التي كانت تنقل المحكومين الى ساحة الاعدام ، وهي عربة خشبية حقيرة تغطيها خريقات مهلهلة ويجرها حصان ضخم . وكان لويس السادس عشر قد نقل الى المقصلة في عربة مقفلة تحميه نوافذ زجاجية من فضول المتطفلين وحقدهم ، وعومل باحترام . ولكن الثورة المندفعة بهياج كانت قد قطعت شوطا من الطريق منذئذ ، فأرادت تحقيق المساواة بين جميع من ينفذ فيهم حكم الاعدام دون مراعاة في المعاملة ، وقد سيق هؤلاء الذين أرسلوا (الارملة كابيه) الى المقصلة ، في نفس العربة ، وعلى نفس المقعد الخشبي الحقير فيها، بعد حين من الزمن الى رحلتهم الاخيرة، وتقدمت ماري انطوانيت بزمن يسير (روبسبيير) و (مدام رولان) و (دانتون) و (فوكييه) و (هيبر) وكل قضاتها .

وخرجت ماري انطوانيت من بوابة السجن المعتمة تتقدمها فصيلة كاملة

من جنود الحرس بكامل سلاحهم ، ويتلوها الجلاد (سامسون) قابضا على طرف الحبل الذي غللوا به يديها خلف ظهرها ، وكأنه يخشى أن تفلت منه فريسته على الرغم من مئات الحراس والجنود الذين يحيطون بها . . ودهش الجمهورُ لهذا الاذلال غير المفيد وغير المنتظر ، فلم يقابلها بصيحات السخرية المعتادة . وساعدها الجلاد العملاق على الصعود الى العربة وتبعها اليها واقفا ممسكا بطرف الحبل ، بينما جلس القس الى جانبها بثيابه المدنية . تقدمت العربة البائسة في الشوارع ببطء ، ذلك لانهم أرادوا امتاع الجميع بهذا المنظر الفريد ، وكانت تحس ، فوق مقعدها الحقير الصلب بكل اهتزازات العربة . ولكنها جلست شامخة الراس حمراء العينين دون ان ينم وجهها الشاحب عن اي خوف أو الم . وجمعت كل ما تبقى في روحها من قوى لكي تتجاهل كل شيء ولا تسمع شيئا ، وعبثا حاول اشد أعدائها ضراوة العثور في وجهها على اثر للضعف أو اليأس . واحتفظت برباطة جأشها حتى عندما مرت أمام النسوة اللواتي تجمعن أمام (سان روك) فواجهنها بسيل من الشتائم والاقذاع . وعندما مر الى جانبها الممثل الهزلي (كرامون) مرتديا ثياب الحرس الوطني على حصانه فاستل سيفه وصاح لكي يبعث شيئا من الحياة في هذا المشهد الرهيب : « ها هي الفاسقة انطوانيت اخيرا ، انها سوف تصبح عما قليل جيفة ايها الاصدقاء » ، احتفظ وجهها بطابعه الفولاذي كأنها لم تلحظ شيئا. وكانت ــ وقد ازداد رأسها شموخا لكون يديها وراء ظهرها ــ تنظر امامها باستقامة دون أن ترى شيئا من الالوان والصور التي تتابعت امامها اذ سيطر الموت ، منذئذ ، على أعماق نفسها فلم يطرف لها جفن ، ولم يهتز منها طرف . وظلت حتى نهاية رحلة العربة سيدة نفسها ، شامخة مترفعة ، واعترف لها بذلك حتى الزعيم الثوري المتطرف (هيبر) عندما كتب في جريدته (بيير دوشين) في اليوم التالي : « لقد احتفظت الخليعة بوقاحتها وعجرفتها حتى النهاية » .

وكان الرسام الكبير لويس دافيد ينتظر الموكب في ركن شارع سانت اونوريه حيث يوجد الآن مقهى (ريجانس) ، وعلى الرغم من وضاعة اخلاق هذا الرجل ، وتقلبه مع من بيدهم الامر ، كان يمتلك يدا عبقرية . فخط في دفتره لوحة حية لماري انطوانيت في عربة الموت خلّد فيها بصورة فذة رائعة توحي بالرهبة والعظمة ، وجهها الذي فقد جماله وهرم ، ولكنه احتفظ بكبريائه وعنفوانه ، وقد اغلقت فمها بترفع ، وكأنما لتمنع صرخة من أن تنطلق من اعماقها ، وملئت عيناها بنظرة غريبة لامبالية . ولقد بدت مستقيمة العود ، متسامية في عربة الجلاد والحبل يغلل يديها خلف ظهرها ، وكأنها ما

تزال جالسة على العرش . تقاطيع وجهها بأسرها تنطق باحتقار لا يوصف ، وكتفاها المحدودبان يعبران عن عزيمة لا تتزعزع . وأما وجهها المعذب فقد منحه الالم الذي انقلب الى قوة روحية ، والاستسلام للقدر الذي تجسم في ترفع شامخ ، منحه جلالة جديدة مذهلة . ولم يستطع الحقد نفسه أن يتجاهل في هذه الخطوط التي رسمت على الورق النبالة التي انتصرت بها ماري انطوانيت على مذلة عربة الجلاد .

ولقد غصت ساحة الثورة ـ وهي اليوم ساحة الكونكورد ـ بالناس حتى بدت سوداء ، فألوف المتجمهرين ينتظرون منذ الصباح هذا المشهد الفريد ليروا حسب تعبير الثوري هيبر « كيف تمر ملكة تحت السكين الوطنية » ، وكانوا يتسلون انتظارا لهذا المشهد ، بالمرطبات وبالجرائد والرسوم الكاريكاتورية والمنشورات مثل «وداع الملكة لعشاقها وعشيقاتها».

وكان ينتصب فوق رؤوس هذه الحشود الفاصة السوداء شبحان شديدا الصلابة : أولهما المقصلة التي بدت منتصبة القامة تلمع سكينها ـ المشحوذة حديثا ـ بألوف الاضواء تحت اشعة شمس تشرين الاول ، تطير فوقها العصافير لاهية جاهلة ما يجري تحتها ، كأنها العوبة نسيها إله قاس . والى جانبها الشبح الثاني : تمثال الحرية العملاق منتصبا فوق القاعدة التي كانت تحمل فيما سبق تمثال لويس الخامس عشر ، ومشرفا على المقصلة والحشود من علٍ ممثلا إلهة الحرية الشامخة منتضية سيفها ، تتأمل بصمت، وعيناها تنظران الى ما وراء الزمن والحشود ، الى المجهول ، متجاهلة كل ما يرتكب باسمها .

وارتفعت فجأة همهمة عالية ، ثم عاد الصمت فأطبق على الجمهور الغفير الذي حول انتباهه الى ملتقى شارع سانت انوريه مع ساحة الثورة حيث وصلت فصيلة الحرس ، ووراءها العربة المشؤومة ، وقد اعتلاها الجلاد ممسكا بالحبل الذي يغلل يدي ضحيته وراء ظهرها . وساد سكون رهيب تمركزت خلاله الابصار بأجمعها على هذه المرأة الشاحبة المغلولة اليدين التي لم تكن ناظرة الى أحد أو شيء . مدركة أن هذه محنتها الاخيرة ، ولا شيء بعدها سوى ما سيذكره التاريخ . وتوقفت العربة أمام المقصلة وخرجت منها ماري انطوانيت ثم صعدت درجات المقصلة رافضة كل مساعدة ، وكان يبدو عليها هدوء وثبات يزيدان ايضا من هدوئها صباحا لدى خروجها من السجن. لقد صعدت درجات المقصلة منتعلة حذاء من الساتان ذا كعب عال بنفس الخطى الرشيقة التي كانت تصعد بها في الماضي درجات سلالم قصر فرساي المرمرية . والقت نظرة أخيرة الى ما وراء الجموع الغفيرة ، ولعلها جالت في

مخيلتها حينئذ صورة الاستقبال الشعبي الحماسي الذي تلقته في حديقة التويلري اثناء زيارتها الاولى لباريس ، أو ربما هذا القصر الذي سكنته وعرفت فيه كثيرا من العذاب ، ولكن كل شيء قد انتهى الآن وقد امسك بها الجلادون من الخلف ورموها سريعا على لوحة المقصلة ووضعوا عنقها تحت المقطع ، ثم سحبوا الحبل فهوت السكين من حالق وهي ترمي بالشرر . ثم أحدثت صوت اصطدام مكتوم . وامسك سامسون حالا بالراس المقطوع الدامي من شعره ورفعه عاليا فوق الساحة . فدوى صراخ الجمهور بعنف « عاشت الجمهورية » .

وهدأ الجمهور اخيرا واخذ بالتفرق ، فقد حلت الظهيرة وحان وقت العودة الى بيوتهم لتناول طعام الغداء . ولم يكن ثمة داع للبقاء أو التمهل ، فانهم كانوا يعلمون أن سيكون باستطاعتهم مشاهدة مثل هذا المنظر مرات ومرات خلال الايام التالية .

وبعد لحظات قليلة تفرق الجمهور وحمل جسم المراة في نقالة صغيرة ، وقد القي راسها بين ساقيها ولم يهتم أحد بالدم الذي كان يسيل من شقوق ركيزة المقصلة فتتشربه الارض .

واقفرت الساحة اخيرا ــ الا من بعض الجنود لحراسة المقصلة ــ ولم يبق فيها سوى إلهة الحرية وحيدة جامدة منتصبة فوق رخامها الابيض وعيناها ما تزالان تنظران بعيدا الى ما وراء اعمال الشر السخيفة الوحشية ، متابعة تجاهلها لكل ما يجري أو يرتكب باسمها .

انتهـى

هـذا الكتاب

● يروي هذا الكتاب قصة عصر عصفت فيه الأهواء السياسية، فتدحرجت رؤوس، وتأرجحت جسوم في الفضاء، وقُدّمت رقاب تحت شفار المقصلة. وكان الملك لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت في طليعة الضحايا التي قُدمت على مذبح الثورة.

● وكاد يمر قرنان أسدل خلالهما الصمت على أغرب شخصيّة نسائية، هي الملكة ماري أنطوانيت، حتى جاء هذا الكتاب فكشف النقاب عن حقيقة هذه المرأة، وعن علاقاتها الغرامية، وعن أفظع تهمة نُسبت الى أم فحوكمت بسببها وهي ممارستها الحب مع ولدها.

● وينفذ مؤلف هذا الكتاب الى الأسباب العميقة للثورة، فيصف بقلم ساحر الأحقاد التي أخذت تحرك الطبقات الشعبية لتدفعها في تيــار العنف الدموي الصاخب. ثم يتصدّى لشخصيات زوّرها التاريخ فيكشف عن وجهها بجرأة نادرة برقع البطولة، وفي طليعة هذه الشخصيات ميرابو الذي دعي أسد الثورة وخطيبها المفوّه.

● ومؤلف هــذا السفر الضخم هو من أشهر كتّاب القصة والسيرة التاريخية في العالم، ولقد تُرجم مؤلفه هذا الى جميع اللغات الحيّة. وهذه هي ترجمته العربية الأولى منقولة في بيان مشرق وتحقيــق أمــين.

دار أسامة

دمشق - مجمّع فكتوريا التجاري - تلفون: ٢٢٣٢٣٢٦ - فاكس: ٢٢٤٨١٨٠ - ص.ب ٤٣٠٦